الثورة والتنمية والتحديث
(دراسة عن تجربة العراق الثورية في مجالات التنمية والتحديث)

بقلم : الدكتور احسان محمد الحسن

قسم الاجتماع ، كلية الآداب ، جامعة بغداد :

إن أبرز ما يميز الثورات الناجحة هو انبثاقها من غمار واقعها الخاص وقدرتها على التقاط المؤشرات الهامة في حركة هذا الواقع وتحقيق الانتصار على معوقات تحركه وتطوره إلى أمام ومن ثم اتخاذ الاجراءات الكفيلة بتغييره وتطويره بالاتجاه الذي يحقق تحولاً نوعياً في حياة المجتمع الذي تنبثق منه الثورة ، وهذا التحول يشمل كافة الميادين الاقتصادية والسياسية والثقافية . وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لثورة السابع عشر من تموز القومية الاشتراكية. فالثورة أدت إلى تبديل أنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية للمواطنين كافة وبدلت بنى المجتمع التحتية والفوقية بطريقة مبرمجة ومخططة ومستوحاة من أفكار وتعاليم وممارسات وأهداف الحزب القائد حزب البعث العربي الاشتراكي . غير أن التحولات الجذرية التي مرّ بها المجتمع خلال عصر الثورة لم تحدث إلا بعد قيام القيادة السياسية بتهيئة عدة متغيرات اجتماعية وحضارية وانسانية كان لها الفضل الكبير في توجيه مسيرة المجتمع نحو الأطر والاستراتيجيات التي رسمتها القيادة لتحقيق التقدم والتطور والتنمية والنهوض . فالثورة ضمنت للقطر الاستقلال والتحرر السياسي وخلصته من التبعية الاقتصادية والسياسية التي كانت مفروضة عليه خلال العهود الاستعمارية والديكتاتورية والرجعية . وكرست القيم والممارسات الديمقراطية والشعبية وبادرت على تنمية القطر وتصنيعه وتحديثه في شتى المجالات ، ونشرت الثقافة والتربية والتعليم بين المواطنين ، ونشرت مبادىء تكافؤ الفرص الاجتماعية وتخفيف الفوارق

الطبقية وتحرير المرأة من القيود الاجتماعية البالية التي كانت مفروضة عليها ومساواتها مع الرجل في الواجبات والحقوق ، وحققت المكاسب الكثيرة للطبقة العمالية والفلاحية ودافعت عن حقوقها المشروعة . وأخيراً حفزت المواطنين على تحقيق التوازن بين نشاطات العمل ونشاطات الفراغ واستثمار الأوقات الحرة في ممارسة نشاطات الفراغ والترويح والابداع التي تطور شخصياتهم وتزيد من كفاءاتهم في أداء مهام العمل والانتاج .

قبل شرح وتحليل أثر الثورة العراقية في تنمية وتحديث القطر في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والانسانية ينبغي علينا تحديد المفاهيم العلمية لمصطلحي التنمية والتحديث . التنمية هي أحداث تغييرات جوهرية في الهياكل والبنى التحتية والفوقية للمجتمع أي الهياكل والبنى المادية وغير المادية . والتغييرات في الهياكل البنيوية للمجتمع تكون مدروسة ومبرمجة ولها وسائل وخطط واستراتيجيات مركزية ومتفق عليها من قبل المسؤولين . وعملية التنمية الناجحة تحتاج إلى أموال طائلة تستثمر في المشاريع التنموية التي تعطى لها الأفضلية وموارد وجهود بشرية جبارة وقدرات تنظيمية وادارية وأوقات طويلة . والتنمية لا تنصب على الجانب الاقتصادي من النشاط الانساني فحسب بل تتناول الجوانب الاجتماعية والسياسية والثقافية والخلقية والاسرية. وهذا معناه بأن قطاعات وأجهزة المجتمع وما تؤثر عليها من أحكام وقوانين وضوابط سلوكية وأخلاقية معرضة للتنمية والتطوير وذلك من خلال تحولها من شكل لآخر . أما التحديث (Modernization) الذي هو عملية مادية واجتماعية وحضارية فإنه يتعلق بالتنمية طالما أن التنمية ترمي إلى التحديث أي تجديد القوى والامكانات والمؤسسات البنيوية وما يرافقها من عادات وتقاليد وأحكام وقوانين تحدد أنشطتها ومساراتها الوظيفية والتحولية . إن التحولات الاقتصادية في المجتمع كتحول الاقتصاد من زراعي اقطاعي إلى صناعي اشتراكي تستلزم تحديث بقية المؤسسات الاجتماعية التي تتفاعل مع البنى الاقتصادية وتحديث الأفكار والقيم والممارسات التي تهيمن على حياة الانسان وجوانبها المختلفة .

الثورة والتنمية الاجتماعية :

تعتبر مسألة التنمية مسألة مركزية بالغة الأهمية ، وهي تبرز في مجتمعنا العراقي وفي المجتمعات المماثلة على أنها القضية الأولى بعد الاستقلال السياسي والاقتصادي والقضية الأكثر الحاحاً والتي تتطلب حلولاً عاجلة وشاملة ، وقد أدرك حزب البعث العربي الاشتراكي أهمية التنمية بالنسبة لتطور البلاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي وأولاها اهتماماً كبيراً ووضع كل ما تيسر من الامكانات المادية والبشرية في سبيل التعجيل بها في كافة القطاعات والمرافق . واهتمت قيادة الحزب والثورة في القطر العراقي بمسيرة التنمية ولاحقت تطورها بنفسها سواء على الصعيد العام أم التفصيلي[١] . ولم يقتصر ذلك الاهتمام على الجوانب الاقتصادية للتنمية فقط ، بل تم تركيز خاص على الجوانب الاجتماعية أيضاً إدراكاً منها بأن عملية التنمية هي عملية شاملة تمس القطاعات الانتاجية والقطاعات الاجتماعية والانسانية والقيمية في آن واحد حيث أن المؤسسات البنيوية للمجتمع مكملة الواحدة للأخرى ، وأن أي تغيير في احداها لا بد أن يترك آثاره وانعكاساته على المؤسسات الأخرى[٢] . كما أن تنمية القطاع الاقتصادي يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تنمية القطاع الاجتماعي والحضاري طالما أن هناك علاقة متفاعلة بين الجوانب الاقتصادية والجوانب الاجتماعية والحضارية للمجتمع . فالتقدم الاقتصادي الذي لا يرافقه تقدم اجتماعي وانساني مماثل لا يمكن أن يكتب له النجاح نظراً لكون التقدم الاقتصادي يعتمد عادة على قاعدة اجتماعية وحضارية تدعم حركته وتحدد طبيعته وترسم اتجاهاته وتمنحه زخماً وفاعلية وداينميكية وتؤمن استقراره ونجاحه في المجتمع[٣] .

إن ظاهرة التنمية هي ظاهرة مادية واجتماعية وحضارية معقدة تمتد جذورها إلى البنية الاجتماعية برمتها وتتأثر بعوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية متشعبة وتؤثر على التراكيب المادية والحضارية في المجتمع بصورة متكافئة يمكن قياسها وتخمين أبعادها وفي نفس الوقت ضبط زخمها واتجاهاتها وانعكاساتها بطريقة تسبب تقدم

وتطور المجتمع ليس في النواحي المادية فحسب بل في النواحي الاجتماعية والقيمية والانسانية(٤) وحركة التنمية في العراق لا يمكن أن تأخذ مكانها دون وجود العوامل الاجتماعية والحضارية التي تعزز عناصرها واتجاهاتها وتدفعها إلى أمام ، وإذا اعتمدت على العوامل المادية فقط واهملت العوامل الاجتماعية والحضارية فإنها لا بد أن تتعثر وتجابه الصعوبات والمعوقات . وتجربة العراق الرائدة في مجالات التنمية التي بدأت تشق طريقها باستمرارية وفاعلية بعد ثورة السابع عشر من تموز عام ١٩٦٨ هي خير دليل لتوضيح أثر العوامل الاجتماعية والحضارية في عمليات التنمية الاقتصادية الشاملة . فالعراق خلال العهود الرجعية والدكتاتورية بـداية كان يملك نفس الثروات الطبيعية الكامنة ونفس الموارد البشرية الخلاقه . إلا أنه لم يستطع الدخول في المراحل الأولى للتنمية ويقطع أشواطاً متميزة في التصنيع والتحديث الشامل إلا بعد الثورة . وكان هذا بدافع عدة متغيرات اجتماعية وحضارية وانسانية وفرتها له قيادة الحزب والثورة كالاستقلال والتحرر السياسي وتصميم وعزم القيادة على تحديث وتصنيع القطر وتنميته في شتى المجالات والميادين الحياتية والمجتمعية ، ونشر القيم والممارسات القومية والاشتراكية والانسانية التي يؤمن بها الحزب القائد كحب العمل والتضحية والشجاعة وتحمل المسؤولية والاعتزاز بتراث وماضي الأمة العربية المجيدة وغيرها(٥) . ومثل هذه العوامل الاجتماعية والحضارية والقيمية هي التي اشعلت الشرارة الأولى للتنمية والتطور الشامل في العراق وهي التي وضعت القطر في طريقة الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي الصحيح وهي التي مهدت لتنفيذ خطط ومشاريع التنمية القومية التي انتهجتها الثورة منذ بدايتها .

إن أساليب وخطط التنمية الاجتماعية في القطر العراقي لم تتناول جانباً معيناً من جوانب المجتمع دون الجوانب الأخرى . فالتنمية الاجتماعية في العراق كانت عملية شاملة استهدفت تطوير الانسان والمجتمع على حد سواء ، وكانت عملية مركزية اعتمدت على خطط اجتماعية مدروسة دراسة علمية ومستوحاة من أفكار

وتعاليم الحزب القائد ومن تراث الأمة العربية المجيدة. وقد اهتمت عملية التنمية الاجتماعية في العراق بعد ثورة السابع عشر من تموز بالمسائل الجوهرية التالية :

١ ـ تنمية وتطوير الجوانب الفكرية والتربوية والأخلاقية والانسانية عند الفرد وذلك لما يتمتع به الفرد من أهمية بالغة في تكوين المجتمع ورسم صفاته الأساسية .

٢ ـ تنمية وتطوير المؤسسات البنيوية التي يتكون منها البناء الاجتماعي كالمؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية بما يتلاءم مع أيديولوجية وطموحات الحزب القائد وما يتلاءم مع خصوصية المجتمع العربي وتراثه والمرحلة الحضارية التاريخية التي يمر بها في الوقت الحاضر .

٣ ـ تنمية العادات والتقاليد والقيم العربية الأصيلة كالشجاعة والتضحية في سبيل الآخرين ونكران الذات وتحمل المسؤولية وحب العمل الجماعي والتعاون مع الآخرين والتواضع والصدق والاخلاص في العمل ، اضافة إلى محاربة العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية السلبية والضارة كالأنانية وحب الذات والطائفية والاقليمية ، والتحيز والتعصب بجميع أشكاله وصوره وضعف الشعور بالمسؤولية ، والسلبية تجاه العمل الاجتماعي . . . الخ .

٤ ـ العمل على محاربة أسباب الطبقية والتمايز الاجتماعي وذلك من خلال تغيير الأوضاع والظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للفئات والشرائح الاجتماعية بما يؤدي إلى المساهمة الفعالة في تحقيق المجتمع العربي الاشتراكي الموحد .

٥ ـ تسريع عملية التحول الاجتماعي التي يمر بها قطرنا العراقي ووطننا العربي وذلك من خلال معرفة ماهية قوانين السكون والداينميكية الاجتماعية .

٦ ـ تنمية الممارسات الديمقراطية في المجتمع وذلك من خلال نشر ودعم مبادىء الديمقراطية الشعبية التي تعتقد بحرية العمل النقابي والمهني وحرية انتخاب المجالس الوطنية والتشريعية والشعبية وحرية المرأة . . . الخ .

ارتفاع المستوى المعاشي للمواطنين :

منذ ثورة السابع عشر من تموز شهد العراق تحسناً ملحوظاً في مستواه المعاشي وتقدماً مطرداً في أحواله الاجتماعية والثقافية والحضارية . فزيادة مدخولات ومصروفات العائلة وما واكبها من تغييرات جوهرية في طراز معيشتها وأساليب حياتها ونماذج بيئتها وطرق تفكيرها وسلوكيتها قد طور المستوى المعاشي والاجتماعي للسكان بحيث أصبح معظم أفراده أكثر قابلية وكفاءة على تحمل أعباء المسؤولية الاجتماعية والخلقية والوطنية . غير أن تطور السكان في مستواه المعاشي والمادي وما أحدثه هذا التطور من انعكاسات ونتائج اجتماعية وحضارية لم يكن وليد الصدفة ولم يحدث بصورة تلقائية وعشوائية . إن ظاهرة تحسن الأوضاع الاقتصادية والمادية في العراق هي ظاهرة متأصلة في تواجد جملة عوامل مادية وغير مادية كانت السبب المباشر في خلقها وانبعاثها وديمومتها . كما أن الظاهرة كانت ولا تزال خاضعة لقواعد وأساليب تخطيطية وتنموية حازمة انتهجتها القيادة السياسية في العراق بعد ثورة السابع عشر من تموز لتحقيق التطور الاقتصادي والاجتماعي في القطر ، هذا التطور الذي لا بد أن يضعه عاجلاً أم آجلاً في مصاف الأقطار المتقدمة في المجالات الاقتصادية والتكنولوجية والعلمية والحضارية .

تنعكس التحولات المادية التي شهدها العراق منذ ثورة تموز عام ١٩٦٨ في تحسن المستويات المعاشية لابنائه خصوصاً أبناء الطبقات العمالية والكادحة وأبناء الطبقات الوسطى والمهنية ، وتنعكس أيضاً في ظواهر التصنيع والتحضر والتنمية الشاملة التي تركت آثارها وانعكاساتها على البناء الاجتماعي للمجتمع العراقي

بصورة ملحوظة . فقد ارتفع معدل دخل الفرد العراقي من ٤٠ دينار في عام ١٩٥٠ إلى أكثر من ٣٢٠ دينار في عام ١٩٨٠ . وكان هذا الارتفاع لمعدل دخل الفرد نتيجة حتمية لاستغلال الموارد والخيرات الطبيعية في القطر، التصنيع والتكنولوجيا، تضخم انتاجية العمل وانشار الثقافة والتربية والتعليم بين الجماهير[٦] . وقد صاحب ارتفاع المعدلات الاسمية والحقيقية لمعدل الدخل زيادة مماثلة في الطلب على الحاجات الأساسية والكمالية وزيادة في الاستثمار والتوفير ولعبت الفئات العمالية والفلاحية والكادحة والمهنية الدور الكبير في احداث مثل هذه الزيادة في الطلب والاستهلاك والتوفير والاستثمار . وقد ترك هذا كلفة مضاعفاته وانعكاساته الاقتصادية الايجابية على الاقتصاد القومي بحيث تحول المجتمع العراقي من مجتمع متخلف إلى مجتمع نام ومتطور اقتصادياً . وساعد ارتفاع معدل دخل الفرد العوائل العراقية العمالية والكادحة على مقابلة احتياجاتها المختلفة ولعب دوراً شاخصاً في تطوير مستوياتها الاجتماعية والحضارية . شهد المستوى المعاشي لابناء الفئات العمالية والمهنية التي تشكل نسبة ٨٠٪ من أبناء المجتمع العراقي تحسناً ملحوظاً منذ عام ١٩٥٠ . فقد انخفض معدل عدد الأفراد الذين يسكنون في الغرفة الواحدة من ٣,٤ في عام ١٩٥٠ إلى ١,٢ في عام ١٩٨٠ وذلك بسبب تطور صناعة البناء في العراق وتنفيذ عدداً كبيراً من المشاريع السكنية في المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان . وارتفع معدل مصروفات العائلة العمالية والمهنية على المواد الغذائية من ٢ دينار شهرياً في عام ١٩٥٠ إلى ٢٠ دينار شهرياً في عام ١٩٨٠[٧] . وارتفعت معدلات نفقات العائلة العمالية والمهنية على الملابس من ١,٢ دينار شهرياً في عام ١٩٥٠ إلى ١٠ دنانير شهرياً في عام ١٩٨٠ . وارتفعت نفقات هذه العائلة على العناية والاشراف الصحي وشراء العقاقير الطبية من ٠,٤ دينار شهرياً في عام ١٩٥٠ إلى ٥ دينار في عام ١٩٨٠ . وارتفعت نفقات العائلة على وسائل الترفيه والترويح من ٠,٨ دينار شهرياً في عام ١٩٥٠ إلى ٥,٥ دينار شهرياً في عام ١٩٨٠ . وارتفعت معدلات نفقات العائلة على شراء المطبوعات كالجرائد والمجلات والكتب من ٠,٣ دينار شهرياً في عام ١٩٥٠ إلى ٣ دينار شهرياً في عام ١٩٨٠[٨] . إن الانتعاش

والرفاهية الاقتصادية التي شهدتها العوائل العمالية والمهنية في العراق منذ عام ١٩٥٠ ساعدت الكثير من هذه العوائل على اكتساب الثقافة والتربية والتعليم والدخول إلى المهن والأعمال المهمة التي يحتاجها المجتمع المتطور . وأمر كهذا ساعدها على الانتقال الاجتماعي وتحسين أحوالها الاجتماعية والحضارية والسياسية .

من الواضح أن تحسن الأحوال المادية والاجتماعية للعائلة قد ساعدها على تربية أطفالها تربية جيدة وقويمة نظراً لمقدرتها على تهيئة الشروط والمستلزمات البيئية والمادية التي يحتاجها الأطفال وقت نموهم وتنشئتهم الاجتماعية كتهيئة السكن المريح والجو الملاءم للدراسة والتحصيل العلمي واللوازم الحياتية الأخرى التي يحتاجونها في حياتهم اليومية . اضافة الى تزويدهم بقواعد وأسس التربية الخلقية والاجتماعية الفاضلة التي تؤثر في سلوكهم وعلاقاتهم مع الآخرين في المجتمع(٩) . وتطور الأحوال الاقتصادية في العائلة غالباً ما يسبب تماسك وقوة العلاقات الاجتماعية بين الزوج والزوجة وزيادة التفاهم بينهما الأمر الذي يبعد خطر الطلاق عن العائلة . فالفقر الذي قد تتعرض إليه العائلة غالباً ما يسبب سوء العلاقات الزوجية وارتفاع حوادث الطلاق في المجتمع وتبعثر أفراد العائلة واضطراب طرق وأساليب التربية العائلية والخلقية(١٠) . تشير الاحصائيات في العراق إلى أن أغلب حالات الطلاق التي تحسم في المحاكم العراقية يعزى سببها المباشر إلى عامل الحرمان الاقتصادي الذي تتعرض إليه العائلة . ولكن تحسن الوضع الاقتصادي والمادي لمعظم العوائل العراقية خصوصاً بعد التقدم والازدهار الاقتصادي الذي أحرزه العراق مؤخراً سبب زيادة التوافق والانسجام بين الزوجين وقوى الأواصر العائلية والقرابية وكون الحياة الاسرية السعيدة . إلا أن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن العائلة العراقية متحررة من المشكلات والعقبات الحياتية التي تعترض سبيلها . فكلما تقدمت وارتقت معالم الحياة الاجتماعية والحضارية كلما ازدادت وتعقدت وتفاقمت مشكلات العائلة .

محو الأمية وانتشار الثقافة والتربية والتعليم :

الأمية هي من أخطر الآفات والأمراض الاجتماعية التي جابهت العراق في الزمن الماضي ولا زالت تجابهه . وقد لعبت الدور الخطير في عرقلة ومنع تقدمه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتكنولوجي ، وعرضت أبناءه لمشاكل سيكولوجية واجتماعية من الصعوبة بمكان حلها والقضاء عليها . ومن أخطار الأمية شيوع الجهل والمرض والفقر والتخلف الفكري والثقافي في المجتمع واستفحال العادات الاجتماعية الضارة وضعف انتاجية العمل وفي أغلب الأحيان انقسام المجتمع إلى فئات وعناصر متناقضة ومتصارعة الواحدة مع الأخرى في جميع المجالات والميادين الحياتية كالميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والعقائدية . وجميع هذه الأخطار والتحديات التي تجلبها هذه المشكلة الاجتماعية للمجتمع قد أثرت تأثيراً سلبياً في حيوية وفاعلية وداينميكية مجتمعنا العراقي منذ الفترة الزمنية التي ابتلى بها ، أي منذ أكثر من خمسمائة عام خصوصاً عندما كان تحت الاحتلال الأجنبي المتمثل في الاستعمار التركي والاستعمار البريطاني الذي تعرض إليه العراق لفترة طويلة من الزمن . وقد حاول الاستعمار بكل ما يملك من قوة وبأس فرض واقع الجهل والأمية والتخلف على العراق لكي لا تقوم له قائمة ولكي يبقى متخلفاً حضارياً ومادياً وعلمياً وتكنولوجيا وراء الأقطار الأخرى خصوصاً وإن الاستعمار يعلم علم اليقين بأن الأمية تطيل فترة بقائه وسيطرته على العراق والوطن العربي وتخلق مشاكل جديدة للشعب كالفقر والأمية والمرض والفرقة والانقسام(١١) .

يشير التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي بأن الأمية المتفشية بين أوساط واسعة جداً من المواطنين وبخاصة في الريف هي من أكبر وأخطر معوقات التقدم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العراق . ولا يمكن رفع مستوى الجماهير في هذه الميادين وبناء مجتمع متقدم وثوري قادر على مواجهة مشكلات العصر ومتطلباته المعقدة . . . كما لا يمكن للعراق أن

يؤدي دوره الثوري الطليعي في تحرير الأمة العربية وبناء دولتها الاشتراكية الموحدة مع بقاء هذه النسبة العالية من الأمية بين صفوف الشعب[١٢] . لذلك فإن النضال لمحو الأمية وبأسرع وقت ممكن يعتبر من أهم ميادين نضال الحزب ونشاطه وعلى النجاح فيه يتقرر الكثير من المسائل الحيوية السياسية والاقتصادية والاجتماعية في هذا القطر الذي يتحمل فيه حزب البعث العربي الاشتراكي شرف ومسؤولية قيادة التحولات الثورية . لهذا التفتت قيادة الحزب والثورة في القطر العراقي إلى هذه المشكلة الحساسة فأعطتها أولوية العمل والمبادرة إذ قررت اتخاذ جميع التدابير والاجراءات الحازمة لحلها والتخلص من آثارها بأسرع وقت ممكن وذلك من خلال التشريعات والصلاحيات التي منحتها للسلطات التربوية في القطر لمجابهتها والتصدي لها وتكريس الجهود العلمية المدروسة للقضاء عليها . لهذا فتحت مئات المدارس الابتدائية ومراكز محو الأمية والمدارس الشعبية في طول القطر وعرضه وجندت الاعداد الكبيرة من المعلمين للعمل فيها وشنت حملات التوعية الجماهيرية لدفع المواطنين غير المتعلمين على الذهاب إلى مراكز محو الأمية والمدارس الشعبية لاكتساب المعرفة والتخلص من فاقة الجهل والأمية[١٣] .

ومن الجدير بنا أن نوضح في هذا البحث العلمي أهم الانجازات التي حققتها السلطة الثورية في القطر بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي في الميادين الثقافية والتربوية والعلمية . إن الجهود التي بذلتها الدولة في محاربة الأمية ونشر التعليم بين الجماهير الشعبية قد تكللت بالنجاح إذ انخفضت نسبة الأمية من ٨٥٪ في عام ١٩٥٠ إلى ٦٠٪ في عام ١٩٧٥ ، وتعمل الثورة وحزبها القائد على القضاء عليها وتخليص القطر من شرورها في عام ١٩٨٥ ، وذلك من خلال تحويل التعليم الأساسي من تعليم اختياري الى تعليم الزامي ومضيها في تأسيس المزيد من المدارس النظامية ومراكز محو الأمية والمدارس الشعبية في جميع أرجاء البلاد وحث الآباء والأمهات على ارسال أولادهم إلى المدارس في السن القانونية التي تؤهلهم على القبول فيها . وقد شرعت الثورة لائحة التعليم الالزامي ومحو الأمية في عام

١٩٧٦ والتي الزمت فيها جميع الآباء والأمهات على تسجيل أولادهم في المدارس من سن ٦ سنوات إلى سن ١٢ سنة وفرضت العقوبات القانونية (الحبس أو الغرامة النقدية) بحق العوائل التي لا تلتزم ببنود هذه اللائحة التربوية أي التقاعس عن ارسال أولادها إلى المدارس . ولائحة محو الأمية فرضت على جميع الأميين والأميات ممن تتراوح أعمارهن بين ١٥ سنة إلى ٤٥ سنة الذهاب إلى مراكز محو الأمية لاكمال مرحلتي الأساس والتكميل ثم التوجه إلى المدارس الشعبية . وفرضت اللائحة العقوبات القانونية بحق الذين يمتنعون عن الذهاب إلى مراكز محو الأمية لتعلم القراءة والكتابة والمعلومات والفنون الحضارية الأخرى التي لا يستطيع المواطن الاستغناء عنها في الوقت الحاضر .

وقد صاحبت ظاهرة انخفاض نسب الأمية ظاهرة أخرى وهي ارتفاع عدد الطلبة للمراحل الدراسية كافة . فقد ارتفع عدد طلبة المدارس الابتدائية إلى أكثر من مليونين طالب وطالبة في عام ١٩٨٠ ، وازداد عدد طلبة الدراسة الثانوية إلى أكثر من نصف مليون طالب وطالبة ، وازداد طلبة الجامعات من ٥٧٤١ طالباً وطالبة في عام ١٩٥٨ إلى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ طالب وطالبة في عام ١٩٨٠ ما عدا طلبة الكليات العسكرية في القطر . ورافق تضخم عدد الطلبة تحولات جوهرية في طرق التدريس والمناهج الدراسية ، علاقة المعلمين والاساتذة بالطلبة ، سياسات واستراتيجيات التربية والتعليم(١٤) . إن السياسة التربوية الحديثة التي اختطتها الدولة تتلخص في تحويل التعليم إلى تعليم اشتراكي في مبادئه وموضوعي في طبيعته وعلمي في أسلوبه وممارساته . وتبنت سياسة التربية الحديثة في القطر موضوع تأميم المدارس والجامعات الأهلية والغاء الأجور الدراسية وتحويل التعليم في جميع مراحله إلى تعليم مجاني ومفتوح لجميع فئات وعناصر الشعب . وقد تمخضت عن هذه السياسة التربوية نشر الثقافة والتعليم بين الجماهير بسرعة منقطعة النظير خصوصاً بين أبناء العائلات العمالية والفلاحية ، إذ لم يعد العامل الاقتصادي عقبة في طريق ارسال الابناء إلى المدارس والمعاهد العالية لا سيما بعد رفاهية هذه

الفئات الاجتماعية التي صاحبت عمليات التحضر والتصنيع . لذا ازداد عدد أبناء العمال والفلاحين والكادحين في المدارس ودور العلم بحيث تمكن هؤلاء من احراز مكاسب ثقافية واجتماعية وحضارية ساعدتهم في القضاء على مشاكلهم وقللت الفوارق الطبقية بينهم وبين الشرائح والفئات الاجتماعية الأخرى .

تعميق الممارسات الديمقراطية والشعبية :

إن من أهم مؤشرات التنمية السياسية في العراق شيوع وتعميق الممارسات الديمقراطية والشعبية التي ظهرت للعيان بعد ثورة السابع عشر من تموز وقد ارتبطت القيم والممارسات الديمقراطية والشعبية بهدف الحرية الذي يعتبر من الأهداف المركزية والاستراتيجية لحزب البعث العربي الاشتراكي . فالحرية كانت وما زالت شعاراً رائجاً بين الحركات والتيارات السياسية في الوطن العربي في الوقت الذي كانت فيه مطلباً جماهيرياً يعبر عن تطلع الجماهير لأداء دورها في معركة النهوض القومي والتحرر الوطني . ومع ذلك فإن أياً من هذه الحركات لم يستطع أن يعبر عن إيمانه بهذا الهدف ، بل على العكس من ذلك فقد تعرضت الحرية إلى تشويه وتزييف كان الهدف منه امتصاص نقمة الجماهير وتعطيل دورها .

في هذه الأجواء أعلن حزب البعث العربي الاشتراكي عن أهدافه في النضال القومي فكانت الحرية بمضمونها السياسي والاجتماعي هدفاً مركزياً من أهداف الحزب ، تشكل إلى جانب الوحدة والاشتراكية حلاً كاملاً وموحداً لتناقضات الواقع العربي والتحديات التى يواجهها . وهنا لا بد من تأكيد مسألة مهمة وهي أن إيمان الحزب بالحرية لم يكن مصدره نابعاً من رغبة ذاتية مجردة في مسايرة تلك التيارات في رفعها شعار الحرية ، أو لملامسة عواطف الجماهير التي كانت تتطلع لهذا الهدف المبدئي ، وإنما كان هذا الايمان نابعاً من إدراك الحزب لدور الحرية في حياة الجماهير باعتبارها ضرورة تاريخية لحركة النضال العربي على طريق مواجهة الحاضر وبناء المستقبل .

وطبيعي هنا أن ينعكس هذا الايمان بالحرية على تجربة الحرب بعد قيام ثورة ١٧ تموز . ذلك أن القيمة الحقيقية للمبادىء والأهداف إنما تأخذ مداها الكامل من خلال قدرة الحركة الثورية على تحويل هذه المبادىء إلى واقع مادي ملموس يحدث التغيير المطلوب في حياة الجماهير . وهكذا فقد دأبت القيادة السياسية على تعميق الممارسة الديمقراطية في الوسط الجماهيري تعبيراً عن هذا الايمان المبدئي ولتصبح هذه الممارسة صيغة مبدئية أخرى من صيغ التعامل بين الثورة وجماهيرها . لقد تم التعبير عن الهوية الديمقراطية للثورة حال انبثاقها من خلال التأكيد على أن عملية استلام السلطة بحد ذاتها إنما تأتي تحديداً كوسيلة لتحقيق أهداف الحزب الجماهيرية وليست كغاية مطلقاً . وعلى هذا الأساس فلم تكن هناك ومنذ اللحظات الأولى أية نية وأي توجه للاستئثار بالسلطة أو احتكارها . إذ وضع فهم لمشاركة في السلطة ضمن إطار فهمها كوسيلة لتنفيذ الأهداف الجماهيرية الواسعة . وقد ترجمت الثورة مقاصدها بهذا الاتجاه من خلال عملها المكثف للقضاء على كل الاجراء.السلبية التي سادت تعامل القوى السياسية وصولاً إلى تحقيق تضامن هذه القوى حول برنامج عمل واضح ينفذ خطة الثورة القومية التقدمية، ويتصدى لمهات الكفاح ضد التحديات الامبريالية والصهيونية والرجعية .

إن تشريع قانوني المجلس الوطني والمجلس التشريعي لمنطقة الحكم الذاتي إنما يعتبر خطوة متطورة على طريق النهج الديمقراطي الذي اختطته الثورة كما ويمكن التأكيد أيضاً على أن وجود القانونين إنما يأتي دعماً للخطوات الديمقراطية التي خطتها الثورة وتأكيداً عليها كحرية العمل النقابي والحزبي وتوطيد العلاقة بين القيادة والجماهير وتكوين المجالس الشعبية وانتخاب أعضائها بالطرق الديمقراطية . . . الخ . إن التجربة الديمقراطية الحقيقية لا يمكن أن توجد أبداً بوجود القانونين المذكورين وبمعزل عن مجمل الخطوات الديمقراطية التي أرست الثورة دعائمها . فالثورة لا تؤمن بالديمقراطية كعمل موسمي وكصناديق اقتراع ، وإنما تؤمن بها كممارسات يومية متأصلة وكنهج يومي ثابت على كافة الأصعدة وفي

كافة المؤسسات . إن الديمقراطية الثورية التي تؤمن بها تختلف عن صيغ الديمقراطيات الموسمية في كونها وسيلة التعامل اليومي الثابت بين الجماهير في المدرسة والمصنع والمزرعة وفي كافة مؤسسات الثورة ، إنها لا تتجسد من خلال الهياكل وإنما من خلال الانسان . فبدون الانسان الديمقراطي لا يمكن تصور قيام مؤسسة ديمقراطية أساساً ، لذلك يبدو أن الديمقراطية الثورية إنما تستكمل شروط نجاحها من خلال تأكيدها على ضرورة وجود أطراف المعادلة الأساسية جميعاً وفي آن واحد . إنها تشترط وجود الانسان الديمقراطي مثلما تشترط وجود المؤسسة الديمقراطية هي قبل ذلك تشترط الممارسة اليومية لهذا النهج دون الاكتفاء بالممارسات الموسمية .

أما الجوانب التطبيقية في الممارسات الديمقراطية التي وجدت طريقها إلى التطبيق منذ اليوم الأول لقيام الثورة فتتناول المسالك التالية :

١ ــ دعم وبرمجة نشاط المنظمات الشعبية والمهنية وتوفير الأجواء المناسبة لهذه المنظمات للتعبير عن نفسها ودورها في تأطير عمل الجماهير ومساهماتها في بناء التجربة .

٢ ــ تأكيد الادارة الديمقراطية لوسائل الانتاج والعمل على جعل الادارة في خدمة الشعب وما يعنيه ذلك من مواجهة حاسمة للادارة البيروقراطية ولكل مظاهر السلوك الروتيني ، كما جرى في انتخاب الشركة العامة للخياطة بحضور الرفيق الرئيس القائد .

٣ ــ اتاحة الفرصة لجميع المواطنين للتعبير عن آرائهم بما يخدم المسيرة ويؤمن أفضل الصيغ العملية للبناء والتغيير الثوريين كما حدث أثناء مناقشة ورقة عمل انخفاض الانتاجية وسائر الندوات المماثلة .

٤ ــ الاهتمام بصيغ النقد البناء الهادف إلى تقويم الأخطاء التي قد ترافق بعض

أشكال التطبيق بهدف الوصول إلى أفضل هذه الأشكال انسجاماً مع المبادىء وقبولاً لدى الجماهير ، كما هو الشأن في المؤتمرات الزراعية السنوية والندوات التي تخصص لمناقشة واقرار المنهاج الاستثماري وخطة التجارة الخارجية .

٥ ـ تشريع قانون المجلس الوطني والمجلس التشريعي لمنطقة الحكم الذاتي ومن ثم اجراء الانتخابات العامة لاختيار ممثلي الشعب من أعضاء المجلسين ، حيث كان ذلك تتويجاً لهذه المسيرة الديمقراطية وبما أكد إيمان القيادة بالجماهير ودورها الفاعل في ارساء أسس المجتمع الثوري في هذا القطر على طريق المجتمع الشامل .

قانون الرعاية الاجتماعية والتحولات الاشتراكية :

إن قانون الرعاية الاجتماعية الذي أصدره مجلس قيادة الثورة بتاريخ ٢٨/ ٦/ ١٩٨٠ هو من أحد المكاسب والمنجزات التي حققتها قيادة الحزب والثورة للجماهير لكي تكون قادرة على إحتلال مركزها المؤثر في عملية البناء والتحول الاشتراكي . فالقانون يعتبر الفقر والحاجة الاقتصادية مسؤولية لا تقع على عاتق الأفراد الفقراء والمحتاجين أنفسهم بل تقع على عاتق الدولة باعتبارها من أهم وأكبر مؤسسات المجتمع . لذا تعهدت الدولة بموجب بنود هذا القانون انقاذ المجتمع من مشكلة الحاجة والعوز المادي وذلك من خلال منح المساعدات المالية للفقراء والمحتاجين[١٥] . ومنح هذه المساعدات يتم عن طريق صندوق رعاية الاسرة . ويقدم هذا الصندوق المساعدات المالية لهؤلاء الذين تقل دخولهم الشهرية عن الحد الأدنى للعيش كالمتقاعدين الذين يتقاضون الرواتب التقاعدية المنخفضة أو العاطلين عن العمل بسبب العاهات الجسمانية أو العقلية التي تلازمهم وتمنعهم عن أداء العمل وجميع الفقراء والمحتاجين الذين يستحقون الرعاية الاجتماعية من قبل الدولة . ويهتم قانون الرعاية الاجتماعية بتأسيس وإدارة دور الدولة التي تتولى

رعاية الأطفال والصغار والأحداث الذين يعانون من حالات التفكك الاسري أو من فقدانهم أحد الوالدين أو كليهما وتوفير الأجواء السليمة لهم للتعويض عن الحنان العائلي الذي افتقدوه. وأخيراً يعالج القانون مشكلة رعاية وتدريب وتأهيل المعوقين بعد أن يقسمهم إلى أصناف مختلفة حسب حالات العوق التي يعانون منها كالمعوقين بدنياً والمعوقين عقلياً ونفسياً والمكفوفين والمعوقين العاجزين كلياً . ويؤكد القانون على فتح مراكز خاصة لرعاية وتأهيل هذه الأصناف المختلفة من المعوقين ويتعهد في نفس الوقت إيجاد العمل الملاءم لهم بعد تدريبهم وتأهيلهم على العمل الذي يستطيعون القيام به خدمة لأنفسهم وعوائلهم والمجتمع الكبير .

لم يكن تشريع قانون الرعاية الاجتماعية وليد الصدفة العابرة وإنما جاء بعد دراسات موضوعية عن واقع المجتمع وطبيعته وحاجات أبنائه المادية والمعنوية . ومن أهم هذه الدراسات التي تشخص واقع ومعطيات المجتمع وماهية مشكلاته وطرق معالجتها التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي يعبر خير تعبير عن اديولوجية الحزب ويوضح كيفية ترجمة هذه الاديولوجية إلى واقع عمل يكفل تقدم المجتمع والانسان في جميع ضروب الحياة وتفرعاتها المختلفة . إن تشريع قانون الرعاية الاجتماعية يعبر عن الاشتراكية الانسانية التي يحملها الحزب القائد ، هذه الاشتراكية التي ترمي إلى نقل وسائل الانتاج والملكية من القطاع الخاص إلى القطاع الاشتراكي لكي تستطيع هذه أن تشارك مشاركة فعالة في زيادة كمية الانتاج الاشتراكي وتحسين نوعيته وتوزيع عائداته على جميع المواطنين توزيعاً عادلاً يضمن لهم الحياة الكريمة المرفهة والخالية من الاستغلال والتسلط والقهر الاجتماعي[١٦] . وتحت ظروف كهذه يستطيع المواطنون الاخلاص للمجتمع والتفاني في خدمته والعمل على تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة الأمد .

وتشريع قانون الرعاية الاجتماعية يجسد تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية بين المواطنين كافة . فالقانون يضمن المواطنين بكافة شراحهم الاجتماعية

وخلفياتهم المهنية ضد العوز المادي والبطالة والظروف الحياتية المؤسفة التي قد يتعرضون إليها . ويتعهد بمعالجة حالات العوق الجسماني والعقلي التي تصاحب بعض المواطنين بغية التخلص من آثارها السلبية . ويعالج المشكلات المعاشية والاجتماعية والتربوية والنفسية للأطفال الذين ليس لديهم عوائل مؤهلة تتولى تدريبهم ورعايتهم وحمايتهم من شرور الحياة . ومثل هذه الالتزامات الانسانية التي يتكفل بها قانون الرعاية الاجتماعية لا بد أن تخفف الفوارق الاجتماعية والطبقية بين المواطنين وتقضي على أسباب التمايز الاجتماعي والحواجز السيكو اجتماعية الموجودة بينهم . وحقيقة كهذه تسهم مساهمة فعالة ومجدية في نشر المبادىء والممارسات الاشتراكية والانسانية بين المواطنين وتجعلهم قادرين على تحمل مسؤولياتهم الاجتماعية والوطنية كاملة والمضي قدماً نحو بناء الصرح الحضاري لمجتمعهم وأمتهم(١٧) .

إن قانون الرعاية الاجتماعية كما تشير النتائج الأولية لتطبيقه ساعد على نشر الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية بين المواطنين كافة . فالقانون ضمن المواطن ضد العوز والحاجة المادية وحالات العوق المختلفة التي قد يتعرض إليها خصوصاً حالات العوق الجسماني والعقلي . إن الفقر والمرض والحاجة الاجتماعية لم تعد بعد تشريع القانون عقبات تحول دون تحقيق طموحات وأهداف المواطنين بالعيش حياة كريمة ومرفهة مستقرة ولم تعد تعرقل طموحاتهم في أشغال الأعمال التي تتلاءم مع قدراتهم الجسمانية والعقلية التي من خلالها يستطيعون تقديم الخدمة النافعة والبناءة لعوائلهم وللمجتمع الكبير الذي يعيشون فيه ويتفاعلون معه . ولم تعد تتناقض مع طموحاتهم الذاتية في التمتع بالحياة وممارسة أنشطتها الترويحية والابداعية التي تنتج بالنهاية في مضاعفة فاعليتهم ومقدرتهم على العمل والانتاج وتحمل المسؤوليات الاجتماعية الأخرى الملقاة على عاتقهم من قبل المجتمع . وفي مثل هذه الظروف تعم الرفاهية الاقتصادية في المجتمع بعد قيام كل مواطن فيه بتنفيذ واجباته الانتاجية إزاء المجتمع(١٨) . وتعم الرفاهية الاجتماعية عندما يشعر

المواطن بأن المجتمع قد وفر أسباب الضمان والطمأنينة والاستقرار والسعادة .

وأخيراً لا بد أن يلعب قانون الرعاية الاجتماعية الدور الكبير في ترسيخ ونشر القيم والممارسات الاشتراكية والانسانية في المجتمع . فالقانون يحمل الدولة مسؤولية معالجة الفقر والحاجة والعوز المادي وبقية المشكلات الاجتماعية والعقلية التي يعاني منها المواطنون . بينما في السابق خصوصاً خلال العهود الاقطاعية والدكتاتورية والرجعية كانت هذه المشكلات تقع على عاتق الفقراء والمحتاجين أنفسهم أو تقع على عاتق الأغنياء والمتنفذين أو جمعيات البر والاحسان . ولكن التجارب الموضوعية في العراق والأقطار النامية تشير إلى فشل الأغنياء والمتنفذين وجمعيات البر والاحسان في معالجة مشكلات الفقر والمرض والحاجة الاجتماعية التي تجابه المواطنين . وإن الفقراء والمحتاجين لا يستطيعون التغلب على مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية بأنفسهم حيث أن السيطرة على هذه المشكلات وتذليلها يقع خارج نطاق قدراتهم وإمكانياتهم الذاتية .والأغنياء والمتنفذون غالباً ما يتهربون من دفع الأموال الكافية لمعونة واسعاف الفقراء والمحتاجين . وجمعيات البر والاحسان هي جمعيات هزيلة لا تمتلك الموارد والامكانيات المادية والادارية ولا تستطيع القضاء على مشكلات الفقر والحاجة الاجتماعية . لذا والحالة هذه أصبح واجباً على الدولة انقاذ المجتمع من مشكلات الفقر والمرض والأمية والجهل . لهذا بادرت الدولة بدافع من فلسفتها الاشتراكية والانسانية نحو حماية المجتمع من الأخطار والتحديات المادية والاجتماعية التي تواجه المواطنين . فشرعت قوانين الضمان الاجتماعي والقضاء على الأمية والطب المجاني والرعاية الاجتماعية . ومثل هذه القوانين تعطي المجتمع العراقي طابعاً اشتراكياً وإنسانياً وتقدمياً متميزاً . هذا الطابع الذي لا بد أن يسهم في تعزيز وتعميق القيم والممارسات القومية والاشتراكية والانسانية في المجتمع خدمة لأهدافه التكتيكية والاستراتيجية التي يسعى جاهداً لتحقيقها وإبراز معالمها المتميزة في كل مكان .

تغير الأوضاع الاجتماعية للمرأة العراقية :

بعد ثورة السابع عشر من تموز تغيرت المكانة الاجتماعية والحضارية للمرأة العراقية بصورة أكثر وضوحاً وفاعلية . وقد سايرت التغيرات التي طرأت على الظروف الاجتماعية والاقتصادية للمرأة جملة التغيرات الحضارية والاجتماعية والمادية التي شهدها القطر نتيجة للجهود الجبارة والمثمرة التي بذلتها قيادة الحزب والثورة في تنمية وتطوير المجتمع في شتى المجالات والميادين الحياتية . بيد أن استراتيجية ثورة السابع عشر من تموز عام ١٩٦٨ المتعلقة بمسألة المرأة هي استراتيجية نابعة من المبادىء القومية والاشتراكية والانسانية لحزب البعث العربي الاشتراكي ، هذه المبادىء التي تعتقد بحتمية تحرير المرأة العربية من القيود الاجتماعية والضغوط الحضارية التي فرضتها عليها الأنظمة الاقطاعية والرجعية والدكتاتورية التي حكمت الوطن العربي لفترات طويلة من الزمن[١٩] . وقد حاولت هذه المبادىء الخيرة تغيير الدور المتدني الذي كانت تحتله المرأة العربية في السابق وفي نفس الوقت العمل من أجل دعم مركزها وكيانها المهم الذي تتطلبه المرحلة الثورية المعاصرة التي يمر بها مجتمعنا العربي .

يقول الرفيق المناضل صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية في كتابه « عن الثورة والمرأة » بأن تحرير المرأة الكامل من جميع القيود الرجعية والمتخلفة التي فرضت عليها خلال العهود السابقة عهود الظلام والاستلاب والاستغلال هو من الأهداف المركزية لقيادة الحزب والثورة . وإن المرأة نصف المجتمع وإذا لم تكن واعية ومتحررة فإن المجتمع برمته سيكون متخلفاً وغير متحرر[٢٠] . كما يؤكد التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي على ضرورة تحرير المرأة العربية وفي نفس الوقت يربط ربطاً عقلانياً بين تخلف المرأة العربية وتخلف وجمود المجتمع العربي . كما يشير التقرير بأن هدف تحرير المرأة العربية من القيود الاقتصادية والاجتماعية والشرعية القديمة والبالية وتهيئة الظروف الملائمة التي تؤمن مشاركتها الكاملة والفعالة في عملية تنمية وتطور المجتمع العربي

هي من الأهداف الجوهرية لحزب البعث العربي الاشتراكي[٢١] . ويضيف التقرير قائلاً بأن تخلف المرأة العربية في الميادين الحضارية والاجتماعية والمادية هو من العراقيل الأساسية التي تمنع تقدم وتطور المجتمع العربي . إن تخلف المرأة العربية كمشكلة اجتماعية وحضارية يؤثر تأثيراً سلبياً على جميع ميادين وأنشطة الحياة خصوصاً تلك التي تتعلق بواجبات المرأة في المجتمع كتنشئة وتربية الأطفال ، تزويد مؤسسات المجتمع والدولة بالطاقات البشرية الخلاقة التي تحتاجها وأخيراً المشاركة في عملية بناء وتقدم وتنمية المجتمع .

ومن الجدير بالملاحظة هنا بأن التزام القيادة السياسية بالتطبيق الدقيق لمبادىء الحزب حول قضايا ومشكلات المرأة كان وراء جميع التغيرات التي طرأت على المنزلة الاجتماعية للمرأة العراقية خلال فترة السبعينات . ومن الضروري الاشارة إلى هذه التغيرات المهمة التي جاءت مواكبة للتغيرات الاجتماعية والحضارية والمادية الشاملة التي شهدها القطر منذ منتصف هذا القرن خصوصاً بعد ثورة السابع عشر من تموز . فعلى الصعيد التعليمي والثقافي بدأت النساء العراقيات منذ تأسيس وزارة المعارف العراقية عام ١٩٤١ يلعبن الدور المؤثر في توجيه وتنفيذ السياسية التربوية خصوصاً بعد ازدياد عدد المدرسات والطالبات في المدارس . فقد ازداد عدد الطالبات في المدارس الابتدائية من ٤٦٢ طالبة في عام ١٩٢٠ إلى ٢٣٤٢٩ طالبة في عام ١٩٤٠ ، واستمر عدد الطالبات بالزيادة المطردة حتى بلغ ٧٦٥٠٧٢ طالبة في عام ١٩٧٧[٢٢] . وازداد عدد الطالبات في المراحل الدراسية المختلفة زيادة مماثلة لزيادة الطالبات في المدارس الابتدائية خلال الفترة الزمنية المحددة أعلاه . ومن الجدير بالملاحظة أن جميع اللوائح التربوية التي شرعتها وزارة التربية كانت تؤكد على مبدأ تكافؤ الفرص الثقافية بين الطلبة والطالبات من حيث القبول في المدارس ومؤسسات التعليم العالي ، أشغال الأعمال والمهن وأخيراً الرواتب والأجور والمخصصات . وبفضل سياسة تكافؤ الفرص الثقافية بين الطلبة والطالبات أصبحت إعداد الطالبات المقبولات في المدارس والمعاهد

العالية تقريباً متساوية لأعداد الطلبة المقبولين في هذه المدارس والمعاهد خصوصاً بعد ثورة ١٧ تموز عام ١٩٦٨ . فمثلاً ارتفعت نسبة طالبات المدارس الابتدائية من ٢٥٪ في عام ١٩٥٥ إلى ٤٨٪ في عام ١٩٧٧ ، وارتفعت نسبة طالبات المعاهد والكليات والجامعات من ١٨٪ في عام ١٩٥٥ إلى ٤٠٪ في عام ١٩٧٧ .

إلا أن انتشار التعليم الأساسي والعالي بين الاناث خصوصاً في السنوات القليلة الماضية لا بد أن يترك اثاره الايجابية في هيكل التوزيع المهني للأعمال حسب متغير الجنس . ففي الوقت الحاضر يشاهد المرء تزايد إعداد النساء اللواتي يشغلن الأعمال الروتينية والادارية والمهنية ولم تبق مهنة واحدة سواء كانت هذه المهنة قديمة أو حديثة إلا ودخلتها المرأة العراقية وبرهنت كفاءتها واقتدارها على أشغالها والقيام بمهامها ومتطلباتها . إن عدد النساء العاملات في المهن البيروقراطية والادارية والفنية خصوصاً المعلمات والطبيبات والممرضات والمكتبيات والمهندسات والباحثات الاجتماعيات والمحاميات الاقتصاديات والصيدلانيات . . . الخ أخذ في الزيادة السريعة كل عام . وهناك نسبة عالية من القوى العاملة النسوية تشتغل في المصانع والتعاونيات والمزارع الجماعية ومزارع الدولة وفي المؤسسات الخدمية والترفيهية .. كما استطاعت المرأة العراقية مؤخراً الدخول في سلك الشرطة والأمن والقوات المسلحة لمشاركة زميلها الرجل في أداء مهامه الأمنية والعسكرية والدفاعية التي يحتاجها المجتمع وقت السلم والحرب . ويمكن اثبات زيادة عدد النساء العاملات بالأرقام التالية التي تشير إلى ارتفاع القوى العاملة النسوية من ٢,٥٪ في عام ١٩٥٧ إلى ١٨٪ في عام ١٩٨٠[٢٢] .

إن قيادة الحزب والثورة في القطر العراقي فتحت المجال أمام المرأة بأشغال المراكز الحساسة في نقابات العمال والمنظمات المهنية وفي الوزارات والمديريات العامة وسمح للمرأة الانتماء إلى الأحزاب السياسية والممارسة العمل السياسي والمشاركة في انتخابات المجالس الوطنية والتشريعية . وفعلاً انتمت آلاف النساء إلى حزب البعث العربي الاشتراكي ، وفي انتخابات المجلس الوطني التي عقدت عام ١٩٨٠

شاركت مئات الآلاف من النساء فيها وصوتن للمرشحين الـذين يتجاوبـون مع طموحاتهن وأهدافهن في المجتمع . إلا أنه منذ الخمسينات من هذا القرن ساهمت المرأة بصورة فعالة في النضال الذي خاضه الحزب ضد القوى الرجعية والامبريالية ولعبت الدور الكبير في اسقاط النظم الرجعية والدكتاتورية التي حكمت العراق .

وتغير الوضع الاجتماعي للمرأة في العائلة . فبعد أن كانت المرأة تحتل مكانة ثانوية ولا تشارك في اتخاذ القرارات التي تحدد مصير العائلة والأطفال أصبحت الآن تحتل مركزاً متميزاً في العائلة خصوصـاً بعـد ارتفـاع مستواهـا الثقـافي والعلمـي وخروجها إلى العمل أسوة بزوجها أو اخوانها . إن المرأة العراقية المعاصرة تستشار في قضايا زواجها ، وبعد الحصول على موافقتها بالزواج تشارك زوجها في تكوين وبناء العائلة الجديدة التي يتساوى فيها كل من الرجل والمرأة . فالمرأة في العائلـة العراقية الحديثة تشارك زوجها في اتخاذ القرارات المتعلقة بتربية الأطفال وتحديد نمط العلاقات الاجتماعية مع الأقارب ورسـم السياسـة المالية للعائلـة والاشراف على دراسة وتخصص الأبناء ومشاركتها أو عدم مشاركتها في العمل الاقتصادي خارج البيت وهكذا . ونتيجة للظروف المعقدة التي يعيشها المجتمع العراقي والتي ظهرت بعد تحضر وتحديث وتصنيع القطر أصبحت المرأة العراقية المعاصرة تشغل دورين اجتماعيين متكاملـين دور ربـة البيت ودور العاملـة أو الموظفـة أو الخبـيرة خارج البيت . وحالة كهذه جعلت المرأة تقف على صعيد واحد مع الرجل في الحقـوق والواجبات الاجتماعية الأمر الذي رفع قيمتهـا وأهميتهـا في المجتمـع ومكنهـا من اشغال دورها الطبيعي والمساهمة في بناء وتطوير وتنمية المجتمع في شتى المجالات والميادين .

العمال والفلاحون :

منذ قيام ثورة السابع عشر من تموز بادرت القيادة السياسية بوحي من أفكار ومبـادىء وتعليم الحزب الاشـتراكية والانسـانية بتغيير البنية الاجتماعية التقليدية

والرجعية للمجتمع العراقي والقضاء على سلبياتها وتناقضاتها الأساسية . فقد خففت الفوارق المادية والاجتماعية والنفسية الكبيرة التي كانت موجودة بين الشرائح والطبقات الاجتماعية بحيث أصبحت هناك مرونة اجتماعية بينها . وقد تجسدت هذه المرونة الاجتماعية بقابلية أعضائها على تحسين أحوالهم المعاشية والاجتماعية والثقافية ومقدرة بعضهم على الانتقال الاجتماعي إلى الفئات والشرائح المهنية والوسطى . ودافعت قيادة الحزب والثورة عن العمال والفلاحين واعتبرتهم من أهم الشرائح الاجتماعية في المجتمع وذلك لكثرتهم العددية وأهمية واجباتهم وأعمالهم الانتاجية الخلاقة للمجتمع ، وتعرضهم للظلم والاضطهاد والتعسف الاجتماعي خلال العهود الاقطاعية والاستبدادية والرجعية . يقول الرفيق الاستاذ ميشيل علق في كتابه « البعث والاشتراكية » لا شك أن للطبقة العاملة في الوطن العربي بصورة عامة وفي القطر العراقي بصورة خاصة دوراً كبيراً وأساسياً في هذه الظروف التاريخية وفي هذه المعركة المصيرية ، وكيف لا يكون ذلك والطبقة العاملة والكادحة بصورة عامة هم أكثرية الشعب الساحقة ، هم الذين يعملون وينتجون ويبنون ويعمرون . هم يقاتلون ويقاومون ويضحون بدمائهم عندما تدق ساعة المعركة . هذا الدور الخطير للطبقة العاملة لم يكن معترفاً به ، ولذلك كانت بلادنا غارقة في النوم وغارقة في التخلف ومعرضة وخاضعة للاستعمار ، للاحتلال ، لأبشع أنواع الاستغلال والاستبداد لأن دور الكادحين لم يكن بعد قد اكتشف ، لم تسلط عليه الأنوار، لم تعلن تلك الحقيقة إعلاناً واضحاً وصريحاً فكان ذلك عصر التخلف . ويضيف الاستاذ ميشيل قائلاً : ثم بدأت تباشير الثورة تطل على أرض العروبة منذ عشرات السنين ونمت بذور الثورة الفكرية شيئاً فشيئاً حتى ظهرت الحركات المنظمة التي نادت بدور الشعب ودور الطبقة العاملة ودور الفلاحين والمثقفين الثوريين ودور الجنود أبناء الشعب وكان ذلك تقدماً محسوساً بالنسبة إلى الماضي .

أما الرفيق الدكتور إلياس فرح فيثمن في كتابه « تطور الايديولوجية العربية

الثورية : الفكر الاشتراكي دور الطبقة العاملة العربية في حركة المجتمع وأهميتها في عمليات الانتاج الاجتماعي والتقدم الثوري فيقول أن الطبقة العاملة هي الضمانة الثورية الحقيقية لالتحام اديولوجية الثورة العربية بالمواقف السياسية ذات الطابع الاستراتيجي أو التكتيكي الظرفي والضمانة لعدم تصدع هذه العلاقة أو تشويهها . فالوحدة العربية لا يبنيها إلا الكادحون والاشتراكية لا يمكن أن تتحقق إلا بقيادة الطبقة العاملة . إن الطبقة العاملة إذن كما يقول الدكتور فرح الأداة الأساسية لتحقيق هدف التحرير ، كما هي الصانعة الكبرى للوحدة ، لذلك فإن الكفاح المسلح لا يستكمل شروط ثوريته إلا إذا كانت قاعدته الأساسية وقيادته في آن واحد تنتميان إلى الطبقة العاملة .

وبعد تأكيد اديولوجية الحزب على الدور القيادي الذي يمكن أن تلعبه الطبقة العاملة في مسيرة وتقدم المجتمع وتحقيق أهدافه القصيرة والبعيدة الأمد بادرت القيادة السياسية في القطر العراقي على العمل والنضال من أجل رفع مكانة وسمعة الطبقة العاملة بالنسبة للشرائح والطبقات الأخرى في المجتمع إذ اعتبرتها صاحبة المصلحة الحقيقية في بناء وتنمية وتطوير المجتمع العربي بصورة عامة والقطر العراقي بصورة خاصة . لهذا بذلت ما في استطاعتها على تحسين أوضاعها المعاشية والمادية من خلال رفع قدرتها الشرائية وتوفير العمل المثمر لها والدفاع عن حقوقها الاجتماعية والسياسية والمهنية . وشرعت قانون العمل رقم ١٥١ لسنة ١٩٧٠ وقانون التقاعد والضمان الاجتماعي للعمال رقم ٣٩ لسنة ١٩٧١ . فبموجب هذه القوانين سمح للعمال المشاركة في مجالات التخطيط والتنفيذ وتحمل المسؤوليات الكاملة إزاء تنفيذ خطط العمل . اضافة إلى منح الحريات لممثلي الطبقة العاملة بالمساهمة في نشاطات الهيئات واللجان العليا للدولة كمجلس التخطيط والمجلس الزراعي . وقانون التقاعد والضمان الاجتماعي للعمال ساهم مساهمة فعالة في حماية العمال ضد المرض والبطالة والشيخوخة والتعرض للحوادث المؤسفة ، وساعد على رفع مستوياتهم المعاشية والاجتماعية .

كما بادرت الدولة بنشر الثقافة والتربية والتعليم بين أبناء الطبقة العاملة من خلال فتح مراكز محو الأمية والمدارس والمعاهد العليا لهم وتحفيزهم على الذهاب إليها والاستفادة منها وتقديم الحوافز المادية والمعنوية لأفرادها الذين يبرزون في مجالات العلم والمعرفة . كما تعهدت القيادة السياسية ضمان الحقوق السياسية والقانونية لأبنائها من خلال اتاحة المجال لهم بالمشاركة في عملية التصويت السياسي لانتخاب ممثليهم في المجلس الوطني ومنحهم حرية تكوين النقابات العمالية والمنظمات الجماهيرية والشعبية التي تدافع عن حقوقهم ومركزهم الاجتماعي .

والمكاسب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي قدمتها قيادة الحزب والثورة للفلاحين لا تقل عن تلك التي قدمتها لاخوانهم العمال . فالمنهج الثوري الاشتراكي لثورة السابع عشر من تموز يعتبر عملية الاصلاح الزراعي مرحلة أساسية على طريق تحقيق الثورة الزراعية الشاملة التي تستهدف تحرير الفلاحين من أي شكل من أشكال الاستغلال والتسلط وبناء الريف الاشتراكي المزدهر . إن الانجازات الجذرية والتطور النوعي التي شهدها القطاع الزراعي في ظل الثورة ارتبطت بالمنهج الاشتراكي وبهدف بناء الريف المتطور عبر الخطط والمناهج العلمية التي تؤكد على زيادة كمية الانتاج الزراعي وتحسين نوعيته وخلق علاقات الانتاج السليمة التي يؤكد على أهميتها التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي . شهد الريف العراقي منذ الثورة توسعاً في القطاع الاشتراكي بأوجهه الثلاث مزارع الدولة والمزارع الجماعية والمزارع التعاونية وجعله قطاعاً سائداً ومتطوراً ، فقد انشئت لحد الآن ٤١ مزرعة دولة يعمل فيها أكثر من ١٤ الفاً من العمال والفنيين الزراعيين . وازداد عدد المزارع التعاونية التي تديرها الجمعيات الفلاحية التعاونية ، فقد بلغت حتى عام ١٩٧٨ (١٩٢٩) جمعية يشتغل فيها ٣٦٥ ألف فلاح وفلاحة .

ومع التطور الذي حصل في أنماط استغلال الأراضي الزراعية واتاحة المجال أمام الفلاحين باستثمار أراضيهم استثماراً ناجحاً بعد تغيير علاقات الانتاج المتخلفة

التي كانت سائدة في الريف العراقي خلال العهود الاقطاعية والرجعية فقد انتشرت وتعمقت الثقافة الاشتراكية في عموم الريف من خلال تكثيف العمل السياسي والتربوي وتكريس الممارسات الثورية لرفع وعي الفلاحين وعموم سكان الريف وتطوير قدراتهم في المجالات كافة انطلاقاً من مبدأ الثورة بأن الانسان هو الهدف والوسيلة معاً وأن تطور القوى البشرية يشكل الشرط الحاسم لنجاح التحولات وتطوير العملية الزراعية بكافة مراحلها وأوجهها . ومن أهم المنجزات التربوية والاجتماعية التي حصل عليها الفلاحون في ظل الثورة ما يلي : ـ

١ ـ شمول جميع سكان الريف بالحملة الوطنية الشاملة لمحو الأمية الالزامي وانتظامهم في آلاف المراكز لتعلم القراءة والكتابة ومواصلة التعليم في المدارس الشعبية .

٢ ـ نشر القيم والممارسات الاجتماعية الجديدة بين الفلاحين كقيم التعاون والعمل الجماعي والشعور بالمسؤولية والاخلاص في العمل واحترام العمل اليدوي وتقييم المرأة ومساواتها مع الرجل . وقد أدى الباحثون والمرشدون الاجتماعيون في الريف الدور الكبير في اشاعة وبلورة هذه القيم والممارسات الجديدة .

٣ ـ الاستخدام النشيط للوسائل الارشادية والعمل على ادخال الفلاحين في دورات تدريب وتأهيل مكثفة بغية تطوير قابلياتهم وزيادة مهاراتهم الفنية .

وبالرغم من التطور النوعي الذي طرأ على ظروف العمال والفلاحين في القطر بعد الثورة نتيجة للمنجزات التاريخية التي حققتها القيادة السياسية لهم والتي قللت الفوارق الاجتماعية والمادية والثقافية بينهم وبين بقية الفئات والشرائح الاجتماعية فإن ظروف العمال والفلاحين لا تزال دون مستوى الطموح بيد أن القيادة ماضية على تحقيق المزيد من المنجزات والمكاسب لهم ، وإن العمال

والفلاحون أنفسهم مصممون على البذل والعطاء في سبيل زيادة الانتاجية وتحسين نوعيتها وتكوين العلاقات الانسانية مع الادارة والمسؤولين وبقية أعضاء وفصائل المجتمع .

التوازن بين أنشطة العمل وأنشطة الفراغ والترويح :

أثرت التحولات الاجتماعية والحضارية والمادية التي شهدها القطر العراقي بعد ثورة السابع عشر من تموز في مواقف ونظرة أبنائه إزاء توزيع الوقت بين أنشطة العمل وأنشطة الفراغ والترويح فقبل الخمسينات من هذا القرن لم يميز أبناء الشعب العراقي بين أوقات العمل وأوقات الفراغ ولم تتيسر لهم الفرص للتفكير بمجالات الفراغ وأنشطتها . إلا أنه بعد دخول معالم التصنيع الحديث إلى المجتمع وبعد ارتفاع مستويات المعيشة للأفراد على كافة خلفياتهم الاجتماعية وانحداراتهم الطبقية تطورت أنشطة الفراغ والابداع وبدأت الفئات السكانية على اختلاف خلفياتها الاجتماعية تتهافت عليها وتشارك فيها وتستفيد من أهدافها واتجاهاتها الترويحية والسيكولوجية والتربوية . وبدأ المواطنون العراقيون يميزون بين أوقات العمل وأوقات الفراغ ولا يمزجون بينهما . وهذه الحقيقة أصبحت واضحة وجلية بعد معرفة أغلب أبناء المجتمع علاقة نشاطات ومجالات الفراغ بزيادة الانتاجية وتطوير الشخصية . ومن الجدير بالذكر أن علماء اجتماع العمل والفراغ استطاعوا مؤخراً التوصل إلى حقيقة مفادها بأن مشاركة الانسان في مجالات العمل يساعد على تحسين ظروفه الاقتصادية ويحقق له الرفاهية المادية ، غير أنه لا يضمن سعادته النفسية ولا يضمن تحقيق آماله الاجتماعية والروحية[٢٤] . لذا أصبح من ضرورات الحياة خصوصاً بالنسبة للمجتمعات الصناعية الراقية التركيز على مجالات وأنشطة الفراغ والابداع وتحفيز الانسان على المشاركة فيها والتفاعل معها خصوصاً وأن ميل الانسان نحو الدخول في ميدان العمل فقط واهماله كلياً لميادين الفراغ والابداع غالباً ما يقتل عنده طاقاته الجسمانية ومواهبه العقلية والذكائية ، وهذا ما ينتج في النهاية ضعف قابلياته على العمل وتخلف قواه وامكانياته الخلاقة والمبدعة[٢٥] .

وبعد دخول هذه المفاهيم الجديدة التي تؤكد على ضرورة التوازن بين العمل والفراغ إلى العراق بادرت الدولة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي بانتهاج سياسة جديدة ترمي إلى زيادة ساعات الفراغ والاستفادة منها عن طريق ممارسة أنشطة الفراغ والترويح الايجابية وتحفيز الأفراد على المشاركة فيها . ويمكن تلخيص النتائج النهائية لهذه السياسة بالنقاط التالية :

١ ـ اختزال أوقات العمل من ٦٠ ساعة أسبوعياً في عام ١٩٥٠ إلى ٤٢ ساعة أسبوعياً في عام ١٩٧٥ .

٢ ـ مضاعفة أنشطة الفراغ والابداع التي تتلاءم مع مختلف الأعمار ومختلف الانحدارات والخلفيات الاجتماعية .

٣ ـ نشر وتعميم خدمات وأنشطة الفراغ والترويح لتشمل جميع الفئات والعناصر السكانية بعد أن كانت قبل عام ١٩٥٨ تحت احتكار واستغلال الطبقات العليا والبرجوازية في المجتمع .

٤ ـ زيادة كمية النقود التي تصرفها العائلة المتوسطة الحال على أنشطة الفراغ والترويح من ٨٠٠ فلساً شهرياً في عام ١٩٥٠ إلى ٥,٥ دينار شهرياً في عام ١٩٨٠ .

إن تحسن الأحوال المعاشية للمواطنين شجعهم على تقييم نشاطات الفراغ والابداع وتقدير أهميتها في تطوير شخصية الانسان ورفع مكانته الاجتماعية . لكن المشاركة في مجال الفراغ والتفكير في وسائل التسلية والترفيه كان أمراً مستحيلاً في المجتمع العراقي عندما كان الشعب يئن من فاقة الفقر والبؤس ومن التخلف الاجتماعي والحضاري ومن براثن الجهل والأمية التي استورثها من العهود الماضية التي ابتلى بها عندما كان تحت نفوذ الاستعمارين العثماني والبريطاني . لذا لم يفكر المواطن الاعتيادي في ظل هذه الظروف القاهرة بماهية وأهمية وسائل الفراغ والترويح بل كان مشغولاً في تدبير أموره الاقتصادية والاجتماعية المتخلفة . وبعد

تقدم العراق اقتصادياً وتحوله اجتماعياً وحضارياً بدأ المواطن يدرك أهمية وسائل الفراغ والترويح وضرورة مزاولتها . وبدأت الدولة تخطط لتنمية وسائل الفراغ وتشجيع المواطنين على ممارستها والتفاعل معها . من هنا ظهرت الحاجة التي تميز بين مجال العمل ومجال الفراغ وأصبح من الضروري توزيع أوقات المواطن على متطلبات العمل ومتطلبات الفراغ والترويح .

بيد أن مفهوم العمل ينبغي أن يكون متصلاً مع مفهوم الفراغ حيث أن كل واحد منهما مكمل للآخر طالما أن عمل الانسان يساعده على تكوين وخلق الفراغ بصورة مباشرة أو غير مباشرة . والفراغ الذي هو ابتعاد الانسان عن العمل لساعات معينة يعمل على تقوية وتعزيز طاقاته الجسمانية والعقلية والتي غالباً ما تمكنه من انجاز وتلبية المتطلبات المتشعبة لعمله المعقد في هذا الزمن[٢٦] . وبعد فهم وادراك هذه الحقيقة المتعلقة بالتفاعل المشترك بين العمل والفراغ بادرت الدولة بوضع الخطط والمشاريع التي تستهدف تطوير وتنمية خدمات الفراغ لكي تنطبق مع حاجات المواطنين إليها . واستثمرت الأموال الطائلة من أجل تنفيذها ووضعها في متناول أيدي الأفراد . وبعد ظهور وسائل الفراغ المتشعبة في المجتمع كالتلفزيون ، الجرائد والمجلات والكتب ، الحدائق والمتنزهات العامة ، المكتبات العامة ، المتاحف الاثرية ، السياحية والاصطياف ، النوادي والجمعيات ، المسارح والسينمات والمقاهي ، المسابح والمناطق الاثرية . . . الخ . بدأ الناس يتذوقونها ويميلون نحو المشاركة فيها والتفاعل معها . وهنا بدأ معظم الأفراد على اختلاف خلفياتهم وانحداراتهم الاجتماعية والطبقية يدركون أهميتها ويحاولون تحقيق التوازن بين متطلبات العمل ومتطلبات الفراغ[٢٧] .

وأخيراً تبذل قيادة الحزب والثورة في الوقت الحاضر محاولات جبارة ترمي إلى مساعدة الجماهير على الاستفادة من نشاطات الفراغ والابداع ذات المضمون الثقافي والحضاري والاجتماعي وذلك من خلال نشرها بين الجماهير وترسيخها في المجتمع وتخفيض نفقات المساهمة بها والاستفادة منها . فوزارة الثقافة والاعلام تقوم

بتعضيد ونشر وتوزيع الكتب والأبحاث والدراسات ذات المفهوم الانساني الرفيع والأهمية التراثية والاجتماعية العالية وتعرضها على الجماهير بأسعار مخفضة جداً بحيث يستطيع كل مواطن شراءها والاستفادة منها . كما أن الدولة تشجع جميع المواطنين على السياحة والاصطياف في داخل القطر وخارجه وتشرف على المسارح والسينمات من خلال تنظيم مناهجها وأنشطتها وتحديد أسعار بطاقات الدخول إليها بشكل يساعد المواطن ذا الدخل المتوسط والمحدود على الذهاب إليها والتمتع بعروضها وحفلاتها الاسبوعية أو الموسمية . ومثل هذه الاجراءات التي تعتمدها الدولة إزاء مسألة الفراغ والترويح لا بد أن ترسخ المفاهيم الاشتراكية في نفوس الأفراد والجماعات وتساعد المجتمع على المضي في طريق الاشتراكية والتقدم والنهوض الشامل .

الخاتمة :

إن التحولات الاجتماعية والحضارية السريعة التي شهدها القطر العراقي بعد ثورة السابع عشر من تموز عام ١٩٦٨ والتي انعكست في ميادين التنمية الاجتماعية ، المستوى المعاشي للمواطنين ، محو الأمية والثقافة والتربية والتعليم ، المرأة ، الرعاية الاجتماعية وأخيراً العمل والفراغ هي مؤشرات موضوعية لحركة ودانيميكية المجتمع العراقي ودلالات مادية لنهوضه وتقدمه وتنميته الشاملة . وإذا ما استمرت هذه التحولات على ما هي عليه الآن فإن البنى التحتية والفوقية للمجتمع لا بد أن تتطور وتتقدم تقدماً مطرداً له انعكاساته المؤثرة في الانسان وبيئته الطبيعية والاجتماعية . وهنا ينتقل مجتمعنا العراقي من مرحلة حضارية نامية إلى مرحلة حضارية متقدمة ومتطورة تضمن للانسان العربي تكامل شخصيته وتوازنها وإعادة ثقته بنفسه وإمكانيته البشرية الخلاقة وتحقيق استقلاليته وهدافه المصيرية التي يعيش من أجلها ، وفي نفس الوقت تمكن المجتمع العراقي الذي هو جزء من المجتمع العربي من احتلال مكانته المرموقة بين مجتمعات العالم والمساهمة الجدية والفاعلة في تطوير الحضارة الانسانية .

المصادر والمراجع :

(١) التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي ، بغداد ، مطابع دار الحرية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٤٤ .

(٢) الحسن ، احسان محمد (الدكتور) . الأسس الاجتماعية والحضارية للتصنيع في الوطن العربي ، بحث منشور في مجلة قضايا عربية ، العدد التاسع ، أيلول ١٩٨٠ ، ص ١٦٢ .

(3) Lewis, A. The Theory of Economic Growth, London, 1955, P. 165.

(4) Moore, W. The Impact of Industry, Prentice hall, Englewood Cliffs, P.P. 5 - 7.

(٥) الحسن ، احسان محمد (الدكتور) : النتائج والانعكاسات الاجتماعية للتصنيع في العراق ، بحث منشور في مجلة البحوث الاقتصادية والادارية العدد ٤ ، تشرين الأول ١٩٨٠ ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(6) Al - Hassan, Ihsan M. Social Structure and Family Charge in Iraq under conditions of Inudstrialization, A Ph. D. Thesis in Sociology of the Hungarian Academy of Sciences, Budapest, 1977, P. 14.

(7) Ibid., P. 15, Plus the Annual Abstract of Statistics, Ministry of Planning, Iraq, 1980.

(8) Ibid., P. 16.

(9) Goode, W. World Revolution and Family Patterns, the Free Press of Glencoe, 1963, P. 140.

(١٠) الشيباني ، ضياء . العائلة في حي جميلة ، اطروحة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، ١٩٧٤ .

(١١) فرح ، الياس (الدكتور) . الأبعاد السياسية للحملة الوطنية الشاملة لمكافحة الأمية في العراق ، التقرير النهائي والتوصيات لمؤتمر بغداد لمحو الأمية الالزامي ، بغداد ، ١٩٧٦ ، حي ٨٨٩ .

(١٢) التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي ، ص ١٦٧ .

(١٣) حمادى ، صبري . الحملة الوطنية الشاملة لمحو الأمية : المستلزمات والأبعاد . مقالة منشورة في مجلة تعليم الجماهير - مجلة متخصصة ، العدد ١٢ ، السنة الخامسة ١٩٧٨ ، ص ١٥٨ .

(١٤) الحسن ، احسان محمد (الدكتور) . التحول الاجتماعي في المؤسسات الثقافية والتربوية في العراق ، مقالة نشرت في جريدة الجمهورية البغدادية بتاريخ ٢٦/ ٩/ ١٩٧٨ .

(١٥) قانون الرعاية الاجتمعية رقم ١٢٦ لسنة ١٩٨٠ الذي أصدره مجلس قيادة الثورة بتاريخ ٢٨/ ٦/ ١٩٨٠ .

(١٦) بعض المنطلقات النظرية التي أقرها المؤتمر القومي السادس لحزب البعث العربي الاشتراكي في عام ١٩٦٣ ، القيادة القومية ، المكتب الثقافي ، ص ٧٤ .

(١٧) البروفسور اندراش هيكدش . تقسيم العمل والبناء الاجتماعي للاشتراكية ، ترجمة الدكتور احسان محمد الحسن بحث منشور في مجلة البحوث الادارية والاقتصادية في جامعة بغداد ، العدد الأول لسنة ١٩٧٩

(١٨) نامق ، صلاح الدين (الدكتور) : أسس التنمية الاقتصادية في البلاد العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٧ - ٢٩ .

(١٩) فرح ، الياس (الدكتور) . المرأة في ايديولوجية ونضال حزب البعث العربي الاشتراكي ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ١٠ .

(٢٠) صدام حسين (رئيس الجمهورية العراقية) . عن الثورة والمرأة ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٧ .

(٢١) التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي ص ١٦٥ .

(٢٢) ارجع إلى بحث الاتحاد العام لنساء العراق الموسوم «دور العلم والتكنولوجيا في التنمية القومية» الذي قدم إلى الحلقة الدراسية الموسعة المنعقدة في شهر حزيران عام ١٩٧٨ ، بغداد .

(٢٣) ارجع إلى احصاءات القوى العاملة للنساء ، الاتحاد العام لنساء العراق .

(24) Maldague, M. The Concept of Leisure, an atticle Published in Free Time and Self fulfillemtn, Van Cle Foundation, Brussels, 1976, P. 74.

(25) Szalai, A. Time Budget Research in Hungary, Budapest, 1975, P. 41.

(26) Anderson, Work and Leisure, London, Routledge and Kegan Paul, 1961, P. 182.

(27) Al - Hassan, Ihsan M. Rise in Standard of Living and Sociological Changes, Iraq Today, No. 82, Vol. IV, Feb, 1979, PP. 14 - 15.

حقــوق الارتفــاق
وأسـباب كسـبها إجمالاً
دراسة مقارنة

د. سعيد أمجد محمد سعيد

تقديم ومنهج:

اخترت هذا الموضوع لأكتب فيه نظراً لما له من أهمية عملية كبرى، وقد قيل في ذلك إنه ما من نوع من الحقوق يمكن أن يلعب دوراً عظيمًا في الحياة العملية مثل حقوق الارتفاق، وإن اعتبارات متسلطة تمليها المصلحتان العامة والخاصة تفرض التسليم بها. ذلك أنه لا يوجد من الحقوق ما هو أكثر أهمية منها في مصلحة الزراعة والصناعة، وعموماً لمصلحة جميع علاقات الجوار[1].

ومن الواضح أن دراسة حقوق الارتفاق على سبيل الشمول والاستيعاب والإحاطة بالتفاصيل والدقائق هي دراسة لا يتسع لها بحث، وإنما تحتاج إلى مؤلفات عديدة. ولذا، وكما يشير إليه عنوان البحث، فقد استبعدنا من دائرته استعمال حقوق الارتفاق وأسباب انقضائها، كما استبعدنا تفصيل أسباب نشوئها، راجين أن نخصص لذلك بحوثاً مستقلة.

وسيقتصر بحثنا هذا على التعريف بحقوق الارتفاق، وبيان طبيعتها

(١) ديمولومب، شرح القانون المدني الفرنسي، جـ ١١ فقرة ١.

وخصائصها ومحلها وتبرير تقريرها وتصنيفها، ودراسة ذلك تمهد للشق الثاني من البحث الذي يتناول أسباب نشوئها إجمالاً. والبحث بشقيه يجري في مجالين: المجال القانوني، ومجال الفقه الإسلامي. وسنتناول بشيء من التوسع الارتفاقات التي تنشأ بحكم الشرع أو القانون، فقد لا يتيسر لنا أن نعود إليها عند بحث أسباب نشوء حقوق الارتفاق تفصيلاً في المستقبل.

وأود أن أشير مسبقاً إلى أن اصطلاح حقوق الارتفاق يكاد ألا يكون مستعملاً في الفقه الإسلامي عدا المحدث منه، وإن كانت حقائق الاصطلاح وما يندرج تحته معروفة ومدروسة فيه، ولكن لم يبحثها الفقهاء تحت ذلك العنوان أو يجمعوا شتات بحوثها في موضع واحد، وإنما نجد تلك البحوث موزعة على مواضع مختلفة من أبواب الفقه. ولذلك رأيت أن أبدأ بعرض فقرات البحث في المجال القانوني، ثم أتناول مضمونها من مواضعه في الفقه الإسلامي، مقارناً بين المجالين في ذلك.

تعريف حقوق الارتفاق

في المجال القانوني:

عرف المقنن الفرنسي الارتفاق بأنه: **تكليف مقرر على عقار لمنفعة عقار يعود إلى مالك آخر (م٦٣٧ مدني).**

وعرفه المقنن المصري في المجموعة المدنية الملغاة بأنه: **هو تكليف مقرر على عقار لمنفعة عقار آخر أو لمنفعة الميري (م٣٠ مدني أهلي / ٥١ مختلط)**[1].

---

(١) المراد بمنفعة الميري منفعة الدولة، ولم ترد هذه العبارة في نص القانون المختلط. والمقصود بالتكاليف المقررة لمنفعة الميري هو ما يسمى بحقوق الارتفاق الإدارية، كالحقوق التي تستلزمها ملكية الدولة للشوارع والمجاري وغيرها من الأموال العامة،

وفي القانون المدني المصري الحالي عرفت المادة (١٠١٥) الارتفاق بأنه: حق يحد من منفعة عقار لفائدة عقار غيره يملكه شخص آخر.

ويمثل ذلك عرفته المادة (١٢٧١ مدني عراقي): الارتفاق حق يحد من منفعة عقار لفائدة عقار غيره يملكه مالك آخر.

وعرفه المقنن الليبي بذات ما عرفه به المقنن المصري (م١٠٨٨ مدني).

أما المقننان السوري واللبناني فعرفا الارتفاق بتعريف مقارب لتعريف القانون الفرنسي، مع زيادة متعلقة بتحديد طبيعة التكليف (م٩٦٠ مدني سوري و٥٦ من قانون الملكية العقارية اللبناني)، وسيأتي ذكر تلك الزيادة.

ما يستفاد من التعريفات المتقدمة:

يتضح من تلك التعريفات، المتماثلة في صيغتها أو المتفقة في مدلولها، أن الارتفاق تكليف أو عبء على عقار، وهو في ذات الوقت حق مقرر لمنفعة عقار آخر. فعناصر الارتفاق ثلاثة: عقار مرتفق هو الذي تقرر الارتفاق لمنفعته، وعقار مرتفق به هو المحمل بالعبء، وموضوع الارتفاق الذي هو الحق أو العبء. والواقع أن الارتفاق يتمثل في رابطة أو علاقة بين عقارين، وقيل في ذلك: كما أنه لا يوجد التزام دون حق، ولا يتصور وجود مدين بلا دائن، فإن تحميل عقار بعبء يفترض بالمثل وجود عقار آخر لمصلحته فرض ذلك العبء[1]. فمن

فيهدف تقريرها إلى تحقيق منفعة عامة، وتعتبر هذه الحقوق أيضاً من الأموال العامة. انظر الوسيط، للدكتور السنهوري، جـ ٩ فقرة ٥٤٩ هامش ص ١٢٧٩ وجـ ٨ فقرة ٥٨.

(١) لوران، شرح القانون المدني الفرنسي، جـ ٧ فقرة ١٥٢ - بودري لاكانتينيري، شرح القانون المدني الفرنسي، جـ ١ فقرة ١٦٢٩.

عرف الارتفاق بأنه تكليف، كالمقنن الفرنسي، كان قد نظر إلى الطرف السلبي في تلك العلاقة، ومن عرفه بأنه حق، كالمقنن المصري في القانون الحالي والمقنن العراقي، نظر إلى الطرف الإيجابي فيها.

والطرف السلبي في تلك العلاقة هو ذات العقار المحمل بالعبء لا الشخص المالك له، والطرف الإيجابي فيها هو كذلك ذات العقار المقرر لمنفعته العبء لا شخص مالكه. فالارتفاق علاقة بين عقارين وليست بين شخصين أو بين شخص وعقار[1]. وقيل في ذلك إن مالك العقار المنتفع يتصرف كممثل لهذا العقار الذي هو صاحب الحق الحقيقي في الارتفاق. وإن هذه الفكرة وإن كانت لا تنهض من وجهة النظر الفلسفية، لأن المضايقات يتحملها أشخاص مثلما يكون النفع لأشخاص آخرين، إلا أنها ملائمة تماماً من وجهة النظر القانونية ومتفقة مع القواعد الرئيسة[2].

وظاهر في تعريف الارتفاق أنه يستلزم وجود عقارين متميزين ومملوكين لشخصين مختلفين، فلا يتصور تقرير حق ارتفاق لبعض أجزاء عقار على أجزائه الأخرى[3]، كما أنه لا يمكن لمالك عقارين أن يقرر حق ارتفاق لأحدهما على الآخر. فإذا أعد مالك عقارين أحدهما لمنفعة الآخر لا يكون ذلك إنشاء حق ارتفاق، وإنما مجرد استعمال لحق الملكية[4].

---

(١) ولم يعد اصطلاح الارتفاق شاملاً لما كان يسمى بالارتفاقات الشخصية في القانون الروماني، فتلك حقوق عينية أيضاً ولكنها تقرر لمصلحة شخص على شيء.

(٢) جوسران، شرح القانون المدني الفرنسي، جـ ١ فقرة ١٩٧٠ و١٩٧١.

(٣) فتخصيص المالك بعض أجزاء عقاره لمنفعة أجزاء أخرى يمثل مجرد حالة واقعة لا تسمى بحق ارتفاق، ولكن يمكن أن تصبح حق ارتفاق إذا انفصلت ملكية أجزاء العقار وآلت إلى مالكين مختلفين مع الإبقاء على تلك الحالة، وهو ما يسمى بكسب حق الارتفاق بتخصيص المالك الأصلي. وذلك يجري أيضاً على حالة تخصيص المالك أحد عقاراته لمنفعة عقار آخر مملوك له، فيقال فيها ما تقدم.

(٤) انظر بودري، جـ ١ فقرة ١٦٢٩ـ بلانيول، شرح القانون المدني الفرنسي، جـ ١ فقرة ٢٨٨٣.

وإن كان نص القانون المدني المصري القديم لم يذكر في تعريف الارتفاق أن العقار المنتفع مملوك لشخص آخر فإن ذلك لا يعني إسقاط هذا الشرط، بل كان شرطاً لازماً ومتفقاً عليه فيه(١).

فمما تقدم تستفاد الشروط الواجب توافرها جملة لتكوين حق الارتفاق، وليس من بينها تلاصق العقارين فإنه ليس بشرط لتقرير ارتفاق على أحدهما لمصلحة الآخر(٢).

ومن رجال القانون من لاحظ عدم الإفصاح عن مضمون العبء أو الحق في تعريف حقوق الارتفاق، وذكر في ذلك أن التعدد غير المحدود في تطبيقاتها يجعل من المستحيل وضع تعريف عام يبين موضوعها، بخلاف ما هو الحال بالنسبة للحقوق العينية التي محلها غير متغير، لذا فإنه عندما يراد تعريف الارتفاق لا بد أن يكتنف التعريف غموض. وقد أورد ذلك الأستاذ (بلانيول) ولكنه أضاف أنه من الممكن إعطاء صيغة تحدد طبيعة ذلك العبء دون الدخول في التفصيلات، وذلك بأنه تارة يكون بمنح الغير حق القيام بأفعال على العقار المحمل بالعبء، وأخرى بأن تسحب جزئياً من مالك هذا العقار ممارسة حقوقه(٣). وهذا مافعله المقننان السوري واللبناني بإضافتهما ذلك في تعريفهما لحق الارتفاق (م٩٦٠ ف٢ مدني سوري و٥٦ من قانون الملكية العقارية اللبناني)، وهي الزيادة التي سبقت الإشارة إليها. وأرى أن إغفال ذكر ذلك في تعريف حق الارتفاق لا يقدح في التعريف، لما هو معروف من وجوب مراعاة الإيجاز في التعريفات، ولأن أي تعريف مهما كان مسهباً لا بد من تفصيل ما أجمل فيه. والإيضاح المشار إليه يذكر

---

(١) انظر الملكية والحقوق العينية، للدكتور محمد كامل مرسي، فقرة ٢٩٦ و٢٩٧.

(٢) بودري، جـ١ فقرة ١٦٢٩ ـ محمد كامل مرسي، فقرة ٢٩٧

(٣) شرحه للقانون المدني الفرنسي، جـ ١ فقرة ٢٨٨٠. وانظر بودري، جـ ١ فقرة ١٦٢٩.

عادة في تقسيم حقوق الارتفاق.

في الفقه الإسلامي:

تعريف الارتفاق لغة: الارتفاق لغة الاتكاء على المرفق والانتفاع، ورفق فلاناً نفعه كأرفقه، واسترفقه استنفعه، وارتفق به انتفع[1]. والمرفق، بكسر الميم وفتح الفاء وبفتح الميم وكسر الفاء، موصل الذراع في العضد، والمرفق من الأمر ما ينتفع به، ومرافق الدار المتوضأ والمطبخ ومصاب الماء ونحوها. والرفق، بكسر الراء، اللطف وحسن الصنيع وما استعين به. وماء رفق ومرتع رفق، بفتح الراء والفاء، أي سهل المطلب[2].

وقوله تعالى: ﴿ ويهيء لكم من أمركم مرفقاً ﴾[3]. أي ما ترتفقون وتنتفعون به[4]. وقوله: ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾ أي متكأ، على سبيل المقابلة والمشاكلة لقوله: ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾[5].

تعريفه اصطلاحاً: سبقت الإشارة إلى أن اصطلاح حقوق الارتفاق هو اصطلاح محدث في الفقه الإسلامي، حيث لا نجده في غير المؤلفات الفقهية المعاصرة أو القريبة العهد التي ألفت بأسلوب حديث. ولكن إطلاق الحقوق على ضروب من الارتفاقات شائع فيها نص عليه

---

(١) انظر أساس البلاغة مادة رف ق. ـ القاموس المحيط باب القاف فصل الراء.ـ تاج العروس باب القاف فصل الراء. ـ الصحاح باب القاف فصل الراء.

(٢) انظر المراجع السابقة، المواضع المشار إليها.

(٣) الكهف آية ١٦. وقرىء على الوجهين المتقدمين، وذكر أنه يجوز بفتح الميم والفاء ولم يقرأ به (الصحاح باب القاف فصل الراء).

(٤) تفسير البغوي، بهامش الخازن، جـ٤ ص ١٦٦.ـ البيضاوي، ص ٣٨٨.ـ النسفي، حـ ٢ ص ٢٨٠.

(٥) الكهف آية ٢٩ و٣١. وانظر البيضاوي ص ٣٩١.ـ النسفي، جـ ٢ ص ٢٨٠. وفي الخازن والبغوي جـ ٤ ص ١٧١: (مرتفقاً) منزلاً ومجتمعاً ومجلساً ومقراً، وقال البغوي إن أصل المرتفق المتكأ.

الفقهاء، نحو حق المرور وحق الشرب وحق تسييل الماء. ويظهر ذلك بصفة خاصة في الفقه الحنفي، وفي هذا الفقه تستعمل كلمة الحقوق وكلمة المرافق مترادفتين في التعبير عما يعم الحقوق المذكورة، وظاهر الرواية في المذهب أن المرافق هي الحقوق[1]. ويستعمل الفقهاء كلمتي الارتفاق والإرفاق فيما يتناول، الانتفاع بالمياه والطرق ونحوها[2]. ومن الفقهاء المالكية من عرف الإرفاق بأنه إعطاء منافع العقار أو منافع تتعلق بالعقار، وذكر في ذلك الإرفاق بماء أو بطريق في موضع من أرضه يمر عليه الغير أو يجري عليه الماء إلى عقاره[3]. ثم ظهر تعريف حق الارتفاق في المؤلفات الحديثة. وأول من عرف حق الارتفاق في الفقه الإسلامي هو قدري (باشا)، حيث أورد في المادة (٣٧) من مرشد الحيران أن: الارتفاق هو حق مقرر على عقار لمنفعه عقار لشخص آخر. وتابعه غيره، فعرفوا الارتفاق بمثل ما عرفه به أو بما هو قريب منه[4].

---

(١) انظر الفتاوى الخانية، بهامش الفتاوى الهندية، جـ ٣ ص ٢١٢-٢١٣.- جامع الفصولين، جـ١ ص ٩٠.- تنوير الأبصار والدر المختار ورد المحتار، جـ ٤ ص ٢١٠-٢١٢. وممن يكثر أيضاً في إطلاق الحقوق على مختلف الارتفاقات الشافعية، انظر وجيز الإمام الغزالي، جـ ١ ص ١٠٨.- الأنوار وحاشية الكمثري، جـ ١ ص ٣٠٦.

(٢) انظر في الفقه المالكي مختصر خليل وشرح المواق، بهامش الحطاب، جـ٥ ص ١٧٥. وفي الفقه الشافعي الأحكام السلطانية، للماوردي، ص ١٦٢ و١٦٦ و١٦٧. وطرح التثريب في شرح التقريب، ٦ ص ١٧٩. وفي الفقه الحنبلي الأحكام السلطانية، لأبي يعلي، ص ٢١٧ و٢٢٤. وفي الفقه الجعفري اعتبار الطرق من المرافق (الروضة البهية جـ ١ ص ٣٣٨). ولكن أكثر ما ورد في المواضع المشار إليها من المراجع المذكورة لا يصدق عليه أنه حق ارتفاق بمعناه الاصطلاحي.

(٣) انظر الأرجوزة المسماة بتحفة الحكام وشرحها البهجة للتسولي، وبالهامش شرح التاودي المسمى بحلى المعاصم في شرح تحفة ابن عاصم، جـ ٢ ص ٢٥١.

(٤) الأستاذ أحمد أبو الفتح، المعاملات في الشريعة الإسلامية والقوانين المصرية، ص ٤٣. استاذنا الشيخ محمد أبو زهرة الملكية ونظرية العقد، ص ٧٥.- الشيخ أحمد إبراهيم، المعاملات الشرعية المالية، ص ١٢ و١٧.- وعرفه شارحاً مرشد الحيران ببعض تعريف المادة ٣٧ منه فجاء تعريفها قاصراً. وعرفه الدكتور أحمد فهمي أبو سنة بأنه منفعة مرتبة على عقار لصالح عقار آخر (النظريات العامة للمعاملات في الشريعة الاسلامية، ص ٧٠).

ما يلاحظ في ذلك:

الصلة ظاهرة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للارتفاق، فالانتفاع هو محور معناه اللغوي، والارتفاق اصطلاحاً ضرب من الانتفاع مقرر على عقار. ويلاحظ فيما سبق أن تعبير حقوق الارتفاق ورد مجزأ في الفقه الإسلامي، حيث استعملت كلمة الارتفاق والإرفاق والمرافق فيما يرجع إلى تلك الحقوق أو يتعلق بها، كما استعملت كلمة الحقوق وحدها للدلالة على ما يندرج في حقوق الارتفاق. وتقدم في الفقه الحنفي أن الحقوق ترادف المرافق في ظاهر الرواية.

وقبل أن أشرع بمقارنة ما ذكرت في المجال القانوني بما ورد في الفقه الإسلامي تجدر ملاحظة أنه مع عدم وجود اصطلاح حقوق الارتفاق بذاته في الفقه الإسلامي، وعدم تعريفها فيه، يجب ألا نتوقع وجود ذات البحوث والتفصيلات التي أوردها رجال القانون في تلك الحقوق. ولكن بالرغم من ذلك يمكن القول إن الحقائق الأصيلة والمعالم البارزة لتلك الحقوق موجودة في الفقه الإسلامي، وهذا ما سنحاول إبرازه.

أما التعريف الذي أورده مؤلف مرشد الحيران فالظاهر أنه استقاه من تعريف القانون الفرنسي لتلك الحقوق، إلا أنه، خلافاً لهذا القانون، نظر إلى الناحية الإيجابية في العلاقة بين العقارين فعرف الارتفاق بأنه حق، وذلك ما فعله بعده المقنن المصري في القانون المدني الحالي والمقننان العراقي والليبي. وتلك النظرة تتفق مع ما ذهب إليه فقهاء الشريعة فيما يندرج في الارتفاقات وتعبيرهم عنها بالحقوق، بل إن منهم من عنون لها بباب الحقوق[١].

وكون العلاقة ثابتة بين عقارين وارد في الفقه الإسلامي أيضاً، وإن لم

---

(١) شرح الزيلعي للكنز وحاشية الشلبي، جـ ٤ ص ٩٧. ـ الدر المختار ورد المحتار، جـ ٤ ص ٢١٠.

يصرح بذلك الفقهاء، ولعل عدم تصريحهم به يرجع إلى ما فيه من افتراض، فقد سبق ذكر عدم استقامة فكرة ثبوت الحق للعقار ووقوع التكليف عليه من وجهة النظر الفلسفية، وتبرير إقرار تلك الفكرة باعتبار اتساقها مع القواعد القانونية. ومثل هذا الاعتبار له مكان في الفقه الإسلامي، وسنجد في بيان الفقهاء لدوام الحق وتبعيته للعقار ما يؤيد ذلك. وثبوت الحق أو التكليف على العقار ظاهر فيما تقدم من أمثلة الارتفاقات[1]، وقد يفصح عنه ما تقدم من تعريف العلامة التاودي للإرفاق بأنه إعطاء منافع تتعلق بالعقار. وأما ثبوت الحق للعقار فيلاحظ فيه أن الفقهاء ينسبون الحق إلى الشخص أحياناً، نحو قولهم: ما كان له من حق تسييل الماء في ملك إنسان خاصة[2]، أو قولهم: لو كان لرجل حق المرور على سطح معصرة لآخر[3]، أو ما إذا كان الطريق لشخص في بستان آخر[4]، ولكنهم لا يريدون بذلك مجرد حق انتفاع شخصي، بل يريدون حقاً تابعاً للعقار هو حق ارتفاق.

ويظهر هذا جلياً في مثل قولهم: لو ظهر في الدار المبيعة طريق لدار أخرى أو مسيل ماء، أو قولهم: وإذا كان طريق الدار المبيعة أو مسيل مائها في دار أخرى[5]. وما سيأتي في كلامهم من تبعية الحق للعقار يفصح عن تقريره لمصلحته. وأما اشتراط كون العقارين، المرتفق والمرتفق به، يعودان إلى مالكين فهو غير وارد في أقوال الفقهاء عند

---

(١) ولا يقدح في ذلك أن الشرب ينصب على المياه، لأنها تابعة للعقار. وقد ورد في الفتاوى الهندية: إن الشرب وإن كان عيناً حقيقة إلا أنه منفعة معنى، لأنه تابع للأرض كالمنافع (جـ ٥ ص ٤٠٧) والشرب لغة نصيب من الماء. وشرعاً نوبة الانتفاع بالماء أي وقته وزمانه، وهو معنى لغوي أيضاً، ويصح إرادة المعنيين (القاموس المحيط باب الباء فصل الشين. والدر المختار ورد المحتار، جـ ٥ ص ٣١١).

(٢) حاشية الشلبي على الزيلعي، جـ ٤ ص ٩٩.

(٣) الفتاوى الخيرية، جـ ٢ ص ٢٠٣.

(٤) مستدرك الوسائل في فقه الإمامية، ص ١٥١.

(٥) حاشية الشلبي على الزيلعي، جـ ٤ ص ٩٩.

بحثهم لتلك الحقوق، ومرجع ذلك ما قدمنا من عدم وجود الاصطلاح القانوني ذاته في الفقه الإسلامي، وإن تلك الحقوق لم تبحث بذات الكيفية في المجالين. نعم من الواضح أنه في مثل قول الفقهاء: «الإرفاق بماء أوطريق» هم يقصدون ترتيب حق لعقار يعود إلى غير المرفق، ونجد هذا أيضاً في بعض الأمثلة المتقدمة، ولكن الواقع وبصفة عامة أنهم عندما يتكلمون عن الحقوق والمرافق هم يريدون ما يعود منها إلى عقار يملكه نفس مالك العقار المقررة عليه، وما يعود منها إلى عقار يملكه شخص آخر. وكلتا الحالتين ترد في المجال القانوني، ولكن الحالة الثانية وحدها تكون حق ارتفاق وفقاً للاصطلاح القانوني. أما الحالة الأولى فتمثل مجرد حالة واقعة يمكن أن تصبح حق ارتفاق إذا ما انفصلت ملكية العقارين.

طبيعة حقوق الارتفاق وخصائصها ومحلها ومبررات تقريرها

في المجال القانوني:

طبيعة تلك الحقوق وخصائصها:

حقوق الارتفاق حقوق عينية عقارية متفرعة من حق الملكية، وهي وإن كانت من الحقوق العينية الأصلية، إلا أنها من حيث النتيجة تكون تابعة لغيرها، وذلك بحكم تبعيتها للعقار المقررة لمنفعته والعقار المقررة عليه. وينبني على تبعيتها للعقار المقررة لمنفعته، أي العقار المرتفق، عدم جواز التصرف بها بصورة مستقلة عن هذا العقار. وهي بطبيعتها دائمة ومؤبدة، ودوامها يأتي أيضاً من كونها تابعة لعقار، والدوام وإن كان من طبيعتها والأصل فيها إلا أنه ليس صفة لازمة لا انفكاك عنها، فتثبت لها هذه الصفة ما لم يتفق على خلاف ذلك ويجر إنشاء تلك الحقوق لمدة محدودة.

وحقوق الارتفاق غير قابلة للتجزئة، فإذا جزىء العقار المرتفق أو العقار المرتفق به يبقى الارتفاق مستحقاً لكل جزء وعلى كل جزء، ولا يجوز تقريره لجزء شائع في عقار أو على جزء شائع منه[1].

محل حقوق الارتفاق:

محل هذه الحقوق العقارات بطبيعتها فقط، فتستبعد العقارات بالتخصيص والعقارات المعنوية[2] أن تكون محلاً لها، ولا يبقى ما يصلح محلاً لتلك الحقوق سوى الأرض والمنشآت المقامة عليها بشرط جواز التعامل بها. ولكن مع ذلك يجوز أن تكون الأموال العامة، أي المملوكة للدولة ملكية عامة، محلاً لتقرير حقوق ارتفاق عليها ما دامت هذه الحقوق تتفق مع ما أعدت له تلك الأموال أو لا تتعارض مع إعدادها[3]. ونص على ذلك المقننان المصري والليبي (م١٠١٥ مدني مصري و١٠١٨ليبي)، ولم ينص عليه المقننون العراقي والسوري واللبناني.

تبرير إنشاء حقوق الارتفاق:

من المتفق عليه أن تقرير أعباء على عقار لمصلحة عقار آخر يكون

---

(١) انظر: بلانيول، جـ ١ فقرة ٢٨٨٦ ـ ٢٨٨٨ و٢٨٩٠. ـ بودري، جـ ١ فقرة ١٦٢٩ و١٦٣٢. جوسران، جـ١ فقرة ١٩٧١ و١٩٧٢. ـ محمد كامل مرسي، فقرة ٢٩٨. ـ السنهوري،جـ ٩ فقرة ٥٥٠.

(٢) قلما يستعمل تعبير العقارات المعنوية، والمراد به الحقوق العقارية، فلا يجوز تقرير حق ارتفاق على حق ارتفاق آخر (انظر: جوسران، جـ١ فقرة ١٩٦٩. ـ بلانيول، جـ١ فقرة ٢٨٨١ ـ بودري، جـ ١ فقرة ١٦٢٩).

(٣) ديمولومب، جـ١١ فقرة ٢. ـ بودري، جـ ١فقرة ١٦٢٩. ـ بلانيول، جـ١ فقرة ٢٨٨١. ـ جوسران، جـ١ فقرة ١٩٦٩. وبين مؤلفو المراجع الثلاثة الأخيرة أن الأشجار لا تكون محلاً لتقرير حق ارتفاق، بالرغم من اعتبارها عقاراً ما دامت متصلة بالأرض، وذلك لأن بقاءها في الأرض يكون لمدة قصيرة نسبياً لا تتفق مع طبيعة الارتفاق الدائمة. وأشاروا في ذلك إلى قرار محكمة النقض الفرنسية في ٦ نيسان ١٨٤١.

على سبيل الاستثناء، وذكر في ذلك أن تحميل عقار بحق ارتفاق هو استثناء من القاعدة العامة الكبرى للتشريع الحديث التي لا تسلم ببتر أجزاء من حق الملكية بصورة دائمة[1]. ومع تلك الصفة الاستثنائية التي يجري بها نشوء حقوق الارتفاق فإن هذه الحقوق غير واردة على سبيل الحصر، ويمكن للأفراد أن يتفقوا على إنشاء ارتفاقات أخرى غير التي وردت في نصوص القانون[2]. وقد برر التسليم بها قانوناً باعتبارات المصلحة العامة، سواء ما يعود منها إلى الزراعة أو الصناعة أو غيرهما. فالعقار يمكن أن تتحقق له مكاسب بإنشاء حق ارتفاق له على عقار آخر، وأن المكاسب والمزايا المتحققة له تفوق بكثير المضايقات التي تنجم عن ذلك بالنسبة للعقار الآخر ولا يمكن أن تقارن بها[3]. ومع ذلك قد يثار ذكر بعض المحاذير حول تقرير تلك الحقوق.

محاذير كانت تلابس إنشاء تلك الحقوق:

كان من المعالم الرئيسة لنظام الإقطاع التوصل إلى إخضاع الأشخاص بواسطة إخضاع العقارات، وكانت الارتفاقات تعتبر وسيلة لإنشاء ارستقراطية عقارية. فكان من الطبيعي أن يحرص المقنن الفرنسي الذي استلهم مبادىء الثورة الفرنسية على تحاشي ذلك، حيث نص في المادة ٦٣٨ مدني على أن: الارتفاق لا يثبت أية رفعة أو استعلاء لعقار على آخر.

ويقول الأستاذ (بودري لاكانتينيري): إن الارتفاقات، في مصدرها أو هدفها، لم تعد وسيلة لإنشاء نوع من الارستقراطية العقارية، وإن

---

(١) ديمولومب، جـ ١١ فقرة ١.

(٢) بلانيول، جـ١ فقرة ٢٨٨٠.

(٣) ديمولومب، جـ١١ فقرة ١. وانظر بودري، جـ ١ فقرة ١٧٧٣.

حرية العقارات كحرية الأشخاص مبدأ من مبادىء النظام العام لا يمكن إرادة الأشخاص أن تناقضه[1].

ويلاحظ شراح القانون المدني الفرنسي أن المقنن عنون، في الباب الرابع من الكتاب الثاني، للارتفاقات بالخدمات العقارية، واستعمل ذات التعبير في المادة (٥٢٦) هادفاً بذلك إلى بيان كون الارتفاقات التي أجازها ونظم أحكامها لا علاقة لها بالارتفاقات الاقطاعية القديمة. ولعدم التأثر بشبح الاقطاع استعملت في الاصطلاح الحديث كلمة الارتفاقات وحدها، دون تخصيصها بالارتفاقات العقارية، لأن تلك الكلمة لا تتناول إلا هذه الارتفاقات دون غيرها. وتجنب المقنن إطلاق اسم الارتفاقات الشخصية على ما كان مندرجاً فيها (الانتفاع والاستعمال والسكنى) وعبر عن هذه بأسمائها الخاصة. وكان العقار المنتفع يسمى بالعقار السائد، والمحمل بالعبء يسمى بالخادم، فاستبدل المقنن الفرنسي التسمية التقليدية وعبر بالعقار الذي لأجله أنشىء الحق (م ٧٠٨ و٧٠٩) والعقار الذي له الحق (م٧٠٢ و٧٠٥) والعقار المدين بالارتفاق (م٧٠٠). ومع ذلك فإنه خاطر باستعمال تعبير العقار الخاضع (م٦٩٩ ـ ٧٠١)، وذكر في ذلك أنه لم يستعمل هذا التعبير إلا مع بعض التحفظ، خشية إيقاظ ذكرى الارتفاقات الاقطاعية[2].

وقد اختار المقننون، المصري والعراقي والليبي والسوري واللبناني، تعبيراً مناسباً لا مطعن فيه، حيث عبروا بالعقار المرتفق والعقار المرتفق به[3].

---

(١) بودري، جـ١ فقرة ١٦٢٩.

(٢) ووقع أيضاً في محذور استعمال عبارة العقار الخادم (م ٦٩٥). انظر: ديمولومب، جـ١١ فقرة ٣.ـ بودري، جـ١ فقرة ١٦٢٩.ـ بلانيول، جـ١ فقرة٢٨٧٩ و٢٨٨٢

(٣) انظر مثلاً: م ١٠٢٢ مدني مصري، ١٢٧٧ عراقي، ١٠٢٤ ليبي، ٩٩٢ سوري، ٨٩ من قانون الملكية العقارية اللبناني.

في الفقـه الإسـلامي:

طبيعة حقوق الارتفاق وخصائصها:

بدراسة ما ورد في الفقه الإسلامي حول هذه الحقوق نجد أن لها فيه ذات الطبيعة والخواص التي تقدم ذكرها في المجال القانوني. فهي لها طبيعة الحقوق العينية، حيث تتمثل في سلطة تمارس على شيء. وإن كان فقهاء الشريعة لم يعنوا بتقسيم الحق إلى عيني وشخصي، ولم يستعملوا هـذين الاصطلاحـين، فإن مضمـون القسمة والتمييـز بـين القسمين ليسا محل خلاف عندهم. وقد أورد هذا أستاذنا الشيخ علي الخفيف، وبحث حقوق الارتفاق في الفقه الإسلامي فيما يقابل ما يذكره علماء القانون في الحق العيني(١). وهي حقوق عقارية لتعلقها دائمًا بعقار، وهذا واضح فيما مر من أمثلتها في الفقه الإسلامي، كحق المرور وحق المجرى. ونجد في المؤلفات الفقهية الحديثة من يصف تلك الحقوق بأنها حقوق عينية عقارية(٢).

وأما كونها متفرعة من حق الملكية فإنه ظاهر في الفقه الإسلامي، حيث يقسم الفقهاء الملك إلى ملك عيني وملك منفعة، مبينين اجتماعهما وانفرادهما، ويضيفون إليهما ملك الانتفاع، الذي يفيد مجرد الإباحة عند الكثير من الفقهاء(٣). وحقوق الارتفاق تعـد نوعـاً خاصـاً من ملك المنفعة، فالأحكام التي يوردونها في هذه الحقوق تدل على أنها من قبيل ملك المنفعة عندهم، ونجـد التصـريـح بـذلـك في بعض المؤلفـات المعاصرة(٤)، ومنها ما وصف فيه حق الارتفاق بأنه حق يتعلق بمنافع

---

(١) الحق والذمة، ص ٦٠ ـ ٦٤. وذكر الدكتور أحمد فهمي أبو سنة تلك الحقوق ضمن الحقوق العينية (النظريات العامة للمعاملات، ص ٧٠).

(٢) الشيخ أحمد إبراهيم، المعاملات الشرعية المالية، ص ١٢ و١٨.

(٣) الأشياء والنظائر، للسيوطي، ص ٣٨١. ـ فروق القرافي، جـ ٣ ص ٢١٢ ـ ٢١٤. ـ الأشباه والنظائر لابن نجيم وشرح الحموي، جـ ٢ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

(٤) انظر مثلاً الحق والذمة، ص ٠٦٣ ـ النظريات العامة للمعاملات، ص ٧٠.

العقار على وجه مخصوص[1]. ومن مؤلفيها من أطلق على حق الارتفاق اسم حق الانتفاع العيني، في مقابل حق الانتفاع الشخصي الذي يعم ملك المنفعة وملك الانتفاع في الاصطلاح الذي جرى عليه[2] ومن الواضح أنه اصطلاح مستحدث في الفقه الإسلامي، وقد يلتبس فيه حق الارتفاق بحق الانتفاع الذي هو من الحقوق العينية في الاصطلاح القانوني. والظاهر أن صاحب ذلك الاصطلاح أراد إبراز عينية حق الارتفاق وتعلقه بالعقار وتمييزه عن ملك الانتفاع الذي تقدم ذكره في الفقه الإسلامي، والذي قد يطلقه بعض الفقهاء على ما يبدو ضمن حقوق الارتفاق. وقد وجدت العلامة ابن رجب يورد تقسيم الملك إلى ملك عين وملك منفعة وملك انتفاع، ثم يذكر في حق المرور ونحوه تارة ما يدل على أنه ملك منفعة وأخرى أنه مجرد ملك انتفاع، تبعاً لما إذا كان تقريره يعوض أو على سبيل التبرع[3]. وفي المجال القانوني أيضاً يمكن أن يكون الانتفاع بعقار الغير بمثل ذلك نتيجة كسب حق ارتفاق أو على سبيل التسامح من ذلك الغير، وإن كان التبرع لا يقتصر أثره على الإباحة والسماح بل يمكن أن يترتب به حق ارتفاق.

والذي أراه أنه أقرب ما يقال في ذلك، وفقاً للاصطلاحات والتقسيمات المعروفة في الفقه الإسلامي، هو أن حقوق الارتفاق تمثل نوعاً خاصاً من ملك المنفعة.

صحيح أن الكثير من الفقهاء يكتفي بإطلاق الحقوق عليها دون تكييفها، وأن الحنفية منهم يدرجونها تحت عنوان الحقوق جاعلين الحقوق في مقابلة الأعيان والمنافع، فتكون قسماً مستقلاً عنها، ولكن تجدر ملاحظة كون حقوق الارتفاق لصيقة بالعقار، وأنها تفصح عن زيادة في

---

(1) شرح مرشد الحيران، ص ٣٣.

(2) الشيخ أحمد إبراهيم، المعاملات الشرعية المالية، ص ١٢ و١٧.

(3) القواعد، ص ١٩٥ ـ ١٩٧

منافع عقار وانتقاص من منافع عقار آخر. والحنفية، في بحثهم لما يندرج في تلك الحقوق، يرون أن منها ما هو شبيه بالأعيان ومنها ما هو شبيه بالمنافع[١]. ومن الشافعية من يذكر في كسب أحد تلك الحقوق بعقد ورد بلفظ البيع أنه عقد فيه شائبة البيع وشائبة الإجارة، وليس بيعاً محضاً ولا إجارة محضة، فلا تملك به عين والاستحقاق به على التأبيد[٢]. ونفي ملك العين عما يثبت بحق الارتفاق ظاهر، فلا من أحد يقول بذلك. وأما القول بأن الاستحقاق على التأبيد، أي استحقاق المنفعة، فهو يفيد أن حق الارتفاق يمثل نوعاً خاصاً من ملك المنفعة يفارق غيره. وخصوصية هذا النوع ترجع إلى أن منافع الارتفاق لا تستحق مباشرة وإنما يستحقها مالك العقار المرتفق تبعاً لملكيته منافع هذا العقار التي ازدادت بترتب الارتفاق له، وإلى ما تتميز به حقوق الارتفاق من خصائص كالتأبيد.

وأما كون تلك الحقوق تابعة فقد صرح به الفقهاء، حيث يبينون في حق الشرب والمسيل والمرور أنها توابع للعقار[٣]. وتقدم في بحث طبيعة وخصائص حقوق الارتفاق في المجال القانوني أنه ينبني على تبعيتها للعقار أن الأصل فيها الدوام والتأبيد، وعدم جواز التصرف بها مستقلة عن العقار المرتفق. وفي الفقه الإسلامي أيضاً الأصل في تلك الحقوق الدوام، وقد صرح الإمام الغزالي باعتبار حق المسيل وحق المجرى وحق المرور من الحقوق المقصودة على التأبيد[٤]. وكما يجيز رجال القانون إنشاء

---

(١) انظر: مبسوط السرخي، جـ ٢٣ ص ١٩٣. ـ الهداية، جـ٣ ص ٣٥. ـ تنوير الأبصار والدر المختار ورد المحتار، جـ ٤ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) الأنوار، جـ١ ص ٣٠٦، ذكر ذلك في بيع الجدار للبناء عليه. وورد نحوه في الفقه الحنبلي بصدد المصالحة بعوض على وضع الأخشاب وفتح الأبواب ومرور المياه ونحوها (قواعد ابن رجب، ص ٢٠٠) وذكر الإمام الغزالي في تقرير صاحب السفل لغيره حق البناء على سقفه أنه بيع فيه شبه بالإجارة (الوجيز، جـ ١ ص ١٠٨).

(٣) الفتاوى الخانية، بهامش الهندية، جـ٣ ص ٢١٢. ـ حاشية الشلبي على الزيلعي، جـ٤ ص ٩٨. ـ الدر المختار ورد المحتار، جـ٤ ص ٢١٠.

(٤) الوجيز ٢، ص ١٠٨. وتقدم آنفاً في الأنوار وقواعد ابن رجب ما يفيد ذلك.

حقوق الارتفاق لمدة محدودة، على خلاف الأصل فيها، فإننا نجد من فقهاء الشريعة من يذكر أن الإرفاق قد يحد بمدة أو يكون إلى الأبد[1]. وبالنسبة لعدم جواز التصرف في تلك الحقوق استقلالاً اقتصر على ذكر ما ورد في الفقه الحنفي من أن الحقوق لا تحتمل الأفراد بالتمليك، ولكن يجري تمليكها تبعاً للعقار[2]. إلا أن في المذهب وفي المذاهب الأخرى أقوالاً كثيرة وتفصيلات لا يتسع المجال لذكرها، وأكتفي بالإشارة إلى أن أكثر فقهاء المذاهب تسامحاً في ذلك هم المالكية.

وأما ما ورد في المجال القانوني من أن حقوق الارتفاق غير قابلة للتجزئة فيمكن أن نستخلصه من أقوال فقهاء الشريعة، نحو ما ورد في الفقه الحنبلي من أنه إذا اقتسمت الدار كانت مرافقها كلها باقية مشتركة بين الجميع، كالاستطراق في طريقها[3].

محل تلك الحقـــوق:

سبق أن أوردنا تعريف الإرفاق في الفقه المالكي بأنه إعطاء منافع تتعلق بالعقار، وسيأتي أن العقار يتناول الأرض والبناء لدى الفقهاء. والواقع أنه باستقراء ما أورده الفقهاء فيما يندرج في حقوق الارتفاق نجد أنها لا ترد إلا على الأرض والأبنية، أي على العقارات بطبيعتها وفقاً للاصطلاح القانوني الذي تقدم تفسيره بالأرض والمنشآت المقامة عليها. ويظهر ذلك فيما مر من أمثلة تلك الحقوق في الفقه الإسلامي، وما سيأتي ذكره منها.

وتقدم اشتراط جواز التعامل بما يكون محلاً لحقوق الارتفاق، وتجويز أن

---

(١) البهجة في شرح التحفة، جـ٢ ص ٢٥١.

(٢) انظر بدائع الصنائع، جـ٦ ص ١٨٩ - ١٩٠. مبسوط السرخي، جـ ٢٣ ص ١٧١ و١٧٦ و١٨٤. ونحوه في فقه الزيدية، البحر الزخار، جـ ٤ ص ٩٧. وانظر في الفقه الشافعي نهاية المحتاج، جـ٥ ص ٣٣٠.

(٣) قواعد ابن رجب، ص ١٩١.

تكون الأموال العامة محلاً لثبوت حق الارتفاق إذا كان هذا الحق يتفق مع ما أعدت له تلك الأموال أو لا يتعارض مع إعدادها، وإن المقننين المصري والليبي قد نصا على هذا الاستثناء.

والشرط مسلم به في الفقه الإسلامي الذي لا يجيز التصرف بما هو ممنوع التعامل به شرعاً، وكذلك الاستثناء فهو وارد أيضاً، ونجد الإفصاح عنه في مثل قول الفقهاء الحنفية، فيما إذا كانت ظلة محدثة على طريق العامة وخاصم الإمام محدثها فصالحه صاحب الظلة على مال معلوم ليتركها، أنه يجوز ذلك إذا كانت الظلة لا تضر بالعامة[1]. أي لا تضر بمنافع الطريق حسب إعدادها.

مشروعية حقوق الارتفاق:

قال القاضي محمد بن عاصم الأندلسي في تحفته:

إرفاق جار حسن للجار
بمسقى أو طريق أو جدار

وجاء في شرحه أن المراد إرفاق الشخص جاره بموضع من أرضه يجري عليه الجار الماء إلى بستانه، أو يمر منه إلى أرضه أو داره، أو بجدار

---

(١) الفتاوى الخانية، بهامش الهندية، جـ ٣ ص ١٠٢ - ١٠٣. - شرح الحموي للأشباه والنظائر، لابن نجيم، جـ٢ ص ٣٧ - ٣٨. وورد خلاف ذلك لدى الشافعية، حيث جاء في المنهاج ونهاية المحتاج (جـ٤ ص ٣٨٤) أنه: يحرم الصلح على إشراع الجناح ونحوه بعوض وإن كان الإمام، لأن الهواء لا يفرد بعقد وإنما يتبع القرار، ولأنه إن ضر امتنع فعله وإلا استحقه مخرجه، وما يستحقه الإنسان في الطريق لا يجوز أخذ العوض عنه كالمرور. ولا مجال لمناقشة الشق الأول من التعليل، فمنعهم التعاقد على إشراع جناح على فضاء لا يختص بالطريق العام، بل يتناول الإشراع على فضاء ملك الغير (انظر وجيز الإمام الغزالي، جـ١ ص ١٠٨). وأكتفي بملاحظة الفرق بين استحقاق المرور وإشراع الجناح، فالشخص يستحق المرور في الطريق لأنه معد لذلك، ولكن الطريق غير معد لإشراع الأجنحة فلا يستحقه، فجاز أخذ العوض مقابل ذلك إذا دعت المصلحة وانتفى الضرر.

يغرز فيه خشبه، لمدة معينة أو على التأبيد. واستندوا في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ إلى قوله: ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾. وإلى قول رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». وذكروا أن حد الجوار أربعون داراً[1]. والاستدلال بالآية والحديث مبناه أن الإحسان إلى الجار والوصية به يتناولان إرفاقه بما يحتاجه عقاره من تلك الحقوق. ولئن جاز تقرير حقوق الارتفاق تبرعاً وإحساناً فلا مانع من تقريرها بسبل أخرى ما لم يقم الدليل على خلافه. وتقدم قول رجال القانون: إنه لا يوجد من الحقوق ما هو أكثر أهمية لعلاقات الجوار من حقوق الارتفاق. وذكرنا عدم اشتراطهم تلاصق العقارين لتقرير حق ارتفاق لأحدهما على الآخر.

وانتقل إلى ذكر ما يمكن الاستدلال به بصورة خاصة على مشروعية حقوق الارتفاق، وأشير في ذلك إلى حديث أبي هريرة (رض) المتفق عليه في وضع الخشب على جدار الجار، الذي يقيد ارتفاقاً شرعياً على القول بالإجبار في ذلك، ويمكن كسب الارتفاق بالاتفاق على القول بعدم الإجبار فيه. وإلى قضاء عمر بن الخطاب (رض) بإجراء الماء على أرض الغير إلى أرض أخرى. وسيأتي بيان ما تقدم.

وأذكر هنا قضاء آخر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه الإمام مالك في الموطأ، وذلك أنه كان لعبد الرحمن بن عوف مجرى ماء في أرض لجد أبي يحيى المازني، فأراد عبد الرحمن أن يحول المجرى إلى موضع في تلك الأرض هو أقرب إلى أرضه ومنعه صاحب الأرض، فقضى عمر بن الخطاب بتحويل المجرى.

---

(١) انظر البهجة في شرح التحفة، وبهامشها شرح التاودي، جـ٢ ص ٢٥١ والآية الكريمة هي الآية ٣٦ من سورة النساء. ومما ورد في تفسير الجار ذي القربى والجار الجنب أنهما الجار الذي قرب جواره والجار البعيد (تفسير الزمخشري، جـ١ ص ٢٦٧). والحديث الشريف متفق عليه. وتحديد الجوار بأربعين داراً مروي عن رسول الله ﷺ.

وروي عن الإمام مالك قوله، إنه ليس العمل بقضاء عمر ابن الخطاب في ذلك، وفي رواية أخرى عنه جواز ذلك إن لم يضر ويؤخذ بقضاء عمر فيه[1]. والذي استند إليه في هذا القضاء هو تأييد تقرر ارتفاق المجرى على ملك الغير، فإن هذا الارتفاق كان موجوداً قبل النزاع، ولم يتعرض الخصمان لوجوده، وإن عمر بن الخطاب (رض) ما كان ليقضي بتحويل موضع الارتفاق لو لم يكن أصل تقريره مشروعاً. وأما مخالفة الإمام مالك، في إحدى الروايتين عنه، فإنها لا تنصب على مشروعية تقرير الارتفاق، وإنما وردت في جواز تحويل موضعه بطلب مالك العقار المرتفق، وقد ثار خلاف حول هذا التحويل في المجال القانوني.

والواقع أنه لا يوجد في أي من المذاهب من يخالف في مشروعية حقوق الارتفاق، ولكن الخلاف قد يتناول مدى ما يجوز تقريره منها، فأصل تقريرها مشروع بالإجماع.

الحكمة في مشروعية تلك الحقوق:

سبق ذكر تبرير رجال القانون لإنشاء حقوق الارتفاق باعتبارات المصلحة العامة، ونجد ذات التبرير في الفقه الإسلامي أيضاً. فالذي يستفاد من أقوال الفقهاء أن إنشاء تلك الحقوق يهدف إلى تحقيق حسن الانتفاع بالعقارات واستغلالها على أكمل وجه، وتحاشي شل استعمالها والانتفاع بها، ولا شك أن في تعقيم الأموال وتجميد منافعها إضرار بالمصلحة العامة. ونذكر في ذلك قول الإمام ابن حزم: لا يجوز بيع دار أو بيت أو أرض لا طريق لها، لأنه إضاعة للمال[2]. وورد في الفقه

---

(١) موطأ الإمام مالك وشرحه المنتقى، جـ٦ ص ٤٧. ـ المدونة الكبرى، جـ١٥ ص ١٩٢ ـ ١٩٣. بداية المجتهد، جـ٢ ص ٢٩٦.

(٢) المحلى، جـ٩ ص ٢٠.

الشافعي أنه لا يصح بيع مسكن بلا ممر، لتعذر الانتفاع به[1] وفي الفقه الحنبلي أنه إذا اقتسمت الدار ولم يكن هناك منفذ لأحد المقتسمين لا تصح القسمة[2]. وورد نحوه في الفقه الحنفي بالنسبة للمرور والمسيل، وعللوا فسخ القسمة بأن المقصود تمليك المنفعة ولا يكون ذلك إلا بالطريق والمسيل، وذكروا الإجماع على الحكم[3]. وفي فقه الزيدية: تنقض القسمة بعدم استيفاء المرافق في الأنصباء، كالطريق والمسيل، إجماعاً[4]. فلا حاجة إلى إيراد المزيد من ذلك في المذاهب الأخرى.

هل ترد حقوق الارتفاق على سبيل الحصر؟

تقدم أن حقوق الارتفاق في المجال القانوني، بالرغم من صفتها الاستثنائية، هي غير واردة على سبيل الحصر. أما في الفقه الإسلامي فإننا نجد في بعض المؤلفات المعاصرة ما يفيد حصر تلك الحقوق. فمن العلماء من ذكر في تلك المؤلفات أن حقوق الارتفاق ثلاثة: حق الشرب وحق المسيل وحق المرور، ثم أضاف حق المجرى إلحاقاً بحق الشرب[5]. ومنهم من أورد هذه الحقوق الأربعة وزاد عليها حق التعلي[6]. وذكر أستاذنا الشيخ علي الخفيف أن حقوق الارتفاق محصورة عند كثير من العلماء، ومنهم الحنفية، في حق الشرب والطريق والمجرى والمسيل والتعلي والجوار، لما في تقرير هذه الحقوق من تقييد للملكية

---

(١) نهاية المحتاج، جـ٣ ص ٣٨٥.

(٢) قواعد ابن رجب، ص ١٩١.

(٣) ملتقى الأبحر ومجمع الأنهر والدر المنتقى، جـ٢ ص ٤٩٤. وانظر الفتاوى الهندية، جـ٥ ص ٢١٠ - ٢١١. وتنوير الأبصار والدر المختار ورد المحتار، جـ٥ ص ١٨٥.

(٤) البحر الزخار، جـ٤ ص ١٠٩.

(٥) أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة، الملكية ونظرية العقد، ص ٧٥ - ٧٦. واقتصر أيضاً على ذكر تلك الحقوق الأربعة شارحاً مرشد الحيران (ص ٣٣).

(٦) الأستاذ أحمد أبو الفتح، المعاملات في الشريعة الإسلامية والقوانين المصرية، ص ٤٣.

التامة، وأنها ما قيدت بتلك الحقوق إلا استثناء ولا يتوسع في الاستثناء. وأنه يرى اخرون، ومنهم المالكية، أنها غير محصورة فيما ذكر ويجوز إنشاء حقوق ارتفاق أخرى، كأن يقرر شخص ارتفاقاً على أرض يملكها بألا يقيم بناء على ناحية منها ملاصقة لأرض أخرى، أو ألا يرتفع ببنائه إلى أكثر من ارتفاع معين[1]. وكان قد ذكر في مؤلف سابق أن تعريف حق الارتفاق بما عرفه به قدري (باشا) يجعله لا يشمل حق الجوار وحق التعلي، لأن حق الجوار النظر فيه إلى عدم إيذاء الجار بأعمال ضارة أو بأصوات مقلقة أو بروائح كريهة وما أشبه ذلك، فهو مقرر لمنفعة شخص، وأن حق التعلي مقرر لشخص على بناء أو لبناء على بناء[2].

وذهب الدكتور أحمد فهمي أبو سنة إلى أن حقوق الارتفاق غير محصورة، ومثل بما تقدم من اشتراط عدم البناء أو عدم تعليته[3].

ما نراه في ذلك:

الارتفاقات التي يقررها الشرع مباشرة ولا دخل لفعل الإنسان في نشوئها، والتي تقابل ما قد يسمى بالارتفاقات القانونية، لا شك أنها تتعين بما ينشئه الشرع أو القانون منها. وأما الارتفاقات التي تنشأ بفعل الإنسان، كالتعاقد، فهذه هي التي يجري فيها الخلاف. وأرى أن هذه الارتفاقات غير محصورة، فيمكن تقرير أي ارتفاق إذا توافرت الشروط اللازمة لذلك، ولم يرد دليل على تحريمه ولم يكن على خلاف ما تقتضيه قواعد الشريعة، تطبيقاً لمبدأ صحة الاشتراطات التي لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً الوارد في الحديث. ومن الفقهاء من عمل بذلك المبدأ دون تقييد، كالحنابلة، ومنهم من قيده بوجوب جريان العرف بالاشتراط،

---

(١) الحق والذمة، ص ٦٤.

(٢) أحكام المعاملات الشرعية، ص ٦٢. إلا أنه أورد في مؤلفه (الحق والذمة، ص ٦٣) التعريف القانوني لحق الارتفاق ومثل له بحق التعلي.

(٣) النظريات العامة للمعاملات في الشريعة الإسلامية، ص ٧٠.

كالحنفية، إلا أن هذا التقييد لا يفرض حصر الارتفاقات، لأن العرف يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة. وما ذكر، من أن تقييد حق الملكية بإنشاء حقوق ارتفاق هو استثناء، قد تقدم مثله في المجال القانوني. وألاحظ أنه إذا كان إنشاء حقوق الارتفاق يجري على سبيل الاستثناء فإن ذلك لا يعني حصر تلك الحقوق بصور معينة منها، بل يمكن تقرير صور أخرى إذا توافرت المسوغات التي دعت إلى إنشائها، أي تحقيق المصالح العامة مباشرة أو عن طريق تحقيق مصالح الأفراد، وصفة الاستثناء المذكورة تستلزم التأكد من توافر تلك المسوغات. هذا وإن الاتجاه إلى إطلاق الحقوق لا يصح التسليم به، والقيود الواردة على حق الملكية في الشريعة الإسلامية كثيرة يصعب تعدادها.

ويبدو أن المالكية أكثر توسعاً من غيرهم فيما يوردونه من صور حقوق الارتفاق، إلا أن ذلك لا يعني أن هذه الحقوق محصورة عند الآخرين، كالحنفية الذين نسب إليهم حصرها بما تقدم. فإننا نجد في الفقه الحنفي صوراً أخرى للارتفاقات غير الحقوق المذكورة، كأن يكون لدار مطرح ثلجها في أخرى خربة[1]، وأجاز الشافعية الصلح على ذلك[2]. وفي الفقه الحنفي أيضاً استحقاق وضع الجذوع والخشب بصفة الدوام على الجدار المملوك للغير[3]، وورد ذلك في الفقه الحنبلي[4]. وتقدم ذكر الصلح على إشراع ظلة على الطريق في الفقه الحنفي.

ويلاحظ أن من الحقوق الواردة في المؤلفات المعاصرة ما اختلف أصحابها في إدراجه ضمن حقوق الارتفاق، أعني حقوق الجوار وحق التعلي.

---

(١) الفتاوى البزازية، بهامش الفتاوى الهندية، جـ٦ ص ١١٧.
(٢) نهاية المحتاج جـ٤ ص ٤٠١.
(٣) شرح الزيلعي للكنز، جـ٤ ص ٣٢٧، وحاشية الشلبي عليه ص ٣٢٦.
(٤) قواعد ابن رجب، ص ١٩٧.

وأنا أؤيد استبعاد حقوق الجوار من بين حقوق الارتفاق، والقول بأن حقوق الجوار مقررة لمنفعة أشخاص هو قول سليم، ويضاف إليه أنها غير مفروضة على عقار وإنما تفرض على أشخاص في صور التزامات سلبية بالامتناع عن إيذاء الجار. وقد عبر عنها المقنون المصري والسوري والليبي بعدم الغلو في استعمال الحق إلى حد يضر بملك الجار، والمقنن العراقي بعدم جواز تصرف المالك في ملكه تصرفاً مضراً بالجار ضرراً فاحشاً (م٨٠٧ مدني مصري، ٧٧٦ سوري، ٨١٦ ليبي، ١٠٥١ عراقي)، وقد نص على هذه المواد في القيود القانونية. وعدم اعتبار حقوق أو التزامات الجوار من حقوق الارتفاق هو الاتجاه السائد في فرنسا، حيث نجد من رجال القانون من يصرح بنفي الاستناد في منع مضايقات الجوار إلى وجود حق ارتفاق بعدم تسبيب تلك المضايقات، كالأستاذ (ديمو لومب)، وهو يستند في تفرير مسؤولية الجار إلى المادة (١٣٨٢ مدني) التي تقرر مبدأ المسؤولية عن الفعل غير المشروع[١]. وأيد هذا الأستاذان (بودري وشوفو)[٢]، والأستاذان (أنري وليون مازو)[٣]. وكذلك نفى الأستاذ (كابيتان) أن تكون التزامات الجوار نتيجة وجود حق ارتفاق، مبيناً أنها ليست حقوقاً عينية، وإنما هي التزامات حقيقية مترتبة على واقعة الجوار لم يصرح بها المقنن، وإنما أشار إليها واقتصر على وضع مبدئها في المادتين (٦٥١ و١٣٧٠ مدني)[٤]. وفي مصر أيضاً لم يعتبر رجال القانون التزامات الجوار مما يمكن أن يفصح عن وجود حق

---

(١) شرحه للقانون المدني الفرنسي، جـ١٢ فقرة ٦٤٦ وما بعدها خصوصاً فقرة ٦٥٣. ويرى الأستاذ كابيتان أن الأستناد إلى المادة ١٣٨٢ فيه تحميل لما لا تحتمله في ذلك. انظر بحثه (التزامات الجوار) المنشور في المجلة الانتقادية للتشريع والقضاء سنة ١٩٠٠، ص ٢٣٤ - ٢٣٦.

(٢) شرحهما للقانون المدني الفرنسي، جـ٥ فقرة ٢١٥ ص ١٦٠.

(٣) كتابهما (المسؤولية المدنية)، جـ١ فقرة ٦١٤ ص ٦٦٥.

(٤) بحثه المشار إليه، ص١٥٦ وما بعدها خصوصاً ص ١٦٢ - ١٦٦. وهنالك آراء أخرى لا يتسع المجال لذكرها، وتتضمنها المراجع المذكورة.

ارتفاق[1]، وكذلك في العراق[2].

وأنتقل بعد هذا إلى بحث الخلاف في إدراج حق التعلي ضمن حقوق الارتفاق، فأصوب إدراجه فيها، حيث إن له طبيعة وخصائص تلك الحقوق.

ومما استدل به أستاذنا الشيخ علي الخفيف، في قوله الأول، من أن حق التعلي مقرر لشخص على بناء أو لبناء على بناء هو محل نقاش. فإن الاستدلال بكون الحق مقرراً لبناء على بناء مبني على عدم اعتبار البناء عقاراً فلا يتناوله تعريف تلك الحقوق، وهذا غير مسلم به فالفقهاء يعتبرون البناء من العقار، وأذكر على سبيل المثال أن المادة (١٢٩ مجلة) قد مثلت للعقار بالدور والأراضي، ويبين الفقهاء الحنفية أن اسم الدار يتناول العرصة والبناء في العرف[3]. وفي الفقه الجعفري يدخل في لفظ الدار البناء الأعلى والأسفل وما قام عليه من الأرض[4]. وفي الفقه الشافعي العقار هو الأرض وما يتصل بها[5]. ثم إن حق التعلي لا ينصب على البناء وحده، وإنما يتعلق أيضاً بفضاء الأرض التي يقوم عليها البناء. ألا يرى أنه لو انهدم السفل لا يزول حق التعلي، ويكون لصاحبه أن يعيد بناء السفل ليقيم عليه علوه، ويرجع على صاحب السفل ويمنعه من الانتفاع به حتى يستوفي ما يجب له[6].

---

(١) انظر: الدكتور عبد المنعم البدراوي، الحقوق العينية الأصلية، فقرة ٧٨. ـ الدكتور منصور مصطفى منصور، حق الملكية، فقرة ٣٩ وراجع فقرة ٢١ منه.

(٢) الدكتور صلاح الدين الناهي، الوجيز في الحقوق العينية الأصلية، ص ٧٦. ـ الأستاذ حامد مصطفى، الملكية العقارية في العراق، فقرة ٥٨.

(٣) الهداية، جـ٣ ص ١٩.

(٤) فقه الإمام جعفر الصادق، الشيخ محمد جواد مغنية، جـ٣ ص ٨١.

(٥) طرح التثريب في شرح التقريب، جـ٦ ص١٤٣.

(٦) الدر المختار ورد المحتار، جـ٤ ص ٣٩٨. وانظر المواد ١٠٨٥ مدني عراقي، ٨٦٠ مصري، ٨١٥ سوري، ٨٦٤ ليبي. وهي مستقاة من الفقه الإسلامي.

أما القول بأن حق التعلي يثبت لشخص على بناء فهو يفترض حالة تقرير الحق دون وجود بناء مستعل، ويجيز المالكية ذلك[1]، خلافاً للحنفية[2]. ولكن جواز ذلك لا يستلزم تقرر الحق لمنفعة الشخص ذاته، ومباشرة دون وساطة عقار. وإنما يتبع الحق بناء مزمعاً إنشاؤه ولا تتصور ممارسته مجرداً عنه أو الانتفاع به إلا بواسطته. ومن رجال القانون من يصرح بصحة الاشتراط الذى يقرر حق ارتفاق لمنفعة بناء لم يشيد بعد[3].

تصنيف حقوق الارتفاق

في المجال القانوني:

لقد أجريت عدة تقسيمات لحقوق الارتفاق نقتصر على ذكر أبرزها، فنورد تقسيمها بالنظر إلى مصدرها، وبالنظر إلى طبيعتها وكيفية ممارستها، وبالنظر إلى موضوعها، ثم نذكر تقسيمين مهمين في القانون الروماني أبقى المقنن الفرنسي على أحدهما.

فبالنظر إلى مصدرها قسمت حقوق الارتفاق إلى ارتفاقات طبيعية ناجمة عن حالة الأمكنة، وارتفاقات قانونية يحددها القانون، وارتفاقات تترتب بفعل الإنسان[4]. وقد انتقد التمييز بين الارتفاقات الطبيعية والارتفاقات القانونية باعتبار أن مصدرها واحد، أي القانون، فيندمجان في صنف واحد. بل لقد وجهت انتقادات شديدة إلى اعتبار هذين النوعين من حقوق الارتفاق، وذهب الكثيرون إلى وجوب إدراجهما

---

(١) انظر تحفة ابن عاصم وشرحيها للتسولي والتاودي، جـ٢ ص ١٤.

(٢) الهداية، جـ٣ ص ٣٤ - ٣٥.

(٣) ديمولومب، جـ١٢ فقرة ٦٩٤ . - لوران، جـ٧ فقرة ١٢٨ .

(٤) ويستفاد هذا التقسيم من المادة ٦٣٩ مدني فرنسي، واستعمل المقنن في هذه المادة، بدل فعل الإنسان، تعبير الاتفاقات بين الملاك، وسيأتي بيان قصور هذا التعبير وتداركه.

ضمن القيود القانونية التي ترد على حق الملكية، وهو ما فعله المقننون المصري والعراقي والليبي، خلافاً للمقننين السوري واللبناني. وسنتناول تلك الانتقادات بتفصيل عند الكلام عن أسباب نشوء حقوق الارتفاق، لاتصال تلك القسمة وتلك الانتقادات ببحث هذه الأسباب.

وبالنظر إلى طبيعتها وكيفية ممارستها قسمت الارتفاقات إلى مستمرة وغير مستمرة، وظاهرة وغير ظاهرة (م٦٨٨ و٦٨٩ مدني فرنسي).

والمراد بالارتفاقات المستمرة ما لا يتوقف استعماله على تدخل الإنسان بأفعال مقارنة لهذا الاستعمال، بمعنى أن استعماله لا يتطلب أفعالاً متعاقبة ومتكررة من قبل مالك العقار المرتفق. ذلك أن هذه الارتفاقات إذا ما أنشئت وهيئت الأمور في الحالة الضرورية لاستعمالها فإنها تمارس ذاتياً لوجدها. ويحتاج غالباً إلى فعل الإنسان ابتداء فقط عند تهيئة الأمور لاستعمال الارتفاق، ولا يحتاج إليه بعد ذلك في استعماله. ومثال ذلك الارتفاق بالمطل أو الارتفاق بالمجرى، فإنه يحتاج إلى فتح نافذة أو شق مجرى ابتداء، فيدخل الضوء ويجري الماء تلقائياً. وقد لا يحتاج إلى فعل الإنسان مطلقاً، حتى ولا ابتداء، كما في الارتفاق بعدم البناء أو عدم الغرس. وعلى عكس ذلك الارتفاقات غير المستمرة، فإنها تحتاج إلى تدخل الإنسان وفعله كلما أريد استعمالها، وينقطع الاستعمال إذا توقف الفعل، كالارتفاق بالمرور والارتفاق باغتراف الماء[1]. ويلاحظ الأستاذ (بلانيول) أن التعريف الذي أعطته المادة ٦٨٨ مدني فرنسي للارتفاقات المستمرة قد يتبادر منه إلى الذهن أن تلك الارتفاقات هي التي تكون منفعتها متواصلة. ويضيف أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الارتفاق يكون مستمراً عندما يستخدم دون توقف، وغير مستمر إذا ما كان استعماله متقطعاً غير متواصل. ويمثل توضيحاً لذلك بأن مجرى أو ميزاب

(١) انظر: بودري، جـ١ فقرة ١٧٩٠ ـ بلانيول، جـ١ فقرة ٢٨٨٤ و٢٨٨٥ ـ جوسران، جـ١ فقرة ١٩٧٤.

مياه الأمطار هو ارتفاق مستمر، ومع ذلك فإنه في الأقاليم الجافة لا يستخدم هذا الارتفاق إلا نادراً. وعلى العكس يعتبر الارتفاق بإجراء مياه محجر أو منجم ارتفاقاً غير مستمر، وإن كانت المضخة المنصوبة لاستخراجها تدور ليل نهار طوال السنة دون توقف، وذلك لأن استعمال هذا الارتفاق يفترض فعلاً آنياً من الإنسان، وأنه إذا ما أوقف العامل المضخة سينقطع جريان الماء. ويظهر من المثالين أن جريان الماء قد يكون مستمراً أو نادراً جداً دون أن يكون لذلك أي تأثير على صفة الاستمرار أو عدمه في الارتفاق[1].

وأما ثاني التقسيمين المذكورين فالمراد فيه بالارتفاقات الظاهرة تلك التي تفصح عنها أعمال خارجية تظهرها، كفتح باب أو نافذة أو شق مجرى، فتكون هذه علامة على وجودها.

والارتفاقات غير الظاهرة هي التي ليست لها علامة خارجية على وجودها، كالارتفاق بعدم تجاوز ارتفاع معين في البناء. وفي هذا المثال، وسائر أمثلة الارتفاقات السلبية، عدم الظهور هو من طبيعة الارتفاق حيث لا يمكن أن تكون له علامة منظورة تكشف عن وجوده. ولكن في غيرها من الارتفاقات غالباً ما يكون الظهور أو عدمه صفة عرضية لا ترجع إلى طبيعة الارتفاق، فالارتفاق الواحد تارة يكون ظاهراً وتارة غير ظاهر تبعاً للكيفية التي هيىء بها استعماله. فالارتفاق بالمرور يكون ظاهراً إذا أعد لاستعماله مدخل أو حدود ثابتة أو طريق ممهد، حيث يظهر وجوده بذلك. وبالعكس يكون غير ظاهر إذا استعمل على أرض جرداء غير مسيجة دون تحديد موضع المرور عليها.

وبالجمع بين التقسيمين تتكون أربعة أصناف من الارتفاقات: ارتفاقات مستمرة وظاهرة، كالارتفاق بالمطل. وارتفاقات مستمرة غير ظاهرة، كالارتفاق بعدم البناء. وارتفاقات غير مستمرة ولكنها ظاهرة،

---

(١) بلانيول، جـ١ فقرة ٢٨٩٦.

كالارتفاق بالمرور إذا كان له طريق محدد. وارتفاقات غير مستمرة ولا ظاهرة، كارتفاق المرور إذا لم يكن له موضع محدد[1].

وللتقسيمين أهميتهما في القانون الفرنسي بالنسبة لأسباب كسب حقوق الارتفاق، أما في القانونين المصري والعراقي والقانون الليبي فللتقسيم الثاني وحده تلك الأهمية، وسيأتي ذكر ذلك.

وبالنسبة إلى موضوعها قسمت حقوق الارتفاق إلى إيجابية وسلبية، فالارتفاقات الإيجابية هي تلك التي تسمح لمالك العقار المرتفق، في استعماله لحق الارتفاق، بالقيام بأعمال على العقار المرتفق به، كالارتفاق بالمرور أو اغتراف الماء. أما الارتفاقات السلبية فهي التي تفرض على مالك العقار المرتفق به الامتناع عن القيام بأعمال كان له حق القيام بها لو لم يكن الارتفاق موجوداً، فتنتقص بذلك جزئياً وبصورة استثنائية المكنات المترتبة على حق الملكية، كالارتفاق بعدم البناء أو عدم تعليته إلى أكثر من ارتفاع معين، أو الامتناع عن غير ذلك من الأعمال. وهذا التقسيم يظهر واضحاً في تعريف القانون الألماني لحقوق الارتفاق (م١٠١٨ مدني). ولم ينص عليه القانون المدني الفرنسي لأنه لا تترتب عليه أية نتائج عملية في هذا القانون[2].

وكان هنالك تقسيم أساس في القانون الروماني ينصب أيضاً على موضوع الارتفاق، وذلك هو تقسيم الارتفاقات إلى ارتفاقات تقرر لمنفعة الأبنية وأخرى تقرر لمنفعة الأراضي. وقد أبقى المقنن الفرنسي على هذا التقسيم (م٦٨٧ مدني) مع أنه لم تعد له فائدة فيه، وقيل في ذلك إنه لا يمكن أن تدرك فائدة هذا التقسيم وإن الإبقاء عليه ليس إلا على سبيل

---

(١) انظر بودري، جـ١ فقرة ١٧٩٢ و١٧٩٣. ـ بلانيول، جـ١ فقرة ٢٨٩٧ و٢٨٩٩. ـ جوسران، جـ١ فقرة ١٩٧٤

(٢) انظر بودري، جـ١ فقرة ١٧٩٤. ـ بلانيول، جـ١ فقرة ٢٨٩٢. ـ جوسران، جـ١ فقرة ١٩٧٤

الذكرى[1].

وأخيراً أذكر ما كان من تقسيم حقوق الارتفاق في القانون الروماني إلى شخصية وعينية، وهو من أهم التقسيمات الأساس في ذلك القانون، ويستفاد من تعريفه الارتفاق بأنه حق عيني يستوجب تكليف شيء بخدمات خاصة لمصلحة شخص أو عقار. فالارتفاق الشخصي يترتب لمصلحة شخص على شيء، عقاراً كان أو منقولاً، والارتفاق العيني يترتب لمصلحة عقار على عقار. ففي الأول المحل الإيجابي للحق هو شخص، وفي الثاني يكون ذلك المحل عقاراً[2]، أي أن المنتفع بالحق في القسم الأول هو الشخص مباشرة، وفي القسم الثاني المنتفع هو العقار. وقد نبذ هذا التقسيم في القوانين المعاصرة نتيجة إخراج ما كان يسمى بالارتفاق الشخصي من مفهوم حقوق الارتفاق، فأصبح اصطلاح تلك الحقوق قاصراً على الارتفاقات العينية، وتقدم ذكر ذلك في القانون الفرنسي.

هذا ولم يرد في القانونين المصري والعراقي، ولا في القانون الليبي، أي تقسيم لحقوق الارتفاق، وإنما وقعت الإشارة إلى تقسيم الارتفاقات إلى ظاهرة وغير ظاهرة بصدد بيان أسباب كسب تلك الحقوق[3].

في الفقه الإسلامي:

إذا لوحظ أن فقهاء الشريعة لم يبحثوا حقوق الارتفاق تحت هذا

---

(١) انظر بودري، جـ١ فقرة ١٧٨٩. ـ بلانيول، جـ١ فقرة ٢٨٩٣. ـ جوسران، جـ١ فقرة ١٩٧٤.

(٢) انظر ديديه بايه، دراسة القانون الروماني، جـ١ ص ٢٠٩.

(٣) أما المقننان السوري واللبناني فقد تابعا المقنن الفرنسي في النص على أسباب نشوء حقوق الارتفاق وما يستفاد منه في تقسيم تلك الحقوق حسب مصدرها (م ٩٦١ مدني سوري، ٥٧ قانون الملكية العقارية اللبناني).

الاصطلاح أو في موضع واحد، ولم ينهجوا ذات المنهج القانوني فيما ورد عليها من بحوثهم، فإنه يكون من البديهي ألا نتوقع وجود تقسيمات لتلك الحقوق في الفقه الإسلامي. ولكن مع ذلك يمكن القول إننا نجد فيه أمثلة لجميع الأقسام الواردة في التقسيمات القانونية المذكورة، حتى المهجور منها.

فالنسبة إلى تقسيم حقوق الارتفاق نظراً إلى مصدرها نرى مثال الارتفاقات الطبيعية في الشريعة الإسلامية الارتفاق المفروض على الأرض المنخفضة بتقبل المياه المنحدرة من أرض مرتفعة. ومثال ما يقابل الارتفاقات القانونية الارتفاق بإجراء الماء في أرض الغير إلى أرض محبوسة عن مصدر الماء. وسيأتي بحث هذين الارتفاقين، وهما من أبرز الأمثلة القانونية للقسمين. وأما الارتفاقات التي تترتب بفعل الإنسان فنجد أمثلتها في بحث الفقهاء لبيع أو هبة حق الشرب وحق المرور[1]، والصلح على إجراء الماء في أرض الغير أو إلقاء الثلج فيها[2]، وغير ذلك.

وبالنسبة لتقسيم الارتفاقات بالنظر إلى طبيعتها وكيفية ممارستها نجد في الفقه الإسلامي مثال الارتفاقات الظاهرة في حق المرور على موضع معين محدد في عقار الغير، أو حق المسيل على عقار الغير بواسطة قناة أو ميزاب[3]. ومثال الارتفاقات غير الظاهرة الارتفاق بالمرور دون تحديد موضعه[4]، والارتفاق بعدم تعلية البناء، عند المالكية، كان

---

(١) انظر في الفقه الحنفي الهداية، جـ٣ ص ٣٥. وفي الفقه الجعفري تهذيب الأحكام، للشيخ الطوسي، جـ٧ ص ١٣٩.

(٢) انظر في الفقه الشافعي المنهاج ونهاية المحتاج، جـ٤ ص ٤٠١.

(٣) الفتاوى الهندية، جـ٤ ص ١٠٤ و١٠٥.

(٤) انظر مبسوط السرخسي، جـ١٧ ص ٩٣ ـ ٩٤. والفتاوى الهندية، جـ ٤ ص ١٠٤. ويلاحظ أن الفقهاء يعبرون أحياناً بالطريق عن حق المرور، وقد استعملت الكلمتان مترادفتين في الفتاوى الهندية، جـ٤ ص ١٠٥.

يشترط ذلك في عقد بيع[1] وهذا يصلح مثالاً للارتفاقات المستمرة، فهو ارتفاق غير ظاهر ولكنه مستمر. ومن الارتفاقات المستمرة أيضاً الارتفاق بمسيل مياه الأمطار، لأنه لا يحتاج إلى فعل الإنسان في استعماله حسب الاصطلاح القانوني. وقد ذكر الفقهاء في دعوى المسيل بواسطة ميزاب أنه إذا شهد الشهود بكونه لماء المطر فهو لماء المطر، وإن شهدوا أنه لصب ماء الوضوء فهو لذلك[2]. ففي الحالة الأولى الارتفاق ظاهر ومستمر، وفي الحالة الثانية هو ظاهر غير مستمر، فهذه الحالة تمثل للارتفاقات غير المستمرة. ومن أمثلة هذه الارتفاقات أيضاً الارتفاق بالشرب بواسطة آلة، كالدالية ونحوها[3]، والارتفاق بالمرور سواء حدد موضعه أو لم يحدد.

وفي تقسيم حقوق الارتفاق بالنظر إلى موضوعها نذكر أن أمثلة الارتفاقات الإيجابية معظم ما تقدم في الفقه الإسلامي، كحق الشرب والمجرى والمسيل والمرور، ومثال الارتفاقات السلبية، الارتفاق بعدم تعلية البناء في الفقه المالكي، وهو من أبرز أمثلة هذه الارتفاقات في المجال القانوني. والارتفاقات التي تقرر لمنفعة الأبنية أمثلتها في الفقه الإسلامي حق التعلي ووضع الأخشاب على الجدار وتسييل المياه المستعملة في الحاجات المنزلية كالوضوء، وأمثلة الارتفاقات المتعلقة بالأراضي حق الشرب والمجرى وتسييل مياه الصرف.

بقي أن نشير إلى التقسيم المهجور، أي تقسيم الارتفاقات إلى عينية وشخصية، فنقول إن جميع الأمثلة المتقدمة في الفقه الإسلامي هي ارتفاقات عينية، لكونها مقررة لمنفعة عقار وعلى عقار. وإلى جانب ذلك

---

(١) شرح التاودي للتحفة، بهامش البهجة، جـ٢ ص٨.

(٢) مبسوط السرخسي، جـ١٧ ص ٩٤.

(٣) والدالية جذع طويل برأسه مغرفة كبيرة. انظر تكملة فتح القدير والعناية، جـ٨ في ترتيب الفتح ص ١٤٩. والزيلعي، جـ٦ ص ٤٢. ومثل ذلك الارتفاق برفع الماء بواسطة مضخة.

نجد ما يتناوله تعريف الارتفاقات الشخصية في القانون الروماني، كحق الشفة في مياه الآبار والعيون والمجاري المملوكة[1]، وحق الناس في المرور على أرض مملوكة تقع بينهم وبين النهر العام إذا لم يكن لهم طريق سواها[2]. فكل من الحقين يثبت على عقار، ويتبعه دائمًا ومهما انتقلت ملكيته كحقوق الارتفاق الحقيقية، ولكنهما مقرران لمنفعة أشخاص لا لمنفعة عقارات، فيستبعدان من دائرة حقوق الارتفاق بمعناها الاصطلاحي الحالي.

عرض إجمالي لأسباب نشوء حقوق الارتفاق

المجال القانونـــي:

في القانون الروماني:

مرت أسباب نشوء حقوق الارتفاق بثلاث مـراحل في القـانون الروماني:

١ ـ **مرحلة القانون المدني**: في هذه المرحلة كانت حقوق الارتفاق تنشأ بإحدى طريقتين: الأولى بتحميل المالك عقاره بعبء لمصلحة عقار الغير، ويعتبر ذلك نقلاً للحق ويستعمل المالك فيه طرق اكتساب حق الملكية، باستثناء بعض الفوارق الهامة. والطريقة الثانية، أن

(١) يقال ماء مشفوه إذا كثرت عليه الواردة(أساس البلاغة مادة ش ف هـ) وحق الشفة في اصطلاح الفقهاء هو حق الشرب للإنسان والانعام والدواب (الخراج للإمام أبي يوسف، ص٩٥). وذكر أنه استعمال الإنسان الماء لدفع العطش وللطبخ والوضوء والغسل وغسل الثياب، وللبهائم لدفع العطش ونحوه بما يناسبها (رد المحتار، جـ ٥ ص ٣١١). ويثبت في مياه الآبار والعيون والمجاري المملوكة للغير (الهداية، جـ ٤ ص ٧٦ ـ ٧٧. الزيلعي، جـ ٦ ص ٣٩. ـ تكملة البحر الرائق، جـ ٨ في ترتيب البحر ص ٣١٣). وأثبته المقنن العراقي في مياه المساقي والقنوات المملوكة للغير (م ١٠٩٩ ف ٣ مدني). وثبوته على عقار بحكم تبعية المياه للمجاري والعيون والآبار المملوكة، وقد تقدم ذلك نقلاً عن الفتاوى الهندية.

(٢) الفتاوى الهندية، جـ٥ ص ٣٩٩ ـ الفتاوى الخانية، بهامش الهندية، جـ٣ ص ٢٠٦ و٢١٢. وانظر الخراج، للإمام أبي يوسف، ص ٩٨. وجامع الفصولين، جـ٢ ص ٧٢.

يبيع مالك عقارين أحدهما، أو يتنازل عن ملكيته للغير، محتفظاً بحق ارتفاق على العقار الذي يخرجه عن ملكه لمصلحة العقار الذي يحتفظ به.

٢ ـ **مرحلة القانون البريتوري**: أدخلت في هذه المرحلة بعض التعديلات على ما كان في المرحلة السابقة، واستحدثت طريقة جديدة لاكتساب حقوق الارتفاق هي شبه الحيازة، حيث تعتبر الحيازة التي تلائم حقوق الارتفاق سبباً لاكتسابها إذا دامت تلك الحيازة مدة طويلة. وفي الارتفاقات الإيجابية تعتبر الحيازة حاصلة بمجرد القيام بأفعال أو تنفيذ أعمال في العقار الخادم، بصرف النظر عن وجود سند أو عدمه. وفي الارتفاقات السلبية تستفاد الحيازة من مجرد امتناع مالك ذلك العقار عن القيام بأعمال يكون الامتناع عنها موضوع الارتفاق. وشبه الحيازة هذه تخضع إلى ذات شروط اكتساب حق الملكية بالتقادم، سواء من حيث المدة أو توافر حسن النية، وأما بالنسبة لوجود سند صحيح فإنه إذا كان لا يشترط إثباته في الارتفاقات الإيجابية فإن هذا الإثبات يبقى ضرورياً في الارتفاقات السلبية التي تكون فيها الحيازة خفية مستترة.

٣ ـ **قانون جوستنيان**: في هذا القانون مزج التشريعان المدني والبريتوري، مع الأخذ بالتعديلات التي أجريت على ما ورد في القانون المدني. ولوحظ أن (جوستنيان) تبنى جميع قرارات البريتور، سواء ما انصب منها على الاصطلاحات والتعابير، أو على الأصول والشروط[١]. ومن المؤلفين من ذكر اختلاف آراء رجال القانون بصدد تطبيق شروط التقادم المكسب لملكية العقارات على كسب حقوق الارتفاق بذلك السبب، سواء قبل الامبراطور (جوستنيان) أو بعده[٢].

---

(١) انظر في ذلك مفصلاً: ديديه بايه، دراسة القانون الروماني، جـ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

(٢) ديمولومب، جـ١٢ فقرة ٧٦٦.

في القانون الفرنسي:

تنص المادة ٦٣٩ مدني فرنسي على أن: الارتفاق يستفاد إما في الحالة الطبيعية للأمكنة، أو من الالتزامات التي يفرضها القانون، أو من الاتفاقات بين الملاك.

وقد انتقد النص في صياغته، وأثير تساؤلان فيما يتعلق بالتقسيم الذي أورده: أولهما عن جدوى التمييز بين الارتفاقات التي ترجع إلى حالة الأمكنة والارتفاقات الثابتة بنص القانون، وبالتالي عن إمكان اعتبار حالة الأمكنة ونص القانون سببين متميزين. والثاني هو حول مقابلة هذين السببين للاتفاق بين الملاك، وهل يصح اعتبار ذينك السببين من أسباب نشوء حقوق الارتفاق؟ وذلك تبعاً للتساؤل عن إمكان اعتبار ما يترتب عليهما، أي ما يسمى بالارتفاقات الطبيعية والارتفاقات القانونية، حقوق ارتفاق حقيقية.

نقد صياغة النص: أخذ على النص عدم الدقة في صياغته، فمن جهة انتقد ما ورد فيه من أن الارتفاق يستفاد من الالتزامات التي يفرضها القانون، حيث إن هذه الالتزامات هي ذات الارتفاقات القانونية، فحسب تعبير النص نصل إلى القول بأن الالتزامات التي يفرضها القانون تترتب على الالتزامات التي يفرضها القانون. وكان يمكن ببساطة اختصار القول بأن تلك الارتفاقات مصدرها القانون. ومن جهة أخرى أخذ على النص في إرجاعه النوع الثالث إلى الاتفاقات بين الملاك أنه غير جامع، فإن ما يندرج في هذا النوع لا يرجع إلى الاتفاقات وحدها بل يمكن أن يترتب على أسباب أخرى، كالوصية أو التقادم. والمقنن نفسه قد تلافى هذين المحذورين فاستعمل التعبير المناسب في عنواني الفصلين الثاني والثالث من حقوق الارتفاق، حيث عنون للفصل الثاني بالارتفاقات الثابتة بالقانون، وللفصل الثالث بالارتفاقات الثابتة بفعل الإنسان. وعلى كل فإن الملاحظات السابقة حول نص المادة ٦٣٩

هي ملاحظات لغوية أكثر منها أن تكون قانونية[١].

التساؤل عن جدوى التمييز بين الارتفاقات التي ترجع إلى حالة الأمكنة والارتفاقات الثابتة بنص القانون، والنص على سببين منفصلين لهما:

ذكر أنه قد يبدو لأول نظرة من الصعب إيجاد فرق بين الارتفاقات الطبيعية التي ترجع إلى حالة الأمكنة والارتفاقات القانونية، لأن الأولى هي أيضاً يفرضها القانون، ولذا كانت الفكرة العامة أنه لا اختلاف بينهما، وأنه كان أحرى بالمقنن أن يجمعهما في فصل واحد. ولكن مع ذلك لوحظ أن أصل إحداهما ليس تماماً هو بالذات أصل الأخرى، فالأصلان غير متطابقين، كما أنه لا يمكن القول مطلقاً إن التمييز بينهما خال عن أية أهمية عملية.

ويقول الأستاذ (ديمو لومب): إن الارتفاقات التي ترجع إلى حالة الأمكنة سببها قبل كل شيء هو نص الأرض والتوفيق بين الملكيات، فهذه الارتفاقات هي مكتوبة، إذ صح القول، على الأرض كما خطها الله. ويمثل بالعبء المفروض على العقار المنخفض باستقبال المياه التي تجري من العقار الأعلى. ويستطرد قائلاً: إن هذه الارتفاقات توجد بصورة طبيعية مستديمة وعامة، حيث توجد ذاتياً في جميع الاوقات وجميع البلدان، ويجب التسليم بها حتى مع عدم وجود النص القانوني. ودور القوانين أحرى أن يكون في الاعتراف بها من أن يكون في فرضها، فهذا الدور لا يعدو إقرار قواعد سابقة من قبيل الضرورة والذوق السليم. وبخلاف ذلك الارتفاقات القانونية، فهي تنظيمات تحكمية ينشئها المشرع فيما يتعلق بالعقارات التي غيرت يد الإنسان من حالتها الأولية. وتلك التنظيمات تختلف بالنظر إلى اختلاف العادات والأعراف والظروف

---

(١) انظر ديمولومب، جـ١١ فقرة ٥ و٦. ـ بودري، جـ١ فقرة ١٦٤٢.

الخاصة والمحلية لكل فترة وكل بلد، وليس لها من موجب إلا القانون. ولا شك أنها عموماً تقوم على اعتبارات متسلطة من المصلحة العامة، ولكن يجب على المشرع أن ينشىء تلك الارتفاقات بالنص عليها، فإن لم يفعل لا يكون في وسع القاضي التسليم بها.

ولوحظ أيضاً أن القواعد المتعلقة بالارتفاقات التي ترجع إلى حالة الأمكنة قد استعارها المقنن الفرنسي من القانون الروماني، في حين أن معظم قواعد الارتفاقات القانونية قد استنبطت في القانون الفرنسي القديم (قانون الأعراف) ، أي حدث استنباطها فيه.

أما عن فائدة التمييز بين النوعين فذكر أنه فيما يتعلق بالارتفاقات التي ترجع إلى حالة الأمكنة،للقضاء سلطة تفسير هي أوسع منها بالنسبة للارتفاقات القانونية، حيث تعتبر الأولى إفصاحاً عن قواعد العدالة والضرورة التي على القاضي أن يحرص على مراعاتها عند سكوت القانون، بينما يتعلق الأمر في الثانية بتنظيمات تحكمية وعرضية متغيرة لا توجد إلا بمقتضى نص قانوني. وذكر في ذلك أيضاً أنه في الارتفاقات الطبيعية لا محل لتعويض مالك العقار المرتفق به، خلافاً للارتفاقات القانونية حيث يعوض مالك ذلك العقار كقاعدة عامة، كما هو الحال بالنسبة لحق المرور إلى الأرض المحبوسة عن الطريق العام[1].

هل يصح اعتبار الحالة الطبيعية للأمكنة ونص القانون من أسباب نشوء حقوق الارتفاق؟ الإجابة عن هذا السؤال تنبني على الإجابة عن سؤال آخر هو: هل يصح اعتبار ما يسمى بالارتفاقات الطبيعية والارتفاقات القانونية حقوق ارتفاق حقيقية؟

اختلف رجال القانون في ذلك، فمنهم من اعتبرها حقوق

---

(١) انظر: ديمولومب، جـ ١١ فقرة ٧. ـ بودري، جـ ١ فقرة ١٦٤٣. ـ بلانيول، جـ ١ فقرة ٢٨٩١.

ارتفاق[1]، ومنهم من تردد في ذلك وذكر صعوبة الإجابة عن السؤال[2]، ومنهم من نفى بشدة أن تكون حقوق ارتفاق، ومنهم من ذهب إلى التمييز بينها واعتبار بعضها حقوق ارتفاق دون أكثرها.

ومن السابقين إلى المذهب الثالث وأكثرهم تحمساً فيه الأستاذ (ديمو لومب). وقد ذكر، في نفيه اعتبار ما يسمى بالارتفاقات الطبيعية والقانونية من حقوق الارتفاق، أن القانون الفرنسي القديم قد تجنب ذلك الخلط، وأن (بوتيه) ذهب إلى أن الالتزام الذي يقع على مالك العقار الأسفل باستقبال المياه التي تجري من العقار الأعلى يرجع إلى شبه عقد الجوار، ولم يعتبر الالتزامات التي تمليها حالة الأمكنة أو النصوص التشريعية مكونة حقوق ارتفاق.

ثم يقول الأستاذ (ديمو لومب): إنه منطقياً، ومن وجهة النظر الفلسفية، من المستحيل أن نعتبر من الارتفاقات القيود التي ترد على حق الملكية وترجع إلى حالة الأمكنة أو نصوص القانون. ذلك أن كلمة ارتفاق تتضمن فكرة استثناء من القاعدة العامة، أو انحراف معاكس لقانون الملكية العام، في حين أن مختلف التنظيمات المتعلقة بالقيود المذكورة تكون بذاتها القاعدة العامة والقانون العام لجميع الملكيات، فلا يمكن أن تكون ارتفاقات. فحسب منطوق المادة(٥٤٤ مدني): الملكية هي حق التصرف والتمتع بالأشياء بطريقة مطلقة جداً، ما لم يتجاوز بذلك إلى استعمال تحرمه القوانين والأنظمة. وعليه فإن مختلف ضروب المنع التي تفرضها القوانين والأنظمة تكون لصيقة بحق الملكية ذاته، وإن هذا

---

(١) يبدو لي أن من هذا الفريق الأستاذ بلانيول، حيث أطلق عليها اسم الارتفاقات دون اعتراض أو مناقشة، مع أنه بحث التمييز بينها وارجاعها إلى فصيلتين: ارتفاقات طبيعية وارتفاقات قانونية (شرحه للقانون المدني الفرنسي، جـ ١ فقرة ٢٨٩١).

(٢) انظر بودري (جـ١ فقرة ١٦٤٤ و١٦٤٥)، وقد أورد أوجه شبه وأوجه اختلاف بين تلك والارتفاقات التي تنشأ بفعل الإنسان.

الحق لم يجر إقراره إلا بتلك الشروط التي تعتبر غير منفصلة عن وجوده. وضروب المنع المختلفة تكون القاعدة العامة للتمتع والتصرف بالملكية في كل بلد، بعيداً عن أن تكون ارتفاقات، بل هي على العكس من ذات حرية العقار كما اعترف بها المقنن.

ومن الإمعان في الخيال أن نفترض وجود حق طبيعي بمقتضاه يكون لكل مالك الحرية المطلقة في أن يعمل على ملكه كل ما يريد، دون أي اكتراث بالضرر الذي قد ينجم للأملاك المجاورة. فتلك الحرية ليست إلا البربرية والحرب. والله الذي أنشأ حق الملكية، كأحد الأسس الرئيسة للمجتمعات البشرية، لا شك أنه لم يرد أن يجعل منه حقاً غير اجتماعي وهمجياً. وعندما يتدخل المشرع، كحكم أعلى، ليحد لكل حدوده ويعين الشروط العامة المتبادلة للتصرف بالأموال فهو يحقق العناية الإلهية، ولا يخضع الملكية ويستعبدها بل على العكس يهذبها ويجعلها متمدنة، وهو بدفاعه عنها ضد الإفراط فيها يؤمنُ لها الحرية الكاملة المسالمة.

وينتقل بعد ذلك إلى بيان الصفة الاستثنائية لحقوق الارتفاق، فيذكر أنه لوجود حق ارتفاق حقيقي يجب أن يوضع أحد العقارات تجاه آخر في حالة إذعان لا يلزمه بها القانون العام للملكية[1].

وممن ذهب المذهب الرابع، فاختار التفصيل، الأستاذ (جوسران). وهو لم يعلق على إطلاق المقنن اسم الارتفاق على ما يرجع إلى حالة الأمكنة، مكتفياً بالإشارة إلى أن هذه الارتفاقات الطبيعية قليلة جداً ولا يذكر منها غالباً سوى الارتفاق بجريان الماء من الأرض المرتفعة، الذي وصفه بأنه ارتفاق ضروري بصفة خاصة وطبيعي بحيث يمارس دون أي تعويض.

وقد تناول ما يسمى بالارتفاقات القانونية، سواء ما شرع منها

---

(١) ديمولومب، جـ١١ فقرة ٨.

لمصالح عامة، كالمصالح العسكرية أو مصلحة طرق المواصلات أو مصلحة حفظ وتنظيم المياه المعدنية، ذاكراً أنها تتعلق بالقانون الإداري، أو ما يعود منها إلى مصالح خاصة، كالتزامات الجوار المتعلقة بمراعاة ترك مسافات في الغرس والبناء وفتح المطلات، مبيناً أنها ليست ارتفاقات بأية حال وأن إطلاق اسم الارتفاق عليها هو سوء تعبير، فمثل هذه الالتزامات لا تتضمن أبداً تبعية عقار لاخر.

وخلص إلى أن الارتفاقات القانونية الحقيقية هي الارتفاقات المتعلقة بتنظيم المياه، والارتفاق بالمرور إلى الطريق العام بالنسبة للعقار المحبوس عنه[1]

والراجح لدي هو القول الرابع، ووجوب التمييز بين القيود التي يفرضها القانون على حق الملكية العقارية، فإن بين تلك القيود ما يصدق عليه أنه حق ارتفاق حقيقي وله جميع مقومات حقوق الارتفاق، كحق المرور المشار إليه الثابت للعقار المحبوس عن الطريق العام (م٦٨٢ مدني فرنسي المعدلة). وألاحظ أن مثل هذا الحق لا يحد فقط من مكنات العقار المفروض عليه، كما هو الحال بالنسبة لمعظم القيود القانونية، وإنما يمارس بأفعال إيجابية على ذلك العقار. وإنه يمكن كسب ذلك الحق ونحوه بفعل الإنسان، كالتصرفات القانونية. وقد اشترط المقنن الفرنسي، في المادة المشار إليها، تعويضاً لمالك العقار المحمل بالحق يتناسب مع الضرر الذي يمكن أن ينجم عن فرضه، فذلك يشبه العقد القسري. ولا أرى محلاً للتفرقة بين الحالتين في تكييف الحق، بالنظر في ذلك إلى سبب نشوئه، واعتباره تارة أصلاً ومن القيود القانونية وأخرى استثناء ومن حقوق الارتفاق، مع أنه لا فرق بين الحالتين إلا في اشتراط شروط معينة يمكن بتوافرها فرض الارتفاق قسراً فيها إذا طلب مالك العقار المرتفق ذلك.

---

(١) شرحه للقانون المدني الفرنسي، جـ١ فقرة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٩.

وأرى أن النص على الارتفاق المذكور ونحوه يمكن تبريره بأنه مع شدة الحاجة إلى مثل ذلك الارتفاق، في الظروف المنصوص عليها، قد قصد المقنن أن يمنع تعنت الملاك برفضهم تقرير الارتفاق على عقاراتهم واستغلالهم للظروف، مراعياً في ذلك تحقيق المصلحة العامة من وراء منع الاستغلال أو تعقيم الأموال، وتغليب المصلحة الخاصة الراجحة على المصلحة المرجوحة إن وجدت.

نشوء حقوق الارتفاق بفعل الإنسان: يرجع نشوء حقوق الارتفاق بفعل الإنسان إلى أسباب ثلاثة يتضمنها هذا الفعل، حيث تكسب الارتفاقات إما بسند، أو بالتقادم، أو بتخصيص رب الأسرة (المالك الأصلي). ونص المقنن الفرنسي على هذه الأسباب الثلاثة (م٦٩٠ - ٦٩٥ مدني)، والمراد بالسند في تعبير المقنن هو التصرف القانوني المنشىء للحق[1]، وقد يظهر هذا في نص المادة (٦٩٥)، وعبر في ذات المادة بالتقادم عن الحيازة الطويلة الأمد الواردة في المادة (٦٩٠).

وفي الأسباب الثلاثة يستخلص نشوء حقوق الارتفاق من إرادة الملاك، إلا أن مظاهر هذه الإرادة تختلف في تلك الأسباب، حيث هي إرادة صريحة في السند (التصرف القانوني) ولكنها مستنتجة أو مفترضة في التقادم وتخصيص رب الأسرة[2].

والسبب الأول منها هو الذي له الأهمية العملية الكبرى، وذلك لأن السببين الآخرين يتحدد مدار عملهما بأصناف معينة من الارتفاقات[3].

---

(١) انظر بودري، جـ١ فقرة ١٧٩٦.

(٢) انظر ديمولومب، جـ ١٢ فقرة ٧٢٤ و٧٢٥.

(٣) جوسران، جـ١ فقرة ١٩٨٥. والمراد بالأصناف المعينة الارتفاقات الظاهرة المستمرة، ولكن اختلف شراح القانون الفرنسي بصدد تصويب أو تخطئة مسلك المقنن في إشراط كون الارتفاق مستمراً لإمكان كسبه بالتقادم، بل قد وقع خلاف في اشتراط المقنن هذا الشرط بالنسبة لكسب الارتفاق بتخصيص المالك الأصلي. وسنرى أن المقننين المصري والعراقي والليبي لم يشترطوا ذلك مطلقاً، سواء لكسب الارتفاق بالتقادم أو بتخصيص المالك الأصلي.

في بعض القوانين العربية:

في القانون المدني المصري الملغى لم يرد نص بتعداد أسباب نشوء حقوق الارتفاق، ولكن هذه الأسباب كانت في ظل ذلك القانون موافقة لما تقدم في القانون الفرنسي، ويمكن أن ترجع إلى نص القانون وفعل الإنسان. وبيان ذلك أن القانون المصري الملغى كان يعتبر الأعباء التي يفرضها القانون على الملكية العقارية حقوق ارتفاق، سواء ما يرجع إلى حالة الأمكنة أو غيرها من الأعباء، حتى القيود المقررة للمصلحة العامة مباشرة[1]. وأما ما يرجع إلى فعل الإنسان من تلك الأسباب فقد أشارت إلى العقد منها المادة (٣٠ أهلي / ٥١ مختلط)، بنصها على وجوب اتباع شروط العقد الذي ترتب عليه وجود التكليف (أي وجود الارتفاق). ونصت المادة (٤٤ أهلي / ٦٦ مختلط) على أسباب كسب الملكية والحقوق العينية، فتسري تلك الأسباب على كسب حقوق الارتفاق، إلا ما لا ينسجم منها مع هذه الحقوق ويستحيل تطبيقه عليها كالالتصاق. وعليه تعتبر من أسباب نشوء حقوق الارتفاق التصرفات المنشئة للحق العيني والتقادم.

وأما تخصيص المالك الأصلي فكان مسلمًا به بالرغم من عدم النص عليه، وكان القضاء المصري يعتبره من أسباب نشوء حقوق الارتفاق[2].

وخلافاً للقانون القديم بين المقنن المصري صراحة أسباب كسب حقوق الارتفاق في القانون المدني الحالي، حيث تنص المادة ١٠١٦ منه على أن:

---

(١) انظر المواد ٣٣ و٣٨ ـ ٤٣ مدني أهلي، في باب حقوق الارتفاق، والمادة ١٠ منه التي يستفاد منها اعتبار القيود المتعلقة بالأشغال العامة والأعمال الحربية من حقوق الارتفاق.

(٢) انظر الملكية والحقوق العينية، للدكتور محمد كامل مرسي، فقرة ٣١٠، وأشار في هامش ص ٢٥٨ إلى طائفة من أحكام المحاكم في ذلك. وأشار الدكتور السنهوري إلى الكثير منها في عهد القانون المدني السابق (الوسيط جـ٩ ص ١٣٣٤ هامش ٢).

١ ـ حق الارتفاق يكسب بعمل قانوني أو بالميراث.

٢ ـ ولا يكسب بالتقادم إلا الارتفاقات الظاهرة بما فيها حق المرور.

وتنص الفقرة الأولى من المادة ١٠١٧ على أنه: يجوز في الارتفاقات الظاهرة أن ترتب أيضاً بتخصيص من المالك الأصلي.

وعلى ذلك تكون أسباب كسب حقوق الارتفاق في هذا القانون هي العمل القانوني، والميراث والتقادم، وتخصيص المالك الأصلي. وحيث ان السبب الأخير لم يرد له أي ذكر في القانون السابق قيل في النص عليه إنه أضيف إلى الأسباب الأخرى[1].

وبين المقنن العراقي تلك الأسباب بأنها العقد، والميراث، والوصية، والتقادم، وتخصيص المالك الأصلي. حيث تنص المادة ١٢٧٢ مدني على أنه:

١ ـ يكسب حق الارتفاق بالعقد وبالميراث وبالوصية.

٢ ـ ويحتج بالتقادم في حق المرور وحق المجرى وحق اسيل وغيرها من حقوق الارتفاق الظاهرة.

وتنص الفقرة الأولى من المادة ١٢٧٣ على أن: الارتفاقات الظاهرة يجوز ترتيبها بتخصيص من المالك الأصلي.

---

(١) انظر المذكرة الإيضاحية للفصل المخصص لحقوق الارتفاق (مجموعة الأعمال التحضيرية للقانون المدني المصري، جـ٦ ص ٦٢١) وجاء في مذكرة المشروع التمهيدي للمادة ١٠١٧ أن: أسباب كسب حق الارتفاق هي اسباب كسب حق الملكية، إلا أن يكون سبب كسب الملكية متعارضاً مع طبيعة حق الارتفاق، فيخرج بذلك الإستيلاء والالتصاق والشفعة، ويبقى العمل القانوني (العقد والوصية) والميراث والتقادم.
وأنه يدخل في الاتفاق الضمني لكسب حق الارتفاق ما يسمى بتخصيص المالك الأصلي (مجموعة الأعمال التحضيرية، جـ٦ ص ٦٢٨، و٦٢٩).

وإذا لاحظنا أن العقد والوصية[1] يندرجان في العمل القانوني تكون الأسباب التي تكسب بها حقوق الارتفاق هي ذاتها في القانونين المصري والعراقي.

وقد نص المقنن الليبي أيضاً على تلك الأسباب بذات الصيغة الواردة في القانون المصري (م١٠١٩ و١٠٢٠ ف١ مدني ليبي).

وقد استبعدت هذه القوانين ما ينشأ بنص القانون من دائرة حقوق الارتفاق، سواء ما يرجع إلى حالة الأمكنة أو غيره، واعتبرت ذلك من القيود القانونية.

وجاء في المذكرة الإيضاحية للفصلين المخصصين لحق الملكية بوجه عام، وحق الارتفاق، في القانون المصري: أن المقنن قد نقل القيود القانونية التي كانت تسمى بحقوق ارتفاق من المكان المخصص لحقوق الارتفاق إلى المكان الذي ينبغي أن توضع فيه بين القيود القانونية التي ترد على حق الملكية[2].

وخلافاً لتلك القوانين ذهب المقننان السوري واللبناني مذهب المقنن الفرنسي في ذلك، فنصا على أنه: ينتج الارتفاق إما من الوضعية الطبيعية للأماكن، وإما من التزامات مفروضة بالقانون، وإما من اتفاقات معقودة بين ملاك العقارات (م٩٦١ مدني سوري و٥٧ من قانون الملكية العقارية اللبناني).

ما يلاحظ في ذلك: بصدد استبعاد حالة الأمكنة ونصوص القانون من بين أسباب نشوء حقوق الارتفاق وإخراج ما يسمى بالارتفاقات الطبيعية والقانونية من تلك الحقوق، كما فعل المقننون المصري والعراقي

---

(١) يظهر في النص أن المقنن لم يعتبر الوصية من العقود، بل اعتبرها تصرفاً بإرادة منفردة، وذلك موافق لرأي الإمام زفر من الحنفية.

(٢) مجموعة الأعمال التحضيرية، جـ٦ ص ٦ وانظر ص ٦٢١.

والليبي، أو الذهاب إلى عكس ذلك، كما فعل المقننان السوري واللبناني، نورد آراء رجال القانون العرب في تكييف تلك الارتفاقات. وكما وقع الخلاف في ذلك بالنسبة للقانون الفرنسي فإنه واقع أيضاً بالنسبة لما ورد في القوانين العربية المشار إليها. وقد ذهب الكثير من رجال القانون إلى اعتبارها مجرد قيود قانونية ترد على حق الملكية، ونفوا أن تكون من حقوق الارتفاق، وصوبوا مسلك المقنن في إدراجها ضمن تلك القيود[1]. وذهب فريق إلى اعتبار بعضها حقوق ارتفاق بالمعنى الصحيح، وهي ارتفاقات المياه (حقوق الشرب والمجرى والمسيل) وحق المرور، وأن هذه ارتفاقات قانونية وليست مجرد قيود ترد على استعمال حق الملكية[2]. وهنالك من لم يفصل في اعتبار القيود الواردة على الملكية العقارية حقوق ارتفاق حقيقية[3]

ومن نفى أن تكون من حقوق الارتفاق الأعباء التي يفرضها القانون على الملكية العقارية أستدل بما تقدم من الصفة الاستثنائية لحقوق الارتفاق، وكون الأعباء المذكورة تمثل التنظيم العام والوضع العادي المألوف لحق الملكية[4].

وأما من ميز بين تلك الأعباء واعتبر بعضها حقوق ارتفاق فإنه برر

---

(١) الدكتور السنهوري، الوسيط، جـ٩ فقرة ٥٥٧ ـ الدكتور محمد علي عرفه، حق الملكية، فقرة ١٨٩ ـ الدكتور عبد المنعم فرج الصده، حق الملكية، فقرة ٥٠.

(٢) الدكتور عبد المنعم البدراوي، الحقوق العينية الأصلية، فقرة ٧٨، ٢٨٢ ـ الدكتور منصور مصطفى منصور، حق الملكية، فقرة ٣٩. ويمكن أن يعد من هذا الفريق الأستاذ حامد مصطفى، حيث أطلق اسم الارتفاق على الحقوق المذكورة دون غيرها مما فرضه القانون (الملكية العقارية في العراق، فقرة ٧٣ و٨٨ و٩٩).

(٣) أشار الدكتور السنهوري في هذا الرأي إلى الدكتور شفيق شحاته، فقرة ٣٣٠ (الوسيط، جـ٩ فقرة ٥٥٧ ص ١٢٩٨ هامش ٤).

(٤) الدكتور السنهوري، جـ٩ فقرة ٥٥٧ ص ١٢٩٦ ـ الدكتور محمد علي عرفه، فقرة ١٨٩ ـ الدكتور عبد المنعم فرج الصده، فقرة ٥٠.

مذهبه بأن هذه الحقوق لايصدق عليها أنها تمثل الوضع العادي لحق الملكية، فهي قد توجد أو لا توجد حسب توافر الشروط التي اشترطها القانون أو عدم توافرها[1]. وهي ليست مجرد قيود سلبية، ولا يحول دون اعتبارها حقوق ارتفاق كونها مقررة بنص القانون، لأن القانون من مصادر حقوق الارتفاق[2]. وسبق أن رجحنا اعتبار بعض الأعباء التي يفرضها القانون من حقوق الارتفاق، وأوردنا رأينا في ذلك.

ويرد على النصين السوري واللبناني ما ورد على المادة (٦٣٩ مدني فرنسي) في اعتبار الأعباء الناتجة من حالة الأمكنة ونصوص القانون حقوق ارتفاق مطلقة، وفي عدم دقة الصياغة وقصور التعبير.

وانتقدت المادة (١٠١٦ مدني مصري) حيث ذكرت الميراث ضمن أسباب كسب حقوق الارتفاق، في حين أن الميراث ليس سبباً لكسب تلك الحقوق ابتداء، وإنما انتقالاً. ويقول في ذلك الدكتور السنهوري: إذا كان المراد تعداد الأسباب التي يكسب بها حق الارتفاق ابتداءً فإن الميراث لا يدخل ضمن هذه الأسباب، لأنه سبب لكسب حق الارتفاق انتقالاً لا لكسبه ابتداءً. أما إذا كان المراد تعداد جميع الأسباب التي يكسب بها حق الارتفاق، ابتداءً كان ذلك أو انتقالاً، فلماذا لم يورد النص الشفعة ضمن هذه الأسباب، وهي كالميراث يكسب بها حق الارتفاق انتقالاً؟[3]. وهذا الانتقاد وارد أيضاً على النصين العراقي والليبي.

في الفقه الإسلامي:

الإشارة إلى نصوص المجلة ومرشد الحيران:

وردت الإشارة إلى المواد (٢١٦ و١٢٢٤ مجلة و٤٧ ـ ٤٩ و٥١ و٥٢

---

(١) الدكتور منصور مصطفى منصور، فقرة ٣٩ ص ٩٦.

(٢) الدكتور عبد المنعم البدراوي، فقرة ٢٨٢.

(٣) الوسيط، جـ٩ فقرة ٥٦٢، ص ١٣٠٢ هامش (٢). وانظر الدكتور البدراوي، فقرة ٢٨٧.

من مرشد الحيران) في مجموعة الأعمال التحضيرية للقانون المدني المصري، على سبيل مقابلة أحكام الشريعة الإسلامية لما ورد في المشروع التمهيدي للمادة (١٠١٦) مدني، التي تقدم نصها على كسب حق الارتفاق بالعمل القانوني والميراث والتقادم[١].

والمادة (٢١٦ مجلة) وردت بصحة بيع حق المرور وحق الشرب وحق المسيل تبعاً للأرض. والمادة (١٢٢٤ مجلة) نصت على اعتبار القدم في حق المرور وحق المجرى وحق المسيل، ومثلها في ذلك المواد (٤٨ و٥١ و٥٢ من مرشد الحيران). والمادة (٤٧ منه) نصت على أن حق الشرب يورث ويوصى بالانتفاع به ولا يباع إلا تبعاً للأرض كحق المسيل. وأما المادة (٤٩ منه) فلا أتبين وجه الإشارة إليها في ذلك، إلا على سبيل استخلاص نشوء الحق الذي تضمنته بأحد الأسباب المتقدمة، لأنها تقرر مجرد وجود حق ارتفاق بالمرور في ملك الغير وكيفية استعماله.

تعداد أسباب نشوء حقوق الارتفاق:

أكثر من عني ببحث هذه الأسباب، فيما اطلعت عليه من المؤلفات الفقهية المعاصرة، هو أستاذنا الشيخ علي الخفيف. وأوجز بيانه لتلك الأسباب بأنها:

١ ـ الشركة في المرافق العامة، كالطرق والمراوي والمصارف العامة، فهي منشأ حقوق ارتفاق للعقارات المتصلة بها.

٢ ـ التزام تلك الحقوق في عقد معاوضة باشتراطها فيه، إذا جرى العرف به عند الحنفية، وعند غيرهم، كالحنابلة، لا يشترط جريان العرف بذلك.

---

(١) مجموعة الأعمال التحضيرية، جـ٦ ص ٦٢٦.

٣ ـ الانتفاع بأرض موات في حق من تلك الحقوق، كاتخاذها طريقاً إلى أرض، فتحمل بهذا الارتفاق.

٤ ـ القدم عند الجهل بمنشأ الحق، لعدم ترجيح سبب على آخر.

٥ ـ التزام حق ارتفاق بطريق التبرع عند المالكية.

٦ ـ إنشاء حق الارتفاق بعقد معاوضة استقلالاً، عند المالكية أيضاً.

٧ ـ مضي زمن على الانتفاع بهذا الحق دون اعتراض ممن له حق الاعتراض، في مذهب المالكية أيضاً.

٨ ـ شراء العلو بالنسبة لحق التعلي، على الخلاف في جواز ذلك مع عدم وجود بناء مستعل أو منعه.

٩ ـ الجوار بالنسبة لحقوق الجوار[1].

ما ألاحظه في ذلك: بالنسبة للسبب الأول الاحظ أن حقوق الارتفاق من الحقوق الخاصة فيفترض اختصاص أصحابها بها، ولا يتصور تقريرها على المرافق العامة إلا بهذه الصفة. وذلك نحو ما تقدم في الفقه الحنفي من جواز مصالحة الإمام على إشراع ظلة على الطريق العام إذا كانت لا تضر بالعامة. وهو استثناء من أصل كون محل الارتفاق مما يجوز التعامل به، فالمرافق العامة من الأموال العامة ولكن أجيز تقرير ارتفاق عليها بقيد عدم الضرر الذي يفصح عن عدم تعارض الارتفاق مع ما أعدت له هذه المرافق، وذلك يفترض أن يكون موضوعه ضرباً من المنفعة متميزاً عن انتفاع الآخرين بتلك المرافق، وإلا لما احتيج إلى تقرير الارتفاق.

---

(١) الحق والذمة، ص ٦٤ ـ ٦٥ ـ. وانظر مؤلفه السابق (أحكام المعاملات الشرعية، ص ٦٣ ـ ٦٦)، حيث ذكر فيه أكثر تلك الأسباب. واقتصر أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة على ذكر أسباب ثلاثة فقط: تعلق الحق بمرتفق عام، واذن المالك، والقدم (الملكية ونظرية العقد، فقرة ٢٨ ص ٧٦).

وأما الاشتراك في المرافق العامة فلا أراه سبباً لتقرير حقوق ارتفاق عليها، واعتباره سبباً لذلك يتعارض مع ما يقرره الفقهاء من أن الشركة العامة تقتضي الإباحة[1]. فما يستفاد من الاشتراك في الانتفاع بتلك المرافق هو مجرد حق شخصي عام، ويبين الفقهاء أن الشركة في الطرق العامة لا يثبت بها لا ملك عيني ولا ملك منفعة[2]. ويصرح الإمام السرخسي بأن الانتفاع بالطرق العامة والمياه الجارية في الأودية والأنهار العظام يستوي فيه جميع الناس، والمراد باشتراكهم فيها الإباحة[3].

والسبب الثالث، أي الانتفاع بأرض موات[4] في حق من حقوق الارتفاق، هو موضع نظر ولا أرى التسليم به. ذلك أن أكثر الفقهاء يذهبون إلى اعتبار الأرض الموات من المباحات، بصريح القول أو بقياسها على ماء البحر والصيد والحطب، ولا يشترطون إذن الحاكم لتملكها بالإحياء[5]. واعتبارها مباحة يخرج ما يتقرر عليها من أن يكون حق ارتفاق بمعناه المصطلح عليه، لعدم ترتبه على عقار مملوك للغير، بل هو مقرر على عقار غير مملوك أصلاً.

وأما على اعتبار الأرض التي لا مالك لها مملوكة للدولة، كما هو

---

(١) بدائع الصنائع، جـ٦ ص ١٨٩.

(٢) الزيلعي، جـ٦ ص ١٤٣. ـ فروق القرافي، جـ٣ ص ٢١٠.

(٣) المبسوط، جـ ٢٣ ص ١٦٤.

(٤) مما ورد في الموات أنه أرض لا مالك لها أو الأرض الخراب (القاموس المحيط، باب التاء فصل الميم). وكلا المعنيين مراد في الاصطلاح الفقهي.

(٥) انظر في التصريح باعتبارها مباحة في الفقه الحنفي، تدليلاً على مذهب الصاحبين في عدم اشتراط إذن الإمام، الزيلعي، جـ٦ ص ٣٥. وفي الفقه الحنبلي المغني، جـ ٦ ص ١٨٤. والشرح الكبير، مع المغني ص ١٥١. وفي القياس المذكور سبل السلام، جـ٣ ص ٨٢. ونهاية المحتاج، جـ٥ ص ٣٢٨. واقتصر الإمام الشافعي على ذكر عدم اشتراط إذن السلطان (كتاب الأم، جـ٣ ص ٢٦٩. وبهامشه مختصر المزني ص ١٠٢ ـ ١٠٣). وهو المشهور لدى المالكية (الحطاب، جـ٦ ص ١١ ـ ١٢. وبهامشه المواق ص ١٠ و١٢). وللفقهاء في ذلك تفصيلات.

معروف في المجال القانوني، فإن تملكها أو اكتساب حق عليها يحتاج إلى تصريح من الدولة. وقد نلمس ذلك الاعتبار لدى الفقهاء الذين يشترطون إذن الإمام لتملك الأرض الموات، ويفرقون بينها وبين المباحات كالإمام أبي حنيفة[1]، وعليه يرجع كسب حق الارتفاق إلى التصرف الشرعي من ممثل الدولة، فإن إذن الحاكم بإحياء أرض يتضمن منح الحقوق التي يتطلبها ذلك، كحق المرور إلى تلك الأرض على أرض موات أخرى، وفقاً للقاعدة الكلية التي تنص على أن من ملك شيئاً ملك ما هو من ضروراته (م٤٩ مجلة). فإذا تملك المحيي الأرض بسبب الإحياء المستند إلى الإذن فإنه يكون قد كسب حقوق الارتفاق اللازمة لاستغلال تلك الأرض بموجب ذات الإذن. وقد نصت المادة (١٢٧٤ مجلة) على أنه: إذا أحيا شخص أرضاً من أراضي الموات وبعده جاء آخرون أيضاً وأحيوا الأراضي التي في أطرافها الأربع يتعين طريق ذلك الشخص في الأرض التي أحياها المحيى آخراً[2]. وقد وردت هذه المسألة في تنوير الأبصار، وذكر العلامة ابن عابدين، تعليلاً للحكم، أن الرابع أبطل حق ذلك الشخص[3]. فحق المرور إلى تلك الأرض كان مقرراً

---

(١) الزيلعي، جـ٦ ص ٣٥. ويشترط الإمامية أيضاً إذن الإمام (المختصر النافع ص ٢٥٩). ويقرب بين الوجهتين الفقهيتين قول من لم يشترط إذن الإمام للإحياء، كالإمام الشافعي، أن من يحيى مواتاً فهو يحييها بعطية رسول الله ﷺ، وعطيته عامة وهي أثبت من عطية من بعده من سلطان أو غيره. وأن من تحجر أرضاً ولم يعمرها يقال له إن هذه الأرض الجميع فيها سواء وإنما تركت تحوزها لما في ذلك من منفعة لك وللمسلمين، فإن أحييتها وإلا خلينا من أراد إحياءها (الأم، جـ٣ ص ٢٦٩. ومختصر المزني ص ١٠٢ - ١٠٣). وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن ما روي عن رسول الله ﷺ في ذلك كان أذناً لقوم معينين، وليس إذنا عاماً (الزيلعي وحاشية الشلبي، جـ٦ ص ٣٥). وعليه يحتاج إلى إذن خاص في كل زمن وكل واقعة. ويلاحظ أن القانون المدني العراقي جعل الإحياء بإذن الدولة سبباً لكسب حق التصرف (م ١١٨٦).

(٢) وأورد أستاذنا الشيخ علي الخفيف المسألة في بحثه السبب المذكور (أحكام المعاملات، ص ٦٥).

(٣) تنوير الأبصار والدر المختار ورد المحتار، جـ٥ ص ٣٠٧

سابقاً ضمن الإذن بالإحياء، ولكنه لم يكن معيناً على موضع بالذات، وتعين على آخر أرض بعد إحياء الأراضي الأخرى.

وأما الجوار فإنه ليس بسبب لنشوء حقوق ارتفاق، لما تقدم من عدم اعتبار حقوق الجوار من تلك الحقوق.

ويلاحظ أن أستاذنا لم يذكر الميراث والوصية بين أسباب نشوء حقوق الارتفاق، خلافاً لما جاء في المادة (٤٧) من مرشد الحيران. وعدم ذكره الميراث لكونه خلافة، وقد تقدم انتقاد المقننين المصري والعراقي والليبي في إيرادهم الميراث ضمن أسباب كسب حقوق الارتفاق، لكونه ناقلاً لتلك الحقوق فتكسب به انتقالاً لا ابتداءً. وأشير إلى أن حقوق الارتفاق تورث في الفقه الإسلامي حتى في مذهب الحنفية، مع أن الأصل عندهم عدم توريث الحقوق[١]، فهي مجمع على توريثها.

وأما الوصية فتندرج فيما ذكره من التزام حق الارتفاق بطريق التبرع عند المالكية، ولكن إنشاء هذا الحق بالوصية لا يختص به المالكية وحدهم، بل يشاركهم غيرهم في ذلك. وكثيراً ما يجمع الفقهاء الحنفية بين الوصية والميراث في كسب حق الارتفاق، كحق الشرب، باعتبار أن الوصية أخت الميراث، والجامع بينهما ثبوت الحق فيهما بعد الموت[٢]، والفرق بينهما في كسب الحق ابتداءً أو انتقالاً.

وباستبعاد الشركة في المرافق العامة، والانتفاع بأرض موات،

---

(١) ولكنهم يقولون بتوريث حقوق الارتفاق باعتبارها ملحقة بالأموال، وهي متعلقة بالأعيان ولا تعبر عن مجرد اختيار ومشيئة كحق الشفعة الذي لا يورث عندهم. وأما عند غيرهم فتورث حقوق الارتفاق جرياً على أصلهم في توريث الحقوق. انظر مثلاً في الفقه المالكي مواهب الجليل، للحطاب، ص ٣٤٤.

(٢) انظر مبسوط السرخسي، جـ ٢٣ ص ١٨٣ ـ الهداية وتكملة فتح القدير والعناية، جـ ٨ في ترتيب الفتح ص ١٥٠ ـ الكنز وشرح الزيلعي، جـ ٦ ص ٤٣. وحاشية الشلبي ص ٣٩ ـ ملتقى الأبحر ومجمع الأنهر والدر المنتقى، جـ ٢ ص ٥٦٧.

والجوار، من الأسباب التسعة المذكورة يمكن أن نرد الأسباب الستة الباقية إلى سببين فقط: هما التصرف الشرعي والتقادم، وتندرج الوصية في السبب الأول منهما.

وإذا لاحظنا أن كسب حق الارتفاق بتخصيص المالك الأصلي له تطبيقاته بالذات في الفقه الإسلامي[1]، فضلاً عن إمكان إرجاع هذا السبب إلى ضرب من التصرف، فإنه يمكن القول إن أسباب كسب حقوق الارتفاق التي ترجع إلى فعل الإنسان هي ذاتها في المجال القانوني وفي الفقه الإسلامي، أي التصرف الشرعي أو القانوني، والتقادم المكسب، وتخصيص المالك الأصلي. ولا متسع هنا لتفصيل بحث هذه الأسباب، فإن دراستها دراسة مفصلة في المجالين تستلزم بحوثاً مستقلة.

وأما نشوء حقوق الارتفاق بحكم الشرع مباشرة فلم أجد من تعرض له في المؤلفات الفقهية المعاصرة. وتبعاً لذلك فإننا لا نجد ذكراً في تلك المؤلفات لما يقابل ما يسمى بالارتفاقات القانونية، سواء ما يرجع منها إلى حالة الأمكنة أو غيرها، وسبق أن بينا أن منها ما هو حقوق ارتفاق حقيقية. وهذه الحقوق موجودة في الشريعة الإسلامية، ويمكن تسميتها بالارتفاقات الشرعية، وسنتناولها بشيء من التفصيل.

نشوء حقوق الارتفاق بحكم الشرع مباشرة:

نبدأ بما يرجع سبب فرضه إلى الحالة الطبيعية للأمكنة، التي جعلها المقنن الفرنسي سبباً لنشوء ما يسمى بالارتفاقات الطبيعية، فنذكر أبرز ما يرد في ذلك، أي حق المسيل المقرر على الأراضي المنخفضة بالنسبة للمياه المنحدرة بصورة طبيعية من الأراضي المرتفعة[2].

---

(١) انظر مثلاً في الفقه الحنفي الفتاوى الخانية، بهامش الفتاوى الهندية، جـ٣ ص ٢١٣ ـ الفتاوى البزازية، بهامش الفتاوى الهندية، جـ٦ ص ١١٧.

(٢) اعتبر المقننون، الفرنسي والسوري واللبناني، هذا الحق من الارتفاقات التي ترجع إلى الحالة

وأستدل على ذلك بما رواه عبد الله بن الزبير من أن رجلاً (من الأنصار) خاصم الزبير في شراج الحرة التي يسقون بها، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ للزبير اسق يا زبير ثم ارسل إلى جارك. . . إلى آخر الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الزبير عن أبيه، والبخاري والنسائي من حديث عروة بن الزبير عن أبيه. والشراج مجاري المياه، والحرة الأرض ذات الحجارة السوداء. وقال الخطابي «شراج الحرة» مايل الماء من الحرار إلى السهل[1].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في سيل مهزور أن يمسك حتى يبلغ الكعبين ثم يرسل الأعلى على الأسفل. أخرجه أبو داود، وروي الحديث من طرق أخرى بألفاظ مختلفة وأسانيد عديدة منها ما قال فيه الحاكم إنه صحيح على شرط الشيخين. ومهزور واد بالمدينة يسيل بماء المطر، وذكر أن المدينة أشرفت على الغرق من سيله في خلافة عثمان (رض)[2].

وفي الحديثين الشريفين سيق الكلام أصالة لبيان حق الأرض السفلى في الشرب من ماء السيول بعد أن تستوفي الأرض العليا حاجتها

الطبيعية للأمكنة (م ٦٤٠ مدني فرنسي، ٩٦٣ سوري، ٥٩ من قانون الملكية العقارية اللبناني). ونص عليه المقنن العراقي ضمن القيود القانونية التي ترد على حق الملكية (م ١٠٥٢ مدني). ولم ينص عليه المقننان المصري والليبي، وكان المشروع التمهيدي للقانون المصري يتضمن نصاً مماثلاً للنص الفرنسي، وحذف ذلك النص في لجنة المراجعة لعدم الحاجة إليه في مصر (مجموعة الأعمال التحضيرية جـ٦ ص ٤٣).

(١) انظر مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود، جـ٥ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١. والمختصر للمنذري، والشرح للخطابي، والتهذيب لابن القيم.

(٢) انظر مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود، جـ٥ ص ٢٤٢ ـ الخراج، ليحيى بن آدم وتعليقات الشيخ أحمد محمد شاكر عليه، ص ٩٥ ـ ٩٧ ـ موطأ الإمام مالك وشرح الزرقاني، جـ٤ ص ٣٠ ـ تهذيب الأحكام، للشيخ الطوسي، جـ٧ ص ١٤٠.

من الماء وفق ما هو مقدر في الحديثين. ولكن الحديثين ظاهر معناهما في ثبوت حق بتسييل الماء من الأرض العليا على الأرض السفلى، حيث لم يرد في الحديثين تقييد إرسال الماء بحاجة الأرض السفلى إليه. فيستفاد منهما فرض تكليف على الأرض السفلى بتلقي مياه السيول المنحدرة من الأرض العليا، وتقرير حق لهذه في ذلك بنص الشارع. ونجد معنى ما ذكرت ظاهراً في فقه الزيدية، حيث جاء في البحر الزخار: ولذي الصبابة ما فضل عن كفاية الأعلى...، واستدل المؤلف على ذلك بقضاء رسول الله ﷺ الوارد في الحديثين، ثم قال: ومن كانت له صبابة استحقت عليه الإساحة[1]. والصبابة البقية القليلة من الماء، حيث قال العلامة الزمخشري: وما بقي في الإناء إلا صبابة، واصطببت الماء شربت صبابته. وأورد بيت كثير:

يقبّلن بالزوّاء والجيش واقف
مزاد الروايا يصطببن فضالها[2]

ومن أظهر أقوال الفقهاء في الإفصاح عن ذلك الحق أو التكليف الشرعي ما ورد في جوهر النظام من فقه الأباضية، حيث يقول الناظم:

وقيل لا تحول السيول
عن المجاري حيث ما تسيل
لأنها في سيرها مأمورة
في حكم خلاق الورى مقهورة
فلو أتى السيل على أرض فلا
لأهله أن يصرفوه معزلا
ولو أرادوا صرفه للموضع
وقد أتاهم منه فافهم واسمع

---

(١) البحر الزخار، جـ٤ ص ٩٩-١٠٠ و١٠١.

(٢) أساس البلاغة مادة ص ب ب.

وإن يكن ليس برده ضرر
لغيره يجوز ذاك في النظر
لأنما المانع ها هنا ارتفع
وذاك خوف الضر بالغير يقع(١).

ويبدو جلياً التقارب في التعبير بين ما ذكره الناظم في البيت الثاني وما تقدم من قول الأستاذ (ديمو لومب) في ذلك إنه مكتوب على الأرض كما خطه الله.

حق المجرى للأرض المحبوسة عن مصدر الماء:

ننتقل إلى ذكر الارتفاقات الشرعية التي تقابل ما يعتبر ارتفاقات قانونية في بعض القوانين، فنورد ما نرجح اعتباره ارتفاقات حقيقية، ونبحث أولاً حق المجرى(٢). وقد ورد في ذلك قضاء عمر بن الخطاب

---

(١) جوهر النظام، الجزء الثالث في المجلد الثاني، ص ٦٧.

(٢) ورد في القانون المدني المصري القديم الارتفاق القانوني بمجرى المياه اللازمة لري الأراضي البعيدة عن مأخذ المياه نظير تعويض يدفع مقدماً (م٣٣ أهلي / ٥٤ مختلط). ونصت المادة التاسعة من الأمر (العالي) الصادر في ٢٢ شباط سنة ١٨٩٤ على حق المجرى للأراضي التي لا يمكن أن تروى رياً كافياً إلا بذلك. وهو ما أخذ به المقنن المصري في القانون الحالي والمقنن الليبي، ونصا عليه ضمن القيود القانونية (م ٨٠٩ مدني مصري و٨١٨ ليبي، وانظر مذكرة المشروع التمهيدي للنص المصري، مجموعة الأعمال التحضيرية جـ٦ ص ٣٨ و٤٤). وذلك يعني ثبوت الحق للأرض التي لها مروى ولكنه لا يفي بحاجتها، وكذا الحكم بالنسبة لحق المسيل الثابت في ذات المادتين. وفي الحقين لم يشترط المقننان تعجيل التعويض، وأكتفيا باشتراط كونه عادلاً. ولكن المقنن العراقي، بالرغم من تعبيره بالسماح بمرور المياه الكافية إلى الأرض البعيدة عن المورد، اشترط ألا يكون في هذه الأرض ماء للزراعة. واشترط أيضاً أجراً سنوياً يدفع مقدماً لصاحب الأرض التي يقرر عليها المجرى أو مسيل مياه الصرف، وألا يخل ذلك بانتفاع صاحب الأرض إخلالاً بيناً، وتعويضه عن الأضرار التي قد تصيب الأرض (م ١٠٥٨ مدني)، وقد وردت هذه المادة في القيود القانونية. والأصل في جميع النصوص المتقدمة اشتراط كون الأرض التي يثبت لها الحق محبوسة عن مصدر الماء أو مصرفه، ولكن الفرق بينها في اشتراط ذلك كلياً، أو بعبارة أخرى في ثبوت الحق أو عدم ثبوته إذا كان لها اتصال لا يفي بحاجتها. أما المقننان السوري واللبناني فقد نصا على حق المجرى وحق المسيل ضمن

رضي الله عنه فيما رواه الإمام مالك في الموطأ، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه، من أن الضحاك بن خليفة ساق خليجاً[1] له من العريض[2] فأراد أن يمر به في أرض محمد بن مسلمة، فأبى محمد، فقال له الضحاك لم تمنعني وهو لك منفعة تشرب به أولاً وآخراً ولا يضرك، فأبى محمد، فكلم فيه الضحاك عمر بن الخطاب، فدعا عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة فأمره أن يخلي سبيله، فقال محمد لا، فقال عمر لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع تسقي به أولاً وآخراً وهو لا يضرك، فقال محمد لا والله، فقال عمر والله ليمرن به ولو على بطنك، فأمره عمر أن يمر به ففعل الضحاك.

وذكر الاختلاف في فرض المجرى، حيث روى الإمام ابن القاسم عن الإمام مالك، راوي الأثر، جواز المنع وأنه ليس العمل بقضاء عمر

الارتفاقات القانونية، ومقابل تعويض معجل (م ٩٨٠ و٩٨١ مدني سوري، ٧٧ و٧٨ من قانون الملكية العقارية اللبناني). ولم يرد في القانون المدني الفرنسي نص يعطي ارتفاق المجرى، ولكن صدر قانون ٢٩ نيسان ١٨٤٥ يقرر إمكان الحصول عليه لكل مالك على الأراضي المتوسطة بين أملاكه التي يريد ارواءها والمياه الطبيعية أو المستخرجة التي له التصرف فيها، بجعل ممر لها، وبشرط تعويض عادل يدفع مقدماً (م ١ منه). ونص أيضاً على ارتفاق مسيل مياه الصرف، من الأراضي المرواة حسب ما جاء في المادة الأولى، ولكن لم يشترط تعجيل التعويض فيه (م٢ منه). واستثنت المادتان، في تحمل الارتفاقين، الدور والأفنية والحدائق، والبساتين والأماكن المحوطة الملحقة بالمساكن. ويلاحظ أن المادة ٦٤١ مدني فرنسي، بعد تعديلها، توجب التعويض إذا ترتب على استعمال مالك الأرض المرتفعة المياه الطبيعية التي تنزل أو تكون فيها، أو على كيفية توجيهها، زيادة في عبء الارتفاق الطبيعي المقرر على الأرض المنخفضة بالمادة ٦٤٠ التي تقدمت الإشارة إليها. وتفرض المادة ٦٤١ على الأرض المنخفضة مسيل المياه المستنبطة بسبر وحفر في الأرض المرتفعة، وتوجب التعويض إذا نجمت عن ذلك أضرار. واستثنت الدور والأفنية إلى آخر ما تقدم. ونصت على مثل ذلك المادة ١٠٥٣ مدني عراقي ضمن القيود القانونية.

(١) مما جاء في الخليج أنه النهر، ونهر في شق من النهر الأعظم، وشعبة من الوادي. (القاموس المحيط، والصحاح، وتاج العروس، باب الجيم فصل الخاء).

(٢) مما ورد في العرض أنه الوادي، والوادي يكون فيه قرى ومياه، وكل واد فيه شجر (القاموس، وتاج العروس، والصحاح، باب الضاد فصل العين).

ابن الخطاب في هذا. ولكن العلامة الزرقاني أورد، في شرحه للموطأ، عن الإمام مالك ثلاثة أقوال في ذلك: مخالفة الأثر بإطلاق، والأخذ به مطلقاً، والموافقة له على وجه، وذكر فيه اعتبار اختلاف الأزمنة وتغير أحوال الناس.

وعن الإمام الشافعي أن عمر (رضي) لم يخالفه أحد من الصحابة في ذلك[1].

وعن الإمام أحمد روايتان في الإجبار على إجراء الماء في أرض الغير[2].

وأورد العلامة ابن رجب الروايتين وقال: ومذهب أبي ثور الإجبار على إجراء الماء في أرض جاره إذا أجراه في قناة في باطن أرضه[3].

وقال العلامة ابن القيم: ولو احتاج إلى إجراء مائه في أرض غيره من غير ضرر لصاحب الأرض فهل يجبر على ذلك؟ روايتان عن أحمد، والإجبار قول عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة[4]. وفي قوله هذا قيدان: الحاجة إلى إجراء الماء، وانتفاء الضرر. ومن الواضح أن الحاجة إلى إجراء الماء في أرض الغير تظهر عندما تكون الأرض التي يراد إيصال الماء إليها محبوسة عن مصدره. ولكن تلك الحاجة لا تستلزم أن تكون هذه الأرض محبوسة كلياً عن مصدر الماء، ولم يرد ما يفيد اشتراط ذلك

---

(١) انظر: موطأ الإمام مالك وشرح الزرقاني، جـ٤ ص ٣٤ ـ ٣٥. ـ الخراج، ليحيى بن آدم، ص ١٠٨. ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ٥ ص ٨٣ ـ ٨٤. ـ عمدة القاري، جـ١٣ ص ١٠ ـ ١١. ـ سبل السلام، جـ٣ ص ٦٠. ـ المدونة الكبرى، جـ١٥ ص ١٩٢.

(٢) المغني، جـ٦ ص ١٧٤. ومعه الشرح الكبير، ص ١٧٨ ـ ١٧٩. ـ قواعد ابن رجب، ص ٢٢٧.

(٣) جامع العلوم والحكم، ص ٢٧١.

(٤) الطرق الحكمية، ص ٢٤٠. ويلاحظ أنه نسب القول بالإجبار إلى آخرين من الصحابة دون إشارة إلى أي اختلاف لهم فيه. وتقدم قبله ذكر الإمام الشافعي أنه لم يخالف أحد من الصحابة في ذلك، الذي قد يستفاد منه إجماعهم السكوتي.

في قضاء عمر بن الخطاب (رضي)، بل على العكس ورد فيه التعبير بما ينفع طالب إجراء الماء. فيكفي لتطبيق هذا الحكم ألا تفي المياه التي تكون في الأرض أو تصل إليها من جهة أخرى بحاجة هذه الأرض، وتقدم ذلك في المجال القانوني. وأما اشتراط انتفاء الضرر لغرض ارتفاق المجرى الشرعي فيستفاد مما ورد في القضاء المذكور، وما ذهب إليه الفقيه أبو ثور من اشتراط إجراء الماء في قناة داخل الأرض فهو على سبيل المبالغة في الاحتراز عن الضرر. ولا شك أنه يجب اتباع السبل الكفيلة بمنع الضرر، واتخاذ الاحتياطات اللازمة في ذلك، ولكن من الأضرار ما لا يمكن تحاشيه، كضرر عدم الانتفاع بموضع المجرى، أو لا يمكن تحاشيه إلا بنفقات باهظة قد تربو على المنفعة المتوخاة من الارتفاق، كمد مواسير طويلة أو شق قناة مغطاة إلى مسافة بعيدة، فهل يقال إن أي ضرر يصلح حجة لمنع فرض مثل هذا الارتفاق؟ تستبعد الإجابة بالإيجاب إذا لوحظ اعتبار المصلحة العامة في فرضه، وإذا ضمن لمالك الأرض المفروض عليها ما يلحقه من أضرار. ويمكن قياس حق تسييل مياه الصرف على حق المجرى في كل ذلك. وتقدم أن القانون المدني العراقي اشترط في ثبوت المجرى والمسيل القانونيين ألا يخل ذلك بانتفاع صاحب الأرض إخلالاً بيناً، وتعويضه عن الأضرار التي تصيب الأرض، وأن يدفع له أجر سنوي، وأن القوانين الأخرى المشار إليها اشترطت جميعاً التعويض في ذلك.

حق الشـــرب:

استكمالاً لبحث الارتفاقات الشرعية المتعلقة بالمياه نرى أن نعرض أقوال الفقهاء في إثبات أو نفي حق سقي الزروع والأشجار من مياه العيون والآبار والجداول المملوكة، أي اختلافهم في فرض حق الشرب شرعاً[1]. فالحنفية لا يرون فرضه، ولا يثبتون في تلك المياه سوى حق

---

(١) أورد المقننان المصري والليبي هذا الحق ـ ضمن القيود القانونية ـ للملاك المجاورين للمسقاة

الشفة الذي تقدم ذكره[1]. ولكن ورد في الفقه الحنفي، إلحاقاً بحق الشفة، أنه للشخص أن يسقي من نهر لغيره أشجاراً أو خضراً في داره وحديقته حملاً للماء بالجرار، ونصت عليه المجلة[2]. والشافعية أيضاً يثبتون حق الشفة ولا يوجبون حق الشرب فيما يفضل من تلك المياه، إلا أن العلامة الرملي أشار إلى قول بوجوب بذله للزرع[3]. والمالكية يقولون بعدم وجوب إعطاء فضل ماء البئر المملوكة لسقي الأرض، إلا أن تنهار بئر الجار ويخشى على زرعه الهلاك، وقال الإمام ابن القاسم بإعطائه مجاناً في هذه الحالة[4]، وعند الإمامية يستحب بذل فضل الماء ولكنه لا يجب[5].

وأما الذين ذهبوا إلى فرض حق الشرب شرعاً، بإيجاب بذل ما يفضل عن حاجة ملاك الأنهر والعيون والآبار من مائها لسقي زرع الغير، فهم الحنابلة على الصحيح في المذهب[6]، والزيدية فيما ورد في

الخاصة بعد أن يكون مالكها قد استوفى حاجته منها (م٨٠٨ مدني مصري، ٨١٧ ليبي). ولم ينص عليه المقننون العراقي والسوري واللبناني. ولم يكن في القانون المصري السابق، ولكنه ورد في المادة الثامنة من الأمر (العالي) الصادر في ٢٢ شباط ١٨٩٤، بصيغة مقاربة لنص القانون المدني الحالي. ويلاحظ أن المقنن العراقي نص على حق الشفة دون حق الشرب، وعلى العكس نص المقنن المصري على حق الشرب ولم ينص على حق الشفة، فلا يعتبر هذا الحق من الارتفاقات أو القيود القانونية في القانون المصري، وكذلك حق اغتراف الماء (انظر الدكتور البدراوي، فقرة ٣٥٠). وحق الشرب في القانونين المصري والليبي يشبه بذل فضل الماء لسقي الزرع والشجر في الفقه الإسلامي

(١) انظر الخراج، للإمام أبي يوسف، ص ٩٦. ـ البدائع، جـ٦ ص ١٨٩. ـ الهداية، جـ٤ ص ٨٣. ـ الزيلعي، جـ ٦ ص ٣٩.

(٢) الهداية، جـ٤ ص ٨٣. ـ الخانية، بهامش الهندية، جـ٣ ص ٢٠٧. ـ ملتقى الأبحر ومجمع الأنهر، جـ٢ ص ٥٦٣. ـ تكملة البحر الرائق، جـ٨ في ترتيب البحر، ص ٢١٤. ـ م ١٢٦٧ مجلة.

(٣) مختصر المزني، بهامش الأم، جـ٣ ص ١١٤. ـ الأحكام السلطانية، للماوردي، ص ١٦٣ المنهاج ونهاية المحتاج، جـ٥ ص ٣٥٢.

(٤) المدونة الكبرى، جـ١٥ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٥) مستدرك الوسائل، ص ١٥٠. ـ قواعد العلامة وشرحه مفتاح الكرامة، جـ٧ ص ٥٠ ـ ٥٣.

(٦) انظر: الكافي، جـ٢ ص ٤٤٥. ـ قواعد ابن رجب، ص ٢٢٧.

كتبهم[1]، والظاهرية، حيث يقول الإمام ابن حزم، فيمن حفر نهراً أو ساقية أو استخرج عيناً أو استنبط بئراً: إنه أحق بماء كل ذلك ما دام محتاجاً إليه، ولا يحل له منع الفضل بل يجبر على بذله لمن يحتاج إليه[2]. فإطلاق احتياج الغير يتناول سقي زرعه وشجره.

حق المرور إلى الأرض المحبوسة عن الطريق العام:

يمكن تشبيه فرض هذا الحق[3] بفرض ارتفاق المجرى الشرعي الوارد في قضاء عمر بن الخطاب (رضي)، الذي تقدم ذكر أقوال الفقهاء فيه.

وقد وردت في شرح الموطأ رواية عن الإمام مالك أنه يقضي بالممر

---

(١) انظر البحر الزخار، جـ٤ ص ٩٩.

(٢) المحلي، جـ٨ ص ٢٤٣.

(٣) الذي نص عليه المقنن الفرنسي، ضمن الارتفاقات القانونية، لمالك العقارات التي ليس لها أي منفذ إلى الطريق العام بشرط التعويض (م ٦٨٢ مدني). وورد مثل ذلك في القانون المدني المصري الملغى (م ٤٣ أهلي / ٦٥ مختلط). وتفادياً للضرر قدر الإمكان أوجب المقنن الفرنسي أن يؤخذ الممر، في عقارات الجيران، من الجهة التي تكون المسافة فيها من العقار المحصور إلى الطريق العام أقصر ما يمكن، وأن يعين في المكان الذي يكون المرور فيه أقل ضرراً. وذلك في المادتين ٦٨٣ و٦٨٤، اللتين أدمجتا في مادة واحدة هي المادة ٦٨٣، بقانون ٢٠ آب ١٨٨١. وعدل هذا القانون مضمون المادة ٦٨٢، فأصبحت بصياغتها الجديدة تعطي حق طلب الممر لمن له ممر غير كاف لاستغلال ملكه استغلالاً زراعياً أو صناعياً. وبمثل صياغة المادة ١٣٨٢ المعدلة نص المقننان السوري واللبناني على ذلك الحق، مع أخذهما بقيدي تفادي الضرر الواردين في المادة ١٣٨٣ (م ٩٧٧ و٩٧٨ مدني سوري، ٧٤ و٧٥ من قانون الملكية العقارية اللبناني. ونص المقننون المصري والعراقي والليبي على حق المرور، في الأراضي المجاورة لمالك الأرض المحبوسة عن الطريق العام، أو التي لا يصلها بهذا الطريق ممر كاف إذا كان لا يتيسر له الوصول إلى ذلك الطريق إلا بنفقة باهظة أو مشقة كبيرة، وأخذوا بنحو ما تقدم في تفادي الضرر. وذلك نظير تعويض عادل في القانونين المصري والليبي، ومقابل أجر سنوي يدفع مقدماً في القانون العراقي (م ٨١٢ فـ١ مدني مصري، ١٠٥٩ فـ١ عراقي، ٨٢١ فـ١ ليبي)، وقد وردت هذه المواد ضمن القيود القانونية.

في أرض الشخص لجاره إذا لم يضر به[1]. وفي المدونة أن الإمام مالك سئل عن رجل له أرض وحواليه زرع للناس في أراضيهم فأراد صاحب تلك الأرض أن يمر بماشيته إلى أرضه في زرع القوم، قال : إن كان ذلك يفسد زرعهم فلهم أن يمنعوه[2]. ومفهوم المخالفة في قوله، أي مفهوم الشرط فيه، أنه إذا كان المرور لا يفسد زرعهم فليس لهم المنع. ويكون ذلك ميسوراً بجعل الممر في موضع معين غير قابل للزراعة أو غير مزروع من تلك الأراضي. وهذه المسألة تصور تماماً ما يرد في المجال القانوني بالنسبة لأرض شخص محاطة بأراض للغير تفصل بينها وبين الطريق العام.

وما تقدم، في إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، من فرض المجرى للأرض المحبوسة يقتضي فرض الممر لها على الأرض المملوكة للغير.

وورد في الفقه الحنفي أنه إذا كانت شقة أرض تقع بين نهر لشخص وأرض موازية له لآخر، وهذه الشقة حريم لأحدهما مملوكة له، فليس لمالكها أن يمنع الآخر من المرور فيها على وجه لا يبطل حق المالك[3]. والتقييد بعدم إبطال حق المالك يفيد وجوب دفع ضرر المرور ما أمكن، وقد ورد هذا في المجال القانوني.

الارتفاق بوضع الخشب على جدار الجار:

عن أبي هريرة (رضي) أن النبي ﷺ قال: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره»، ثم يقول أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أكتافكم. رواه البخاري ومسلم وأبو داود

---

(١) المنتقى في شرح الموطأ، جـ٦ ص ٣٨. وروي عن الإمام مالك أيضاً أنه لا يقضي بالممر وإنما يندب السماح به، أو هو مما لا ينبغي منعه، أي ديانة (المواق، بهامش الحطاب، جـ٥ ص ١٧٥. ـ البهجة في شرح التحفة وشرح التاودي، جـ٢ ص ٢٥١).

(٢) المدونة الكبرى، جـ١٥ ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٣) الزيلعي، جـ ٦ ص ٣٨.

والترمذي وابن ماجة ومالك وأحمد، وورد في بعض الروايات «خشبه» بصيغة الجمع. وحمل قول أبي هريرة على وجهين: الأول أن المراد به مالي أراكم عن هذه السنة معرضين والله لا أكتمها أبداً، والثاني هو ، إني أجبركم على هذا الحكم إن لم تقبلوا به، فهو قال ذلك حين كان والياً على المدينة.

وفرض هذا الارتفاق شرعاً هو مذهب الإمام أحمد وأبي ثور وإسحق وأصحاب الحديث وأحد قولين للإمام الشافعي وقول في الفقه المالكي. ونقل عن البيهقي قوله: ولم يرد في السنة الصحيحة ما يعارض هذا الحكم إلا عمومات لا ينكر أن يخصها، وقد حمله الراوي على ظاهره من التحريم.

ومذهب الأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي في أحد قوليه، والهادوية، أنه لا إجبار في ذلك وإنما يستحب عدم منع الجار، وحملوا النهي في الحديث على التنزيه. ومما استدلوا به أن العمل كان على خلاف مذهب أبي هريرة، وأن الصحابة أخذوا الحكم المذكور على سبيل التسامح والندب، لأنهم لا يعرضون عن واجب. وأجاب الفريق الأول عن ذلك بأن من خاطبهم أبو هريرة يجوز أنهم ليسوا بصحابة أو فقهاء، وأنهم جاهلون بذلك.

ومن ذهب إلى الإجبار قضاء في تمكين الجار من وضع خشبه على جدار جاره قيد ذلك بانتفاء الضرر عن هذا الجار، فإن كان جداره واهياً لا يحتمل وضع الخشب عليه له المنع. ومنهم من بين أنه على من يريد غرز الخشب أن يتوقى الضرر ما أمكن. فإن لم يمكن ذلك إلا بأضرار وجب على الغارز إصلاحها[1]. وهذا نحو ما هو مقرر في فرض

---

(١) انظر في كل ذلك: فتح الباري، جـ٥ ص ٨٣ - ٨٤. - عمدة القاري، جـ ١٣ ص ١٠ - ١١. - إرشاد الساري، جـ٤ ص ٢٥٦ - ٢٥٧. - صحيح مسلم بشرح النووي، جـ١١ ص ٤٧ - ٤٨. - مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود، جـ٥ ص ٢٣٩. - موطأ الإمام مالك

الارتفاقات القانونية من وجوب تفادي الضرر وتعويضه.

ومن القائلين بالإجبار على ترك الجار يضع خشبه الظاهرية، حيث يصرح الإمام ابن حزم بأنه يجبر صاحب الجدار على ذلك أحب أم كره[1]. وممن ذهب إلى عدم الإجبار فيه، وحمل ما ورد في الحديث على الندب، الإمامية[2] والزيدية[3].

والقول بعدم الإجبار لا ينافي إمكان كسب هذا الحق بسبب مشروع، كالاتفاق. فالحنفية مثلاً، وهم ممن لا يرون فرض ذلك الحق، يذكرون أن وضع الجذوع قد يستحق مع كون الحائط مملوكاً للغير[4]، وأنه يمكن استحقاق وضع الخشب على التأبيد بالقسمة إذا وقعت بهذا الشرط[5]، فيكون ذلك من الارتفاقات التي يرجع كسبها إلى فعل الإنسان.

وأما القول بإجبار صاحب الجدار فقد ورد في تعليله: لأنه حق ثابت لجاره بالحديث[6]، وهو يفيد تقرير حق ارتفاق بنص الشارع. ولا يخفى ما في فرض هذا الارتفاق الشرعي من رعاية للمصلحة العامة أيضاً، وذلك بتوفير المواد والجهود اللازمة لإقامة جدار، وشقة الأرض التي يقام عليها.

ولم أجد مثل هذا الارتفاق في الارتفاقات أوالقيود القانونية، ولكن نظراً إلى تقارب الأهداف نرى أن نذكر الحكم الوارد في المادة ٦٦١ مدني

وشرح الزرقاني، جـ٤ ص ٣٢ ـ ٣٤. ـ جامع العلوم والحكم، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١. ـ سبل السلام، جـ٣ ص ٦٠ ـ ٦١. ـ نيل الأوطار، جـ٥ ص ٢١٩ ـ ٢٢١.

(١) المحلي، جـ٨ ص ٢٤٢.

(٢) انظر مسائل الخلاف، للشيخ الطوسي، جـ١ ص ٢٤٢.

(٣) البحر الزخار، جـ٤ ص ٩٧.

(٤) حاشية الشلبي على الزيلعي، جـ٤ ص ٣٢٦.

(٥) الزيلعي، جـ٤ ص ٣٢٧.

(٦) سبل السلام، جـ٣ ص ٦٠.

فرنسي، ضمن الارتفاقات القانونية، والذي يمثل صورة من صور نزع الملكية للمنفعة الخاصة. فهذه المادة تعطي المالك الذي يتصل ملكه بجدار حق الاشتراك في ملكية هذا الجدار، كله أو بعضه، بدفعه لمالك الجدار نصف قيمته أو نصف قيمة الجزء الذي يريد جعله مشتركاً، ونصف قيمة الأرض التي يقوم عليها الجدار (أو ذلك الجزء منه). وألاحظ أنه كثيراً ما يكون الدافع إلى الاشتراك في ملكية الجدار هو الحاجة إلى وضع العوارض عليه للتسقيف وغيره. ويذكر رجال القانون، تبريراً للحكم المذكور، أن مصلحة الجار ترتبط بالمصلحة العامة التي تقتضي عدم تضييع أرض ثمينة بإقامة أبنية عقيمة[1].

هذا ونأمل أن تسنح الفرصة لنبحث كسب حقوق الارتفاق بالتصرفات، الشرعية والقانونية، وبتخصيص المالك الأصلي، وبالتقادم.

المراجع

مراجع التفسير:

- تفسير البغوي - بهامش الخازن.
- تفسير البيضاوي - المطبعة العثمانية ١٣٠٥ هـ.
- تفسير الخازن - مطبعة مصطفى محمد (بهامشه البغوي).
- تفسير الزمخشري - مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٤هـ.
- تفسير النسفي - مطبعة بولاق ١٩٣٦م.

---

(١) انظر في شرح تلك المادة: ديمولومب، جـ١١ فقرة ٣٥٢ وما بعدها. - بودري، جـ١ فقرة ١٧١٣ - ١٧١٨. - بلانيول، جـ١ فقرة ٢٥١٤ - ٢٥١٩. - جوسران، جـ١ فقرة ١٨٠٤ - ١٨٠٧. ولم تأخذ القوانين العربية بذلك الحكم.

مراجع الحديث وشروحه:

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني - المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٧هـ.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب - الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٦٩هـ.
- الخراج، ليحيى بن آدم - الطبعة الثانية، المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٤هـ.
- سبل السلام، للصنعاني - الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٧٨هـ.
- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك - مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٥هـ.
- صحيح مسلم بشرح النووي - مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٤٩هـ.
- طرح التثريب في شرح التقريب، لعبد الرحيم العراقي وولده أبي زرعة العراقي - مطبعة جمعية النشر والتأليف الأزهرية ١٣٥٣هـ.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني - الطباعة المنيرية بمصر.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني - المطبعة البهية المصرية ١٣٤٨هـ.
- مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود، المختصر للمنذري والشرح للخطابي والتهذيب لابن القيم - مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦هـ.
- المنتقى، شرح الموطأ، لسليمان بن خلف الباجي - مطبعة السعادة بمصر، ١٣٣٢هـ.
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، للشوكاني - مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٤٧هـ.

مراجع لغوية:

- أساس البلاغة، للزمخشري - دار ومطابع الشعب ١٩٦٠م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي.
- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري.
- القاموس المحيط، للفيروزأبادي.

مؤلفات فقهية حديثة:

- أحكام المعاملات الشرعية، لعلي الخفيف - مطبعة أنصار السنة المحمدية ١٣٦٦هـ.
- الحق والذمة وتأثير الموت فيهما، لعلي الخفيف - الناشر مكتبة عبد الله وهبه.
- شرح مرشد الحيران، للأبياني والسنجقلي - مطبعة المعارف - بغداد ١٣٧٥هـ.
- المعاملات الشرعية المالية، لأحمد إبراهيم - المطبعة السلفية ١٣٥٤هـ.
- المعاملات في الشريعة الإسلامية والقوانين المصرية، لأحمد أبي الفتح - مطبعة البوسفور بمصر ١٣٣٢هـ.

- الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية، لمحمد أبي زهرة - مطبعة فتح الله الياس نوري بمصر ١٩٣٩م.
- النظريات العامة للمعاملات في الشريعة الإسلامية، لأحمد فهمي أبي سنة - مطبعة دار التأليف بالقاهرة ١٣٨٧هـ.

مراجع الفقه الحنفي:

- الأشباه والنظائر لابن نجيم، وشرحه للحموي - دار الطباعة بالاستانة ١٢٩٠هـ.
- بدائع الصنائع، للكاساني - المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٨هـ.
- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي، وحاشية الشلبي - مطبعة بولاق ١٣١٥هـ.
- تكملة البحر الرائق، للطوري - مطبعة دار الكتب العربية بمصر ١٣٣٤هـ.
- تكملة فتح القدير، لأحمد بن قودر المعروف بقاضي زادة. وبهامشه العناية، للبابرتي - مطبعة بولاق ١٣١٨هـ.
- تنوير الأبصار للتمرتاشي، وشرحه الدر المختار للحصكفي، وحاشية ابن عابدين المسماة برد المحتار - مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٢٧هـ.
- جامع الفصولين، لابن قاضي سماوة - المطبعة الأزهرية ١٣٠٠هـ.
- الخراج، للإمام أبي يوسف - الطبعة الثالثة، المطبعة السلفية ١٣٨٢هـ.
- الفتاوى البزازية، لابن البزاز - بهامش الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الفتاوى الهندية.
- الفتاوى الخانية، لأحمد بن منصور الأوزجندي المعروف بقاضي خان - بهامش الأجزاء الثلاثة الأولى من الفتاوى الهندية.
- الفتاوى الخيرية، لخير الدين الرملي، المطبعة العثمانية بالاستانة ١٣١٢هـ.
- الفتاوى الهندية، لجماعة من كبار علماء الهند في القرن الحادي عشر الهجري (بهامشها الخانية والبزازية). الطبعة الثانية - بولاق ١٣١٠هـ.
- المبسوط، للسرخسي - الطبعة الأولى، مطبعة السعادة.
- ملتقى الأبحر لإبراهيم الحلبي، وشرحاه ملتقى الأبحر لمحمد بن سليمان المعروف بداماد، والدر المنتقى للحصكفي - مطبعة محرم البوسنوي بالاستانة ١٣١١هـ.
- الهداية، للمرغيناني - مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٥٥هـ.

الفقه الشافعي:

- الأحكام السلطانية، للماوردي - مطبعة السعادة ١٣٢٧هـ.
- الأشباه والنظائر، للسيوطي - مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٥٦هـ.
- الأنوار لأعمال الأبرار للأردبيلي، وحاشية الكمثري - مطبعة مصطفى محمد.

- كتاب الأم، للإمام الشافعي - مطبعة بولاق ١٣٢١هـ.
- مختصر المزني، بهامش الأم.
- منهاج الطالبين للنووي، وشرحه نهاية المحتاج لشمس الدين الرملي - مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٥٧ هـ.
- الوجيز ، لأبي حامد الغزالي - مطبعة حوش قدم بالغورية.

الفقه المالكي:

- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد الحفيد - مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٣٩هـ. ويعتبر الكتاب من مراجع الفقه المقارن.
- تحفة الحكام لمحمد بن عاصم الغرناطي، وشرحاها البهجة للتسولي، وحلي المعاصم للتاودي - الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٧٠هـ.
- الفروق، للقرافي - مطبعة دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٤ - ١٩٤٧م.
- مختصر خليل وشرحه التاج والإكليل للمواق، بهامش مواهب الجليل للحطاب - مطابع دار الكتاب اللبناني - بيروت.
- المدونة الكبرى، للإمام مالك - مطبعة السعادة ١٣٢٤هـ.

الفقه الحنبلي:

- الأحكام السلطانية، لأبي يعلى - الطبعة الأولى، مطبعة السعادة.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، لابن القيم - مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣١٧هـ.
- القواعد، لعبد الرحمن بن رجب - مطبعة الصدق الخيرية بمصر ١٣٥٢هـ.
- الكافي، لموفق الدين عبد الله بن قدامة - الطبعة الأولى، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق.
- المغني لموفق الدين عبد الله بن قدامة، والشرح الكبير لشمس الدين عبد الرحمن بن قدامة - مطبعة المنار بمصر ١٣٤٧هـ.

الفقه الظاهري:

- المحلى، لأبي محمد علي بن حزم - الطباعة المنيرية بمصر ١٣٤٧ - ١٣٤٨هـ.

فقه الإمامية:

- تهذيب الأحكام، للطوسي - الطبعة الثالثة، دار الكتب الإسلامية طهران.
- الروضة البهية شرح اللمعة الدمشقية، لزين الدين العاملي - مطبعة دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٨هـ.
- فقه الإمام جعفر الصادق، لمحمد جواد مغنية - دار العلم للملايين - بيروت.
- المختصر النافع، لنجم الدين الحلي - مطبعة النعمان بالنجف ١٣٨٣هـ.
- مسائل الخلاف، للطوسي - مطبعة محمد علي العلمي - طهران ١٣٧٠هـ.
- مستدرك الوسائل، للمرزا حسين النوري - المطبعة الإسلامية بطهران ١٣٨٤هـ.
- مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة، لمحمد الجواد العاملي - الجزء السابع مطبوع بمطبعة الشورى بمصر ١٣٢٦ - ١٣٢٧هـ.

فقه الزيدية:

- البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، لأحمد بن يحيى المرتضى - مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٣٦٧ - ١٣٦٨هـ.

فقه الإباضية:

- جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، لعبد الله بن حميد السالمي - مطبعة النصر بمصر ١٩٧٤م.

مراجع قانونية عربية:

- حق الملكية، عبد المنعم فرج الصده - الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٦٧.
- حق الملكية، محمد علي عرفه - الطبعة الثانية، مطبعة جامعة فؤاد ١٩٥٢.
- حق الملكية في القانون المدني المصري، منصور مصطفى منصور - الناشر مكتبة عبد الله وهبه ١٩٦٥.
- الحقوق العينية الأصلية، عبد المنعم البدراوي - الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتاب العربي ١٩٥٦.
- مجموعة الأعمال التحضيرية للقانون المدني المصري، أصدرتها وزارة العدل - مطابع دار الكتاب العربي.
- الملكية والحقوق العينية، محمد كامل مرسي - الطبعة الثانية، المطبعة الرحمانية ١٩٢٨.
- الملكية العقارية في العراق، حامد مصطفى - مطبعة لجنة البيان العربي بمصر ١٩٦٤.

- الوجيز في الحقوق العينية الأصلية، صلاح الدين الناهي - شركة الطبع والنشر الأهلية - بغداد ١٩٦٠ - ١٩٦١.
- الوسيط في شرح القانون المدني، عبد الرزاق السنهوري - الجزء الثامن والتاسع، الناشر دار النهضة العربية ١٩٦٧ و١٩٦٨.

مراجع قانونية فرنسية:

Baudry - Lacantinerie (G.). Précis de droit civil, 10e éd.
- Baudry - Lacantinerie (G.). et Chaúveau (M). Traité théorique et pratique de droit civil, 2e éd.
- Capitant (Henri). Des obligations de voisinages, Revue critique de législations et de jurisprudence, 1900.
- Demolombe (C.). Cours de code Napoléon, 5e éd.
- Didies-Pailhé (E.). Cours élémentaire de droit romain, 3e éd.
- Josserand (Louis). Cours de droit positif français, Paris 1930.
- Laurent (F.). Principes de droit civil français, 3e éd.
- Mazeaud (Henri et Léon). Traité théorique et Pratique de la responsabilité civile delictuelle et contractuelle, 3e éd.
- Planiol (Marcel). Traité élémentaire de droit civil, 8e éd.

عباقرة الرواية الواقعيّة العالميّة :

فيـــودور دوســـتـويفســكي
(١٨٢١ - ١٨٨١)

الدكتور جليل كمال الدين
(كلية الآداب/ جامعة بغداد)
قسم اللغات الأوروبية

ينتمي دوستويفسكي إلى أسرة عريقة . ويعلّل لقبه « دوستويفسكي » بأن أحد الأمراء أقطع ، في أوائل القرن السادس عشر ، النبيل « ايفان ايرتيشافيتش » أيضاً كان فيها قرية « دوستويفو » ، ومن هنا انتسبت سلالة هذا الأمير إلى هذه القرية ، وصارت تعرف بـ « دوستويفسكي » .

ولد دوستويفسكي في (٣٠ تشرين الأول ١٨٢١) ، لأب طبيب متزمّت نشأ أبناءه تنشئة دينية صارمة . وفي عام ١٨٣٧ بعثه أبـوه إلى العاصمـة « سانـت بطرسبورغ » ، ليلتحق بمدرسة الهندسة العسكرية ، حيث قضى خمسة أعوام تخرّج بعدها ضابطاً مهندساً . غير أن ذلك لم يكن طريقة الأسـاس في الحياة . فقـد عكف على إبداعات الأدباء الكبار ، وكرّس لها كلّ وقته . وكان من أهم من قرأ لهم وتأثّر بهم ، فيما بعد ، بوشكين وغوغول من الأدباء الروس ، وهـو جو وبلـزاك وجورج صاند من الأدباء الفرنسيين ، وديكنز من الأدباء الانكليز . وفي معرض تأثّر دوستويفسكي بغوغول ، يروى أنه قال : «لقـد خرجنـا جميعـاً من معـطف

غوغول « مشيراً بذلك إلى قصّة غوغول الشهيرة « المعطف » ، كما أن قصّة « المزدوج » مستوحاة من قصّة « الأنف » لغوغول ، بل أن ثمّة عبارات كاملة مقتبسة منها[1] .



لم يتسطع دوستويفسكي الاستمرار ، أمداً طويلاً ، في وظيفته العسكرية ، فاستقال عام ١٨٤٤ ، لاعتلاله ، وكتب لشقيقه ميخائيل ، يقول : (. . . أقسم لك أني لم أستطع الاستمرار في الخدمة فالحياة تغدو ثقيلة لا تطاق حينما يقضيها المرء في التّافه من الأمور . . .) .

تفرّغ دوستويفسكي للكتابة ، وكانت أولى محاولاته رواية « المساكين » ، التي كتبها متأثراً ببلزاك وروايته (أوجين غرانديه) . وامتحن الكاتب بمشكلة النشر ، إلاّ أن حسن طالعه أوقعه بيد صديق ، زميل له من أيام الدراسة ، كان قد تعرّف على الكتّاب المشهورين ، فأوصله إلى الشاعر المشهور نكراسوف ، الذي أعجب بالرواية للغاية ، فحملها بدوره إلى أكبر نقّاد روسيا الواقعيّين ، بلينسكي - الذي أبدى اعجابه بها ، رغم ما عرف به من تعنّت وتدقيق في التعامل النقدي ، حتى أنه وصفها بأنها تفضّ مغاليق ما هو غير معروف في حياة الشعب الروسي وطباعه بصورة لم يحلم بها أحد ، كما أنه قال عنها - إنها أول محاولة لكتابة القصّة الاجتماعية في روسيا . وما لبث أن واجه دوستويفسكي ، عياناً ، باعجابه البالغ ، حين قال له : (ولكن هل تفهم ما الذي كتبت ، أيها الفتى ؟ لقد كتبت قصّتك بوحي من سليقتك الفنيّة ، ولكن هل أدركت أنت نفسك كلّ هذه الحقائق البشعة التي صورّتها ؟ . . . يلوح لي أن من المستحيل أن يدركها شاب في مثل سنّك . خذ مثلاً ذلك الموظف البائس الذي صورتّه ، لماذا ظلّ يكدح كل تلك الأعوام في يأس واستماتة ؟ لقد هبط مستواه إلى حدّ لم يكن يستطيع معه حتى أن يعتبر نفسه سيء الحظ . . وبلغ به الذلّ حداً حمله على أن يتصوّر أن أبسط نوع من

الشكوى تفكير خطر . . . وهذا الزرّ المخلوع من جاكتته ، وذلك الموقف البشع الذي قبّل فيه يد صاحب الفخامة ، بل أصحاب الفخامة كما كان يسميّه ـ كل ذلك مخيف . . . مخيف للغاية . . . إنها مأساة استطعت أنت أن تنفذ إلى قلبها بلمسة واحدة من قلمك . . . إننا ، نحن النقّاد ، لا نستطيع إلاّ أن نتعمّد ، ونحاول ايضاح فكرتنا بكثير من الكلمات . أما أنت أيها الفنّان . . . فتستطيع أن تقدّم الفكرة نفسها ، بسمة شخصية واحدة ، وبلمسة واحدة ، أو صورة واحدة ، تستطيع أن تقرّب الفكرة وتشرحها حتّى لنكاد نلمسها بأيدينا ، فيستطيع أبسط القرّاء وعياً أن يدرك ، فوراً ، كل شيء . . . هذا هو سرّ الفن ، وتلكم هي حقيقة الفنّ . . . وهذه هي الخدمة التي يسديها الفنّان للحقيقة . . . فالحقيقة تتكشّف أمامك أنت الفنان ، وتدلف بنفسها إليك هدية لك . . . فينبغي ، إذن ، أن تعتزّ بموهبتك وتخلص لها . . . ولسوف تغدو كاتباً عظيماً)[٢] .

ومن المهمّ أن نعرف وقع كلمات الناقد على الكاتب الناشيء ـ دوستويفسكي ، فذلك أمر حريّ بالاعتبار . قال الكاتب الشاب : (. . . لقد تركتهم ، وانتحيت بنفسي جانباً ، وأنا في أقصى حالات الانفعال ، ووقفت جنب النافذة أحدّق في السماء المضيئة الصافية . . . وأحسست ، بكلّ كياني ، أنني أعيش لحظة في غاية الأهمية ، وأني أمرّ بنقطة تحوّل خطيرة في حياتي . . . لقد انتهت مرحلة ، وبدأت مرحلة جديدة تماماً . ولم يكن شيء من ذلك ليخطر في بالي ، وأنا في أكثر أحلامي إيغالاً في الخيال . وسألت نفسي في خجل وانفعال : أأنا حقاً عظيم هكذا ؟ . . . ينبغي أن أثبت لهؤلاء الناس أنني جدير بثنائهم حقاً . . . ولم أستطع أن أنسى هذه اللحظات الألقة بعد ذلك أبداً . لقد كانت أسعد لحظات حياتي كلها ، وحينما كنت منفياً أنفّذ حكم الأشغال الشاقة بعد ذلك ، كانت ذكرى هذه اللحظات تمنح روحي القوّة ، وتساعدني على احتمال عذابي . . .)[٣] .

وقد انضمّ دوستويفسكي إلى ندوة بيلينسكي الأدبية ، حيناً من الزمن ، ما لبث بعده أن انخرط في جماعة فوضوية تحت زعامة (بتروشفكي) . وقد كشفت هذه الجماعة وصدر على معظم قادتها الحكم بالاعدام ، الذي أبدل ، في آخر لحظة ، بالحكم بالاشغال الشاقة ، الأمر الذي سببَّ رجّة عصبيّة . وشرخاً في ذاكرة دوستويفسكي ، سيرافقه حتى الوفاة . وقد تحدّث دوستويفسكي عن ذلك ، على لسان الأمير ميشكين في رواية « الأبله » ، حيث نسمع مثل هذا : (. . . فالرجل الذي يذبحه اللصوص ، أو يغتال ليلاً في غابة ، أو بأي صورة من الصور . . . إن هذا الرجل يظلّ حتى آخر لحظة من حياته محتفظاً بالأمل بالنجاة بنفسه . ولكم شهدنا أناساً كانت السكّين فوق رقابهم ، ومع ذلك ظلوا يأملون ، ويعدون ، ويتوسّلون . أما في حالة الاعدام فهم يسلبونك البقيّة الباقية من الأمل التي تخفّف وقع الموت على نفسك عشرات المّرات ، فاليقين من أنك لن تفلت من حكم الاعدام هو العذاب الذي لا يفوقه عذاب . . .)[١] .



كان أول إنتاج روائي لدوستويفسكي - هو رواية « المساكين » ، (١٨٤٥) ، التي أثارت ضجّة كبيرة بين النقّاد وجمهور القرّاء . وقد حظت بتقييم رفيع من لدن الناقد الروسي المشهور بيلينسكي ، فقد وجد فيها نقداً لاذعاً للنظام القيصري ، ودفاعاً حاراً ، مخلصاً ، عن الانسان المسحوق ، ضحيّة هذا النظام . ويرى بعض الباحثين أن لغوغول تأثيره الذي لا يمكن المماراة فيه ، في إبداعات دوستويفسكي الأولى . البطلة هنا هي الفتاة اليتيمة (فارينكاد وبروسيلوفا) تعاني مصيراً تراجيدياً ، بسبب وقوعها ضحيّة خداع الاقطاعي الداعر (بيكوف) . وثمّة (ماكار ديفوشكين) الذي أحبّ الفتاة حبّاً إنسانياً مقترناً باحتجاجه على التقسيم الطبقي (إلى « أعلين » و « أدنين ») . إن دوستويفسكي يفلح في تصوير (فارينكا) نموذجاً للمرأة الروسية المسحوقة (في المجتمع القيصري قبل إلغاء قانون القنانة عام ١٨٦١) : [٢] .

وفي عام ١٨٤٦ يطالعنا دوستويفسكي بقصة (المزدوج) ، التي تحفل ، في جوهرها ، بصور الاحتجاج على النظام الاجتماعي الظالم ، والتي يعاني فيها البطل (غوليادكين) من انفصام الشخصية ، والازدواجية ، فهو موظّف بسيط طيّب يتمرّد على واقعه البائس طامحاً أن يكون له ذات وضع الأثرياء وامتيازاتهم ، وينتهي الصراع بالبطل إلى مرضه نفسياً ، فموته آخر الأمر . ولم تحظَ هذه القصّة (ولا قصص أخرى : « السيد بروخارجين ـ ١٨٤٦ » ، « القلب الضعيف ـ ١٨٤٨ » ، « الليالي البيضاء ـ ١٨٤٨ » ، « نيتوجكا نيزفانوفا ـ ١٨٤٩ ») بتقدير بيلينسكي الناقد الدمقراطي ، الثوري المعاصر لدوستويفسكي . فأبطال هذه القصص ضائعون ، أنانيون ، منطوون ، تدور تمرداتهم في دواخلهم دون أن تعني شيئاً للمجتمع ، أو تقدم له شيئاً . ولا تشذّ عن ذلك قصص أخرى لاحقة ـ مثل (الزوج الأبدي ـ ١٨٧٠) و (شياطين ـ ١٨٧٢)[٥] .

بَيدَ أن سنوات النفي والأشغال الشاقّة في سيبريا أنضجت في دوستويفسكي تحولاً حاسماً بعد تذبذبه الفكري في الأربعينات . فمع اقتناعه بلا جدوى الحلول الطوباوية لمشكلة الاشتراكية (في ذلك الوقت) ، إلاّ أنه بات غير ميّال نحو الأفكار الثورية الراديكالية ، وشيئاً فشيئاً أضحى نزّاعاً إلى الحلّ أو الخلاص (على طريقة المسيحية) ، ولكن دون أن يفقد حبّه العظيم للحياة ، وإيمانه العارم ، على طريقته الخاصّة ، بالانسان والانسانية .

كان من أبرز أعمال دوستويفسكي ، التي تصورّ عذاباته وعذابات المنفيّين في سيبريا هي قصّة (مذكرات من بيت الموتى) ـ وهو يعني سيبريا ! لقد عاش الكاتب سنواتٍ عجافاً بين حثالة من المجرمين والأشرار ، ممضياً حكم الأشغال الشاقة تحت رقابة الجلاّدين العتاة . وينعكس تأثير هذه الفترة في كتابه المشار إليه ، حيث يقول : (لقد دافع هؤلاء الرجال عن حياتهم وحريتهم أحياناً وهم يكادون يموتون من الجوع ، وفي حالات أخرى ارتكب الرجال الجرائم عامدين لكي يزجّ بهم في السجون فيجدوا فيها المهرب من حياة أقسى من السجن نفسه . . . حياة

تجرّعوا فيها الذلّ حتى الثمالة ، وعرفوا الجوع والعمل الشاقّ المضني من الصباح حتى المساء نظير دريهمات قليلة كي يثري أصحاب المصانع على حساب كدهم . أما حياة السجن فأسهل ، وفيها كميّات وفيرة من الخبز)[٦] . وهو يعلن أسفه على هذه الطاقات المهدورة ، فيقول في ذات الكتاب : (ما أكثر الشباب وما أكثر القوى التي كانت تبدّد هباء داخل الجدران القاتمة . ويجب أن نتذكّر أن هؤلاء الناس لم يكونوا أفراداً عاديين ، بل لعلّهم كانوا من أكثر عناصر شعبنا مواهب وشجاعة . . . هذه القوى الجبارة تلاشت كلّها بلا فائدة ، وبطريقة ظالمة غير طبيعية ، بحيث لم يعد بوسعنا آن نستردّها . . . فمن المسؤول عن ذلك ؟ نعم من المسؤول ؟!)[٧] . إن غضب دوستويفسكي الثوري واضح في الرواية ، وضوح احتجاجه البليغ على ظلم المجتمع القيصري اللاّإنساني ، لكنه غضب واحتجاج يقترن بالتشاؤم ، دون أن يقدّم الحلّ البديل .

رواية « مذلّون مهانون » :

أنشأ دوستويفسكي مع أخيه ميخائيل مجلة « الوقت » (الأعوام ١٨٦١ ـ ١٨٦٣) ، وأتبعها بمجلّة « العصر » (١٨٦٤ ـ ١٨٦٥) ، ليواصل جهاده الأدبي بعد عودته من المنفى . واستطاع كذلك ، أن يكتب أولى رواياته الكبيرة بعد عودته وهي « مذلّون ـ مهانون » وقد انتصر فيها للبائسين ، الكادحين ، المذلّين المهانين ، ضدّ الاقطاعيين والبرجوازيين المستغلّين . إن التناقضات العاصفة في حياة المدنية الكبيرة تستثير في الكاتب احتجاجاً إنسانياً (استردّ فيه موقفه الثوري في الأربعينات) ضد الطبقة الحاكمة وجرائمها ضد المجتمع وطبقاته الكادحة . ويمثّل (ايفان بتروفيج) بطل الرواية ، نموذج البطل ، الهشّ ، الحالم بالسعادة ، أما البطلة (ناتاشا اخمينوفا) ـ فهي نموذج الانسان المكافح دون كرامته وطموحاته ، المناضل دون هدر إنسانيته . وقد وقف الكاتب في جانب هذا الانسان .

« المقــامــر » :

كان دوستويفسكي مغرماً بالمقامـرة ، وكان يعانـي من ذلك معانـاة مادية ومعنوية كبيرة . وفي رأي بعض علماء النفس أن مغالاة دوستويفسكي في المقامرة كانت تنفيساً عن رغبات حبيسة في نفسه ، تعويضاً عما أصابه من حرمان . وقد انعكس هذا في روايته المشهورة « المقامر » ، حيث يصـوّر حياة ومعانـاة مقامـر تعس ، ينتقل من خسارة إلى خسارة ، دون أن يجد أفقاً أو هدفاً أمامه .



ارتحـل دوستويفسـكي ، عام ١٨٦٢ ، إلى أوروبـا فزار فرنسـا وانكلتـرا وايطاليا ، غير أنه عاد ساخطاً على أوروبا البرجوازية ، وفي أصـداء الرحـلات الأوروبية في عالـم . . . دوستويفسـكي (الفـكري والروائـي) يقـول الباحـث الأوروبّـي المعـاصر (مـارك سلـونيم) ـ وذلك في كتابـه « مجمـل تاريخ الأدب الروسي » ، : (في رسائله التي أرسلهـا من الخـارج ، وفي فقـرات مختلفـة من رواياتـه ، رسـم صوراً غاضبـةً لضيعـة فرنسـا البرجـوازية التافهـة ، والغـرور والــوحشية الألمانية ، وكان شديد الانتقـاد لانكلتـرا ، دائـم التهـكّم على ايطاليا . . .) .

رواية « الجريمة والعقاب » :

كتب دوستويفسكي هذه الرواية في ظروف قاسية ، كالحة ، بعد أن توفيّت زوجتـه في عام (١٨٦٤) . كما توفي أخـوه ، الـذي كان يدعمـه في أيام الضيق والبؤس ، كما كان معرّضاً لاستغلال الناشرين الرأسماليين البشع .

وتمتاز هذه الرواية بأمانتها في تصوير الأوضاع الظالمة ، والواقع الأسود الذي يعيشه المجتمع الرأسمالي ، وهو الواقع الذي يدفع الكثيرين لارتكاب الجرائم ،

والسقوط في مستنقع التفسّخ والرّذيلة . إن راسكولنيكوف ، بطل الرواية ، يعاني معاناة ممضّة بسبب فقره المدقع ، فيما كانت مرابية عجوز تعيش على مبعدة خطوات منه ، وهي مرابية تكتنز الأموال الطائلة دون أن تفيد منها في شيء . وهكذا يقتل راسكولنيكوف المرابية العجوز طمعاً في مالها ، غير أن تأنيب الضمير المستمرّ لا يلبث أن يدفعه للاعتراف بالجرم الذي ارتكبه أمام البوليس ، فيصدر عليه الحكم بالأشغال الشاقة المؤبّدة في سيبيريا ، لكنه أضحى مرتاح الضمير ، فقد حلّ الاستقرار والتطامن في نفس مكان القلق العاصف الدائم .

ومقابل شخصيّة راسكولنيكوف يقدّم دوستويفسكي شخصية (سونيا مارميلادوفا) المسيحيّة المؤمنة ، التي تدعم ضلالها بالصبر والتصابر في سبيل إعالة عائلتها . ويقف الكاتب في جانب هذا النموذج ، مديناً نموذج التمرّد بالشكل الذي مثلّه راسكولنيكوف . وثمّة شخصية (لوجين) البرجوازي الذي يقتل من أجل المال (وليس مثل راسكولنيكوف الذي يقتل المرابية تحريراً لمدينيها الفقراء ، وتقصيراً لعذاباتهم) . إن راسكولنيكوف تعذّب طويلاً لا لقتله هذه المرابية ، بل لفقدانه ثقته بأحقّية قضيّته . لقد ضاع راسكولنيكوف ، وكان ممكناً أن يغدو إنساناً نافعاً للمجتمع لذكائه وشجاعته . ويدين الكاتب البرجوازية وقانونها الغابي الذي يسمح بابتزاز الناس ، وبقتلهم دون وازع ، كما يدين سلطة النقود السائدة فيها ، لكنه يخلص من ذلك إلى القول ، عبر إدانته راسكولنيكوف ، بوجوب إدانة أيّ احتجاج إجتماعي! وتباينت آراء الباحثين في هذه الرواية ، فقد كان ثمة من يحلّل العمل من مفهوم آخر فإن صاحبة كتاب « تاريخ الأدب الروسي » ، مارسيل أهرار ، يقول : (إن راسكولنيكوف الطالب في رواية الجريمة والعقاب ، هو رجل فكر يقوده التحليل الفكري إلى القتل : فاعدام المخلوق الضار ، الذي هو العجوز المرابية التي لا تقرض النقود إلا لقاء رهن نفيس . . . إن هذا الاعدام لا يجعل القاتل مجرماً)[٨] . وربّما كانت (أهرار) على حقّ في استنتاجها بأن راسكولنيكوف (رجل فكر) ، فالكاتب قد صوّره بهذا الشكل ، كما أن الرواية حافلة بالمناقشات

والمحاججات والأفكار والصرّاع الفكري والنفسي والجدل المسموع وغير المسموع . ولم تخلُ الرواية من جوانب إيجابية ، جعلت النقّاد الدمقراطيين ـ الثوريين في روسيا آنذاك يقيّمونها في الوقت الذي يشجبون فيه جوانبها السلبية (وخاصة رفض الصراع الاجتماعي)[٩] .

رواية « الأبله » ـ ١٨٦٩ :

نشر دوستويفسكي هذه الرّواية ، على أجزاء ، في إحدى المجلاّت . وتعالج الرواية مشاكل عديدة ، منها مشكلة الصراع بين العقل والعاطفة فبطلها الأمير ميشكين شاب ساذج أتيح له قدر بسيط من التحصيل الدراسي ، ومع ذلك فهو يفوق بحكمته ونقائه ، أولئك الذين يفوقونه في الثروة والنفوذ والتعليم . . . وهو لذلك يجد الامكانية لحلّ أكثر المشاكل ، وذلك بالدرجة الأولى لتجرّده من الأنانية ، ومن العقلية الماكرة المخادعة . إنه ليس بالأبله إلاّ في حساب أولئك المخادعين المفسدين . ويقارن بعض الباحثين بين شخصية الأمير ميشكين ، في هذه الرواية ، وبين شخصية (دون كيشوت) في رواية (سرفانتس) المشهورة ، فهم يرون أن الفروسية والتواضع ، والتسامح ، ورفعة الخلق ، أمور مشتركة بين الشخصيّتين[١٠] .

وكذلك ، فإن من جملة المشاكل التي تتناولها الرواية ـ مشكلة الروح البرجوازية ، والقيم البرجوازية المادية ـ النفعية (قيم السعي وراء الأرباح وتكديس الثروة ـ وإلغاء العواطف الانسانية أو محاولة شرائها بالمال) . إن الأمير ميشكين يحاول ما وسعه ، مساعدة (نستاسيا فيليبوفنا ، الامرأة الجميلة التي كان يتقاسمها الذي والهوان بين توتسكي ، والتاجر راغوجين الذي كان مصمماً على شرائها بالمال واقتنائها كبضاعة ، إلى جانب بضائعه) . غير أن (نستاسيا) هذه تتمرّد مرتين : الأولى ـ برميها كيس النقود (بمائة ألف روبل) الذي جلبه التاجر راغوجين ثمناً لها ! والثاني حين ترفض المساعدة النبيلة التي عرضها الأمير

ميشكين ، فتذهب مع (راغوجين) نفسه ، ليقتلها هذا شرّ قتلة ! أما ميشكين فيعاوده داؤه العصبيّ ، منتهياً به إلى الجنون . الكلّ في مأساة ، والكلّ في صراع ، وتضادّ . ويخلص دوستويفسكي من ذلك كلّه إلى الايحاء بأن الكبرياء والاعتداد بالذات هما سبب مأساة (نستاسيا) ، وإلى إفهامنا ، أيضاً ، أن نبل ميشكين واحتجاج نستاسيا وتمرّدها السلبي الفردي يضيع كله أمام سلطة المال ، وقيم البرجوازية وروحها القاتلة للنقاء والضمير الحيّ[11] .

رواية « الممسوسون » :

كتب دوستويفسكي هذه الرواية (عام ١٨٧٢) ، منطلقاً فيها من مفاهيمه الرجعية ـ المثالية في تصوير تطلّعات الجيل الجديد . وقد واصل فيها الكاتب تأكيده (الذي بدأه في أعمال سابقة منذ «الجريمة والعقاب » و « الأبله ») إن الخلاص المسيحي «هو السبيل للخروج من المأزق ، وحلّ تناقضات المجتمع ». وكانت واقعة مقتل أحد الطلبة الأبرياء بأيدي أعضاء إحدى خلايا منظمّة « الانتقام الشعبي » الارهابية (التي أنشأها أحد مؤيّدي الفوضوّي الشهير ـ باكونين ، وهو : س . نيتشايف)، كانت هذه الواقعة هي الحافز المباشر الذي دفع الكاتب لكتابة هذه الرواية . ويقدّم الكاتب كل شخصيات الرواية قتلة مجرمين (ستافروغين ، فيرخوفينسكي ، شوغوليف ، شاتوف وسواهم) ، لا يربطهم مبدأ موحّد ، إلاّ مبدأ » (السلطة من أجل السلطة) . وقد هاجم الكاتب ، في هذه الرواية ، الجيل المعاصر له من الدمقراطيين الثوريين ، وحاول تصويرهم ارهابيّين ، الأمر الذي كان بعيداً ، في الواقع ، عن الحقيقة . وبالضرورة ، وطّدت هذه الرواية مكانة دوستويفسكي لدى الأوساط الرجعية . معتقدة أنها وجدت « رجلها » ، مع أن الكاتب كان أسير تناقضاته ، وأسير رؤياه الرجعية في تلك الأونة[12] .

رواية «المراهق» :

أصدر دوستويفسكي ، عام ١٨٧٥ ، روايته « المراهق » التي واصل فيها ـ تبشيره بأن الخلاص المسيحي والصبر المسيحي هما الكفيلان بتخليص المجتمع من أزمته الروحية والاجتماعية . يحمل بطل الرواية منذ نعومة أظفاره ، بثروة كبيرة يستطيع أن يساوي بها أبناء الذوات (الاقطاعيين والبرجوازيين) ، منتقماً من سوء حاله (فهو ابن غير شرعي لأحد الاقطاعيين) . ويقرن الكاتب كلّ ذلك بهجومه المتواصل على دمقراطيي عصره الثوريين ، فيجعل هذا الابن المراهق ، مجنون المال ، مرتبطاً ، أيضاً ، بالمنظّمات الاشتراكية والثورية . وتنتهي الرواية بالمأساة التي يبرز الكاتب أحد جوانبها جاعلاً سببه ضياع المجتمع بين التفكير الأوروبي ، وبين المسيحية التي باتت مهملة ، متروكة .



رواية « الأخوة كارامازوف » ـ ١٨٨٠ :

تُعتَبر رواية « الأخوة كارمازوف » أحدى قمم العمل الأدبي لدى دوستويفسكي ، ورائعة من روائع الأدب الروائي الروسي في القرن التاسع عشر ، والأدب العالمي أيضاً .

إن محور الرواية هو الأب فيودور كارامازوف ، الذي يرى فيه أبناؤه الثلاثة (دميتري ، وايفان ، وألكسي) العقبة الوحيدة التي تقف دون تحقيق آرائهم وأفكارهم . وهذا الأب هو رمز لكل ما في الاقطاع من تحلّل وقسوة وجور ، رمز لكل القوى التي تعيق تطوّر روسيا . وأكبر الأبناء (دميتري) إنسان سريع الغضب ، فيه تتمثل قوة أسرة كارامازوف القاسية . أما الابن الأوسط (ايفان) فهو مفكّر يعاني في السلام للجميع . إن الأخوين (دميتري وإيفان) مصمّمان عل إزاحة الأب من الطريق ، يعارضهم في ذلك اليوشا (ألكسي) . غير أن قتل

الأب ، فعلاً ، يتم بيد (سمرديكوف) الخادم/ الابن غير الشرعي للأب كارمازوف ، الذي ينتحر فيما بعد . ويُسجن دميتري (رغم عدم ارتكابه جرم القتل) ، ويجُنّ ايفان ، ويهيم ألكسي على وجهه (بحثاً عن القبْقة) . وثمّة شخصيّات نسائية تلعب دوراً ثانوياً .

إن هذه الرواية شديدة الواقعية ، تفضح ، بأقوى ما يمكن ،ز زيف العلاقات الاجتماعية ونفاقها في المجتمع الاقطاعي الذي يقع بين براثن البرجوازية المرتبطة بالرأسمالية الأوروبيّة (الألمانية ـ الفرنسية ـ الانكليزية) . ومع ذلك فاستنتاج كاتبها ينطلق مثالياً ، ينادي بالحّل المسيحي (الخلاص بالحبّ ، والاستسلام ، والصبر ، وعدم مقاومة العنف !(١٣) .

« حديث عن بوشكين » :

إن مما يتصّل أوثق الاتصال بكامل فلسفة دوستويفسكي عن الآخاء الانساني ، والخضوع ، وعدم مقاومة الشر بالعنف ، حديثه عن بوشكين ، الذي ألقاه في موسكو (١٨٨٠) بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال بوشكين ، حيث قال : (إني لأتساءل من هو بوشكين ؟ وما سرّ عظمته ؟ في رأيي أنه استطاع ، بقدرته الخارقة على اكتساب عبقريّة الشعوب الأخرى ، أن يغدو التجسيد الحقيقي لروحنا القومية . . . بوشكين؟ إنه روسيا بكلّ ما فيها من صفات عالمية، فالإنسان الروسي الحقيقي أوروبّي ، بل عالمي . . . ولكي يكون الانسان روسياً حقيقياً : روسياً كاملاً ، فهذا يعني ، وأرجو أن تعوا جيداً ما أقول ، هذا يعني أن يصبح أخاً للبشر جميعاً ، وأن يصبح واحداً من دعاة الانسانية الشاملة)(١٤) .

وتصوّر دوستويفسكي أنه استطاع التوفيق ، في هذا الخطاب ، بين النزعتين المتخاصمتين ، اللتين ، انتظمنا مثقفي الروس : نزعة التعصّب السلافي ، ونزعة الايمان بأوروبا . . . على أن تصوّره هذا اصطدم بنقد لاذع من

جانب النقاد الروس الدمقراطيين ـ الثوريين الذين كانوا يدعون إلى الكفاح ضد الاستبداد المطلق ، وعدم الخضوع ، أو التسامح ، والذين كانوا يدعون إلى الأخوّة النضالية ، لا أخوّة الخنوع والاستسلام .



وفي ٢٧ كانون الثاني ١٨٨١ ، سقط القلم من يد دوستويفسكي ، أثناء عمله . لقد انفجر شريان في رئته ، واستمرّ في النزيف ، حتى وافاه أجله . وقد حظي دوستويفسكي بتقييم عالمي كبير . فإن سيغموند فرويد ، أبا مدرسة التحليل النفسي ، قد قال فيه : « إن مكانة دوستويفسكي في مقام الأدب العالمي تلي شكسبير ، مباشرة ، وفي رأيي أن رواية « الاخوة كارمازوف » هي أروع رواية في تاريخ الابداع الأدبي »[١٥] . وبمثل ذلك قال غوركي ، حيث أكّد أن هذا الكاتب هو الوحيد الذي يمكن مقارنته بشكسبير[١٦] .

وعموماً ، يمكن القول أن عديداً من شخصيّات دوستويفسكي الروائية يمكن مقارنتها بشخصيّات شكسبير . وهذه الشخصيات تتسم بسمات نفسية خارقة ، وصراعات فكرية عنيفة . وقد انتهى الناقد الأدبي الروسي (فياتشلاف ايفانوف) إلى القول ، بأن فلسفة دوستويفسكي وقدرته الفنّية ، وعبقريّته الروائية قد ساعدته في إيجاد فنّ جديد ـ هو فن الرواية الفكرية ، المأساوية[١٧] .

ويمكن تحديد أهميّة إبداع دوستويفسكي الروائي وإضافته إلى الرواية الواقعية ـ الانتقادية الروسية والعالمية ، في أنه ، رغم التناقضات العميقة التي تشوّه كثيراً من صفحات نتاجه ، كان مرتبطاً ، أوثق الارتباط ، بالتجربة الفنّية للمدرسة الواقعية الروسية . كان دوستويفسكي يتفاعل بعمق (وأحياناً كثيرة ـ بحدّة مرضيّة كبيرة) مع التناقضات الاجتماعية الصارخة لمجتمعه الروسي ، معبّراً ، بدرامية كبيرة عن أزمة الوعي الذاتي البرجوازي ، ومسبغاً ـ عبر إبداعه الفنيّ ، صبغة

تراجيديةً على المسائل الجوهرية لتطوّر روسيا الاجتماعي . ومن مآثر دوستويفسكي أنه عرّى ـ بأقوى وأوفى شكل ممكن ، تناقضات البؤس والثراء ، واستلاب الحقوق ، والفوضى ، والعسف ، والاغتصاب الاجتماعي والاقتصادي . غير أن مما يؤخذ عليه أنه مع كشفه الفنّي الواقعي البليغ عن هذه التناقضات ، لم يدع ، معها ، إلى النضال والاحتجاج والمقاومة ، بل دعا (على العكس مما هو متوقّع ومنطقي من نتائج كشفه وتحليله) إلى الخضوع ، والمسالمة ، والتواكل ، والتسامح ، واحتمال العذاب ومكابدته . لقد انتقد المجتمع الطبقي في روسيا وأوروبا الغربية ، ومع أنه حارب الفكر الدمقراطي ـ الثوري الروسي والأوروبي ودخل معه في صراع (مفتعل أحياناً) ، إلاّ أن وقدة فضحه التناقضات الاجتماعية تبين مع ذلك في إبداعه . فباقتدار فذّ ، حقاً ، صوّر هو الوضع المأساوي للطبقات الكادحة المسحوق ، وضروب الضلال والضّياع الفكري الممضّ الذي تقود المرأة إليه فرديّته المريضة ، وانفصاله عن الشعب ، ويمكن القول ، بثقة ، أنه في أشدّ نتاجات دوستويفسكي رجعيةً (من حيث المضمون الفكري) يمكن الالتقاء بأبلغ الصور الهجائية ، الفاضحة ، من منطلق واقعي ، لممثلّ البرجوازية ، والاقطاع ، والنبلاء ، والسلطة القيصرية .

لقد حدّدت خصوصيات عقيدة دوستويفسي الاجتماعية ـ السياسية الملامح الأساسية لابداعه . فالكاتب يختار مكان الحدث لرواياته ـ الأحياء الرطبة ، المعتمة ، المزدحمة بالفقراء . كما أن تطوّر الأحداث في إبداعه الروائي يتميّز بالدرامية ، والانتقالات العنيفة ، المحمومة من أزمة إلى أخرى ، والتكثّف في الزمن . ويشغل الحوار في رواياته حيزاً استثنائياً ، كما أن مشاهد المناقشات ، والخصومات ، والمحاججات ، والنزاعات الفكرية تحتل المفاصل المركزية للأحداث في النسيج الروائي . ومع ذلك ، فبغضّ النظر عن الأستاذية الفنّية البارزة التي يتمتّع بها دوستويفسكي ، فإن أسلوبه متناقض بعمق ، وإلى جانب الواقعية التي لا ترحم يظّل ينطوي على ملامح غير واقعية ، غيبيّة ، زائفة[١٨] .

لقد حاز الكاتب ، في حياته ، شهرةً كبيرةً ، بفضل إبداعه الروائي الواقعي المتميّز . وكان تأثيره على الأجيال الأدبية اللاّحقة مزدوجاً ، فإذا كان الكتّاب الواقعيون التقدميون من مختلف الأقطار قد اجتذبتهم ، غالباً ، طروحات . . . . دوستويفسكي الحادةً ، اللاذّعة في واقعيتها الهّجاءة ، للمشاكل الاجتماعية ، من جهة ، فإن الأفكار الميتافيزيقية الهابطة في رواياته قد تركت تأثيرها على الأدب البرجوازي الاقطاعي والعصراني لأوروبا الغربية والولايات المتحدة من جهة أخرى . وكانت فترة التأثير الأكبر لدوستويفسكي على الحياة الروحية وأدب الطبقات السائدة في روسيا القيصرية هي فترة « ازدهار » الرجعية (التي حلّت بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥) . فقد سعت الرجعية الايديولوجية والآداب البرجوازية الرجعية في روسيا وأوروبا ، بكّل قواها ، لاستثمار النزعات الرجعية والثغرت الميتافيزيقية في إبداع دوستويفسكي الروائي الواقعي لصالحها ، محاولة إيجاد تكأة لصراعها الضّاري ضدّ الثورة ، والتقاليد الواقعية الكبيرة للأدب الروسي[١٩] .

وبذل غوركي ، وأساتذة النقد الأدبي الواقعي ـ الاشتراكي ، جهوداً مستميتةً ، للاحتفاظ لدوستويفسكي وموهبة الفذة وابداعه الروائي الواقعي بمكانته الحقيقية التي يستحقّها ، دون إغفال الجوانب الرجعية في مضامين رواياته ، أو الأفكار المعادية للثورة والدمقراطية والاشتراكية . ولخصّ البروفسور يوري كيرياكين ، في دراسة قيّمة له . بعنوان (دوستويفسكي والاشتراكية) ، لخصّ جوهر وجهة نظر الواقعية الاشتراكية المعاصرة إلى إبداع دوستويفسكي الروائي الواقعي ، ومسألة دوستويفسكي والدوستويفسْكيّة (أي ما حيك حول أفكار دوستويفسكي من نظريات ومفاهيم تحاول احتكار دوستويفسكي لصالح البرجوازية وحتى الامبريالية ضد الاشتراكية والكادحين ـ صانعي الاشتراكية) فقال ، في جملة ما قال : (إن هذ الأديب الوطني الروسي ، « حتى نخاع العظم » ، يبدو اليوم أشدّ شمولاً وحياةً من كافة أدباء الأمس . وقد تأثرّ به ، هذا الحدّ أو ذاك مفكّرون بينهم من الفوارق مثل ما بين آنيشتاين وبردياييف ،

وتوماس مان وادرتيغا أي غاست وفيليني وأراغون وسارتروشتاينبك . . ومهما كانت أفكار دوستويفسكي متقلّبة ، ومهما كانت حملاته على الاشتراكية (التي لم يدرك حقيقة معناها) هائجة فإنه لم يعتبر النظام البرجوازي قطّ ، حلاً بديلاً . إنه لم يمتدح البرجوازية إطلاقاً ، بل على العكس كان دائما يلعنها ويهجوها : « ما هي الحرية ؟ الحرية . . ولكن أيّة حرية ؟ الحرية ـ الواحدة للجميع ـ في أن يصنع المرء كل ما يريد دون أن يخالف القانون . ومتى يستطيع المرء أن يفعل كل ما يريد ؟ متى كان يحوز مليوناً ؟ وهل تعطي الحرية كل فرد مليوناً ؟ كلا . وما هو الانسان الذي لا يحوز مليوناً؟ الانسان الذي لا يحوز مليوناً ليس إنساناً يفعل كل ما يريد ، وإنما هو إنسان يصنع منه الغير كل ما يريد » . . . ويذكّر دوستويفسكي البرجوازية ، باستمرار ، بقائمة جرائمها الطويلة . وأكبر هذه الجرائم ، في نظره ، هي إرادة تحقير الانسان ، والحطّ من قدره وجعله « خرقة » أو « دودة » أو « بقة » أو « ضحيةً » أو « جلاداً » . إنه يمزّق غرور البرجوازي وينهش أعماق نفسه وينفذ إلى قاع أفكاره ، التي لا يجرؤ على البوح بها حتى نفسه . . . إن دوستويفسكي . . . يبدو كأنه أسير تناقضاته . . . أية مفارقة وأية مفاجأة تبدو هنا في اعتراف دوستويفسكي التالي : « إني ، رغم كافة الخسائر ، أحبّ الحياة حبّاً متوقداً ، أحبّ الحياة للحياة ، وأقول هذا بكل جدّية ، وإني أنوي حتى اليوم أن أبدأ حياتي من جديد . . . تلك هي السّمة المميّزة لطبعي ، وربما لعملي كذلك » . من هنا يمكن أن نرى أيّ تشويه يلحق بوجه دوستويفسكي الحقيقي وجوديّون أمثال كامو وبردياييف المنبثقين عنه ! فلنسمعه يهتف على لسان إيفان كارمازوف : « إني أحبّ النباتات النضرة في الربيع والسماء الزرقاء ! ليس للمنطق والذكاء دخل في ذلك ، فالمرء يحبّ بقلبه ، بأحشائه ، بحبّ قوى شبابه الأولى . . . » . . . إن من الصعب ، وربما المستحيل ، أن نجد كاتباً أكثر تناقضاً من دوستويفسكي . فمع أنه كان ضحيّة الأوتوقراطية إلاّ أنه تغنّى بها ، تغنّى بالجلاّدين . وهو غالباً ما كان يتأرجح بين حرية لا حدود لها وطغيان لا حدود له . . . إنه يتحسّس مصير البشرية بمصيره هو . وهو يكنّ انعطافاً شاملاً ، وهو لا

يبغي أقلّ من السعادة للجميع . إنه يحسّ بما يربطه إلى سائر الناس ، وبقسطه في المسؤولية تجاههم ، وهو يريد زرع هذه الفكرة عميقة الانسانية في قلب كل إنسان . غير أن هذه الفكرة تظلّ عاجزة ، لأن موضوعة النضال لا تخصبها . إن ما يعوزه هو الشجاعة ، تلك الشجاعة التي تبثّها في النفس إبداعات وايتمن ، وغوركي ، ورومان رولان ، وماياكوفسكي ، وشولوخوف ، وهمنغواي مثلاً . . . لقد أشار دوستويفسكي إلى أخطار واقعيّة شتى ، غير أنه عاجز عن الاشارة إلى وسائل تجنّبها . وإذا كان قد طرح على بساط البحث قضايا كثيرة ، فإنه لم يحلّ ولا واحدة منها . ويبدو أنه لا يوقظ الناس من سباتهم إلاّ لكي يرعبهم ويوقعهم في المأزق . . .)[٢٠] .

ـ (والـ « دوستويفسكيّة » ليست هي الاهتمام بعالم « الازدواج » ، عالم « إنسان الكهف » . ذلك أن المقصود هنا ليس الشيء الذي هو موضوع الدرس ، بل المقصود هو تفسيره ، هو الحكم عليه . إن الـ « دوستويفكسية » هي تقديس الألم ، التلذّذ بالألم ، هي التعصّب الأعمى ، والفكرة الكاذبة القائلة بأن كافّة الناس « يرتادون الكهف » وأنهم إذا دقّقنا ، كلّهم جديرون بالاحتقار . . . إنها التلذّذ بصبّ الملح على الجرح بدلاً من تضميده ، إنها الميل الخبيث اللئيم إلى تصوير النواحي المؤلمة فقط في الوجود)[٢١] .



إن دوستويفسكي ، بعيداً عن كل الأضاليل التي حيكت حوله ، لقصد غير نبيل ، باسم « الدوستويفسكية » أديب عبقري توفّر على درس أدواء مجتمع زمانه ، وإننا لنجد عنده إلى جانب الكثير من التمزّقات والتناقضات ، لوحات حيّة من الواقع . إنه أديب واقعي كبير يمكن أن نتعلّم أشياء كثيرة في مختبره الاجتماعي - السيكولوجي ، دون أن نقلّده ، بالضرورة ، في أحكامه واستنتاجاته .

الهـوامـش

(١) تنظر الكتب التالية للمزيد من التفصيل : (واقعية دوستويفسكي) ـ (غ . فريد ليندير ، ١٩٦٣) و (دوستويفسكي وتولستوى) ـ (ن . آردنس ، موسكو ، ١٩٧٠) و (دوستويفسكي في الآداب العالمية) ، دار « العلم » ، موسكو ، ١٩٧٨ . و (تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ، موسكو ، ١٩٦٥) .

(٢) ف . بيلينسكي ، الأعمال الكاملة . أيضاً ـ (« دوستويفسكي وبيلينسكي » ، مقال بقلم أ . ب . أوخوفا ـ « العالم الجديد » ، ١٩٧٠) .

(٣) أوخوفا ـ « دوستويفسكي وبيلينسكي » (مصدر سابق) .

(٤) ف . دوستويفسكي ، الأعمال الكاملة ، رواية « الأبله » .

(٥) « دوستويفسكي في النقد الروسي » ، موسكو ، ١٩٥٦ . أيضاً ـ أوخوفا ، ... (دوستويفسكي وبيلينسكي / مصدر سابق) .

(٦) و (٧) ـ ف . دوستويفسكي (الأعمال الكاملة / مصدر سابق) . كذلك تنظر ترجمة دار اليقظة السورية للرواية (الدروبي) . للتفصيل ينظر كتاب (« مدخل إلى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ، د . محمد يونس ود. حياة شرارة المؤسسة العربية للدراسات والنشر » ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٧٠) .

(٨) « مدخل إلى الأدب الروسي » / مصدر سابق ، ص ١٧٢ .

كذلك ـ « تاريخ الأدب الروسي » (مارسيل أهرار) ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٨٠ .

(٩) جاء في كتاب (مدخل إلى الأدب الروسي / مصدر سابق ـ ص ١٧٤) : « لم يتقبّل النقّاد الديمقراطيون أفكار الدعوة إلى الخنوع الذليل ورفض الصراع الاجتماعي ، اللّتين احتوتهما الرواية ، بل على العكس من ذلك فقد استطاع النقّاد الديمقراطيون ـ الثوريون فصل الجوانب الايجابية في هذه الرواية عن جوانبها السلبية ، وأن يقدمّوا لدوستويفسكي التأييد اللازم على الجوانب الجيدة فيها » .

(١٠) ينظر « واقعية دوستويفسكي » (غ . فريد ليندير / مصدر سابق) .

كذلك ـ دوستيفسكي في « الآداب العالمية » / مصدر سابق .

(١١) ترى روزا لوكسمبورغ ، في كتابها « مقالات عن الأدب » ، موسكو ، ١٩٣٤ ، ص (١١٢) ، إن روايات دوستويفسكي هي عبارة عن إدانة رهيبة أطلقت بوجه المجتمع البرجوازي : القاتل الحقيقي وخانق الروح البشرية ، هو أنت « أما موري كريغر فيرى في دراسته (« أبله » دوستويفسكي ـ لعنة القداسة) ، (كتابه « الرؤيا المأساوية » (The Tragic Vision) ، إن رواية « الأبله » تتناول ، .. ككثيرات غيرها ، « موضوع الصراع اليائس من أجل حفاظ الانسان على كرامته الشخصية في عالم يبتكر أساليب لا نهاية لها لكي يجرّد الانسان منها . في الأحداث

الكبرى في هذه الرواية وفي الأحداث الصغرى مثل « ايضاح » ابوليت ، والانتحار الكاذب ، أو نهاية الجنرال ايغولغين المحزنة على يدي ليبيديف . . الذي لا يرحم . وفي الحكايات الصغرى العديدة التي تمرّ بنا أثناء الرواية، نسمع في كل ذلك الصرخة النسبية المتوسّلة التي تطالب بأن الفرد ذو أهمية ، وأنه يمكن أن يحتضن من أجل أنه كذلك . والشبان « الأحرار » المضلّلون يطالبون بالكرامة بعنف وحقد يجعلاننا نتأكد من المرض الوحشي الذي ينعنق من خلالهم ومن خلال منهاجهم . أما المخلوقات التي هي شيطانية واضحة فإن لديه مطالبة نقيّة قوية بالكرامة ، هي في حدتها - وبالنظر إلى أن الحياة تهبنا متاعاً زائفاً مبهرجاً في أفضل الأحوال ، بحيث أن هذه المخلوقات لا يمكنها أن ترضى إلاّ حين تكون حيواتها ثمناً لازالة الطّلاء بحيث تصبح هي والعدم الذي تسعى إليه شيئاً واحداً . ولا يسعى ميشكين إلاّ إلى إعطاء الكرامة لكلّ من هؤلاء حتى وإن كان ذلك على حساب كرامته هو » (راجع « دوستيفسكي » تحرير وإعداد رينيه ويليك ، ترجمة نجيب المانع ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٧) .

كذلك - ينظر كتاب (E. N. CARR. DOSTOEVSKY) . ويؤكد مؤلفاً « مدخل إلى الأدب الروسي » / مصدر سابق ، إن دوستويفسكي (في رواية « الأبله » يؤكد أن المجتمع الطبقي يقتل في الانسان كل ما هو طيب وجميل . . . إن نستاسيا فيليبوفنا - المرأة الجميلة الذكية التي لطّختها أوحال . . الاستقراطية تحسّ تفوّقها الروحي على المحيطين بها وتحاول أن تبعث روحها من جديد . إنها تنتقم من البرجوازيّين الجشعين بذات أسلحتهم : - فنراهم وقد توقفت دقات قلوبهم عندما ترمي إلى النار بالكيس الذي يحتوي على مئة ألف روبل التي جلبها التاجر راغوجين كي يشتريها بها . إن البطلة لا تستطيع أن تجد لها مخرجاً من هذا الوسط المجرم ، وهي ترفض مساعدة ميشكين وتذهب مع راغوجين حاكمةً على نفسها بالذلّ والموت . . وبينّ دوستويفسكي ، بشكل موضوعي ، أن « الانسان الايجابي الرائع » ميشكين و مبادئه « الإنجيلية »، واحتجاج نستاسيا الفردي كلّها ضعيفة أمام جشع المال » (ص ١٧٦) .

(١٢) يسلّط البروفسور يوري كيرياكين في بحثه « دوستويفسكي والاشتراكية » ضوءاً ساطعاً على قضيّة رواية « الممسوسون » وموقعها في إبداع دوستويفسكي ، وعلاقتها بالاشتراكية ومفهوم دوستويفسكي لها ، فيقول : (تبدو هذه التعمية على أشد ما تكون من الوضوح في رواية « الممسوسون » التي كتبها على اثر قضية نيتشايف . وقد ظهر نيتشايف هذا (١٨٤٧ - ١٨٨٢) في الحياة السياسية الروسية عند نهاية العقد السابع . وإليك عيّنة من التعاليم التي كان يستلهمها : ليكون المرء اشتراكياً صالحاً ، ينبغي عليه أن ينبذ كافة العواطف المائعة والرقيقة الصداقة ، والقرابة ، والحبّ ، وعرفان الجميل ، وحتى الشرف ، ولأجل شحذ الهمم ينبغي تصوير الأمر على غير حقيقته . ومن يتأثر بعواطف الفقة فهو ليس الثوري . فالثوري لا يعرف غير عالم الهدم والابادة ، وهو لا يحيا إلاّ لهذا الغرض . . . وتوقّع غيرتسن أن نيتشايف ، «سيصنع الويلات » في روسيا . وفعلاً ، فإن نشاط هذا الأخير كان يأتي بالماء إلى طاحون الرجعية ، التي جعلت ، عمداً ، إسم نيتشايف مرادفاً للثوري والاشتراكي (وقد عُنيت شرطة القيصر أشدّ العناية

بذلك) . ومع ذلك فإن معظم الثوريين الروس والغربيين سرعان ما شجبوا نظريات نيتشايف .
غير أن دوستويفسكي لا يأبه بذلك ! . . . فإن أفكاره المسبقة المغلوطة ، التي أكدتها تزويرات
الشرطة هي أصل رواية « الممسوسون » . . . . وعلى هذا يكون مفهوماً ، إذن ، سبب التعلق
الذي يبديه أعداء الاشتراكية ، في أيامنا هذه ، برواية « الممسوسون » و « ملحمة المفتش
الكبير » . فهم لا يتشبهدون غالباً إلاّ بهذين الكتابين ، ويضاعفون أغلاط المؤلف ، زاعمين أن
أساليب نيتشايف أو « المفتش الكبير » هي مصير الاشتراكية المحتوم) . (الأدب في المعركة /
مصدر سابق ، ص ٩٩ ، ١٠٢) .

(١٣) جاء في كتب « مدخل إلى الأدب الروسي » / مصدر سابق ، ص ١٧٨ : (يلخّص دوستويفسكي
الفكرة الأساسية لرواية « الأخوة كارامازوف » بمقطع من الانجيل : « الحقّ الحقّ أقول لكم إن لم
تقع حبّة الحنطة في الأرض تنم فهي تبقى وحدها ولكن إن ماتت تأتي بثمر كبير » ويلاحظ القارىء
في تطلّعات أبطال الرواية تعطّشاً لتخطّي القبيح والضارّ في الفكر والعمل ، وأملاً بالبعث
الأخلاقي ومحاولة للتوصل إلى الحياة النقية العادلة) .

(١٤) ف. دوستويفسكي (الأعمال الكاملة) ، (مصدر سابق) . كذلك ـ « دوستويفسكي
وأوروبا » ، مقالة بقلم أ. كورنكو (مجلة « نيفا » ، ١٩٧١) .

(١٥) « دوستويفسكي وأوروبا » / مصدر سابق .

(١٦) و (١٧) و(١٨) و(١٩) « دوستيفسكي في الآداب العالمية » (مصدر سابق) . كذلك ـ « مدخل
إلى الأدب الروسي » (مصدر سابق) . كذلك « بين السيّاب ودوستويفسكي » (مصدر سابق) .
كذلك « دوستويفسكي في النقد الروسي » (غ. بلاخوف/ مجلة « الراية » ، ١٩٧١) .

(٢٠) البروفسور يوري كيرياكين ، « دوستويفسكي والاشتراكية » (مصدر سابق)، في كتاب « الأدب
في المعركة / ترجمة كاتب السطور ، ص ٩١ .

(٢١) نفسه ، ص ١٢٠ .

المصـــادر

أ ـ باللغة الروسية :

(١) ف. م. دوستويفسكي ، الأعمال الكاملة ، موسكو ، ١٩٥٦ .

(٢) ف. غ. بيلينسكي ، الأعمال الكاملة ، موسكو ، ١٩٥٣ .

(٣) غ. فريد لينديز ، « واقعيّة دوستويفسكي » ، موسكو ، ١٩٦٣ .

(٤) ن. آردنس ، « دوستويفسكي وتولستوي » ، موسكو ، ١٩٧٠ .

(٥) « دوستويفسكي في الأداب العالمية » ، لمجموعة مؤلفين ، موسكو ، ١٩٧٨ .

(٦) « دوستويفسكي في النقد الروسي » ، موسكو ، ١٩٥٦ .

(٧) ر. لوكسمبرغ ، « مقالات في الأدب » ، موسكو ، ١٩٣٤ .

(٨) « تطوّر الواقعية في الأدب الروسي » (في ٣ مجلدات) ، لمجموعة باحثين ، موسكو ، ١٩٧٣ .

(٩) س. أ. بتروف ، « المسائل الأساسية لنظرية الواقعية » ، موسكو ، ١٩٧٥ .

(١٠) ب. س. سوجكوف ، « فعالية الفن » ، موسكو ، ١٩٧٧ .

(١١) « تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر » ، موسكو ، ١٩٦٥ .

(١٢) ن. أ. غولايف ، « نظريّة الأدب » ، موسكو ، ١٩٧٧ .

(١٣) ب. أ. نيكولايف ، « الواقعية كمذهب ابداعي » ، موسكو ، ١٩٧٥ .

(١٤) « قضايا الواقعية في الأدب العالمي » (اعداد معهد الأدب العالمي ، موسكو ، ١٩٦٥) .

(١٥) مجلاّت : « الراية » ، و « العالم الجديد » ، و « نيفا » ، و « قضايا الأدب » ـ (أعداد مختلفة) .

ب ـ باللغة الانكليزية :

(16) E. N. Carr, Dostoevsky. Unwin Books. London. 1962.

جـ ـ باللغة العربية :

(١٧) « مدخل إلى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر » ، د. حياة شرارة ود. محمد يونس ، بيروت ، ١٩٧٨ .

(١٨) « تاريخ الأدب الروسي » ، أ. أهرار . منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٥٧ .

(١٩) « دوستويفسكي » ، رينيه ويليك ، ترجمة ـ نجيب المانع ، بيروت ، ١٩٦٧ .

(٢٠) « الأدب في المعركة » ، ترجمة الدكتور جليل كمال الدين ، دار الساعة ، بغداد ، ١٩٧٧ .
(٢١) « الأبله » وروايات أخرى لدوستويفسكي ، ترجمة د. سامي الدوربي - دار اليقظة .
(٢٢) « مجمل تاريخ الأدب الروسي » ، أ. سلونيم ، ترجمة صفوت جرجيس ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
(٢٣) مجلات : مجلة « قضايا عربية ، البحث » بين السيّاب ودوستويفسكي » (لكاتب السطور) العدد ٣ - ٤ ، ١٩٧٥ .

محاربة قوى الشر

دراسة مقارنة بين النصوص المسمارية والتوراة

الدكتور فاضل عبد الواحد علي
أستاذ السومريات/ جامعة بغداد

يظهر جلياً من قصة الخليقة البابلية « اينوما ايلش » أن خلق الكون بموجب معتقدات سكان بلاد وادي الرافدين لم يتحقق بهدوء وسلام وإنما جاء بعد حرب صعبة وطاحنة خاضتها قوة تمثل الالهة الفتية ضد قوة أخرى حاقدة تمثل الالهة القديمة ولذلك فالحرب حسب معتقداتهم كانت معروفة قبل أن يخلق الكون والانسان وانها قديمة قدم الالهة نفسها .

وتعطينا قصة الخليقة البابلية صورة واضحة عن الأسلحة التي استنبطتها الالهة في حربها بعضها مع البعض الآخر ومعظمها يتكون من حيوانات أسطورية ضخمة ومرعبة مثل الثعابين الخبيثة والتنانين العملاقة والرياح المدمرة وكثير من الحيوانات المركبة الأخرى مما يأتي على ذكر تفاصيلها فيما بعد .

وصلتنا قصة الخليقة البابلية مدونة على سبعة رقم من الطين ويرجع تاريخها إلى العصر البابلي القديم في حدود ١٨٠٠ ق.م. علماً بأن هناك قصصاً عن الخليقة مدونة بالسومرية تسبق هذا التاريخ بعدة قرون . وعلى أية حال فإننا نقرأ في قصة الخليقة موضوعة البحث أنه في البدء لم يكن هناك شيء يذكر سوى العماء (Chaos) المكون من عنصرين الهيين أولهما ذكر يتمثل في المياه العذبة « ابسو » (في البابلية) وثانيهما مؤنث يتمثل في المياه المالحة « تيامة » وأنه نتيجة لامتزاج هذه المياه مع بعضها ولد الالهان لخمو (Lakmu) ولخامو (Lakamu) ثم ولد بعدهما انشار (Anshar) وكيشار (Kishar) اللذان ولدا الاله آنو وهو الذي صار إلهاً للسماء فيما بعد . . .

وهكذا بدأ عدد الأحفاد يتزايد وبدأ صخبهم يقظ مضجع جدهم الأعلى « ابسو » كما أن سلوكهم لم يكن مرضياً بالنسبة له . فهم على ما يبدو أرادوا أن ينظموا ويدبروا الكون وفق أهدائهم بينما كانت الالهة العتيقة وعلى رأسها ابسو تفضل السكون والهدوء . ولذلك بدأ الاله ابسو يدير لها المكايد للقضاء عليها مستعيناً بذلك بمشورة وزيره مومو (Mummu) غير أن الالهة الأبناء اكتشفوا المؤامرة التي كانت تدبر ضدهم فلاذوا مذعورين باله الحكمة ايا لينقذهم من الخطر المحدق بهم . وتذكر قصة الخليقة البابلية أن الاله ايا عمل تعويذة ألقاها على ابسو ما سبب له سباتاً عميقاً وحينئذ انقض عليه وقتله .

ولما سمعت زوجته الالهة تيامة بنبأ مصرعه ثار غضبها وراحت ترغي وتزيد مهددة بالانتقام من قلته . ووقف عدد من الالهة من الموالين لابسو إلى جانب زوجته وكونوا بذلك جماعة منشقة عن بقية الالهة وراحوا يعدون العدة ويهيئون أسلحتهم الرهيبة لشن حرب ضد الالهة الفتية وبهذا الشأن تذكر قصة الخليقة البابلية مانصه بشأن صنوف الأسلحة التي اعدتها تيامة لمنازلة الالهة الفتية :

« لقد تملكهم الغضب فراحوا يدبرون المكائد
دون راحة ليل نهار
أجل لقد اختاروا الحرب وكانوا يشتاطون غضباً
ثم اجتمعوا فيما بينهم ووضعوا خطة للمعركة
وعندئذ جاءت أمهم الالهة خوبر التي تخلق كل شيء
بأسلحة لا مثل لها : لقد خلقت أفاعي مرعبة
لها أنياب قاطعة لا تبقي على شيء
وقد ملأت أجسامها بالسم الزعاف بدلاً من الدم
وألبست التنانين المزمجلاة كل مظاهر الرعب
وتوجتهم بهالات وجعلتهم كالآلهة
من أجل أن يهلك كل من يراهم على الفور

وأن يزحفوا دائماً إلى أمام دون أن يستطيع أحد
ردهم إلى خلف
وأعدت الثعبان الخبيث والتنين والوحش ـ لخامو
والأسد المصور والكلب المسعور والرجل ـ العقرب
والعفريت ـ الأسد العظيم والتنين الطائر والرجل ـ الحصان
وكلهم يحملون أسلحة لا تبقي على شيء وهم لا يهابون معركة
لقد كانت قراراتها (تيامة) قوية لا ترد
وخلفت أيضاً أحد عشر صنفاً من هذا النوع
ومن بين الالهة ، ابكارها الأول ، الذين كانوا يؤلفون مجلسها
رفعت كنكو (Kingu) وجعلته رئيساً عليهم » .

وبعد أن هيأت تيامة كل هذه الصنوف من الأسلحة المتمثلة بالمخلوقات الرهيبة فإنها أناطت قيادة قواتها بالاله كنكو وقالت له مخاطبة وهو يأخذ مكانه في مجلس الالهة : :

« لقد ألقيت بسحري من أجلك فجعلتك مجداً في مجلس الالهة
وأعطيتك سلطة مطلقة لتعطي المشورة لكل الالهة
أجل أنت رفيع الشأن ، فأنت زوجي الأوحد
وأمرك سوف يسود على كل الهة انوناكي (Anunnaki) [٢]

وينتهي الرقيم الأول من قصة الخليقة البابلية بالقول إن تيامة أعطت إلى زوجها الجديد وقائد جيشها الواح القدر (Tablets of Destimis) التي بموجبها يتقرر مصير الالهة والبشر على حد سواء .

وعندما سمعت الالهة الحديثة بمخطط تيامة الهريب وقواياها لشن حرب كاسحة عليهم ، أصبهم الذعر وراحوا يفتشون عن وسيلة تنقذهم من دمار محقق . وكان لا بد لهم من أن يجدوا لهم قائداً يجمع صفوفهم لمواجهة تيامة ،

فلاذوا باله السما آنو أعظم الالهة . لكنه سرعان ما تراجع مذعوراً عندما اقترب من تيامة وجيشها الرهيب ، فعمت الفوضى بين الالهة الفتية لا تعرف ماذا تفعل . وأخيراً وبعد الأخذ والرد والبحث عن قائد كفؤ وقع الخيار على الاله مردوخ ، اله مدينة بابل العظيم ليقود المعركة ضد تيامة وجيوشها .

وتدبر اله الحكمة ايا الموقف ، وهو الذي كان قد انقضى على ابسو زوج تيامة وقتله ، فجاء إلى ابنه الأمر مردوخ طالباً منه أن يتولى قيادة الالهة في معركتها المصيرية . ولا بد لنا قبل أن نأتي على تفاصيل المعركة الحاسمة كما ترويها قصة الخليقة البابلية ، أن نرجع قليلاً إلى الوراء وإلى الرقيم الأول منها على وجه التحديد لنتعرف على المزايا والخصائص الفذة التي كان يتمتع بها مردوخ الذي قدر له أن يكون الاله القائد والمنقذ للآلهة الفتية في صراعها من أجل الوجود . فنحن نقرأ في الرقيم الأول عن الاله وصفاته ما يأتي :

« كان أبوه الاله ايا (اله الحكمة)
وكانت أمه التي حملته الالهة دمكينا (Damkina)
وقد أرضعته مرضعته رهبة خارقة
وكان قوامه فاتناً وكانت عيناه تشعان بالحياة
أجل لقد كانت مشيته مشية العظماء
ولما رآه أبوه الاله ايا الذي ولده
انشرح صدره وتوردت وجنتاه وامتلأ قلبه بالسرور
ولم لا ! فقد جاء كامل الأوصاف يوازي الهين في العقل
أجل لقد كان ممجداً بين الالهة وكان الأعظم بينهم
كان كامل الأعضاء والأطراف إلى حد لا يصدقه عقل فلا أحد يفهمه ولا عقل يدركه » .

تلك كانت المزايا الخارقة التي اتصف بها الاله مردوخ والتي جعلته موضع

ثقة الالهه التي توسمت فيه القائد البطل المنقذ الذي يستطيع اخراجها من محنتها أمام جحافل تيامة . ويبدأ الرقيم الرابع من أسطورة الخليقة البابلية بمبايعة الاله مردوخ باعتباره قائدها الأوحد الذي لا نظير له :

« وأقاموا له عرشاً فاخراً
فتصدر المجلس أمام أبائه (الالهة)
وعندئذ بايعوه قائلين أنت الأعظم جلالاً بين الالهة
فقرارك لا يداينه أحد ، وأمرك هو أمر السماء
ومنذ هذا اليوم ستكون كلمتك راسخة لا تغير
فمن شئت أن ترفع أو تخفض فهو أمر منوط بيديك
أجل ! ستكون كلمتك هي الصحيحة وسيكون أمرك معصوماً عن الخطأ
ولن يتخط حدودك أي من الالهة . . .
يا مردوخ أنت بالحق من يثأر لنا
وها نحن نبايعك على ملوكية الكون بأجمعه
وعندما تأخذ مكانك في المجلس فستكون كلمتك هي العليا
وسوف لن تقهر أسلحتك بل إنها ستحطم أعداءك
يا سيدنا أنقذ حياة من يضع ثقته فيك
وعسى أن تزهق حياة كل اله اقترف معصية » .

وهكذا بايع الالهة مردوخ قائداً لهم . وعندئذ قام القائد من مجلسه وتناول قوسه ووضع فيه سهماً ثم تناول الصولجان ومن ثم علق القوس والجعبة إلى جانبه وفي هذا الموضع من الرقيم الرابع تبدأ قصة الخليقة البابلية بذكر تفاصيل المعركة التي قادها مردوخ نيابة عن الالهة الفتية . وتبدأ الاسطورة أولاً بالحديث عن الأسلحة المدمرة التي أعدها القائد لهذا النزال فهي تذكر ما نصه :

« وجعل الرياح الأربعة تتمركز في أماكنها لكي لا يفلت منها أحد
إنها الريح الجنوبية ، والريح الشمالية والريح الشرقية والريح الغربية
وعلى مقربة من جانبيه ظل يحمل الشبكة ، هدية أبيه آنو[٣]
ثم أطلق الريح الشريرة والريح الدوارة والأعصار
والريح الرباعية والريح السباعية والعاصفة الهوجاء وريح أخرى لا نظير لها
أجل لقد أطلق كل الرياح التي جاء بها ، الرياح السبعة ،
فوقفت خلفه لتهيج احشاء تيامة
ثم استدعى البطل عاصفة ـ الطوفان ، سلاحه العظيم
وامتطى العربة العاصفة ، الكاسحة المرعبة ،
وشد إليها فريقاً من أربعة
« القاتل » و « الحاقد » و « الدواس » و « الخطاف »
لهم أنياب قاطعة تحمل ألم
كانوا متمرسين في الدمار ، ماهرين في الخراب
وجعل إلى يمينه « القارع » ، المرعب في المعركة ،
وإلى يساره « الضارب » الذي يدرأ كل الطامعين » .

وتقدم البطل مردوخ وخلفه جنوده من كافة الصنوف وقد حمى جسده بدرع هو « الرعب » ووضع على رأسه هالة هي « الرهبة » ، وأطبق شفتيه على تعويذة سحرية وحمل بيده نباتاً يقذف السم . واستمر مردوخ في التقدم إلى أن صار ، ومن حوله جنوده ، على مقربة من تيامة وعندئذ راح يخاطبها بلهجة ساحرة أثارت غضبها وجعلتها تفقد رشدها :

« مِمَ أنت متعالية متغطرسة هكذا !
ها أنت قد عقدت العزم على اعلان الحرب
وجعلت الأبناء ينبذون آباءهم

وأنكرت عليهم العطف وأنت التي ولدتهم
لقد اتخذت من كنكو زوجاً لك
ومنحته مرتبة آنو بغير حق[4]
ودبرت الشر ضد انشاء ملك الالهة
وتماديت في غبيك ضد ابائي الالهة
هيا صفي قواتك وتقلدي أسلحتك
وتهيئي لكي نلتقي نحن الاثنان في نزال » .

وتضيف أسطورة الخليقة البابلية إلى ذلك ما نصه :

وعندما سمعت تيامة بذلك
صارت كالمجنونة ، لقد فقدت صوابها
وأطلقت صرخة عالية من شدة الغضب
وارتجفت رجلاها من الأعماق
ثم راحت تقرأ رقية وتلقي بسحرها
في حين كان الهة المعركة يشحذون أسلحتهم
ثم التقى الاثنان ، تيامة ومردوخ - أحكم الالهة
فشد كل منهما على الآخر في نزال فردي ثم التحما في المعركة
ثم أطلق في وجهها الريح الشريرة التي كانت تتبعه
فلما فتحت تيامة فاها لتبتلعها
ادخل فيه الريح الشريرة لكي لا تستطيع أن تطبق شفتيها
وحالما هاجمت الريح الشريرة جوفها
انتفخ جسمها وانتفخ شدقاها
وعندئذ أطلق (مردوخ) بهما مزق جسمها
أجل لقد قطع أحشاءها وشطر قلبها
ولما تم له قهرها ، انقض عليها وأخمد أنفاسها » .

بعد ذلك تذكر قصة الخليقة البابلية « أن مردوخ » شطر جسم تيامة إلى شطرين خلق منهما الأرض والسماء ، وأنه أسر من كان معها من الالهة وعلى رأسهم كبير قوادها كنكو . وعلى هذا النحو يكون البطل مردوخ ، اله مدينة بابل ، قد انتصر على تيامة وجيوشها وخلص الالهة الفتية من شرورهم[٦] .

وفي نهاية حديثنا عن الصراع في قصة الخليقة البابلية يكون من الضروري إبراز النقاط التالية :

١ ـ تمثل تيامة وجندها في قصة الخليقة البابلية عنصر الشر أو العماء (Chaos) في حين يمثل مردوخ عنصر الخير أو الشر .

٢ ـ تسمى المياه الأزلية المالحة في البابلية تيامة (Tiamat) وهي مشتقة من (tu'untu) بمعنى البحر ، وقد صورتها قصة الخليقة البابلية كما رأينا بمخلوق ضخم ومرعب له قوى خارقة .

٣ ـ من الملاحظ أن من أبرز القوى التي جندتها تيامة في حربها ضد مردوخ هي التنانين والثعابين على اختلاف أنواعها ، في حين اتخذ مردوخ من الرياح والعواصف المدمرة أسلحة له .

إن هذه النقاط الرئيسية ، اضافة إلى تفاصيل أخرى لا نرى حاجة إلى الدخول في تفاصيلها ، لها صداها في عدد من أسفار التوراة حيث يحارب الرب قوى الشر المتمثلة بالتنانين والثعابين وحيث يرد ذكر البحر أو الغمر (في العبرية (tehon) باعتباره مصدراً لهذه القوى الشريرة وذكر التغلب عليه واسكات أمواجه على يد الرب على غرار ما حصل لتيامة على يد الاله مردوخ في قصة الخليقة البابلية . وكمثال على ذلك نقتبس فيما يأتي فقرات من بعض أسفار العهد القديم ذات العلاقة بموضوع البحث : ـ

« استيقضي البسي قوة يا ذراع الرب . واستيقضي كما في الأدوار القديمة .

ألست أنت القاطعة رهب[٧] ، الطاعنة التنين ، ألست أنت هي المنشفة للبحر مياه الغمر العظيم الجاعلة البحر طريقاً لعبور المفديين (اشعيا ٥١ : ٦ ـ ١٠) . « يا رب اله الجنود من مثلك قوي رب وحقك من حولك . أنت متسلط على كبرياء البحر ، عند ارتفاع لجحة أنت تسكنها ، أنت سحقت رهب مثل القتيل . بذراع قوتك بددت اعداءك (مزامير ٨٩ : ٨ ـ ١١) .

«في ذلك اليوم يعاقب الرب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان الحية المتلوية[٩] ويقتل التنين الذي في البحر » (اشعيا ٢٧ : ١) .

« والله ملكي منذ القدم فاعل الخلاص في وسط الأرض . أنت شققت البحر بقوتك كسرت رؤوس التنانين على المياه . أنت رضضت رؤوس لوياثان . جعلته طعاماً لأهل الشعب لأهل البرية » (مزامير ٧٤ : ١٢ ـ ١٥) .

إن التشابه في اللفظ بين الكلمة البابلية (tianat) والعبرية (tehon) وتطابقهما في المدلول بمعنى « البحر » اضافة إلى الدور المتشابه الذي تمثله مياه البحر في كل من القصة البابلية والتوراتية باعتبارها عنصر « الشر » من جهة أخرى له أهمية في هذا المجال ويعطي قصة الخليقة البابلية التي دونت قبل التوراة بما يزيد على ألف سنة زخماً كبيراً عند البحث عن أصول الصراع الثنائي بين قوى الخير والشر في معتقدات الشعوب .

ومن جهة أخرى فإن علينا أن نتفحص مصادر أخرى في المنطقة عن المعتقدات الخاصة بالصراع بين قوى الخير والشر قبل استخلاص أية نتائج نهاية . فقد كشفت النصوص الكنعانية التي عثر عليها في اوغاريت (رأس شمرة) والتي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد عن كثير من معتقدات القوم بشأن الالهة والخلق وقوى الخصب والانماء في الطبيعة وكذلك عن الصراع بين قوى الخير والشر . إذ نقرأ في أحد النصوص الكنعانية أن الالهة اناث (Anath) تتحدث عن انتصاراتها السابقة على اعداء زوجها بعل وعلى رأسهم الاله يم (yam) معناه في

الكنعانية بحر أيضاً) بالاضافة إلى التنين والثعبان ذي الرؤوس السبعة :

أولَمْ أحطم يم ، محبوب الاله ايل
وأقضي على النهر الاله العظيم
أولَمْ أكتم أنفاس التنين
وأحطم الثعبان المتلوي
الوحش العملاق ذا الرؤوس السبعة(١٠)

هنا مرة أخرى نقرأ عن صراع بين قوى الخير المتمثلة بالآلهة اناث وبين قوى الشر : اله البحر يم ومن معه من تنانين وثعابين على غرار ما تذكره التوراة والنصوص المسمارية أيضاً . والحقيقة هي أن الثعبان « لوتان » (Lotan) الذي يرد ذكره في الأسطورة الكنعانية والذي يوصف بكونه الثعبان المتلوي ذي الرؤوس السبعة هو نفسه الثعبان لوياثان (Leviathan) الذي تتحدث عن التوراة والذي يوصف بكونه الثعبان الهارب (Fleeing Serpent) (١١) .

من ذلك يتضح أن فكرة الصراع بين قوى الخير وقوى الشر كانت معروفة عند الكنعانيين قبل وصول العبرانيين ولذلك فمن غير المستبعد ، أن يفترض البعض أن العبرانيين تأثروا بالأسطورة الكنعانية الخاصة بالصراع الثنائي بين الخير والشر مثلما تأثروا باللغة والأدب وغيرهما من صنوف المعرفة الكنعانية .

ومع ذلك فمن المؤكد أن جذور المعتقدات الخاصة بالصراع تعود إلى وادي الرافدين دون أدنى شك . فبالإضافة إلى قدم قصة الخليقة البابلية مقارنة بنصوص أوغاريت فإن هناك من الأدلة ما يثبت أن فكرة الصراع مع قوى الشر كانت معروفة في وادي الرافدين قبل تدوين قصة الخليقة البابلية نفسها بقرون عديدة . فهناك ختم اسطواني من العصر الاكدي (٢٣٧١ - ٢٢٣٠ ق.م.) يصور عدداً من الأبطال وهم يسحقون الوحش ذا الرؤوس السبعة ومن جهة أخرى فإن الآثار التي

تركتها قصص الخليقة السومرية والبابلية على مجمل معتقـدات العبـرانيين كانـت واضحة كما سنرى ذلك من خلال الفصول اللاحقة وما فكرة الصراع مع قوى الشر التي هي جزء أساسي منها إلا واحد من تلك الآثار ليس إلا[١٢] .

مراجع وملاحظات

(١) الظلمة كما ترد في التوراة . والعماء في المفهوم الفلسفي عبارة عن المادة التي كانت أصل الأشياء .

(٢) مجموعة من الالهة عددهم سبعة وتذكرهم النصوص المسمارية أحياناً بصفة قضاة في العالم السفلي .

(٣) في الحقيقة كان آنو جد الاله مردوخ (أي « الأب » الأكبر في المعنى الذي تعنيه قصة الخليقة البابلية) .

(٤) آنو كبير الالهة في بلاد وادي الرافدين وهو أعلاها منزلة وبقي اسمه في السومرية والبابلية « السماء » .

(٥) حول نص اسطورة الخليقة البابلية أنظر Speiser في :

Ancient Near Eastern Texts (Pritchard ed.) 1966, PP. 61 - 72.

(٦) حول فصل السماء والأرض حسب معتقدات سكان بلاد وادي الرافدين أنظر :

Geja Komorczy, The Separaion of Sky and Earth, Acto Antiqua XXXI (11973), P. 21 - 45.

(٧) رهب (Rahab) تسمية يقصد بها على الأرجح نوع من الثعابين وترد أحياناً مرادفة لكلمة لوياثان (Leviathan) « الثعبان الهارب » .

(٨) حول هذه الترجمة أنظر :

heidel, The Babylonian Genesis, p. 63.

(٩) الترجمة من النص الانكليزي للتوراة وهي هنا (Tortuous) بينما يذكر النص العربي من الترجمة كلمة « المتحوية » .

(١٠) أنظر ٢٠٠ - ٢٠١ من الفصل الذي كتبه الأستاذ C. Gordon عن الأسطورة الكنعانية في كتاب :

Mythologies of the Ancient world (Kramer ed.) 1961.

(١١) من الملاحظ أن الأفاعي والثعابين تتلوى عند اسراعها في الانطلاق من أجل الهرب ولهذا وصف الثعبان لوياثان بأنه الهارب - الملتوي لاقتران صفة الهربة بالالتواء .

(١٢) في الحقيقة أن قصة « اثيوما ايلش » ليست هي المصدر الوحيد عن الصراع مع قوى الشر في بلاد وادي الرافدين . فهناك أسطورة أخرى تتحدث عن محاربة الالهة لمخلوق شرير مركب الجسم يعرف باسم « لبو » (Labbu) بمعنى الأسد ، وكيف أن بعض الالهة أحجم ، على غرار ما رأينا في قصة اينوما ايلش ، عن منازلة خوفاً منه إلى أن جاء دور أحد الالهة الأبطال (اسمه مفقود بسبب تكسر الرقيم) فنازله وقتله .

أنظر :

Heidel, op. Cit, p. 14 - 143.

كما أن فكرة الصراع كانت موضوعاً فنياً في أكثر من مناسبة نذكر منها على سبيل المثال منحوتة أشورية تصور أحد الالهة وهو يحمل شوكة في كل من يده اليمنى واليسرى وهو يطارد وحشاً مركباً ومجنحاً .

دراسة نقدية لمسرحية :

« نــاتــان الحــكيم »

تـأليـف : كوتهولد . أ. ليسـنك

الـدكـتـور

غــازي شــريف حســن

استاذ مساعد في جامعة بغداد

كلية الآداب/ قسم اللغات الأوروبية

قبل التعرض إلى مسرحية « ناتان الحكيم » لمؤلفها كوتهولد افرايم ليسنك ، لا بد من أجل فهمها استعراض جانب من الحياة الفكرية للمؤلف.

ولد ليسنك في ٢٢ كانون الثاني ١٧٢٩ في مدينة صغيرة اسمها « كامنتس » في جنوب المانيا يطلق عليها اليوم « مدينة كارل ماركس » بعد أن وقعت في جمهورية المانيا الديمقراطية ، وذلك بعد تقسيم المانيا بعد الحرب العالمية الثانية إلى دولتين هما جمهورية المانية الاتحادية والمانيا الديمقراطية .

كان والده قساً ، دخل ليسنك عام ١٧٤١ مدرسة سانت أفرا في مايسن . ونظراً لقابليته النادرة وحسب توصية معلميه أنهى المدرسة قبل الفترة المقررة . التحق بجامعة لايبزج عام ١٧٤٦ وابتدأ دراسة علم اللاهوت . وبعد فترة قصيرة تحول عن دراسة اللاهوت إلى دراسة اللغة اللاتينية ثم إلى الفلسفة وبعدها إلى دراسة الفنون . كان يفضل الحياة العامة على الحياة الأكاديمية ، ومما قاله في الكتب : « أنها علمتني الكثير إلا أنها لم تصنع مني الانسان » .

كان مهتماً ومولعاً بزيارة المسرح . في عام ١٧٤٧ كتب مسرحية الأولى

« العالم الشاب » عرضت على مسرح فرقة كارولينا نويبر بنجاح عام ١٧٤٨ . في هذه السنة تفرقت الفرقة تحت ضغط الديون الباهضة فاضطر ليسنك إلى ترك لايبزج هرباً من ديون الفرقة التي تكفّل بها على أمل نجاح بعض عروضها فذهب إلى برلين . في عام ١٧٥٢ حصل على شهادة الماجستير من جامعة فتنبرك . عمل في برلين في الصحافة وكان يكسب عيشه بجهد حيث لم يدر عليه عمله كناقد بالكثير[١] .

من خلال مساهماته الصحفية وانتقاداته الجريئة وتصديه الحازم للاتجاهات الاقطاعية والرجعية ورفضه تزمت الكنيسة ، ونتيجة لكفاحه المتواصل من أجل أدب الماني موحّد استطاع ليسنك أن ينال شهرة واسعة حيث عرف في المانيا كلها كناقد له أهميته وكاتب مسرحي وقصصي حيث كتب مسرحيات متعددة وحكايات على لسانات الحيوانات على غرار حكايات أيسوب وألف ليلة وليلة .

سافر ليسنك إلى هامبورغ تلبية لنداء قومي يدعو كبار النقاد والشعراء والمسرحيين في كافة أرجاء المانيا لأجل بناء مسرح قومي الماني .

ثم مرّت سنتان على عمله في هامبورغ وتعددت المحاولات من قبل ليسنك والمخلصين للمشروع لأجل انقاذه إلا أنه فشل . وكان سبب الفشل بطريق هامبورغ الذي كان يعتبر للمسرح والفن المسرحي وسيلة للتسلية واللهو . لذا فشل هذا المشروع القومي وقد ناقش ليسنك أسباب الفشل في كتاباته « أصول الفن المسرحي الهامبوركي »[٢] .

انقطع ليسنك عن مواصلة عمله كناقد أدبي إذ لم يستطع كسب قوته اليومي من وراء العمل الصحفي ما اضطره إلى قبول وظيفة أمين مكتبة في مدينة «   » عند أمير مقاطعة براونشفايك في عام ١٧٧٠ ، وفي عام ١٧٧٢ ظهرت مسرحية « اميليا كالوتي » التي عتبرت في حينها أعنف احتجاج ضد الاستبداد والاقطاع .

في « مكتبة فولفنبوتل » تمكن ليسنك من الاستفادة من الخزائن الثمينة التي احتوتها المكتبة فأصدر عدداً من النشرات تحت عنـوان « مخطوطـات من ليس له اسم » حيث هرّب عام ١٧٧٤ أفكار التنوير للمفكر « هرمان ساموئيل رايماروس » وأطلق عليها « أفكار من ليس له اسم » فأثارت موجة من الغضب الشديد قادها ضده البروتستانت المتزمتون وتورط في صراع فكري لاهوتي معهم استمـر لعـدة سنوات . كانت مطارحات ليسنـك تنشر تحـت عنـوان : « ضـد كتسـه » حيث تصدى فيها إلى زعيمهم كوتسه كبير قساوسة هامبورغ وكانت عنيفة وجريئة جداً فمنعه أمير براونشفايك بعدها من الكتابة في شؤون الدين .

لم يعد بوسع ليسنك بعد ذلك طرح أفكار التنوير المناهضة لتزمت الكنيسة فلجأ بعد الانقطاع إلى المسرحية فكتب عام ١٧٧٨ مسرحية شعرية أسماها « ناتان الحكيم » استأنف فيها نقده لشخصية « كوتسه » كبير قساوسة هامبـورك وكشف تزمته وزيفه وممارساته اللاإنسانية وخداعه في شخصية البطريق ـ كبير رجال الدين في القدس ـ .

في عام ١٧٧٦ تكلل حب ليسنك لأرملة تاجر من هامبورغ (إيفا كونيش) بالزواج ولم يتمهل بزواجه أكثر من عامين توفيت زوجته بعد أن خلّفت له ولداً لم يبق على قيد الحياة أكثر من ساعات معدودات . وهنا عبّر ليسنك عن مرارتـه في رسالة إلى صديقه ايشنبورك في ٣١/ ١٢/ ١٧٧٧ « أردت أن أهنأ بالسعادة شأني شأن غيري من الناس ولكن ذلك انقلب نحساً عليّ »(٣) .

آخر ما كتب ليسنك من أعمال كتابه الفلسفي التربوي المهم الذي صدر عام ١٧٨٠ دون ذكر اسمه وكان تحت عنوان « تربية الجنس الأدمي » عبّر فيه عن إيمانه بتطور الانسان وسموّه إلى الانسانية .

أجبرت حياة الكفاف التي عاشها ليسنك على ترك العمل الصحفي وحريته كناقد وقبول عمل مذلّ في البلاط . أنهى ليسنك آخر سنّي حياته عليلاً بسبب وفاة

زوجه التي أحبها كثيراً وموت طفله إلى أن توفي هو في ١٥ كانون الثاني ١٧٨١ في براونشفايك .

بعد أن أصدر أمير براونشفايك أمراً بمنع ليسنك من الكتابة في شؤون الدين وفرض رقابة على منشوراته كتب ليسنك إلى أخيه كارل في ١١ آب ١٧٧٨ رسالة جاء فيها أنه بعد الحاجة الماسة إلى المال خطر له أن يعيد كتابة مسرحية كان قد دوّن مسودتها قبل عدة سنوات . طلب ليسنك في هذه الرسالة معرفة رأي أخيه في نشر المسرحية أو بالأحرى رأى صديقه اليهودي مويس مندلسون وطلب منهم تصفح قصة الخواتم الثلاثة في الديكاميرونْ ليو كاتنيو لمعرفة فكرة المسرحية(٤) .

كتب ليسنك المسرحية في ١٧٧٨ وأنجزها مطبوعة في مايس ١٧٧٩ ولكنه لم يشاهدها على المسرح حيث عرضت لأول مرة في ١٤ نيسان عام ١٧٨٣ بعد أكثر من عامين على وفاته . ولم تنل العروض الأولى نجاحاً يذكر إلا بعد جهود الكاتب المسرحي والشاعر فريد ريش شيلر حيث عرضت على مسارح فايمار بنجاح مستمر حيث انتقلت إلى مسارح أخرى في المانيا(٥) .

في عام ١٧٦٨ توفي البروفسور الاخصائي باللغات الشرقية ساموئيل دايماروس كان هذا يؤمن أن الله خالق الطبيعة لكنه ترك للإنسان حرية التصرف واختيار العقيدة أي أن الانسان مخيرٌ . ابتدأ ليسنك بنشر مخطوطاته كما مر ذكره ، وكانت أهمية هذه بالنسبة إلى ليسنك وعصر التنوير خطيرة . كانت تنتقد التزمت الديني بحدة وبشكل مباشر ومتطرف حيث كان رايماروس يرى أن التوراة والانجيل أكاذيب وخدع لفقها رجال الدين وحرفوها لمصلحتهم . لم ينشر ليسنك تلك المخطوطات لقناعته بما ورد فيها ، بل استخدمها كوسيلة تخدم فكر التنوير لكشف زيف رجال الدين ولا سيما تزمت البروتستانت . وفي عام ٧٧٤ نشر كلمة تحدث فيها عن آدم نويزر العالم المسيحي الايفانجيلي الذي عاش في القرن السادس وهجر دينه واعتنق الاسلام(٦) .

كانت أولى المنشورات لمن « لم يذكر اسمه » تحت عنوان « فضيحة العقل على المنابر » والثانية « استحالة رسالة سماوية يؤمن بها الناس على صعيد واحد » والتي ينكر فيها المؤلف شمولية الرسالة المسيحية ، والثالثة « عبور بني اسرائيل البحر الأحمر » التي تعرضت إلى المعجزات وانتقدت صحة المعجزات في التوراة . والرابعة تناولت الوظيفة المستقبلية للتوراة وحملت العنوان التالي : « إن التوراة لم تكتب من أجل أن تصبح رسالة سماوية » ، أما الخامسة فناقشت قصة البعث والنشور وفيها اعتبر رايماروس الانجيل مجرد مجموعة من الخدع والأكاذيب كتب من قبل الحواريين الأربعة لذا جاء مليئاً بالتناقضات حول بعث المسيح .

لم يحقق ليسنك من نشر هذه المخطوطات الهدف المقصود ، فقد كان يرمي من وراء نشرها إثارة موجة من التشكيك قد يؤدي إلى جدل علمي مكشوف حول الأديان ، ولكن ذلك لم يتم فقد حصد من وراء حملة التشكيك هذه غضب ولجوم الكنيسة . رافق نشر هذه المنشورات كلمات انتقد فيها ليسنك تزمت الكنيسة وزيف دعاءها . ويخلص إلى الاستنتاج ، أن المسيحية لو نظر إليها تاريخياً فهي ملك للإنسانية لا يمكن الاستغناء عنه . والتناقضات التي حواها الانجيل واعتبرها من خدع رجال الكنيسة يفسرها ليسنك كنتيجة للأسلوب الذي ظهر به الانجيل ، وكان يرى ويؤكد على أن الهدف الخلقي والتربوي الذي يدعو له الانجيل ليس بحاجة إلى معجزات وعجائب تؤكد الوحي والتنزيل .

كانت ردود البروتستانت حادة وعنيفة ولكن قلما وجد ليسنك بينها نقداً علمياً . فقد كانت موجهة بشكل أو آخر ضد الدعوة التي انتشرت في عصر التنوير وهي Deismus والتي تؤمن بخلق الكون من قبل الخالق لكن الخالق ترك للمخلوق حرية اختيار الدين .

وكان من أبرز تلك الهجمات ردود رئيس قساوسة هامبورغ والتي اكسبت النقد والمناقشات درجة من الحدة لم تكن مألوفة من قبل .

كانت ردود ليسنك على كوتسه مليئة بالمقارنات الرمزية والبديهيات والأمثلة والنماذج الأحد عشر التي حملت عنوان : (Anti - Goeze) . كانت نماذج نادرة من النضال من أجل حرية الفكر والكلمة ضد زيف الكنيسة وغطرستها واضطهادها المدعوم بنفوذ الأمراء الاقطاعيين .

اعتمد ليسنك الانجيل الذي يدعو إلى الصبر والتسامح كقاعدة ووسيلة للرد على الرجعية والاقطاع .

اشتد حملات اللوثريين ـ البروتستانت المتزمتين ـ إلى أن تحولت إلى طعنات واتهامات إلى شخص ليسنك مما جعل رد ليسنك أكثر عنفاً ، وكان من بين النماذج التي ردّ بها ليسنك على خصومه :

« . . . أما أنا فلا زلت هنا أيها السيد القس ، حيث ينبغي أن يكون الانسان الطيب الذي أطلق هذه الصرخة ولا يمكن أن يطلق غير هذه الصرخة . يجب أولاً أن يسمعونا يجب أن يحكم بيننا من هو أهل للسمع والحكم ومن يريد ذلك . آه لو كان يقدر من تمنيت أن يكون حاكمي ـ لوثر ، أنت أيها الانسان الكبير الذي لم يعرفه الناس حق المعرفة . إن أكثرهم جهلاً بك هؤلاء قصيروا النظر دوو الرؤوس المتحجرة الذين أمسكوا نعالك باليد وخطوا في الطريق الذي رسمته أنت ولكن دون مبالاة راحوا يتمندلون ! لقد خلّصتنا من اضطهاد التقاليد ، فمن يخلّصنا من اضطهاد الحرف الذي لا يحتمل ! »

كان كبير قساوسة هامبورغ « كوتسه » يخشى خطر نشر مخطوطات رايماروس التي لم يطلع عليها ولم يجرؤ على نشرها أحد من قبل فقدمها ليسنك إلى القارىء بأسلوب مبرقع فلسفي حاذق كشف عن حقائق خطيرة ، ولكن خطورتها أدت إلى حجب الحصانة التي كان ليسنك يتمتع بها في نشر المخطوطات الخاصة بمكتبة الامارة ، اضافة إلى حجب الحصانة منع ليسنك من الكتابة مطلقاً في أمور الدين .

ولما لم تبق لديه وسيلة للتعبير عن آرائه والتصدي إلى تزمت اللوثريين لجأ ثانية إلى المسرحية ، كتب إلى أخيه كارل رسالة طالباً فيها تأييده وتـأييد صديقـه اليهودي موسيس مندلسون في مسرحية لم يشأ الكشف عنها قبل ظهورها ولكنها تعتمـد بشـكل رئيس على واحـدة من قصص « الديكامـيرون » الايطـالية لبوكاشيو(٧) .

تعتمد المسرحية على الحروب الصليبية كخلفية تاريخية وعلى الأخص الحملة الثالثة بين ١١٨٩ و١١٩٢(٨) .

نشأت قصص الديكاميرون نتيجة وباء الطاعون الذي انتشر في فلورنسا عام ١٣٤٨ وهي قصص اطارية مفادها أن عشرة من الشباب يهربون من فلورنسا التي اجتاحها الطاعون بعيداً إلى الحدائق والبساتين . ومن أجل أن يتسلـوا عن الكارثة التي هربوا منها اتفقوا على تمضية الوقت بسرد الحكايات . كانوا سبعة شبان وثلاث فتيات يشكلون اطر المجموعة القصصية على غرار قصص ألف ليلة وليلة التي تسردها شهرزاد . وكانت القصة الثالثة لليوم الأول والتي اعتمدها ليسنك في حكايته الرمزية « الخواتم الثلاثة » تحمل العنوان التالي :

« اليهودي ميلكيسيدك يدفع عن نفسه بفضل
حكاية الخواتم الثلاثة خطراً كبيراً كان يتهدده
من قبل صلاح الدين » .

والقصة هي : « . . . صلاح الدين المعروف بشجاعته الفريدة التي رفعته من رجل عادي إلى سلطان سيطر على المسلمين وملوك المسيحيين وجلبت له النصر عليهم في كثير من الحروب .

وصادف أن دفعته الحاجة إلى مبلغ من المال لم يعرف كيف يدبره . فتذكر اليهودي المرابي في الاسكندرية . ذلك التاجر الثري البخيل ، ففكر في وسيلة يدفع بواسطتها اليهودي الثري إلى مساعدته . . . إذ لم يكن صلاح الدين يريد استعمال

العنف رغم حاجته الماسة إلى المال فأرسل صلاح الدين إلى التاجر واستقبله باحترام ثم قال له : (يا صديقي العزيز ، سمعت عن حكمتك الكثير وعن معرفتك في المسائل الالهية . لذا أريد أن أسألك ، أي الأديان الثلاثة صحيح : اليهودية أم المسيحية أم الاسلام ؟) أدرك اليهودي الذكي أن صلاح الدين يقصد احراجه وتوريطه في جدل وخصومة فقرر أن لا يفضل ديناً على آخر ليفوّت الفرصة على صلاح الدين من تحقيق مقصده . فقال :

(سيدي ، سؤالكم ذكي وكجواب عليه اسمحوا لي أن أذكر لكم حكاية سمعتها : (كان هناك رجل موسر أودع خزينته الكثير من المجوهرات اضافة إلى خاتم رائع الجمال لا يقدّر بثمن ، وبسبب روعة هذا الخاتم وقيمته كان يقدمه إلى أحسن بنيه وأرحمهم ليكون وارثاً لأمواله . . . وجرت الأسرة على هذا جيلاً بعد جيل إلى أن صادف مرّة أن كان لأب ثلاثة أبناء لا يختلف أحدهم عن الآخر عقلاً وصلاحاً وحباً وطاعة له . . فحار في أمره . ولما لم يستطع أن يخص الخاتم أحد أبنائه دون الآخرين وعد الأب أبناءه الثلاثة وكلاً على حدة دون علم أخويه بالخاتم الجميل . وقبيل الوفاة طلب الأب إلى أحد الصاغة أن يصنع له خاتمين مشابهين تماماً للخاتم الأصلي ففعل .

ولما حضرت الأب المنية قرر إرضاء أبنائه الثلاثة فأهدى كلاً منهم خاتماً . وبعد وفاة الأب ادّعى كلٌ منهم الارث لنفسه معتمد على الخاتم الذي في حوزته . وبعد أن أبرز كل خاتمه لم يستطع أحد تمييز خاتم عن الآخر لشدة الشبه بينها فلم يعد من الممكن البت في تحديد الوارث الحقيقي .

هذا هو قولي يا سيدي في الأديان الثلاثة جواباً على سؤالك .

وهكذا تخلّص التاجر اليهودي من حرج السؤال . ولكن صلاح الدين بينّ حاجته إلى المال فقدم له التاجر ما أراد وبعد فترة أعاد صلاح الدين الدّين إلى التاجر مشفوعاً بالهدايا . . »[٩] .

اعتمد ليسنك هذه القصة لطرح نظرته حول أصل الأديان السماوية الثلاثة التي شبهها بالخواتم الثلاثة التي ضاع بينها الخاتم الأصلي . فطرحها للمناقشة أمام المحكمة وترك للحاكم اصدار القرار :

« . . . إذا لم تجلبوا لي الأب في الحال
فسأطردكم من هذا المكان
أتحسبون أن واجبي هنا حل
الرموز والطلاسم ؟ .
أم أنكم تصرون على
هذه المواقف
إلى أن تنطق الخواتم
ولكن مهلاً
فقد سمعت أن الخاتم الصحيح
ذو قوة سحرية تحببه
أمام الله والناس
وهنا يكمن القرار الصحيح
فالخاتمان الشبيهان الّذان
لتلك القوة وذاك السرّ
لا يمتلكان
فثمة اثنان من الثلاثة
مدّعيان
فمن منكم من الحظ والحب بمكان ؟
أراكم تصمتون
وعن أثر الخواتم تسكتون
فلا هي فيكم تؤثر

ولا أنتم متأثرون
لكنكم جميعاً
للحب الأكبر مستسلمون
فأنتم الثلاثة مخادعون
ومخدوعون
فليس هنا بين الخواتم دليل
أي منهم الأصيل . . »[١٠] .

من الغرض الملخص لحكاية الخواتم بين بوكاشيو وليسنك نجد اختلافاً في تعريف الخاتم الأصلي بين الاثنين ، إذ يعرّف بوكاشيو ذلك الخاتم بأنه يمتاز (بجماله) بينما للخاتم عند ليسنك خصوصية نادرة أو معجزة فهو (يحمل قوة مدهشة تجعله محبوباً عند الله والناس) ، إذ قصد ليسنك من هذا الاعجاز تسهيل مهمة الحاكم ليصدر حكمه برفض الخواتم الثلاثة إذ ليس بينها هذا الخاتم ذو القوة المدهشة ، وهكذا يرفض ليسنك الأديان الثلاثة مبرراً ذلك بأن كلا منها تدعى الاصالة وأنها أجدر بالاقتداء دون غيرها وسنحاول القاء الضوء على انحياز ليسنك الواضح إلى جانب اليهودية رغم تظاهره برفض الأديان .

ولا بد هنا من الاشارة إلى أن القصة التي نشأت في القرن الرابع عشر تجاوزت القوى المدهشة والصفات المعجزة التي تجعل مالكها محبوباً عند الله والناس رغم تخلف تلك الفترة وسيطرة الأساطير والخرافات والشعوذة على أفكار تلك الأيام بينما تظهر مسرحية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر تتمسك (بالقوة المدهشة التي تفرض الحب عند الله والناس) في عصر اطلق عليه عصر التنوير الذي تميّز بتحرير الفكر من معاقله ومن فكر الاقطاع والكنيسة ومن أية وصاية يفرضها الدين أو تفرضها العقيدة ، فكل شيء خاضع لنقد العقل . وقد عرف الفيلسوف الكبير كنت عصر التنوير عام ١٧٨٤ بأنه « تخلص الانسانية من الوصاية التي فرضها على نفسه » وفي مجال آخر يعرف التنوير بأنه تحرّر الشيء من غلافه وتمييز

الغلاف عن ذات الشيء[١١] .

تميزت هذه الفترة بالنقد الشديد لممارسات المؤسسات الدينية وممارسات الكنيسة والاقطاع على الفقراء والفلاحين الذين يشكلون الأكثرية الساحقة من الشعب كفرض صكوك الغفران ومحاكم التفتيش وغيرها من أسلحة الابتزاز العديدة . لقد عانى الشعب الألماني من الكنيسة اضافة إلى ما عاناه في الحرب الطويلة ولا سيما حرب الثلاثين سنة ١٦١٨ ـ ١٦٤٨ إذ خرجت منها المانيا ممزقة إلى أكثر من ٣٦٠ ولاية ودويلة . فلا غرابة بعد هذه المآسي التي مرت بها المانيا بسبب الكنيسة والاقطاع وممارساتها بحجة الدين أن يظهر عدد كبير من المفكرين يوجهون كل سهامهم ضد ممارسات الكنيسة وضد الدين الذي تدّعي الكنيسة حمايته .

وبعد الاضطهاد الذي مارسه اللوثريون على الطوائف والمعتقدات الأخرى ، نشطت دعاوي لتوحيد الأديان كان في مقدمتها الاقليات اليهودية التي حملت لواء وحدة الأديان ليس لأجل التخلص من الاضطهاد فحسب ، بل ومن أجل تذويب بقية الأديان تحت لواء توحيد الأديان . وكانت هذه فرصة نشطت فيها مقصورات الماسونية وقد كان ليسنك من أبرز رجال الماسونية بشرّ بها ودعى لها من خلال شرح جانب من طقوسها وتعاليمها كما يتضح في حواره المعروف « ارنست وفالك [١٢] حيث يناقش ضرورة توحيد الأديان والسمو إلى مبادىء انسانية يمكن الوصول إليها بعد نبذ الأديان .

كان ليسنك يريد من المسرحية الوصول إلى رفض الأديان من خلال ضياع الخاتم الأصيل بين الأديان ، إلا أن هذه الدعوى الصريحة تؤدي إلى غضب الكنيسة فخشي ليسنك بطش الكنيسة ، لذا دعى إلى توحيدها أو التسامح فيما بينها .

هنا لا بد من وقفة عند الفيلسوف والشاعر العربي أبو العلاء المعري حيث يقف حائراً أمام الأديان ويعبر عن حيرته في الأبيات التالية التي يبحث فيها عن

جواب :

في اللاذقية ضجة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح
كل يمجد دينه يا ليت شعري ما الصحيح[١٣]

كانت مسرحية « ناتان الحكيم » من أبرز نتاجات الأدب الالماني خلال عصر التنوير ، حيث صبّ فيها ليسنك عصارة نضاله الأدبي والفكري من أجل خدمة أهداف الماسونية التي تدعو ظاهرياً إلى الانسانية ومساندة الفقراء في النضال من أجل حقوقهم ومحاربة التعصب الديني وذلك من خلال طرح فكرة التآخي بين الأديان خدمة لليهودية التي تكسب من كل محاولة في هذا الاتجاه لأنها أقلية لا تتخلص من صفة الأقلية إلاّ في محاربة الأديان الأخرى . فالمسرحية تؤكد بوضوح تأثر ليسنك بتعاليم الماسونية وتحمسه لطرحها حيث يسود الإتجاه الداعي إلى المصالحة بين أطراف لا يجمعها أي شيء ويفرقها كل شيء : بين معتد غاصب وآخر معتدى عليه في عقر داره وثالث مستفيد يبحث عن الثأر والانتقام بين الطرفين . إلا أن سعي الطرف الثالث يختفي بين مظاهر النبل والفضيلة التي يحملها بطل المسرحية وتثقل كاهله .

تدور أحداث المسرحية في القدس حيث يشتد الصراع المرير بين الصليبيين والفلسطينيين العرب . فيطرح ليسنك فكرة التآخي بين هذين الطرفين على أنها بين ديانتين ويضم إليهما ديانة ثالثة هي اليهودية .

فالقاعدة التي بنى عليها ليسنك افتراضه ، خاطئة . فلم يكن الدافع للحملات الصليبية (وإن سميت صليبية) دينياً وإنما استغل رجال الدين الدين كواجهة لالهاب حماس الشعوب المسكينة التي وعدوها الجنة في الشرق وصدقوا دعواهم من أنهم ذاهبون لانقاذ الديار المقدسة من المسلمين ، بينما كان الدافع

الرئيس هو الحالة الاقتصادية المتدهورة التي عاشتها أوروبا والمجاعات هي التي دفعتها إلى الشرق هاربين من جحيم الفاقة والهلاك إلى الشرق بعد اغرائهم بالخزائن والخيرات التي تضمها بلاد الشرق بين ظهرانيها والجنة الموعودة .

يصف ليسنك بطل المسرحية ناتان كيهودي ذاق الكثير من ظلم وجور المسيحية إلى حد قتل أطفاله السبعة وزوجته . وبدلاً من أن ينقلب ناتان إلى عدو للمسيحية تغلب عليه الانسانية والحكمة عند أول فرصة للانتقام فينقذ طفلة يعثر عليها ويربيها ويتبناها ناسياً ما جرى له من آبائها وسماها ريشا .

تعرضت ريشا أثناء سفرة ناتان إلى بابل حيث ذهب مضطراً لاسترداد[١٤] دين إلى نار كادت تؤدي بحياتها لولا حارس المعبد الذي أنقذها من الموت وكان حارس المعبد هذا قد نجا من الموت بأعجوبة لشدة شبهه بشقيق السلطان صلاح الدين الذي عفا عنه حين تذكّر شقيقه الغائب .

أعجب حارس المعبد بريشا ثم أحبها وأثناء محاولاته التقرب إليها ، علم من وصيفتها أنها مسيحية وليست ابنة التاجر اليهودي ناتان .

وكاد اكتشاف هذا الأمر أن يعرّض حياة ناتان إلى الموت ، إلاّ أن حارس المعبد يكتم السر .

حكاية الديكاميرون لبوكاشيو تؤكد على ذكاء التاجر اليهودي وكيف استطاع بفطنته التخلص من مأزق خطير شأنه شأن شهرزاد حيث استطاعت في قصص ألف ليلة وليلة أشغال الملك شهريار عن التقل[١٥] وكذلك ناتان في حكاية ليسنك حين تخلص من السلطان صلاح الدين ، إلا أن توسيع الحكاية الرمزية إلى مسرحية بحوارها وتفصيلاتها كشف عن هدف ليسنك الرئيسي إذ أكد على أن ناتان رغم ماضيه المرير نسي ما جرى له من المسيحيين فأنقذ طفلة لم يهتم بكون أبواها مسيحيين . لكنه من الناحية الأخرى لم ينس الذهاب إلى بابل بحثاً عن الانتقام في ماض سحيق[١٦] .

يدعو ليسنك إلى عدم ادعاء عقيدة الأفضلية على غيرها ، كما يدعو إلى التجرد في اصدار الأحكام على الأديان الأخرى وعلى أن يقيّم الانسان بإنسانيته وعلى أساس ما يقدمه للانسانية وليس على ما يدعي أو يفرض من قناعة ويعرض نماذج ليؤكد صحة طروحاته من خلال الحوار المسرحي : صلاح الدين يستقبل حارس الكنيسة بود ويعامله كصديق ويقول له : « سواء كنت مسيحياً أو مسلماً . . . فلست أنا الذي أراد أن تنمو حول الأشجار القشور » .

أما حارس الكنيسة الذي اعتقد أول الأمر أن ريشا ابنة ناتان اليهودي فكان يمتعض من دينها رغم أنه أنقذها من النار ولكن بدافع الواجب الانساني ، لكنه يبرر امتعاضه من اليهودية لأنها تدّعي لنفسها (الشعب المختار) وهذا يعني أنها الديانة الصحيحة ، ومثل هذا الادعاء يطرح فعلاً من قبل الأديان الأخرى .

حارس الكنيسة :

أراكم حائرين :

إن كنت مسيحياً . . . فقولوا إذن !

هل يوحي التبتل المجنون بملكية الرب الأفضل

وفرضه باحلك صورة على العالم أجمع ؟ .

من ذا الذي لا تزول الغشاوة عن عينيه . . . » هكذا يحرر ليسنك حارس الكنيسة ويقربه إلى ناتان بنظرته المتسامحة إلى الدين :

ناتان إلى حارس الكنيسة :

« أنت تعلم أية قوة تدفعني إليك

تعال لنكن أصدقاء

احتقر شعبي كما تشاء

ومن كان منا هو الذي اختار شعبه ؟

وماذا يعني الشعب ؟

وهل كان اليهود والمسيحيون يهود ومسيحيين قبل أن يكونوا بشراً
فقد لمست فيك أنك لست سوى إنسان
وحسبي أنك إنسان . . »

ويقدم ليسنك نموذجاً آخر يعبّر عن التمسك بالعقيدة ودفاع المرء عما يعتقد بإيجاد المبررات . وهذه دايا وصيفة ريشا فهي مسيحية تؤكد في كل مناسبة طيبة سيدها اليهودي ناتان كإنسان ولكنها تعتبر ديانتها المسيحية هي الصحيحة دون أن تعرف السبب فهي لا يمكن أن تغفر لسيدها إن لم ينشيء ريشا على المسيحية وإنما ترك لها حرية اختيار الدين أو العقيدة دون تأثير خارجي . وهذا هو النموذج الذي يسعى إليه ليسنك لكنه لا يجرأ على تأكيده وربما لا يريد تأكيده بسبب انحيازه التام إلى ما يؤمن به ناتان وسلوك ناتان النموذج الذي اختاره ليحمل فكر الماسـونية أو الخاتم الأول . .

وبلغ تحيّز دايا إلى عقيدتها أن وشت بسيدها إلى حارس الكنيسـة وكادت بوشايتها أن تؤدي بحياة ناتان ، كل هذا من أجل مساعدة المسيحي الذي وصفته إلى ريشا بأنه الفارس الطيب المؤمن الذي يناضل في سبيل الله ومن أجل أن يرد ريشا إلى وطنها الذي ولدت فيه ، فترد عليها ريشا :

« دايا !
ماذا تقولين وتبدين !
إنها أمور ومفاهيم غريبة تقولين أنه يناضل من أجل ربه
ربّ من هذا ؟
وأي رب هذا الذي يختص به إنسان
ومن أجله يناضل ويقاتل
هذا الرب الذي يدفع من أجله
الانسان إلى القتال ؟

إن شخصية دايا ليست حالة متميزة ، ولم يرد لها ليسنك أكثر من ذلك فهي تعبر بوضوح عن تزمت المسيحيين ودعواهم بأنهم أصحاب الرسالة الحقيقية ولا يعترفون بغيرهم .

وقد وصفت ستا ، التي يعرفها ليسنك كشقيقة لصلاح الدين في المسرحية ، تزمت المسيحيين واعتدادهم بما يدينون حين كانت تتحدث عنهم إلى صلاح الدين (عندما كان ينوي تزويج أخيه من مسيحية) :

« أنت لا تعرف المسيحيين ولا تريد معرفتهم
فهم فخورون بأنهم مسيحيون وليس لأنهم
بشر .

مثل هذه الصورة من عدم احترام الأديان الأخرى كانت دافعاً لمحاربة الأديان واعتبارها عائقاً في طريق نشر المسيحية ، وهكذا يرون وجوب مكافحتها . فالبطريق يعطي لنفسه الحق بالتدبير لاغتيال القائد صلاح الدين الأيوبي فلا بد من التخلص منه ولو كان عن طريق الدسيسة . والغاية تبرر الوسيلة . فيحاول البطريق اغراء حارس الكنيسة لاغتيال صلاح الدين القائد المسلم بتصويره عدو المسيحيين لتبرر اغتياله ، لكن الحارس يرفض .

لم يرفض الحارس بسبب فكري أو لأن عقيدته لا تسمح بذلك ، بل لأنه مدين لصلاح الدين بحياته حيث صادف أن صلاح الدين استثنى حارس الكنيسة من بين المسيحيين ولم يأمر بقتله لشدة الشبه بينه وبين شقيق صلاح الدين المفقود منذ زمن بعيد . حيث يصور ليسنك صلاح الدين أنه قاتل يقتل كل من يقع في قبضته من المسيحيين دون اعطاء أي مبرر لذلك في الوقت الذي يدعو ليسنك في المسرحية إلى التأكيد على الجانب الانساني ولا سيما بين الأطراف الثلاثة التي أراد لها التآخي وهكذا يفشل في التآخي لأنه لا ينسجم والأفكار التي يريد الوصول إليها فلجأ إلى استخدام المصادفة فجمع الشخصيات التي أراد جمعها وكأنها آلات

شطرنج يحركها كما يشاء دون اعتبار لما تحمل من نوايا وأفكار أو خلفية تاريخية .

هكذا يبتعد ليسنك حتى عن حكاية الخواتم الثلاثة في الديكاميرون إذ يشيد بوكاشيو بالسلطان صلاح الدين فيصفه بالرجل الشجاع الذي سيطر بفضل شجاعته الفريدة على المسلمون وملوك المسيحيين . . بينما يصوره ليسنك بعد أن اعتبره قاتلاً بأنه ضعيف الشخصية إلى درجة لا يقوى على رد طلب لأحد مهما كلف ذلك . فيدفع آلاف الدنانير في لعب الشطرنج إلى أخيه إذا خسر ويتنازل لها إن كانت الخاسرة في وقت يضطر إلى الاستدانة من التاجر اليهودي ناتان لتدبير طلبات غير مشروعة . كمثال آخر على تبذير صلاح الدين لأموال الدولة وتقديم الهدايا والعطايا الكثيرة دون حساب رغم إفلاس الخزينة لكل من بشرّه بخبر طيّب فلا يميز بين التدبير والتبذير إذ يأمر للمملوك الذي يبلغه خبر وصول القافلة كيساً من النقود وحين يلمس عدم اكتفاء المملوك بالمبلغ يأمر له بثان وثالث . . فلا يستطيع رد أحد .

بهذه الكيفية يصور ليسنك للقارىء ممثل الاسلام القائد صلاح الدين الأيوبي .

ثم يعرض ليسنك نموذجاً آخر للمسيحية ليؤكد تزمت رجل الدين والارهاب الذي يعيشه كل من يتعرض للكنيسة من قريب أو بعيد . ويتجلى هذا في الحوار التالي بين حارس الكنيسة والبطريق كبير رجال الكنيسة في القدس :

حارس الكنيسة : « أتيت طالباً المشورة

البطريق : أرجو بعدها أن تعمل بالمشورة

حارس الكنيسة : ولكن ليس كأعمى

البطريق : ومن قال ذلك ، فلا يصح للمرء
إن يبخس العقل الذي منحه الرب . . .
ما الذي تطلب فيه المشورة ؟

حارس الكنيسة : أيها الأب المحترم
هناك يهودي له طفل وحيد
فتاة رعاها كأحسن ما يرعى والد ولده
ربّاها على البرّ والطيب
ومنحها حب النفس والحبيب
وبادلته حب الوالد والحبيب
أما السؤال الذي بحاجة إلى مشورة
فهو أن الفتاة ليست ابنة هذا اليهودي
فقد عثر عليها وهي طفلة
أما كيف . . . ابتاعها أو سرقها
قل عن ذلك ما تشاء
المعروف أن الفتاة وهي طفلة
كانت مسيحية معمدة
لكن اليهودي من الطفولة تولاها
وربما كيهودية أنشأها ورباها
وتمسك بها كابنته وحماها
فما هو القول أيها الأب الموقر
في مثل هذا السؤال المحيرّ ؟ .

البطـــريـــق : هذا فظيع ولكن أيها السيد
أخبرني عن القضية
أفهذا صحيح أم فرضية ؟

حارس الكنيسة : لا فرق . . . سيّان بين هذا وذاك
فلم تكن سوى فرضية
لمعرفة رأيكم في القضية

البطـــريـــق : ســيّـان ؟

أنظر أيها السيد . . .

إن عرض مثل هذه الحال

يشبه لعب الأطفال

ولكنها تستحق الجواب والتفكير بجدية

ولأجل معرفة جواب القضية

أشيرك أيها السيد إلى المسرحية

فشبيه هذه المشاكل أو عكسها

تطرح على المسرح وتنال الجواب

والتصفيق والاعجاب

أما أن يكون ما تقول قد حدث حقيقة في مدينتنا المقدسة

عندئذ تختلف الحال

فستطبّق بحق اليهودي عقوبة

ترضي الباب والقيصر

في مثل هذه الجريمة الكبيرة .

فاليهودي وكل من يغرر بمسيحي

ويدفع به إلى الكفر

يستحق الحرق على أكوام الخشب

وفوق ذلك

فاليهودي الذي يبعد بالقوة

طفلاً مسيحياً عن التعميد

أفلا يعتبر ما يقوم به اتجاه

الطفل عنفاً ؟

حارس الكنيسة : ولكن لو ترك الطفل وحيداً

دون رحمة اليهودي

هلـــك ! ؟

البطـــريـــق : لا يهم . . اليهودي يحرق

فخير للطفل أن يموت

من أن يعيش في الفساد الذي آل إليه

بعد انقاذه

فلو أراد الله انقاذه لأنقذه

حارس الكنيسة : ولكنني أرى في ذلك عمل الخير

البطـــريـــق : لا يهم فاليهودي يحرق

حارس الكنيسة : وماذا تقول لو أن اليهودي

ترك للطفلة ما تختار من دين

ولم يجبرها على دين

البطـــريـــق : لا يهم . . . اليهودي يحرق

حارس الكنيسة : أيها السيد الموقر

أما الباقي فإلى كرسي الأعتراف . . . »

وحين همّ الحارس بالذهاب استوقفه البطريق قائلاً :

« دون أن تحضر لي اليهودي

اللعين تريد الذهاب ؟

أحضره إلى هنا

وستسمع مني الجواب

اذهب إلى صلاح الدين السلطان

فهو المسؤول عن حماية الأديان

حارس الكنيسة : آسفاً أنا لن أحضر مقابلتك

إذ طلبني قبلك السلطان

البطـــريـــق : أرجو أن توصي بي السلطان
وأن تأخذ لي منه الأمان
فلا يجدوني في ذلك
سوى حرصي على الأديان . . »

هذا النموذج من العلاقات بين الأديان يكشف النقـاب عن كره البطـريق لليهودية ويعرض من الناحية الأخرى العلاقة الانسانية الايجابية التي تتجاوز الأديان وتنظر إلى الانسان كإنسان ، فهذا حارس الكنيسة كاد يكشف سرّ ناتان اليهودي لاحتفاظه ببنت مسيحية أحبها لكنه بعد أن أدرك الخطر المحدق بحياة ناتان تخلص من الحديث مع البطريق انقاذاً لحياة ناتان .

أمّا كره البطريق للاسلام فلا يخفى إذ حاول البطريق أكثـر من مرة اغـراء حارس الكنيسة لاغتيال القائد صلاح الدين الايوبي وذلك بتصويره لعملية انقاذ حياة الحارس من قبل صلاح الدين من أنها ليست سوى مصادفة ، فلو لم ير صلاح الدين الشبه لأخيه في وجهه لما تركه يعيش شأنه شأن المسيحيين الذين لاقوا حتفهم على يد صلاح الدين . ثم يعرض البطريق الدسيسة التي يخطط لها وهي جريمـة القتل بأنها خدمة كبرى لله والكنيسة والوطن .

هكذا يعرض ليسنك رجال الدين وكرههم الشـديد للأديان الأخـرى كما يعرض القائد صلاح الدين الأيوبي كقاتل يستحـق كره المسيحيين وعلى رأسهـم البطريق . بهذا الأسلوب يهاجم ليسنك رجال الدين في البطريق وصلاح الدين القائد المسلم ليحملهم مسؤولية دفع شعوبهم إلى الحرب والقتل والدمار ، فالناس طيبون يمكنهم العيش فيما بينهم بسلام لولا التفرقة والأحقاد التي يزرعها رجـال الدين ويستسلم لها الجهلة والمخدوعون . إلا أن ليسنك حين يهاجـم البطـريق بعنف شديد يجد بعدئذ أنه قسى عليه كثيراً فلا يجد وسيلة أفضـل للتخفيف من هجومه على البطريق من التعرّض إلى ممثل الكنيسة بالكفر والالحاد كتب مسرحية

تحت اسم « محمد » تعرض فيها إلى حياة الرسول الكريم بالقذف والشتم بينما تؤكد المسرحية أن احداثها لا تمت بصلة إلى شخصية الرسول ﷺ ، ضارباً بذلك كل القيم الدينية والانسانية والتاريخية عرض الحائط واضعاً نصب عينيه تكفير سيئاته من كفر وإلحاد اتجاه الكنيسة فكتب المسرحية ارضاء للبابا ليعفو عنه ، فعفا عنه فعلاً[١٦] . فليس بغريب أن يصور ليسنك الأديان بهذه الصورة خدمة لهدف كرّس من أجله بقية حياته وهو خدمة الماسونية ولو ادّعى أنه هجرها[١٧] .

أما ناتان فتبقى شخصيته فوق كل الأحداث فهو العارف الحكيم المتسامح الكريم يهب العطايا والنصائح ، جمع فيه ليسنك كافة الفضائل وأبعده عن الرذائل إذ أراد له أن يكون ممثلاً لفكر الماسونية يعالج العداوة والتفرقة بين الأديان بالتآخي وتجاوز الأديان .

ولا بد من سؤال يطرح نفسه : من المستفيد من نبذ وتجاوز الأديان ؟ أليست اليهودية ؟ فمن الطبيعي إذن أن تدافع اليهودية عن الماسونية وتكسب لها أنصاراً من المسيحيين من خلال التأييد على كون اليهود مضطهدين ومطاردين لأجل كسب عطف الأخرين ، والسبب الأخر الذي يدعو اليهود إلى تبني الماسونية والدعوة لها ، أن اليهود أقلية في كل مكان ، وأي كسب لهم فهو على حساب الأديان الأخرى . وهذا ما يريدون .

ويمكن اعطاء أمثلة أخرى تؤيد انحياز المؤلف إلى اليهودية . أما المسيحية فقد تسامح معها فهي دين آبائه ، وإذا كان قد انتقدها وكشف زيف رجال الكنيسة فقد تطرّق إلى جوانب إيجابية وإنسانية في سلوك حارس الكنيسة مثلاً ، ولكن ليسنك حين تعرّض إلى الإسلام وجّه إليه ما في جعبته من سهام وذلك عند عرضه لشخصية صلاح الدين الأيوبي القائد المسلم . وليس هناك أي مبرر لمناصبة الاسلام العداء إلاّ لأن الاسلام بعيد عن ليسنك وعن قرّائه وجمهوره فسمح لنفسه أن يجعل منه هدفاً يوجه إليه سهامه وما لم يرتضيه لليهودية أو المسيحية . وهذا يشير إلى جهل ليسنك بالإسلام .

وتختتم المسرحية التصالح والتآخي الذي هو الهدف الرئيس من كتابة المسرحية إذ يحاول ليسنك تحقيق ذلك بعرض نماذج مجردة من التحيز بعد أن لمست أن لا مكان بعد للتحيز لأية عقيدة أو قناعة مسبقة ، مما ساعدها على تقبل قناعة جديدة ، والتعامل مع الآخرين بصرف النظر عن عقيدتهم وإنما بقدر ما فيهم من إنسانية تسود تعاملهم . في هذا وجد ليسنك وسيلة فعالة لحل الصراعات المعقدة :

ابنة اليهودي ريشا التي نشأت على حرية الفكر ولم تجبر على قبول عقيدة ما ، حارس الكنيسة الذي أحب ريشا ونوى الاقتران بها . الاثنان يتفاجآن أنهما أخوة ـ أولاد أخ صلاح الدين ـ المدعو أسد والذي غاب منذ عشرين عاماً . الاثنان أخوة في رعاية عمهم الكل عائلة واحدة ترمز إلى الأديان الثلاثة . إنها صدفة ساعد على جمعها راهب كان يحمل وثيقة سحبها من صدر والدهما عند دفنه[١٨] ، فقد كان لكل واحد من الثلاثة شأن ، هذه ربّيت في أحضان اليهودي والآخر فارس صليبي والقائد صلاح الدين قائد المسلمين حتى ظهرت الوثيقة فجمعتهم على شأن .

بهذه السهولة أراد ليسنك معالجة الخلافات القائمة بين الأديان والتي تطورت إلى عداوات فرّقتهم أسلافهم ثم جمعتهم في بيت واحد . . . كل ذلك يقود القارىء إلى مقصورات الماسونية التي أعتقد ليسنك أنه وجد عندها الحل .

سفر قوهلت وفلسفته في رباعيات الخيام

د. محمد عبد اللطيف عبد الكريم

مدرس قسم الدراسات الشرقية - كلية الآداب / جامعة بغداد

يشكل سفر قوهلت Vohlet قسمًا لا بأس به من أدب الحكمة عند العبرانيين[1]. والسفر منسوب لـ Annon[2]. وهي صيغة اسم الفاعل المؤنثة المأخوذة من الأصل الثلاثي الذي يعني «جمع» والاسم أي «جماعة»، وبذلك تترجم بـ «الجامعة»، أي الذي يجمع الناس، ويراد بذلك الشخص القائد الذي يقود جماعة، أو الواعظ الحكيم الذي يتحدث في جماعة[3].

كما أن الكلمة أعطيت في السفر اسمًا للملك سليمان بدليل (١/١) «كلام الجامعة ابن داود ملك أورشليم»، (١/١٢) «أنا الجامعة ملكت على إسرائيل بأورشليم». وقد أشير في السفر أيضاً إلى أن

---

(١) انظر. H. Wheeler Pobinson, The Old Testament, London 1937, p. 157.

(٢) انظر بعض الصيغ المماثلة لها وشرح ذلك في:

Gesenius's Hebrew grammar. ed. E. Kautzsch, 13 th impression, Oxford 1967, p. 393.

(٣) انظر تفصيل ذلك في:

S.R. Driver, An Introduction to the Literature of the Old Testament, Edinburgh 1909, p. 466.

كان حكيمًا يعظ الناس ويرشدهم (٩/١٢) «بقي أن الجامعة كان حكيمًا وقد علّم الشعب ووزن وبحث ونظم أمثالاً كثيرة».

والذي يبدو لنا أن السفر وُضِعَ اعتماداً على محتواه الفكري، على لسان الملك سليمان[٤]. أو أريد له أن يكون على لسانه، لما عُرِفَ عن الملك سليمان من قول الحكمة وشهرة في ضرب المثل. إلا أن البحث العلمي في النص نفسه يدلّ على أن هذه الاشارات الشخصية والاجتماعية المنتشرة في اسفر، إنما تشير إلى شخص حكيم يتكلم من موقع طبقة معتدلة من طبقات الشعب وليس من موقع الملك، وفي زمن، يختلف تماماً عما كان عليه عصر الملك سليمان، إذ عصر السفر يتميز بالفوضى السياسية والاجتماعية بخلاف ما هو معروف من القوة والاستقرار السياسي والاجتماعي في عصر الملك سليمان. كما أن لغة الكتاب نفسه بمصطلحاتها ومفرداتها الخاصة وبالملامح المشتركة بينها وبين النصوص المتأخرة من أسفار العهد القديم كسفر عزرا ونحميا والأيام واستير، بل إن كثيراً منها يُرى لأول مرة في المشنا، تشير إلى أن عصر تأليفه متأخر عن زمن الملك سليمان. وتكاد تجمع آراء أكثر الباحثين في هذه المعضلة على أن التاريخ الأكثر احتمالاً للكتاب هو ٢٠٠ قبل الميلاد[٥].

ولا نستطيع أن نقول إن الشكل الأدبي لنص السفر يتسم، على العموم، بالكمال إلا في مواضع قليلة؛ إذ إن الموضوعات قابلة للتغيّر بشكل يتّسم بالكثير من الفجاءة، كما أن الربط بين الأفكار غير موجود،

---

(٤) حول مسألة بعزو الكتاب إلى سليمان انظر:ـ

John E. Steinmu eller, A companion to Scripture Studies, New York. 1946. Vol. 11, p. 195 f.

(٥) انظر مناقشة هذه الآراء في:

Driver , op. cit., p. 475f.,

Alex. R. Gordon, The Poets of the Old Testament, London 1912, p. 330.

وكثيراً ما تصعب عملية إيجاد العلاقة بين فكرة وأخرى، بل إن التناقض موجود أحياناً في الكتاب بالنسبة للفكرة الواحدة[٦]. تبعاً لتضارب آراء المؤلف، ومن غير أن يكون تطوير منطقي للفكرة أو تدّرج معقول في عرضها.

يعرض المؤلف في الكتاب، وفي فاتحته بصورة خاصة، خلاصة تجارية ومراقباته في الحياة، وما وصل إليه من آراء وأفكار نتيجة معايشته لها وخوضه فيها من خلال حياته نفستها، فهو بذلك يكاد يكون كتاب ذكريات يقدمه رجل كبير في أواخر أيامه، وهو يستعرض تجاربه الماضية[٧]. ولعل النتيجة الأخيرة التي وصل إليها من خلال ذلك كله هو ما وضعه في فاتحة السفر (١/٢): «باطل الأباطيل.. الكل باطل». ثم يأخذ في اطلاق أقواله الحكمية في شتى مسائل الحياة كالنشاط الإنساني المادي والفكري، والحياة البشرية وكنهها، والعدالة على الأرض وعدم وجودها، والحكمة والمعرفة وطلبها، والمتعة وجناها، إلى غيرها مما يشغل بال المفكرين على مدى الأزمان[٨].

وبتتبعنا لنصوص سفر ڤوهلت ومقارنتها برباعيات الخيام نجد الكثر مما يشترك فيه الأثنان فكراً وفلسفة. وهذا بدوره مما قد يشير إلى شيء من التأثير التوراتي في فلسفة الخيام، وقد آثرت أن أظهر ذلك على النحو الذي أورد فيه قول ڤوهلت[٩]. وما يقابله من قول الخيام[١٠] في

---

(٦) وقد فسر هذا التناقض بتغير مزاج المؤلف وتبدّل وضعه النفسي. انظر:
A. R. Gordon, op. cit. p. 334. n. 1.

(٧) Willam Neil's one volume Bible ((Commentary, London 1973, p. 243.

(٨) انظر في مسألة التأثير اليوناني واعتماد ڤوهلت على فكر المدرسة الابيقورية ومناقشة ذلك في: A. R. Gordon, op. cit., p. 33د n. 1.

(٩) اعتمدنا في إيراد النص العربي على النسخة المطبوعة بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٩٦٦.

(١٠) اعتمدنا ترجمة أحمد الصافي النجفي في إيراد النص العربي للرباعيات والمطبوعة في بيروت، والاشارة إلى أرقام الرباعيات عند ذكرها.

خلاصة فلسفتيهما.

ولعل أهم مسألة عالجاها هي مسألة الحياة والموت، فكلاهما بعرض غموض كنه الحياة وسر الموت، والجهل بطبيعة الحياة والموت وما بعد الموت، فيقول ڤوهلت (٤/١): «جيل يمضي وجيل يأتي والأرض قائمة مدى الدهر». و(١٥/٣): «ما كان قبلاً فهو الآن. وما سيكون كان قبلاً». و(٣/١٩ - ٢١) «لأن ما يحدث لبني البشر هو يحدث للبهيمة وللفريقين حادثة واحدة كما تموت هي يموت هو ولكليهما روح واحد، فليس للإنسان فضل على البهيمة لأن كليهما باطل كلاهما يذهبان إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب وكلاهما يعودان إلى التراب. من يرى روح بني البشر الذي يصعد إلى العلاء وروح البهيمة الذي ينزل إلى أسفل الأرض». ويقول (١/٧): «فإنه من يدري ما هو خير للبشر في الحياة مدة أيام حياتهم الباطلة التي يقضونها كالظل. من يخبر البشر بما يكون فيها بعد تحت الشمس». كما أن الإنسان لا يعلم وقته فإنه كالأسماك التي تؤخذ بشبكة هلكة، وكالعصافير التي تصطاد بفخاخ كذلك يُقتنص بنو البشر في وقت السوء إذ يغشاهم بغتة (١٢/٩).

فڤوهلت يرى أن الدنيا وُجدت هكذا من أول الدهر وستظل سائرة هكذا أبد الدهر، أما الموت والفناء فهما آخر الأشياء، بل إن عودة الأرواح بعد الموت أمر باطل، والإنسان في حيرة من أمر وجوده في هذا الكون، غير عارف يقيناً بمبتداه أو منتهاه، ونجد هذه الأفكار في قول الخيام[٣٦]:

أتى بي هذا الكون مضطرباً فلم
تزد لِيَ إلاّ حيرةٌ وتعجبُ
وعدت على كُرْهٍ ولم أدر انني
لماذا أتيتُ الكون أو اذهبُ

وقوله (٨٤):

ليس لهذا العالم ابتداءُ
يبدو ولا غاية وحدُ
ولم أجد من يقول حقاً
من أين جئنا وأين نغدو

وفي قوله (٢١٢):

البحث في الدهر لم يُثمر لنا ثمراً
فما نحّاه امرؤ بالحكمة اتّصفا
كل امرىء هزّ غصناً منه مضطربا
اليوم كالأمس والآتي كما سلفا

ويخلص الخيام إلى أن الحياة والموت سرّان يعجز الإنسان عن فهمهما مهما بلغ من حكمة واوتي من معرفة، فيقول (٢٩٨):

سرّ الحياة لو أنه يبدو لنا
لبدا لنا سرّ الممات المبهمُ
لم تعلمنّ وأنت حيّ سرّها
فغداً إذا ما مُتّ ماذا تعلم؟

ويتفق ڤوهلت والخيام في أن الأمور فرضت علينا فرضاً فنحن نرى الخلل أو نرتكب الخطأ من غير قدرة على تقويم الأشياء، إذ إننا مجبرون على القيام بالأفعال، مسلوبو الارادة تجاهها. فيقول ڤوهلت (١٣/٧): «انظر إلى عمل الله كيف لا يقدر أحدٌ أن يثقّف ما أوّده». فهنا اعتراف بأن الإنسان يقف عاجزاً حيال ما يراه غير مثقّف من عمل الرب. ويقول الخيام(٣٩):

لماذا غداةَ الربُّ ركّب هذه الـ
عناصر لم يُحكم تناسبَها الربُّ
إذا راق مبناها ففيم خرابها
وإن لم ترق مبنىً فممن أتى العيبُ

والله عالم بأفعالنا منذ البدء، ونحن مجبرون على فعْلها صواباً كانت أم غير صواب، وعدم قيامنا بها يتعارض مع العلم الإلهي (٢٥١):

اعبّ الطلا عمداً ومثلي ذو حجىً
له يعتدي عند النهى شربها سهلا
درى الله قدما بارتشافي للطلا
فإن اجتَنِبْها ينقلب علمه جهلا

ويقول (٢٦٢):

إن لم يكن ربي قُد شاء ما
شئت فهل يمكنني فعلُهُ
فإن يكن شاء صواباً فما
شئت سواه خطأ كلُّهُ

والموت مصير واحد لكل المخلوقات لا يفرق في ذلك ملك عن شحاذ، أو بشر عن بهيمة، فالمساواة من سنن الموت. يقول فوهلت (١٦/٢): «واأسفاً يموتِ الحكيم كالجاهل». ويقول (٦/٦): «ولو أنه عاش ضعفي ألف سنة ولم ير خيراً. أليس كلاهما يذهبان إلى موضع واحد». ويقول الخيام (١٣٢):

لئن عِمرْتَ صاحيَ ألفَ حول
فسوف تعاف هذي الدار قهرا
وان تكُ سائلاً أو ربَّ تاجٍ
فذان غدا سيستويان قدرا

ويقول (١٤٠):

مررت بمعملِ الخزّاف يوماً
وكان يجدّ في العمل الخطير
ويصنع للجرار عُرىً، تراها
يد الشحّاذ أو رأس الأمير

وكل شيء في هذه الحياة يدعو إلى اليأس وإلى التشاؤم ما دمنا لا نستطيع لها إصلاحاً. فيقول فوهلت (١٧/١٢، ٢٠): «فكرهت الحياة إذ ساءني العمل الذي يُعمل تحت الشمس لأنه كله باطل وكآبة الروح. فانثنيت على قلبي أوئسه من جميع التعب الذي عانيته تحت الشمس».
ويقول الخيام في اليأس التام (٢٥٦):

أجيل بهذا الكون طرفي مدققاً
وامعن فيه فكرة وتأمّلا
فسبحان ربي كل شيء نظرتُه
رأيت به يأسّي لعيني مُمَثَّلا

وحياة كهذه حريّ أن لا يُحسَد إنسان كُتب عليه أن يحياها. فالأموات مغبوطون بكونهم غير أحياء. أما الذين لم يخلقوا قط، فأولئك هم السعداء حقاً. يقول فوهلت (٤/٢ ـ ٣): «فغبطت الأموات الذين درجوا من قبلُ على الأحياء الذين هم باقون حتى الآن. وخير من كليهما من لم يوجد حتى الآن لأنه لم ير العمل الشرير الذي يُفعل تحت الشمس». ويقول الخيام (٧٩):

إن لم يكن حظّ الفتى في دهره
إلا الردى ومرارةَ العيشِ الردي
سَعِدَ الذي لم يحى فيه لحظة
حقاً واسعدُ منه من لم يُولَدِ

ويقول (٧٨):

لا يورثُ الدهر إلا الهمَّ والكمدا
واليومَ ان يُعط شيئاً يستلبه غدا
مَن لم يجيئوا لهذا الدهر لو علموا
ماذا نكابد منه ما أُتوا ابدا

فلو كان الإنسان مخيَّراً لما اختار أن يُؤتى به إلى هذه الدنيا ليلقى فيها هذا العناء، (٣٢٤):

لـو كـنت ربَّ اختيـارٍ مـا أتيت الـ
دنـيـا ولم ارتحـلْ عـنهـا ولم ابـنِ
مـا كـان اسعـدني لـو لم اجيءْ أبـداً
لـلكـون يـومـاً ولم ارحـل ولم اكـن

وكلاهما يذم الزمان، فهو ذو خلق سيِّىء، وليس في تصرّفه شيء من العدل، بل أن الأمور موضوعة في غير نصابها. فيقول قُوهلت (١٦/٣): «ورأيت أيضاً تحت الشمس في موضع العدل جورا وفي موضع البرّ نفاقاً». ويقول (٨ /١٤): «باطل يُجرى على الأرض. صدّيقون يصيبهم ما يليق بعمل المنافقين ومنافقون يصيبهم ما يليق بعمل الصديقين. فقلت هذا أيضاً باطل» ويقول الخيام في المعاني نفسها (٢١٠):

يـا دهـر هـل بـالـذي تـأتيـه تعترفُ
ألم تـزل بـزوايـا الـظلم تـعتـكِـف
تـعـطي اللئيـم نعيـمًا والكـريـم عَنـًا
لا شـك إمـا حمـار أنت أو خَـرِفُ

ويقول (٢٧١)

يـا نفس لا تـرتجي من دهـركِ الكـرمـا
ولا مـن الـفـلك الـدوّار مـغـتَـنـمـا
يـزيـد داؤك إن داويـتـه الـمـا
فـأعـرضي عن دَوَاهُ واحمـلي السقـمـا

ويقول شاكياً جور الزمان (٢٩٦):

أيا فلكا يُربّي كل نَذْلٍ
وليس يدور حسب رضا الكريم
كفى بك شيمةً ان رُحْتَ تهوي
بذي شرف وتسمو باللئيم

ويلتجىء الاثنان إلى المعرفة والحكمة وتحصيل العلوم ليكون هناك امتياز بين المعرفة والجهل فلعل سعادة الإنسان في أن يكون حكيمًا ولعل المعرفة تعينه على فهم/حقائق الأمور. إلا أنهما ثانية يخرجان بنتيجة واحدة: إن كل ذلك عبث وباطل. فيقول قوهلت في فضل الحكمة والدعوة إلى طلبها (٢/١٣ ـ ١٥): «فرأيت أن الحكمة تفضل الحماقة كما أن النور يفضل الظلمة. للحكيم عينان في رأسه أما الجاهل فيسير في الظلمة. لكني علمت أيضاً أن حادثة واحدة تحدث لكليهما. فقلت في قلبي إن الذي يحدث للجاهل يحدث لي أنا أيضاً إذن فلم حكمتي هذه الوافرة. فقلت في قلبي هذا أيضاً باطل...». ويقول (١/١٧ ـ ١٨): «ووجّهت قلبي لمعرفة الحكمة ومعرفة الجنون والحماقة فعرفت إن هذا أيضاً كآبة الروح. لأن في كثرة الحكمة كثرة الغُمَّة ومن ازداد علمًا فقد ازداد كرباً». ويقول الخيام (٤٣):

كم سرت طفلاً لتحصيل العلوم وكم
أصبحتُ بعدُ بتدريسي لها طربا
اسمع ختام حديثي ما بلغتُ سوى
اني بدأت ترابا ثم عُدت هبا

وبذلك تستوي المعرفة بالجهل كما يستوي الحكيم بالغافل فيقول (١٦٣):

لم يُهْنَ في هذا الزمان سوى امرىءٍ
عرف الوجود بخيره وبشرّه

أو غـافـل عـن نـفـسـه وزمـانـهِ
لم يَـدْرِ مـا في نـفـسـه أو دَهْـرِهِ

وإذا كانت عاقبة الأمور واحدة، فما الفائدة من السعي في هذه الدنيا والموت هو اخر الأشياء. فيقول قوهلت (١/٣): «أي فائدة للبشر من جميع تعبهم الذي يعانونه تحت الشمس». ويقول الخيام في تفضيل القعود على العمل (٢٠٤):

إذا كـان يجـري الـدهـر عكس مـرامنا
فهـل جـدُّنـا يجُدي أو الفكـرُ ينفـعُ
جـلسنـا زمـانـاً حـائـريـن لأنـنـا
إلى العيش أبـطأنـا ولـلمـوت نسـرعُ

ويقول متسائلاً عن آخر هذا العناء في الحياة (٢٠):

يـا بـاقـيـاً رهـن الـريـاء ورائـحـاً
لـقـصـير عيشـك في عـنـاءٍ متـعبِ
أتقـول أين تـروح مـن بعـد الـردى
هـات المـدام وأيـن مـا شئت اذهـبِ

وما دامت الدنيا هكذا، فهلاك الأمر أن يغنم الإنسان قصير عِمره وأن يطّرح ما عدا ذلك، ومن هنا جاءت دعوة قوهلت إلى وجوب طلب المتعة والافادة من خيرات الحياة وملذاتها؛ فيقول (١٥/٨): «فمدحت الفرح لأنه ليس في يد الإنسان خير تحت الشمس غير أن يأكل ويشرب ويفرح..» ويقول (٩/٩-١٠) «تمتع جميع أيام حياتك الفانية بالعيش مع المرأة التي أحببتها وأوتيتها.. فإن ذلك حظك من الحياة ومن تعبك الذي تعانيه تحت الشمس. كل ما تصل إليه يدك من عمل فاعمله بجميع قوتك فإنه لا عمل ولا حسبان ولا علم ولا حكمة في الجحيم التي أنت صائر إليها». ويقول الخيام في المعنى (٧٣):

لا تغـرسنّ في الحشـا غـرس النَـزَحْ
واقـرأ حييتَ دائـمًا سفـر الـفـرح
وعـاقـر الـراح ونَـلْ اقـصـى اُلمـنى
فـالـعمـر مـا أقصـره كـما اتـضـحْ

ويقول فوهلت (١٢/٣): «فعلمت أنه لا خير في يدهم سوى أن يفرحوا ويتمتعوا بالطيبات في حياتهم» ويقول (٢٢/٣): «فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله إذ ذاك حظه لأنه من يُؤتيه علَم ما سيكون فيها بعد». ويقول الخيام (٧٤):

بـادرْ فـسـوف تـعـود ادراج الـفـنـا
وستـتـرك الجـثـمـانَ مـنـك الـروحُ
واشـرب وعش جـذلاً فـلسـت بـعـالم
من أيـن جئـت وأيـن بـعـدُ تـروحُ

ومن هنا تجيء دعوة الخيام إلى اطراح الهم والحثّ في طلب المتعة والسرور وعدم التفكر في الدنيا فيقول (٦٩):

إلى مَ تـعـاني لـلمـقـدَّر مـحْـنـةً
ومـن بـاطـل الأفكـار تمسي بـأتـراحِ
فعَش في سـرور واقض دهـرك بـالهنا
فلم يكِلوا أمـر القضـاء لـك يـا صـاحِ

فالعمر قصير وخير مـا يقدر الإنسـان أن يفعله هو أن يـطلب السعادة في الشراب وملاذه. فيقول (١٢٤):

إلى مَ بهذا الحرص تقضي مـدى العُمْر
وتصبـح لـلاثـراء و نفـر في فِكْـرِ
الا اشـرب فعمـرَ سـوف يعقبـه الـردىَ
حقيق بـأن تقضيـه بـالنـوم والسكـرِ

ويقول (١١):

مـا الكـون دار إقـامـةٍ فـأخُـنو النُّهى
أولى بـه أن يـدمـن الـصـهـبـاء
اطفىء بمـاء الكـرم نـيـران الأسـى
فـلسـوف تـذهـب في الهَـواء هـبـاءً

فلا خير لبني الإنسان في احتمال الهمّ بكثرة التفكّر في العاقبة مع وجود الراح (٢٠٣):

ذو اللب لا يصبح في همّ عديم المنفعهْ
وشـرب الراح تباعـاً في كؤوس مُتْـرَعـهْ
الهم في القلب وفي الكوز المدام مـودعـه
تعساً لمن عاف الطلا واحتمل الهمّ مَعـهْ

ثم يأتي تعليل شرب الخمر وطلب المتعة فيذهبان إلى انهما لم يبغيا الخمر لِذاتِهِ، وإنما رغبة في مجانبة الحكمة فلعل ذلك يفيد ويريح بدلاً من أعمال الفكر واكتساب الغمّ. فيقول فوهلت (٣/٢): «أَجَلْتُ في قلبي أن أعلل جسدي بالخمر وقلبي متصرّف بالحكمة وان اختبر لحماقة حتى أرى ما الخير لبني البشر...». ويقول الخيام مبرراً ملازمته لخمرة (٣١):

أشـرب الـراح لأجـل الـطربِ
أوْ تـرك ديـني واطـراح الادبِ
بـتُ الحـيـاة دون عـقـلٍ لحـظةً
فَـهِـمـتَ بـالـسكـر لهـذا الـسـبـبِ

من مقابلتنا لهذه النصوص بين فوهلت ورباعيات الخيام نستطيع نخلص إلى القول بأن القائل في فلسفتي الكتابين كبير جداً وواضح لا ى إليه الشك، وهذا يحدونا إلى الذهاب إلى أن لسفر فوهلت تأثيراً، يكون مباشراً، على الخيام وفلسفته كما هي موجودة في الرباعيات.

ولعل الذي يؤيد ما نذهب إليه من الأدلة التاريخية، ويفسر كيفية اطلاع الخيام على هذا السفر من أسفار العهد القديم، فهو القول بأن الخيام (المتوفى سنة ١١٢٣م)(١١). كان عارفاً باليونانية والعربية، فقد ذكر القفطي(١٢) في ترجمته له بأنه كان يعلّم علم يونان. هذا بالإضافة إلى أنه وضع رسالة في شرح ما أشكل من مصادرات كتابَ اقليدس.

أما عن معرفته بالعربية فقد كتب الخيام رسالة في الجبر والمقابلة بالعربية(١٣)، كما ذكرت له أبيات شعر بالعربية(١٤). ولا نشك في أن الترجمات اليونانية الكثيرة للعهد القديم جعل قضية الاطلاع عليها أمراً ميسوراً. كما أن بعض الترجمات العربية لأكثر أسفار العهد القديم كتبت قبل عصر الخيام أيضاً، وكان في متناول الخيام قراءتها والاطلاع عليها(١٥).

---

(١١) م مهرين: سه شاعر فيلسوف يازبدكي-داخكارمتنبي معري - خيام، ط. طهران ١٣٥٣ ص ١١٥.

(١٢) تاريخ الحكماء، ط. لايبزك ص ٢٤٣ ونظر أيضاً: ذبيح الله صنعا: تاريخ ادبيات ايران. جلد دوم ص ٥٢٥

(١٣) انظر ذبيح الله صفا: كنج سخن، جلدا ط ٢ طهران ١٣٣٩ هـ الشمسية ص ٢٢٦، وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية وطبع في ١٨٥١م.

(١٤) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات إيران، جلد دوم ص ٥٢٩.

(١٥) انظر في ترجمات العهد القديم وتواريخها: Steinmweller, op. cit., pp. 157. ff.

الجاحظ والمنهج العلمي في البحث

د • داود سلوم
كلية الاداب – جامعة بغداد

هناك بعض الملاحظات ارى من الضروري جدا ان اقدمها بين يدي هذا البحث لكي يفهم البحث فهما اقرب الى الواقع ، وفي سبيل الا يتهم الباحث في انه وضع فرضيات مطلقة ثم وجد لها النصوص الملائمة ، ولكي لا يقول قائل ان هذه الفرضيات ليس لها بعد حقيقي او واقعي •

ان الفكر العربي – من خلال الحرية التي اتاحها الاسلام للمفكرين والمنظارين قد استطاع ان يتمدد وان يأخذ حجمه الطبيعي في التفكير والفرض والتخمين والاستنتاج دون اعتراض رسمي مباشرة • ويبدو ان الاعتراض الرسمي على حرية الفكر كان يتركز على الموضوع السياسي المباشر الذي يتناول مسألة الخلافة وعلى التفكير المادي البحت الذي يتناول الالحاد بشكله المباشر الحاد • اما الحرية العلمية وبقايا نواحي البحث وما دامت في حدود الدراسات العلمية المجردة او الدراسات التطبيقية ذات النفع العام فلم يكن للسلطة عليها اي رقابة او اي اعتراض وربما لم يكن لها علم كثير فيما كان يدور في حلقات الدرس بين العلماء •

ومما يلاحظ ايضا قبل تقديم هذا البحث ان الحضارة العربية كانت حضارة فكرية خالصة في الغالب وكان الجانب التطبيقي العلمي يتناول بعض العلوم ذات المساس المباشر بالحياة الاجتماعية كعلوم الطب والرياضيات وان تقدمها المادي كان مرتبطا بالزمن والتطور البشري ككل ، ولذلك فان المظاهر المادية الحضارية مثل تخطيط المدن والعلوم التطبيقية التي تحتاج الى استخدام الالة كانت محدودة وتقدم على نطاق ضيق للحكام او السلطة او الخدمات الاجتماعية ذات النفع العام ومما نلاحظه هنا ايضا ان الحضارة العربية لم تكن حضارة عرق واحد وانما هي نتاج شعب له عقيدة واحدة او عقائد متعايشة مع هذه العقيدة وله لغة واحدة ترتبط كل هذه العقائد ويتم الاعتراف بعمل العلماء متى صب نتاجهم بهذه اللغة او ترجم اليها • فالحضارة العربية ميراث من شعوب كثيرة ساهمت كلها فيه ومدت يد العون بحدود طاقتها لبناء هذا الصرح الحضاري الذي ادهش العالم •

ولذلك فاننا حين نتكلم عن جهد الجاحظ في المنهج العلمي فاننا لا نتوقع ان يكون الجاحظ عقلية ممثلة لكل المجتمع وان ما كان يجري في ذهن الجاحظ كان يجري في عقول كل ابناء المجتمع العباسي . ولا نتوقع ايضا ان يكون كل ما يأتي به الجاحظ في منهجه العلمي ان يكون صوابا تقبله المقاييس العلمية اليوم وان كان الكثير مما جاء به ما زال صالحا لهذا العصر . ولكن قيود الزمن وظروف البيئة يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار في هذا . ومع ذلك يمكن ان نقول ان منهج الجاحظ يمثل المنهج العلمي السائد بين الطبقة المفكرة التي كانت تقود المجتمع الاسلامي فكريا انذاك . واذا اردنا ان نجد شبيها للجاحظ في الحضارة العربية فلابد ان نتذكر ابن خلدون . الا ان زمن الجاحظ كان زمن يقظة وتفتح وزمن ابن خلدون كان زمن نضوج وتكامل . وان منهج الجاحظ كان موزعا مشتتا . وان منهج ابن خلدون كان مركزا ، وان منهج الجاحظ كان يأخذ بالجزئيات ، وان منهج ابن خلدون كان يأخذ بالكليات . فان زمن الجاحظ كان زمن الطفولة المتعاقبة التي تسأل عن كل شيء وتهتم بكل شيء اما زمن ابن خلدون فكان زمن نضوج في الذهنية وكهولة في المعرفة ، ولذلك فان منهج الجاحظ يبقى على تركيزه اوسع من منهج ابن خلدون وان نظرات الجاحظ تبقى اكثر دقة واعمق غورا واكثر تنوعا .

يمكن ان نقسم منهج الجاحظ العلمي في البحث الى ثلاث نقاط :

١ ــ منهج البحث في العلوم الصرفة (علم الحيوان)

٢ ــ منهج البحث في الملاحظات النفسية والاجتماعية .

٣ ــ منهج البحث في العلوم الانسانية (التاريخ والادب)

١ ــ منهج البحث في العلوم الصرفة (علم الحيوان) :

رغم اننا نريد ان نبحث في المنهج العلمي الصرف عند الجاحظ ، ولكن علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار نوع الكتاب الذي يطبق فيه هذا المنهج ؛ ولذلك فان الحقائق الكلية للمنهج لابد وان تكون ملونة بلون المادة التي طبق فيها هذا المنهج . وان اغلب المادة المستمدة في المنهج العلمي الصرف ستكون مستمدة في الغالب من « كتاب الحيوان » ومطبقة على دراسات المملكة الحيوانية .

ورغم ان النشاط العلمي العربي قد شمل حقلا واسعا وفي علـوم مختلفة لكن علينا ان نتقيد بنشاط الجاحظ في الحقول التي اهتم بها .

ولكي نصور ما كان على عصر الجاحظ من نشاط علمـي نتـرك للجاحظ يحدثنا عن ذلك :

« وحسبك ما في ايدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق، والهندسة ومعرفة اللحون ، والفلاحة ، والتجارة ، وابواب الاصبـاغ والعطر والاطعمة ، والالات ومما اتوكم بالحكمة ، وبالمنفعة التي فـي الحمامات ، والقرسطونات والات معرفة الساعات ، وصنعة الزجـاج والفسيفساء .... الخ »[1]

وان البحث في الحقل العلمي الصرف كان يواجـه صعوبـات خاصة به ، فالمؤلف في حاجة ماسة الى معرفـة الاخريـن وتجاربهـم ومشاهداتهم فان الجاحظ يعرفنا ان المعرفة المجموعة والمبثوثة لم تكـن معرفة لا تستند على الادلة والخبرة ولذلك فهو يقول :

« ولم نذكر بحمد الله تعالى شيئا من هذه الغرائب ، وطريقة من هذه الطرائق الا ومعها شاهد من كتاب منزل او حديث مأثور ، او خبر مستفيض ، او شعر معروف ، او مثل مضروب او يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ، ومن قد اكثر قراءة الكتب او بعض من قد مارس الاسفار ، وركب البحار ، وسكن الصحارى ، واستذرى بالهضاب ، ودخل فـي الغياض ، ومن مشى في بطون الاودية »[2]

ويعلل الجاحظ صعوبة التأليف في هذه الموضوعات العلميـة التي تحتاج الى الادلة والبراهين في انها لا تعتمد على تنظير المؤلف فقط وقدرته على استخراج الحقائق حول الموضوع كما هو الحال في الموضوعات النظرية والفلسفية وانما تعتمد على التجربة وتمحيصها وعلى الخبـر ومناقشته ، وهذا التعليل يكاد يصدق على كتاب الحيوان وعلى التجارب والدراسات العلمية الاخرى عند الجاحظ وغيره ويشرح هذه الصعوبات بقولـه :

« وقد صادف هذا الكتاب (كتاب الحيوان) في حالات تمنع من

بلوغ الارادة فيه • اول ذلك : العلة الشديدة ، والثانية : قلة الاعوان • والثالثة : طول الكتاب • والرابعة : اني لو تكلفت كتابا في طوله وعدد الفاظه ومعانيه ثم كان من كتب العرض والجوهر . والطفرة ، والتوليد ، والمداخلة ، والغرائز والتماس لكان اسهل واقصر اياما ، واسرع فراغا ، لاني كنت لا انزع فيه الى تلقط الاشعار ، وتتبع الامثال ، واستخراج الاية من القرآن ، والحجج من الرواية مع تفرق هذه الامور في الكتب وتباعد ما بين الاشكال »[٣]

أ ــ اسس المنهج العلمي :

يطرح الجاحظ في كتاب الحيوان بعض القواعد العامة التي تصلح ان تكون القاعدة لمنهج الجاحظ العلمي ، ويمكن ان نقول ان هذه الحقائق قد افاد منها الجاحظ لا في العلوم الصرفة فقط وانما قد افاد منها ايضا في الدراسات الانسانية ايضا حيث يمكن ان يقال انه اعتمد على هذه الاسس في رد كثير من الروايات المتناقضة •

ويمكن ان نلخص منهج الجاحظ العلمي بالنقاط التالية :

يرى الجاحظ ان ينكر من الخبر ضربين :

الاول : « احدهما ما تناقض واستحال »[٤]

الثاني : « والاخر ما امتنع في الطبيعة وخرج من طاقة الخلقة »[٥]

الثالث : التجربة العلمية (التثبت) : « فاذا خرج الخبر من هذين البابين وجرى عليه حكم الجواز ، فالتدبير في ذلك (التثبيت)[٦]

الرابع البحث عن الحقيقة العلمية (الحق ، الصدق) :

« وان يكون (الحق) في ذلك هو ضالتك ، و (الصدق) هو بغيتك كائنا ما كان ، وقع منك (بالموافقة) ام وقع منك (بالمكروه) »[٧]

والحقيقة العلمية عند الجاحظ تفرض نفسها ولا علاقة لها بالحب والكره !

الخامس : اتخاذ الرفض اساسا في البحث :

ولذلك فهو يقول : « بئس عادة الاقرار والقبول »[٨] ويتهم

العامة والجمهور انهم الطبقة التي لا تتخذ الرفض اساسا في البحث ولذلك فهو يقول : « والعامة اسرع شيء الى التصديق »[٩]

ولذلك فان الجاحظ اتخذ الرفض مذهبا في رد كثير مما هو شائع بين الناس من معلومات خاطئة او تحتاج الى تعليل علمي معتمدا على منهجه الذي لخصناه •

ففي هذا النص يعلل مثلا السبب العلمي الذي لاجله تستجيب الافعى للحاوى ولا يقبل بوجهة نظر العامة في الموضوع •

قال :

« الحية واحدة من اجناس الحيوان الذي للصوت في طبعه عمل • فاذا دنا الحواء وصفق بيديه ، وتكلم رافعا صوته حتى يزيد ، خرج اليه كل شيء كان في الجحر ، فلا يشك ممن لا علم له ان الحية خرجت من جهة الطاعة وخوف المعصية ، وان العامر اخرجها تعظيما للعزيمة ، ولان المعتزم مطاع من العمار والعامة اسرع شيء الى التصديق »[١٠]

وهذا تعليل علمي اخر يرد به قول من يرى ان للحية لسانين قال :

« والحية مشقوقة اللسان سوداؤه ، وزعم بعضهم ان لبعض الحيات لسانين . وهذا عندي غلط ، واظن انه لما رأى افتراق طرف اللسان قضى بأن لها لسانين »[١١]

وهو كثير ما يرفض بعض الحقائق الشائعة لدى بعضهم اذا لم ير ذلك مقنعا :

قال : « سألت حواء لماذا تنتن الحيات ؟ فقال : لانها تأكل الجرذان ، فانكر نتن الحيات الا من هذا الوجه ، ولم ار الذي قاله قولا »[١٢]

وهو اذا ما رفض الظاهرة الطبيعية على اساس الاستحالة فانه يحاول ان يضع افتراضا يقترب من التفسير العلمي ، ويكون فيه مقنعا للعقل المتسائل •

هناك ظاهرة انتشار الضفادع بعد المطر في الاماكن البعيدة عن الاراضي المغمورة بالمياه او التي تجري فيها الانهار ، يقول عنها الجاحظ :

« وفيها (اي الضفادع) اعجوبة اخرى وذلك انا نجد من

كبارها وصغارها الذي لا يحصى في غب المطر . اذا كان المطر ديمة ثـم نجدها في المواضع التي ليس بقربها بحر ، ولا نهر ، ولا حوض ، ولا غدير ، ولا واد . ولا بير ، ونجدها في الصحاصح الاماليس وفوق ظهور مساجد الجماعـة » [١٣]

« زعم كثير من المتكلفين ، ومن اهل الخسارة ممن لا يحتفل بسوء الحال عند العلماء ولا يكترث للشـك انهـا كانـت في السحـاب (اي الضفادع) . »[١٤]

ويحاول الجاحظ ان يعطي تعليلا علميا لظهور الضفادع يشبـه رأي القائلين بظهور الحياة لاول مرة على هذا الكوكب فيقول :

« وانما تلك الضفادع شيء يخلق في تلك الحال بمزاوجة الزمان ، وتلك المطرة ، وتلك الارض ، وذلك الهواء . »[١٥]

والشيء الوحيد الذي فاته هو ان يقول لابد وان تلك البيوض ان تكون في تلك الارض قبل ان تتهيأ لها الظروف الملائمـة للتفقيـس او ان الرياح العاصفة هي التي حملتها معها . وكان يتخذ المشاهدة او الاسنـاد الموثوق طريقة وحيدة لقبول الحقائق العلمية وروايتها ولذلك فانه كـان يعطي رأيه بصراحة ببعض رواة هذه الحقائق ، ويؤكـد عنـد المشاهـدة الشخصية ذلك وهو في هذا يخضع نفسه لما اسماه بمبدأ (التثبيت) . قـال :

« ودخلت مرة انا وحمدان بن الصباح على عبيد الله بن الشونيزي فاذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقربا ، وعشرون فأرة فاذا هي تقتتل ، فخيل لي ان تلك الفئران قد اعتراها ورم من شدة وقع اللسع ، ورأيـت العقارب قد كلت عنها ، وتاركتها . (ولم ار الا هذا المقدار الذي وصفت) وحدثنا عنها عبيد باعاجيب ، ولو كان عبيد اسنادا لخبرت عنه . ولكـن موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد »[١٦]

ومن مشاهداته الشخصية هذا الخبر :

« وفي الفأر اذا ما عض قتل . اخبرني ابو يوسف الشريطي انه عاين ذلـك .

(وانا رأيت) سنورا عندنا ساور جرذا في بيت الحطب فأفلت الجرذ منه وقد فقأ عين السنور »[١٧]

وهو بمقدار ما يهتم بمشاهداته الشخصية فانه كان يعطي نفس الاهمية لتجارب الاخرين ومشاهداتهم اذا استشعر الثقة ممن يروى عنه .

قال عن تجربة اجريت على الظليم وهو ذكر النعام :

« واخبرني ابو اسحق ابراهيم بن سيار النظام — وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع او عيان —

انه شهد محمد بن عبدالله يلقي الحجر في النار فاذا عاد كالحجر قذفه قدامه (اي قدام الظليم) فاذا هو يبتلعه كما يبتلع الحجر ، وكنت قلت له :

بيان الجاحظ
حول حرية البحث العلمي

« وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا .

فما ينتظر العالم بإظهار ، وما يمنع الناصر للحق بما يلزمه ؟ وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم . »

الجاحظ « الحيوان (١ / ٨٦ - ٨٧)

ان الحجر سخيف ، سريع الانطفاء اذا لقي الرطوبات ، ومتى اطبق عليه شيء يحول بينه وبين النسيم خمد ، والحجر اشد امساكا لما يتداخله من الحرارة ، واثقل ثقلا ، والزق لزوقا ، وابطأ نطفاء . فلو احميت الحجارة !

فأحماها ثم قذف بها اليه ، فابتلع الاولى ، فارتبت به ، فلما ثنى وثلث اشتد تعجبي له .

فقلت له : لو احميت اواقي الحديد ما كان منها ربع رطل . ونصف رطل ، ففعل فابتلعه .

فقلت : هذا اعجب من الاول والثاني ، وقد بقيت علينا واحدة . وهي ان ننظر : ايستمرى الحديد كما يستمرى الحجارة ؟

ولم يتركنا بعض السفهاء واصحاب الخرق ان نتعرف ذلك على الايـــام .

وكنت عزمت على ذبحه ، وتفتيش جوفه ، وقانصتـه ، فنعمل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائبا ولا خارجا ، فعمد بعض ندمائه الى سكين فاحمي ثم القاه اليه ، فابتلعه فلم يجاوز اعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من موضع مذبحه ثم خر ميتا فمنعنا بخرقه من استقصاء ما اردنا »[١٨]

وهو يسجل مرارة الراوية العالم من حماقة الجهال الذين لا يبالون بما يريد ان يستقصيه العالم والباحث عن الحقيقه .

وهو في مسائل الطب لا يقبل التعليلات الغيبية مطلقا وانما يقبل من الحقائق ما يوافق رأي علماء الطب الذين يفسرون الحقائق تفسيرا عقليا فهو يرفض رأي اطباء الهند الذين يربطون بين البرص وبين عقوق الوالدين وانه يكون بمثابة العقاب فيقول :

« واطباء الهند تزعم ان (العقوق) يورث (البرص) ، وهذه القصة مجانبة لسبيل الطب » .[١٩]

ولكنه لا يرى بأسا من الاخذ بالرأي الذي يرى ان البرص قد يورث ولذلك فانه يذكر هذه الحقيقة شبه مقتنع بها :

« وربما جرى (البرص) على عرق ، وهو عندهم يعترى الاولاد ويعدي الى الصحيح »[٢٠]

ويذكر حقيقة اخرى يعتقدها العرب وهو لا يرى بها بأسا فيذكرها دون رد وهي عدوى بعض الامراض :

« والعرب تخاف (اعداء) الجرب والصفر والعدسة والجدري »[٢١]

ب ـ الحقائق المحيرة :

ان صاحب العقلية العلمية الفذة مهما كان ذكيا ومنطقيا الا ان قيود الزمن والبيئة وعدم تقدم الحضارة التقدم الكافي حيث تتوفر له معدات البحث العلمي فانه لابد وان يقف حائرا امام بعض الظواهر التي تقصر عنها معرفته ٠

وهناك عاملان مهمان في وقوف الجاحظ الى جانب بعض الحقائق المحيرة له وليست لنا ٠ اول هذين العاملين اعتماد الجاحظ في ذكر بعض الحقائق على الرواية ولكونه يعيش في بيئة طبيعية ليست صالحة لمعيشة بعض الحيوانات الاستوائية فلابد له من ان يروى ما يروى ثم يقيس ذلك بمقياس المنطق في سبيل تصديقه وتكذيبه ٠ وثاني هذين الامرين : افتقاد الالات الدقيقة المستخدمة في العلوم كالمجاهر والعدسات وغيرها وان ما نذكره الان من هذه الحقائق التي شغلت تلك الذهنية العلمية قد لا يبدو مما يستحق الوقوف عنده ٠

وفي سبيل تمرير او تعليل بعض هذه الظواهر تعليلا مقبولا فقد صاغ عبارة جاز من تحتها كثير من هذه الحقائق وهي جواز ما « لست اراه (محالا) ، ولا ممتنعا في (القدرة) ، ولا ممتنعا في (الطبيعة) وارى جوازه (موهوما غير مستحيل) »[٢٢]

ولذلك فالجاحظ قد آمن ببعض الظواهر العلمية دون ان يراها او يحقق في صدقها اعتمادا على انها ممكنة في القدرة وليست مستحيلة ولا يمتنع حدوثها في الطبيعة وان تصورها ممكن ٠

فهو يقبل قصة تروى عن حيوان يسميه الكركدن ولكنه في صفته

يشبه الكانكارو حيث يقال عن طفله انه يخرج رأسه من بطن امه فيأكل ثم يرجع رأسه يستقر في بطنها حتى يستكمل نموه ثم يخرج • ولعل حيوان الكانكارو كان موجودا في شمال الكرة الارضية ثم انقرض • وهو رغم انه يرى ان الامر جائز في القدرة ومتصور الا انه مع ذلك يقول انه انما يقول ذلك لانه لا يمكن مشاهدة هذا الحيوان ويشرح ذلك :

« ولست ابت بانكاره ، وان كان قلبي شديد الميل الى رده وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرفونه الا بالعيان الظاهر والخبر المتظاهر »(٢٣)

ولو عاش الجاحظ في زمننا اليوم لعلم ان هذا الحيوان موجود فعلا .

وبسبب انعدام الالات العلمية نجد الجاحظ يرفض القول الذي يقول لابد لكل خلق من ذكر وانثى ويفترض ان ظهور الذباب في الباقلاء انما هو تولد ذاتي ويمضي في تأكيد ذلك بضرب امثلة اخرى • يقول :

« ثم رجع بنا القول الى ذكر الذباب من الباقلاء • وقد انكر ناس من العوام واشباه العوام ان يكون شيء من الخلق كان من غير ذكر وانثى • وهذا جهل بشأن العالم واقسام الحيوان ، وهم يظنون على الدين من الاقرار بهذا مضرة ، وليس الامر كما قالوا وكل قول يكذبه العيان فهو افحش خطأ ، واسخف مذهبا ، وادل على معاندة شديدة او غفلة مفرطة ، وان ذهب الذاهب الى ان يقيس ذلك على مجاز ظاهر الرأي دون القطع على غيب حقائق العلل فاجراه في كل شيء ، قال قولا يدفعه العيان ايضا مع انكار الدين له »(٢٤)

ويؤيد رأيه في تولد الذباب من الباقلاء في هذا الخطأ العلمي الاخر :

« وقد علمنا ان الانسان يأكل الطعام ، ويشرب الشراب ، وليس فيهما حية ولا دودة فيخلق في جوفه الوان من الحيات واشكال من الديدان من غير ذكر ولا انثى ولكن لابد لذلك الولاد واللقاح من ان يكون عن تناكح طباع وملاقات اشياء تشبه بطباعها الارحام واشياء تشبه في طبائعها

ملقحات الارحام »[٢٥]

فهو لو كان يتكلم عن الجراثيم والبكتريا لكان قد اصاب ، ولو عرف شيئا عن بيوض الحشرات والديدان التي تتكون قبل ان تحل في الباقلاء او جوف الانسان لكان تفسيره مقبولا عن ملائمة هذه الاماكن للتفقيس فهي اشبه بالارحام من حيث الحرارة والبيئة التي يتولد فيها الجنين • ولذلك فهو يبقى على خطأ اذ يفترض ان اللقاح انما يتم داخل الباقلاء او داخل امعاء الانسان وهذا محال !

وهو قد يذكر بعض الروايات العلمية لا ليقطع بها ولكنه ليقف منها موقفا وسطا بين الشك واليقين ومن هذه الروايات الخبر التالي :

« وقال اخرون •••• ليس في الارض نمرة الا وهي تضع ولدها في عنقه افعى في مكان الطوق ، وذكروا انها تنهش وتعض ولا تقتل •

ولم اكتب هذا لتقربه ولكنها رواية احببت ان تسمعها ، ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل • »[٢٦]

جـ ـ المعرفة العلمية بين العلماء والجماهير :

لقد لاحظ الجاحظ ان منهجية العلماء قد لا تكون مطلقة ولا سليمة احيانا ، وان بساطة الجماهير لا تعرف الحد بسبب ايمانها بالخرافة وقد ترك لنا نماذج من سلوك العلماء وتأثير امزجتهم وطموحهم وعقليتهم في مناهجهم العلمية واعطانا كذلك صورا مختلفة من المعرفة المتخلفة التي تشيع بين العامة وتسيطر على عقولهم •

ولعل النموذج الاكمل لدى الجاحظ هو العالم الذي يجعل الحقيقة العلمية نصب عينيه بغض النظر عما يؤدي الى البحث من ضرر او منفعة •

وكان الجاحظ يعتبر مويس بن عمران احد هوؤلاء ، ولذلك فانه يقول عنه :

« وكان هو والكذب لا يأخذان في طريق • ولم يكن عليه في الصدق مؤونة لايثاره له حتى كان يستوى عنده ما يضر وما لا يضر »[٢٧]

ورغم ان ابراهيم النظام كان لا يكذب ابدا كما يذكر الجاحظ الا

انه من العلماء ذوي العيوب الذين يقيسون على الظن والاصل غير الصحيح ثم ينتهي الى افتراض الدقائق وقد نسي انه بدأ قياسه على الغرض وليس على الحقيقة المعتمدة على السماع او المعاينة •

يقول الجاحظ عن ابراهيم النظام :

« وانما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه ، وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصديحه (القياس) التمس تصحيح (الاصل) الذي كان قاس عليه امره على الخلاص ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، وينسى ان بدء امره كان ظنا ؛ فاذا اتقن ذلك وايقن جزم عليه • وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ؛ ولكنه كان لا يقول « سمعت » •• ولا « رأيت » وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع انه انما حكى ذلك عن « سماع » قد امتحنه او « معاينه » قد بهرته »[٢٨]

ويذكر عيبا عن نفسه ، انه ربما قد تكلم في المعرفة العلمية المخطوءة ليس لغرض الاعتراف بها واستخراج الاحكام منها وانما لغرض العبث والمزاح ولذلك على القارىء ان يميز ذلك وان يعرف ان لكل مقام مقالا ، قال :

« والحديث عن مسخ الضب ، والجرى ، وعن مسخ الكلاب والحكأ وان الحمام شيطان ، من جنس المزاح الذي كتبنا به الى بعض اخواننا ممن يدعي علم كل شيء ، فجعلنا هذه الخرافات وهذه الفطن الصغار من باب المسائل »[٢٩]

ومن العلماء من هم اذكياء مقتدرون في حقولهم وسرعان ما يغرهم هذا الاقتدار وهذا الذكاء فيدمغهم الى الدخول في حقول ودراسات تحتاج الى جهد اخر من غير نوع الجهد الذي اشتهروا به فيخوضون فيما لايعرفون ويقولون مالا يحققون •

قال عن احدهم وهو ابو وائلة :

« ورووا عن ابي وائلة انه زعم ان من الدليل على ان الشبوط كالبغل ان الناس لم يجدوا في طول ما اكلوا الشبابيط في جوفها بيضا قط •

فان كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل المنعوت بثقوب الفراسة ، وشدة الفطنة صحيحا ، فما اعظم المصيبة علينا فيه •

وما اخلق الخبر ان يكون صحيحا ، وذلك اني سمعت له كلاما كثيرا في تصنيف الحيوان ، واقسام الاجناس يدل على ان الرجل حين احسن في اشياء اوهمه العجب بنفسه انه لا يروم شيئا فيمتنع عليه »(٣٠)

اما الجماهير فانه يتهمها بانها لا تملك روح البحث العلمي ولاتميز بين ما هو حقيقة وان كان لا يرضيها وبين ما هو خرافة وان كان ذلك يرضيها ولذلك فهو يقول بصراحة :

« وقد ترك هذا الجمهور الاكبر ، والسواد الاعظم ، التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة جانبا ، واضربوا عنه صفحا ، فليس الا (لا) او (نعم) ، الا ان قولهم (لا) موصول منهم بالغضب ، وقولهم (نعم) موصول منهم بالرضا • وقد عزلت الدرية جانبا ومات ذكر الحلال والحرام، ورفض ذكر القبيح والحسن »(٣١)

ولهذه الجماهير علماؤها وهم يرتفعون قليلا فوق الجماهير ويقعون ابدا دون العلماء الذين يستحقون حمل هذا الاسم ولذلك فان الجاحظ يتهمهم انهم السبب في افساد العلم والكتب والعقول ، ويقول :

« وهؤلاء وما اشبههم يفسدون العلم ، ويتهمون الكتب ، وتغرهم كثرة اتباعهم ممن نجده مستهترا بسماع الغريب ، ومغرقا بالطرائف والبدائع ولو اعطوا مع هذا الاستهتار نصيبا من التثبت ، وحظا من التوقي لسلمت الكتب من كثير من الفساد »(٣٢)

ويذكر الجاحظ عددا من هذه الحقائق العلمية المضللة والمعلومات الشائعة بين الاعراب والعوام والنساء على انها معلومات غير علمية واخبار غير سليمة •

قال :

« والذين يزعمون ان ذكورتها (اي ذكور العصافير) لا تعيش الا سنة يحتاجون الى ان يعرفوا الناس ذلك وكيف يستطيعون تعريفهم ؟ »(٣٣)

وقال مستنكرا بعض معارف الاعراب :

« والاعراب تزعم ان الكمأة تبقى في الارض فتمطر مطرة صيفية فيستحيل بعضها افاعي ... هذا ما حدثته عن الاعراب حتى برئت الى الله من عيب الحديث »(٣٤)

ومن اراء العوام في تسافد الغربان وهو ما ينكره الجاحظ ويرده :

« وتزعم العوام ان تسافد الغربان هو تطاعمها بالمناقير ، وان القاحها انما يكون من ذلك الوجه . ولم ار العلماء يعرفون هذا »(٣٥)

وهو في ردوده على معرفة الجماهير وعدم دقتها او صحتها لا ينسى ان يسجل ذلك عن الطبقات الدنيا من الناس ومن هم مثل عقلية العجائز :

« اما قول النساء واشباه النساء في الخفافيش فانهم يزعمون ان الخفافيش اذا غض الصبي لم ينزع من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي فما انسى فزعي من سن الخفاش وتوحشي من قربه ايمانا بذلك القول الى ان بلغت ، وللنساء واشباه النساء في هذا وشبهه خرافات عسى ان نذكر منها شيئا اذا بلغنا الى موضعه ان شاء الله »(٣٦)

د ـ ترجمة الفكر العلمي :

لاشك ان الكلام عن ترجمة الفكر العلمي هنا سيضطرنا الى الكلام عن الترجمة عموما في العلم والفلسفة ، وما دمنا لن نتعرض لهذا الموضوع ثانية في هذا البحث فلا بأس ان نمر على رأي الجاحظ في الترجمة عموما من الفكر الاجنبي الى الفكر العربي ، ثم نعرض الى بعض اعتراضات الجاحظ على بعض الحقائق العلمية التي وردت في كتب ارسطو ورد الجاحظ عليها لنرى كيف ان البحث عن لحقيقة لم يجعل الجاحظ يقف مكتوف اليدين امام اكبر ذهنية عرفتها البشرية

يرى الجاحظ ان المترجم عموما لا يمكن ان يؤدي عن المترجم له الا ان يكون بمستوى مؤلف الكتاب في المعرفة التي يترجمها الى لغته قال :

« ان الترجمان لا يؤدي ابدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا

يقدر ان يوفيها حقوقها ، ويؤدي الامانة فيها ... وكيف يقدر على ادائها وتسليم معانيها ، والاخبار عنها على حقها وصدقها الا ان يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف الفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه ؟ فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وابو قرة وابن فهريز وثيفيل وهيلي وابن المقفع مثل ارسطاليس ؟ ومتى كان خالد مثل افلاطون ؟ »(٣٧)

ويضع الجاحظ شرطا اخر للمترجم الجيد ، وهو ان يكون عارفا باللغة بمقدار علمه في الموضوع الذي يترجمه ولذلك فانه يقول :

« ولابد للترجمان من ان يكون في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي ان يكون اعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيهما سواء وغاية »(٣٨)

ويرى الجاحظ ان تعلم لغتين لابد وان يترك ضعفا في احداهما اذ لابد ان تأخذ احداهما من الاخر ويقول :

« ومتى وجدناه ايضا قد تكلم بلسانين علمنا انه قد ادخل الضيم عليهما لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخرى وتأخذ منها ، وتعترض عليها . وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين كتمكنه اذا انفرد بالواحدة ؟ وانما له قوة واحدة فان تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها ، وكذلك ان تكلم باكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم اعسر واضيق والعلماء به اقل كان اشد على المترجم واجدر ان يخطيء فيه ، ولن نجد البتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء(٣٩)

ويشرح الأسباب التي ادت الى قيام المشاكل امام المترجمين ومنها :

« واذا كان المترجم الذي قد ترجم لا يكمل لذلك اخطأ على قدر نقصانه من الكمال ، وما علم المترجم بالدليل عن شبه الدليل ؟ وما علمه بالاخبار النجومية ؟ وما عليه بالحدود الخفية ؟ وما علمه باصلاح سقطات الكلام ؟ واسقاط الناسخين للكتب ؟ وما علمه ببعض الخطرفة لبعض

المقدمات . وقد علمنا ان المقدمات لابد ان تكون اضطرارية ، ولابد ان تكون مرتبة ، وكالخيط الممدود .

وان البطريق وابن قره لا يفهمان هذا موصوفا منزلا ، ومرتبا مفصلا من معلم رفيق ، ومن حاذق طب فكيف بكتاب قد تداولته اللغات ، واختلاف الاقلام ، واجناس خطوط الملل والامم »[40]

ولذلك فقد رد الجاحظ بعض الحقائق العلمية على انها من فساد الترجمة وعدم معرفة الترجمة الدقيقة وزياداتهم وجهلهم وبذلك يرد مسألة (الشهب) وذكرها في كتب القدامى .

قال :

« وزعمتم انكم وجدتم الشهب في كتب القدماء الفلاسفة ... فان كنتم بمثل هذا تستعينون ، واليه تفزعون فانا نوجدكم من كذب التراجمة وزياداتهم من فساد الكتب من جهة تأويل الكلام ، ومن جهة جهل المترجم بنقل من لغة الى لغة ومن جهة فساد النسخ ، ومن انه قد تقادم فاعترضت دونه الدهور والاحقاب فصار لا يؤمن عليه ضروب التبديل والفساد وهذا الكلام معروف صحيح »[41]

وكان اذا انكر شيئا لا يتفق ومنهج الفيلسوف وطريقة تفكيره علل وقوعه من احد كتبه بسبب جهل المترجم .

قال :

« ولا اعرف هذا من قول صاحب المنطق ... ولعل المترجم قد اساء في الاخبار عنه »[42]

وقد بلغ من انكاره خطأ المترجمين حد القسوة والسخرية العنيفة احيانا ولذلك فهو يقول ساخرا :

« فكيف اسكن بعد هذا ... الى مافي كتاب رجل لعله لو وجد هذا المترجم ان يقيمه على المصطبة ، ويبرأ الى الناس من كذبه عليه ، ومن افساد معانيه لسوء ترجمته »[43]

ولكن ارجو الا يسبق بنا الظن الى ان كتب القدماء قد خلت فعلا من بعض الحماقات العلمية ، وكذلك ارجو الا يظن القارىء ان اكبار

الجاحظ للفلاسفة اليونانيين هو الذي جعله يحمل على المترجمين هذه الجملة الشعواء فهو في صرخة استنكار لما في كتب اليونان من خروج على العقل يقول :

« والصدر يضيق بالرد على اصحاب النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل »(٤٤)

ويستعرض الجاحظ بعض الوقائع غير المعقولة والتي وقعت في كتب القدماء على انها من حقائق العلم المطلق • قال :

« وزعم صاحب المنطق (ويقصد به ارسطو) في كتاب الحيوان ان ثورا فيما سلف من الدهر سفد والقح من ساعته بعد ان خصي •

فاذا افرط المديح وخرج من المقدار ، او افرط التعجب وخرج من المقدار احتاج صاحبه الى ان يثبته بالعيان او بالخبر الذي لا يكذب مثله • والا فقد تعرضت للتكذيب ، ولو جعلوا حركتهم خبرا ، وحكاية ، وتبرأوا من عيبه ما ضرهم ذلك وكان ذلك اصون لاقدارهم ، واتم لمرؤات كتبهم »(٤٥)

ويرد الجاحظ خبرا اخر ورد في كتاب من كتب ارسطو عن سلوك الطيور فيضع علامة تعجب كبيرة جدا بحيث يجعلك تشك بالخبر من حيث لا تشعر واذا دل هذا على شيء فانه يدل على احترام مبدأه « ما تناقض واستحال » اكثر من احترامه سمعة ارسطو وثقة المثقفين به • قال :

« ولست ادفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدارصيني وان كنت لا اعرف الوجه في ان طائرا ينهض من وكره في الجبال او بفارس او باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصيني وهو لم يجاوز موضعه ، ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر من ان يكون من الاوابد او من القواطع • وان كان من القواطع فكيف يقطع الصحصحان الاملس وبطون الادوية ، واهضام الجبال بالتدويم في الاجواء ، وبالمضي على السمت لطلب مالم يره ، ولم يشمه ، ولم يذقه • واخرى : فانه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشا له ومهادا الا بالاختلاف الطويل ـ ، وبعد فانه ليس بالوطيء الوثير ولا هو له بطعام •

فانا وان كنت لا اعرف العلة بعينها ، فلست انكر الامور من هذه الجهة فاذكر هذا »

ولابد ان نقول كلمة قصيرة في نقاط الضعف في منهج الجاحظ للبحث في العلوم الصرفة . فمن نقاط الضعف :

انه قد ادخل مبدأ القدرة والجواز ، واستعمال الخيال العلمي في الموهوم الممكن والعالم الطبيعي يبحث فيما يرى لا فيما يمكن ان يكون أو فيما يكون وجوده موهوما او ممكنا فالعالم الطبيعي غير الكاتب في الروايات العلمية .

ومن نقاط ضعف منهج الجاحظ مجاملته لبعض القصص الديني فان مسألة التولد الذاتي في الذباب او تولد الديدان في معي الانسان والتي دافع عنها بحماسة كانت دفاعا غير مباشر عن مولد السيد المسيح كما ورد في القصص الديني الاسلامي .

فهو اما انه لم يستطع رغم ثقافته العقلية ان يقطع علاقته بالتراث الاسلامي الذي لم يستقم لهذا المنطق واما انه كان مجاملا للجمهور والسواد الاعظم او بسبب كليهما والله اعلم .

---

٢ — منهج البحث في الملاحظات النفسية والاجتماعية :

ان الجاحظ حين تطرق للملاحظات النفسية والاجتماعية لم يكن ينوي أن يقيم علمين منفصلين جديدين الا ان عبقرية الجاحظ قد تفتقت عن ملاحظات تصلح ان تكون اسسا طيبة لنشأة هذين العلمين دون شك ولذلك قد اطلقنا عليها اسم « الملاحظات » ولم نطلق عليها اسم « العلم » كما صنعنا في علم الحيوان .

وان منهج الجاحظ في هذه الملاحظات يتلخص على نقطتين مومتين :

١ ــ المشاهدة او السماع العلمي الموثوق للحالات والموضوعات والمشاكل النفسية او الاجتماعية •

٢ ــ محاولة الاستنباط والاستقراء وتشكيل القواعد العامة لهما •

ويمكن تصنيف هذه الملاحظات الى موضوعات متدرجة مترابطة تصور في مجموعها هيكل ملاحظاته حول الانسان كفرد او مجموعة بشرية •

أ ــ ملاحظات نفسية حول الطفولة :

كانت نتيجة الجدل السياسي والديني في كتاب العثمانية ملاحظات نثرها الجاحظ هنا وهناك حول الاطفال واطباعهم وامزجتهم وقيمة معرفتهم وقوة ذاكرتهم وما شابه من ملاحظات اضطرته طبيعة الجدل الى التعرض لهـا • ورغم ان الجاحظ لم يقصد هذه الملاحظات لنفسها مباشرة حيث انها جاءت عارضة في موضوع كان النقاش فيه يهم ذلك المجتمع الا انها تبقى ذات قيمة علمية فريدة فهو قد سجل هذه الملاحظات مدللا على قوة ملاحظته ومراقبته للاطفال وتتبع نشاطهم النفسي والذهني حسب اسنانهم وهذا هو نفس عمل عالم النفس في مجتمعنا الحديث •

ففي النص التالي يتكلم عن سلوك الاطفال الاسوياء بين السابعة والثامنة والتاسعة ومع ذلك يشير الى انه قد يوجد الطفل الذي يشذ عن هؤلاء لقدرته الخارقة • قال :

« اننا نتكلم على ظاهر الاحكام •

وما (شاهدنا) عليه (اطباع الاطفال) وجدنا حكم ابن سبع سنين وثماني سنين وتسع سنين حيث قرأنا وبلغنا خبره ــ مالم يعلم مغيب امره وخاصة طباعه ــ حكم الاحكام • وليس انزيل ظاهر حكمه ، والذي نعرف من شكله بلعل وعسى •

••• غير ان الحكم فيه عنده على مجرى امثاله واشكاله »[٤٧]

ويؤكد على ان القدرة العقلية عند الطفل تتميز بقوة الذاكرة وليس بقوة التعليل والتحليل والتركيب وهذا هو الفرق القائم بينه وبين الرجل الناضج •

قـــال :

« ولعمرى انا لنجد في الصبيان من لو لقنته وسددته او كتبـت له اغمض المعاني والطفها ، واغوص الحجج وابعدها واكثرهـا لفظـا ، واطولها طولا ثم اخذته بدرسه وحفظه لحفظه حفظـا عجيبـا ولهـذه هذا ذليفـــا .

فاما معرفته صحيحة من سقيمه ، وحقه من باطله ، وفصل ما بين المقرب والدليل والاحتراس من حيث يؤتى المخدوعون والتحفظ من مكر الخادعين ، وتأتي المجرب ، ورفق الساحر ، وخلابة المتنبيء ، وزجـر الكاهن ، واخبار المنجمين ، وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ، ونظـــم سائر الكلام وتأليفه ، فليس يعرف النظر واختلاف البحث الا من عرف القصيد من الرجز ، والمخمس من الاسجاع ، والمزاوج مـن المنثـور ، والخطب من الرسائل وحتى يعرف العجز الظاهر الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات ...

وهذا ما لا يوجد عند صبي ابن سبع وثماني سنين وتسع سنين ابدا »[٤٨]

ويقرر الجاحظ بثقة عالم النفس والتربية ان المعارف العامـــة منها ما يلائم عقلية الناشيء وقد يستسيغها ومنها ما يكون فوق قدرتـه ومستواه ويعدد ذلك مستعملا معارف عصره وزمنه مقياسا :

« وقد نجد الصبي الذكي الذي يعرف من العروض وجها ومن النحو صدرا ومن الفرائض ابوابا ، ومن الغناء اصواتا .

فأما العلم باصول الاديان ، ومخارج الملل ، وتأويل الدين ، والتحفظ من البدع ، وقبل ذلك : الكلام في صحيح العقول والتعديـل ، والتحوير ، والعلم بالاخبار ، وتقدير الاشكال فليس هذا موجودا الا عند العلمـــاء »[٤٩]

ويلاحظ الجاحظ ان الفرق بين الطفل والرجل الناضج في وقت الازمات الفكرية وتبدل العقائد هو ان الطفل يكون في منجى من هـزة العقائد الموروثة ؛ وان الطفل يستلم ما يسود في البيئة في نظام بذهـن مستقر عكس الرجل الناضج الذي يجب ان يعاني التحول النفسي تحت

النظام الجديد •

ولذلك فهو يقول :

« وصاحب التربية يبلغ حين يبلغ ، وقد اسقط الله عنه مؤونة الروية ، والخطار بالجهالة ، وقد اورثه الالف والسكون وكفاءة اختلاج الشك واضطراب النفس وجولات القلب »(٥٠)

ورغم ان الجاحظ يتكلم عن الاطفال ببرود العالم المحايد الا ان هذا يجب الا ينسينا حب الجاحظ للطفولة وعطفه عليها وحرصه على الصحة النفسية والجسدية للطفل •

قال :

« فأما الذي يجعل اولاد المكدين عميانا وعرجانا وعمشا وحدبا فهو يسمى المشعب فلا ادرى ايهم اعظم كفرا واقسى قلبا والاباء او الامهات الذي يسلمون اولادهم المشعب الذي ترك كل صناعة في الارض وتعلم هذه الصناعة فجعلها مكسبه الذي لا يفارقه • وانا (رأيت) من هذه الصفة جماعة قد ازمنوا اولادهم وكتبت عنهم تصنيف (المكدين) ••• »(٥١)

ب ـ ملاحظات نفسية حول « الشخصية » في الكبار :

حاول الجاحظ في ملاحظاته النفسية حول « الشخصية » في مجتمعه ان يميز بين نوعين من « الشخصيات » وهما شخصية « البطل » والشخصية « المفكر » اي بعبارة اخرى بين الشخصية التي تعتمد في فرض نفسها على « القوة الجسدية » والشخصية التي تعتمد في فرض نفسها على « القوة الذهنية »

ان شخصية البطل ذات القوة الجسدية هي نموذج بدوى خلقها الشعر والواقع اليومي الذي عاشه العرب في بداوتهم قبل الاسلام ثم تأكد وجوده في زمن الدعوة والحروب الاسلامية والفتوحات •

وبعد ان انتهى دور البطل في الحضارة واختفت الشخصية تقريبا في زحام الصراع الحضاري المعتمد على الفكر استمر الشعراء والذين بقوا يعيشون في اطار التاريخ الاسلامي يحملون جثة البطل يباهون بها •

واضطر الجاحظ الى الخوض في كتاب العثمانية في هذا الموضوع مستخدما التحليل النفسي الدقيق للبواعث الخفية خلف صفة « الشجاعة » التي هي ابرز سمات البطـل •

يرى الجاحظ ان الميل الغريزي عند الانسان هو حب البقاء وعدم التغرير بالنفس ورميها الى التهلكة ولن يندفع الانسان خاف الموت الا لدوافع اخرى خفية تختلف من شخص الى شخص • يقول الجاحظ :

« فاذا لم يكن بحذاء سيفه الى السيف ومكروه ما يأتي بـه ما يعادله ويوازنه لم يمكن النفس ان تختار الاقدام على الحتف • ولكن معه في وقت مشيه الى القرن (امور) تنفحه مشجعة وان لم يبصرها الناس وقضوا على ظاهر ما ابصروا من اقدام »[٥٢]

ويعدد الجاحظ بعض الدوافع غير المرئية التي تحرك « البطل » وتدفعه الى الحرب وهي اسباب لو انتفت لانتفت معها الشجاعة التي تنسب الى « البطـل »

يقـول :

« والسبب المشجع ربما كان (الغضب) وربما كان (الشراب) وربما كان (الغرارة والحداثة) وربما كان (الاحراج) وربما كان طباعا كطباع القاسي والرحيم والسخي والبخيل والجزوع من دفع السوط والصبور »[٥٣]

فهو يخرج في تحليل الشجاعة دافعين منها ما يعود للعواطف او الحداثة ومنها ما يعود الى البيئة وظروفها كالاحراج او تعاطي الشراب ولذلك فان الشجاعة المطلقة في الانسان السوى لا يمكن ان توجد ما دامت غريزة البقاء هي القانون المسيطر •

وهو يرى ان قيمة العقيدة في الشجاعة ثانوية ويرى ان الدوافع الطبيعية التي تعود لمزاج الشخصية هي اكثر تحكما في سلوك البطل • ويشرح ذلك بقوله :

« وربما كان السبب (الدين) ولكن لا يبلغ الرجل بقوة الدين في قلبه مالم يشيعه بعض ما ذكرناه ان يمشي الى السيف •

لان (الدين) مكتسب مجتلب ، وليس بأصلي ولا طبيعي ولان ثوابه مؤجل • والخصال التي ذكرناها (طبيعية) اصلية وثوابها معجل »(٥٤)

ويرى الجاحظ ان الجبن والشجاعة بسبب ما يتحكم فيها من دوافع خفية لا يمكن ان يكونا في ظاهرهما مقياسا للطاعة عند الشجاع كما صنعنا في علم الحيوان •
او معصية عند الجبان ما دامت الامور تعود الى امور طبيعية في ذات الانسان ليس له القدرة على رفضها •(٥٥)

ثم يقارن الجاحظ بين شخصية « البطل » وشخصية « المفكر » غيرى ان قيادة المجتمع لا تصلح للاول وتصلح للثاني لاسباب لا تتعلق بالشجاعة •
ولذلك فهو يشرح الفرق بين شخصية القائد وشخصية البطل بقوله :

« وقد نجد الرجل يقتل الاقران والفرسان وهو لا يستطيع ان يرفع طرفه في ذلك العسكر الى رجل اخر ليس فيه من قتل الاقران قليل ولا كثير لمعان عندهم اكثر من مشي ذلك المقاتل بسيفه وقتله لقرنه • واذا ثبت ان رئيس ذلك العسكر واشباهه قد ثبتت لهم الرياسة واستحقوا التقديم بغير التقدم والمباشرة ثبت ان قتل الاقران ليس بدليل على الفضيلة او ما تعلم ان مع الرئيس من الاكتراث والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيره لانه المخصوص بالمطالبة ، وعليه مدار الامر »(٥٦)

ثم يميز الجاحظ بين نوعين من « الشجاعة » ويفضل شجاعة « المضطهد الذي يقاوم رغم فقدان الامل في ان يحقق اي شيء وشجاعة « البطل » في جيوش المجتمعات المستقرة ، ولذلك فهو يقول :
« ولا سواء مفتون مشرد لا حيلة عنده ، ومضروب معذب لا انتصار به ، ولا دفع عنده ، وباطش مقرن يشفي غيظه ويروي غليله وله مقدم يكتنفه ويشجعه • ولا سواء مقهور لا يغاث ••• وقد هتك البأس

لطول ما لقي حجاب قلبه ، ونقض قوى طمعه ، حتى بقي وليس معه الا احتسابه ، ومقاتل في عسكر معه عز الرجاء ، وقوة الطمع ، وطيب نفس الامل »(٥٧)

د ـ ملاحظات نفسية حول الحيوان :

ان الجاحظ قد روى وافاد من خبرة العلماء من طبقته في القضايا العلمية التي اثبتها في كتبه • وبذلك يثبت الجاحظ في كتاب الحيوان تجربة اجريت على الكلب تشبه تجربة بافلوف من حيث الجوهر وان اختلفت من حيث الاسلوب لكون الحضارة العربية كانت تفتقد الالات المتطورة للاختبار •

الا انه علينا ان نلاحظ ان العربي القديم قد استنتج من التجربة نفس ما استنتج منها علماء النفس المعاصرون وفي الحقيقة ان الذي قد قرأ عن تجربة بافلوف يكاد الا يصدق عينه حين يقرأ في كتاب عربي ألف قبل اثني عشر قرنا تجربة لم تقع الا في اوائل القرن العشرين •

قال الجاحظ يروى هذه التجربة الفريدة على الحيوان التي تدل على اهمتام العرب بطبائع الحيوان ومراقبتها ودراستها :

« وقد خبرني صديق انه حبس كلبا في بيت واغلق دونه الباب في الوقت الذي كان طباخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم ، ثم أحد سكينا ، فنبح الكلب ، وقلق ورام فتح الباب لتوهمه ان الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفة ، وهو يحد السكين ليقطع اللحم !!

قال : فلماذا كان العشي صنعنا به مثل ذلك ، لنتعرف حاله في معرفة الوقت فلم يتحرك !

قال : وصنعت ذلك بكلب لي آخر فلم يقلق الاقلقا يسيرا ، فلم يلبث ان رجع الطباخ فصنع با لسكين مثل صنيعي فقلق حتى رام فتح الباب ! !

قال : فقلت : والله لئن كان عرف الوقت با لرصد فتحرك له ، فلما لم يشم ريح اللحم عرف انه ليس بشي ، ثم لما سمع صوت السكين والوقت بعد لم يذهب ، وقد جيء باللحم ، فشم ريح اللحم من المطبخ وهو في البيت ، او عرف فصل ما بين احدادى السكين واحداد الطباخ ان هذا ايضا لعجب •

وان اللحم ليكون بيني وبينه الذراعان والثلاث الاذرع فما اجد ريحه الا بعد ان ادينه من انفي ، وكل ذلك عجب »(٥٨)

ويذكر خبرا اخر عن كلب يعاود جزارا في كل جمعة لانه يذبح في ذلك اليوم

فقال عنه : « فليس يكون مثل هذا الاعن (مقدارية) بمقدار ما بين الوقتين »(٥٩)

فصاحب التجربة لم يكن عمله هذا عبثا ، ولم يكن اهتمام الجاحظ بالتجربة لغوا وتلهية ونقل هنا تحليلنا للتجربة ،المنشور في بحث سابق :

« فقد اشار الباحث العربي في تجربته الى ما يسمى بالفعل المنعكس الشرطي وهو نباح الكلب كلما قدم له اللحم او طلب تقديمه ، فلما استعيض عن ذلك بحد السكين الذي يقترن بحضور اللحم نبح ايضا ، ولو ان اللحم لم يحضر ولكن الكلب : « نبح .. ورام فتح الباب لتوهمه ان الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفة وهو يحد السكين ليقطع اللحم » .

واشارت التجربة العربية الى ما اسماه بافلوف بقانون « الانطفاء » وهو عدم الاستجابة لانعدام المثير لتكرره مع عدم تحقيق وقوع ما يتوقع وقوعه عند سماع او رؤية المثير ، وافترضت التجربة العربية اقتران ذلك بمعرفة الحيوان الوقت الذي يقدم له فيه الطعام ايضا .

قال : « فلما كان العشي صنعنا به مثل ذلك لنتعرف حاله في معرفة (الوقت) فلم يتحرك »

وافترضت التجربة العربية ان عدم الاستجابة قد يكون لعدم تطابق الحركة او الصوت الذي يثير الفعل المنعكس الشرطي عند الحيوان. فقد افترض المختبري العربي ان الكلب يدرك (حدة الصوت) او (قوته) والذي يكون محققا لحصوله على اللحم ، فاذا ما صدر صوت اخر ليس له نفس القوة او الطبقة ادرك الحيوان ان مجرد صوت لا ينتج عنه شيء .

« وصنعت ذلك بكلب لي اخر فلم يقلق الا قلقا يسيرا ، فلم يلبث

ان رجع الطباخ فصنع بالسكين مثل صنيعه فقلق حتى رام فتح الباب !! »

واكد النص العربي على ثلاث نقاط أخرى لها اهميتها في دراسة الحيوان من الناحية النفسية وهي : الذاكرة عند الحيـوان ، والشعـور بالزمان وقوة الشم كوسيلة من وسائل التمييز والادراك • كل هذا يدلنـا على مقدار الجهد العقلي النظري الذي بذله المفكر العربي في سبيل الوصول الى حقائق مختبرية لم يتمكن من الحصول عليها في ذلك الوقـت البعيـد بطريقة اخرى اكثر علمية واكثر تنظيما »[٦٠]

د ــ ملاحظات حول البيئة الاجتماعية :

تناول الجاحظ في ملاحظاته حول البيئة الاجتماعية عددا مـن الموضوعات ، منها اثر البيئة الجغرافية في المجتمع ، ومنها ملاحظات حول الفرد الذي يعتبر اصغر وحدة في البيئة الاجتماعية ثم تناول فكر الجماعة والجمهور والتأثير فيه عن طريق الدعاية وتناول هذا الموضوع الاخير في شيء من التفصيل الى حد ما •

فهو يسجل ملاحظة حول اثر البيئة الجغرافية في لون ومـزاج سكان الشرق الاوسط (اقليم بابل) وليس المقصود في ايراد هذه الفقره ايماننا بصحتها العلمية المطلقة ولكن لاعطاء الدليل على محاولة ربط الجاحظ بين البيئة الجغرافية والانسان وردود الفعل المتبادلة بينهما •

قـــال :

« وانما صارت الوان سكان (اقليم بابل) السمرة ، وهي اعدل الالوان لانهم لم يولدوا في جبال ولا سواحل بحار • فخرجت (عقولهـم الباطنة) من الاعتدال والاستـواء علـى حسـب الوانهـم وشمائلهـم الظاهرة »[٦١]

ويناقش موضوع اثر البيئة الموجودة في انتشار نوع ما مـن المرض بين سكان تلك البيئة واثر التغذية او المناخ في ذلك •

ويعجب الجاحظ لشيوع البرص بين سكان البادية مع قلة الغذاء والجفاف ثم يقول لعله قد يظن ظان ان ذلك بسبب االلبن ومنتجاته ولكنه يعود فيرد ذلك مستشهدا بمناطق جنوب العراق الرطبة التي يشيع بيـن

سكانها التغذية باللبن والاسماك ويقول :

« فان الزط في الاجام يداومون بين السمك واللبن وهم مغتمسون في جميع اصناف الرطوبات واهل البدو في بلاد الجفاء والجفاف يداومون بين اللبن والتمر ! »[٦٢]

وهو في ملاحظاته الاجتماعية قد يتجه الى الفرد ويحاول ان يسجل الظواهر الغريبة او الشاذة التي تدلل على الحاسة العلمية والملاحظة الدقيقة .

فهو يتعرض في كتاب (البرصان) الى التوائم واطرف ما يسجله هذه الملاحظة الدقيقة هو السلوك المتشابه وردود الفعل الجسدي والنفسي للاخوين المازنيين والملاحظة من مشاهداته الخاصة . قال :

« (رأيت) الاخوين المازنيين .

وكان احدهما اذا حم حم الاخر

واذا رمد رمد الاخر .

فلما مات احدهما اوصى الاخر ومات بعده بقليل .

وكان كل واحد منهما كأنه الرمح الرديني ، ولم ار منهم (اي التوائم) نحيفا الا عبدان تلميذ يحيى بن ماسويه »[٦٣]

ثم يسجل ملاحظة مروية حول البقير (المولود بالعملية القيصرية) ويقول :

« وقد زعموا ان (البقير) من الناس والخيل يخرج متغير الجلد »[٦٤]

ويسجل ملاحظة اخرى حول الذين يولدون لسبعة اشهر :

« ان الذين (يولدون لسبعة اشهر) ليس القصر والنحافة منهم بأفشى واشد استفاضة في غيرهم »[٦٥]

اما نحافة او سمنة التوائم فانها موضوع خلاف بين المهتمين في هذا من الاطباء والدارسين ولكنه يسجل مشاهدته ويقول :

« ولعل بعض من (رأيت) واكثر كانوا اغلظ عظما ، واوشج وكان كل واحد منهما كالبغل المزنوق . و (رأيت) الاخوين اللذين كانا

وثاجة من ولد لتمام • رأيت الحكم ومروان ابني بشر بن ابي عمرو بن العلا
وكيفية التأثير فيها عن طريق الدعاية والادب وطريقة استمالة الرأي العام وفائدة او خطورة ذلك •

وتتوزع الجاحظ عاطفتان عاطفة الباحث العلمي المتجرد وعاطفة الباحث الاجتماعي الذي يدعو الى احاطة المجتمع ورعايته ضد الفكر الوافد والافكار الخطرة •

ويعود الجاحظ في ملاحظاته الاجتماعية يحدثنا عن الجماهير
يلقبان منكر ونكير وكل واحد منهما كالجمل المحجوم »[٦٦]

فهو كباحث علمي يرى ان الباحث عليه ان يعرض اراء خصومه الفكريين بامانة واخلاص حتى كأنه قد تبناها فيقول :

« واعلم ان واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلا ، ولاهل النظر مألفا حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه ، حتى لو ام يقرأ القارىء من كتابه الا مقالة خصمه لخيل اليه انه الذي اجتباه »[٦٧]

ولكنه في نفس الصفحة يرى ان في نقل اراء الخصوم خطورة عامة الا ان يكون المجتمع قد بلغ من النضج حدا يحميه من التأثر بهذه الافكار ويقول :

« ولولا اتكالي على انقطاع الباطل عن مدى الحق وان استقصيته وبلغت غايته ، ما استجزت حكايته ، وقمت مقام صاحبه » •[٦٨]

ويقول الجاحظ ذلك لانه يعرف خطر الفكر الوافد الذي يعد لنفسه كي يغري قارئه ويستدرجه ولعل اخطر ما كان يحذر منه الجاحظ هي افكار الوثنية الجديدة التي كانت تتمثل بالزندقة والزرد اشتية وغيرها من الفرق ذات البعدين الديني والسياسي ، ويوضح رأيه بمايلي :

« على ان للنحل صورا كصور الناس ، فكما ان بعض الصور اشد مشاكلة لطبعك ، وأنى في عينك ، واخف على نفسك ، فكذلك النحل في مقابلة الاهواء ومشاكلة الشهوات . والخفة على النفوس ، فاحذر حوادث الشهوات ، واتصال المشاكلة فانه اخفى من الدقيق ، وادق من الخفي ، هذا اذا كان

المعنى مجردا ، والمذهب عاريا ، فكيف اذا موهه صاحبه وزخرفه باعذب الالفاظ واشباها ، واحسن المخارج (واعفاها) » ٠[٦٩] فشفى كل واحد منهما صاحبه وحببه الى سامعه ، فان وافق ذلك منه تعظيم لسلفه ، وهوى في قائله فقد اسمحت نفسه بالتقليد ، واستسلمت للاعتقاد ، فاحذر في هذه الصفة ، ولا تستخفن بهذا الوجه »[٧٠]

وهو اذ ادرك اثر الدعاية في المجتمعات في ايام السلم فقد ادرك اثرها في ايام الحرب ايضا وما تصنعه في الجيوش من تمزيق وحدتها ، وتفتيت تضامنها ٠

قـــال :

« ومعلوم عند ذوى التجربة ، العارفين بطبائع الاتباع ، وعلل الاجناد ، ان المعساكر قد تنتقض مرائرها ، وينتشر امرها وتنقلب على قادتها بأيسر من هذه الحجة ، واخفى من هذه الشهادة ٠

٠٠٠٠ وقد علمتم ما صنعت المصاحف في اطباع اصحاب علـى حين رفعها عمرو بن العاص اشد ما كان اصحاب علـي استبصـارا في قتالهم ٠٠٠ وهذا الباب اكثر من ان يحتاج مع ظهوره ومعرفة الناس به الى ان نحشو به كتابنا »[٧١]

ويدرك الجاحظ ان الدعاية مهما كانت عنيفة ومغرضة فانهـا لا تنجح في دك نظام سادت الديمقراطية فيه عند انتخاب مديره ورغم حدوث بعض الحوادث المعزولة التي قد تستغلها الدعاية السياسية فان ذلك لا يدل على فساد النظام او اضطراب امره ٠ قال :

« فليس في طعن الطاعن عن دلالة اذا كان المطعون عليه كاملا فاضلا ، واجماع الناس كلهم على صواب امر لا ينال ٠

واذا كانت الامة قد اطبقت على طاعة رجل على (غير رغبة او رهبة) ثم لم يكن اغترارا ، ولا اغفالا ، فليس في شذوذ رجل ولا رجلين دلالة انتقاص امره ، وفساد شأنه »[٧٢]

ويبدو انه اباح للدول وقت الحروب ان تسلك اي طريق الـى الدعاية التي تقودها الى النصر ، وعلى هذا الضوء برر تهجين عمر بـن

الخطاب امر العجم في زمن الحملات الاولى لتقوية الشعور النفسي عند العرب في مواجهة قوة كبرى انذاك ، ولهذا فهو يقول :

« فأما ما ذكروا من تهجينه (اي عمر) امر العجم وتعظيمه امر العرب فانما كان ذلك لانه لما ندب الناس الى قتال كسرى والاساورة تثاقلت عن ذلك العرب والاعراب وجميع المهاجرين والانصار هيبة لناحية كسرى والفرس ، وخفوا لغزوا الروم ونشطوا له . حتى انتدب ابو عبيدة الثقفي اول من انتدب فلذلك عقد له على كبار المهاجرين الاولين والانصار والبدريين فلم يكن لهم هم الا تصغير امرهم وتهجين شأنهم . والحط من اقدارهم ليرد ذلك من نفوس العرب ... ومن الدليل على ما وصفنا من تدبير عمر تركه الاستخفاف باقدار العجم ، واظهار احتقارهم ، والازدراء بهم ، بعد جلولاء »(٧٣)

ويرى ان ذلك الذي فعله عمر انما كان سياسة وتدبيرا وكان وسيلة من وسائل الدعاية كما نقوله بلغة اليوم ويشرحه الجاحظ لمعاصريه بهذا الاسلوب :

« وهكذا تدبير الخلفاء ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ولو كان اذا لم يفهموا عن الائمة لم يعترضوا عليهم ، ولم يخطئوهم ولم يجهلوهم كان أيسر »(٧٤) .

وادرك الجاحظ قيمة الادب وروايته ونقله في اعطاء الصور السالبة او الموجبة عن الامة ، فكما ان (الف ليلة وليلة) قد اعطى للعرب صورة مخطوءة عن العرب بانهم امة الحريم والجواري وقد ثبت هذا الكتاب هذه الصورة فلم تكد تمحي الى اليوم ، فقد عرف الجاحظ انه اتهام الشعوبية للعرب بمرض البرص انما هو صورة تولدت من شعر العرب انفسهم اذ سجلوا فيه هجائهم وشتمهم ومعاباتهم وعبثهم مع بعضهم بعضا . وما دام الادب العربي حمال اوجه فقد اختار خصومهم الجانب الرديء لحمل هذه الصورة عنهم ولذلك فانه يرى ان الامة التي لا أدب لها تكون امة بدون « صورة » قبيحة او حسنة فالشاعر العربي الهجاء نفسه كان مسؤولا عن نقل هذه الصورة المشوهة : يقول الجاحظ :

« ولكن العرب تتهاجى بالاشعار التي تشهد كل خير وشر وتتعايب بالالفاظ المتعسفة والمستحسنة التي تستدعي الرواية والحكاية • والرواة لا تعني بلسان الزط وسكان الاجام لهوانهم عليهم ، ولانهم لم يتعايبوا بينهم بالكلام الذي يحفظ الرواة مثله •

ولو جمعتهم ايضا كلهم لم يكونوا كقبيلة من قبائل بني سعد وهذا المقدار منذ كانت العرب الى يومنا هذا ، فهذا المقدار قليل »[٧٥] •

وبهذه الملاحظة نختتم ملاحظات الجاحظ النفسية والاجتماعية التي جمعها وانتقاها انتقاء علميا من خلال ملاحظته الدقيقة وعقله المحلل النفاذ الذي كان يربط ويحلل ويستنتج معتمدا على المباديء العلمية في البحث العلمي •

٣ ـ منهج البحث في العلوم الانسانية (التاريخ والادب) :

من خلال كتب الجاحظ المختلفة يمكننا الاهتداء الى بعض القواعد العامة التي استخدمها في منهج العلوم الانسانية وفي تثبيت الرواية العلمية •

ويمكن ان نشير الى مجمل هذه الاركان كخلاصة لهذا المنهج قبل ان نرى ذلك في النصوص التي ذكر فيها هذه المباديء والاركان •

المبدأ الاول : بتجميع المادة كوسيلة من وسائل الكشف التام عن جميع الحقائق مع ربطها وتقريبها من بعضها بعضا •

المبدأ الثاني : ملاحظة الدوافع والعصبيات : ان كثيرا من النصوص في التاريخ والادب يمكن نمحصها على هذا الضوء ويمكن رفضها لهذا السبب

المبدأ الثالث : تثبيت النص العلمي : وشرح فيه كيفية الوصول الى النص العلمي المثالي والطرق العلمية لتحقيق ذلك مع صياغة مقاييس البحث التي تساعد على تثبيت مقاييس البحث •

وقبل ان نبدأ في شرح هذه المباديء التي طبقها الجاحظ في مبحثه عن الحقيقة التاريخية والادبية فاننا نريد ان نعرض رأي الجاحظ في تسجيل الحقائق في الانسانيات •

فهو يرى انه لا يمكن مثل هذه الموضوعات استقصاء كل ما قيل وان ما يمكن حصره هو الحقائق التي يدور حولها الخلاف واعطاء النماذج التي تبرهن على وقوعها وقيامها ويشرح ذلك بقوله :

« وانما ملاك وضع الكتاب : احكام اصله ، ولايشذ عنه شيء من اركانه فان استقصاؤه حتى لا يجري بين الخصمين من شيء قد وضع يعينه فهذا ما لايمكن الواضع ولا يحتمل الكتاب .

ولو امكن الواضع واحتمله لكان طوله قاطعا لنشاط القارىء ومجلبة لنعاس المستمع الا لمن صحت ارادته وافرطت شهوته وقوي طبعه وحسن احتسابه »[٧٦] .

وهو قد دعا الى ضرورة ذكر كافة الحقائق والردود التي تعرضها وجهات النظر . المختلفة حتى وان لم يكن المؤرخ من انصارها الا انه حذر من ذكر الاشياء التي يخشى عليه من التأثير على الجمهور وقد ذكرنا نصين بهذا الخصوص من قبل[٧٧] .

ا ـ تجميع المادة :

قد يظن الانسان ان تجميع المادة هي احدى خصائص الباحث المعاصر ولكن في الواقع ان الجاحظ قد سبق باحثي العصر الحديث في ترسيخ هذا المبدأ .

وقد اعتمد الجاحظ على الاستنباط من كل نص مهما كان شعرا او نصا دينيا او تاريخيا او حكاية او رواية او نادرة ، فكل ما يساعد على تجميع الحقيقة والكشف العلمي يمكن ان يكون مادة للباحث ولذلك فانه يقول :

« وليس بين (الاشعار) وبين (الاخبار) فرق اذا امتنع في مجيئها أمل مخرجها التباعد والاتفاق والتواطوء »[٧٨]

وقد يرى بعض الباحثين رأيا مخالفا للجاحظ في استعمال كل مادة مروية ولكنه يبرر ذلك بقوله : « ولكن الأمور اذا جاءت من ها هنا وها هنا كان اجتماعها دليلا »[٧٩]

وهو ينقد كتابه (الحيوان) لان كثيرا من شواهده في الموضوع الواحد وقعت متفرقة متشتتة لسعة العمل وضخامته وهو يدلل على

احترامه لمبدأ تجميع المادة :

« على اني اذم هذاالكتاب في الجملة ، لان الشواهد على كل شيء بعينه وقعت متفرقة غير مجتمعة ، ولو قدرت على جمعها لكان ذلك ابلغ في تزكية الشاهد ، وانور للبرهان واملأ للنفس وامتع لها بحسن الوصف ، واحمده لان جملة الكتاب على حال مشتملة على جميع تلك الحجج ومحيطة بجميع تلك البرهانات . وان وقع بعضه مكان بعض وتأخر متقدم وتقدم متأخر »[80] .

ويقول في مكان اخر مؤكدا قيمة تجميع الحقائق :

« فلا بأس ان تكون تلك الفقر مجموعات وتلك المقطعات موصولات ، وتلك الاطراف مستقصيات مع الباقي مما ذكرنا فيه ليكون الباب مجتمعا في مكان واحد فبالاجتماع تجتمع القوة ، ومن الابعاض يلتئم الكل . وبالنظام تظهر المحاسن »[81] وهو يدعو الباحث دائما في سبيل انصاف الحقيقة ان يتم استقصاءه لموضوعه سواء أكان موافقا او مخالفا لموضوعه قال :

« فانك متى انصفت في هذا الوجه دعاك ذلك الى ان تنصفها هي بتتبع مالها من الاشعار والامثال والاخبار والايات كما تتبعتما عليها »[82] .

وانه يلاحظ ان تداخل الموضوعات قد يرهق القارىء ويوزع قدرته على التركيز ولذلك فكثير ما كان يحيل في بعض الموضوعات الى كتب اخرى ورسائل الفت خصيصا لذلك الموضوع .

قال : « فأن اعجبتك هذه المسائل واستظرفت هذا المذهب فاقرأ رسالتي الى احمد بن عبدالوهاب الكاتب فهي (مجموعة) هناك »[83] وقال عن ضر تداخل الموضوعات :

« وسنقول في الشهب وفي استراق السمع انما تركنا جمعه في مكان واحد لان ذلك يطول على القارىء .

ولو قرأ : (فضل الانسان على الجان والحجة على من انكر الجان) لم يستثقل لانه حينئذ يقصد اليه على انه مقصور على هذا البب . فاذا ادخلناه في باب القول في صغار الوحش والسباع والهمج والحشرات

اذا ابتدأ القراءة على ذلك استطال كل قصير اذ كان من غير هذا المعنى »(٨٠).

ويؤكد ذلك مرة اخرى ويؤكد على كراهية تكرار النفس في كتب مختلفة مع عدم وجود جديد في البحث قال : « فهم يختلفون في ذلك على علل قد ذكرناها في القول في (فضيلة الملك على الانسان ، والانسان على الجان) فأن اردته فالتمسه هناك ، فأن اعادة الاحاديث الطوال والكلام الكثير مما يهجر في السماع ويهجن الكتب »(٨٥)

ولكن الجاحظ لم ينف الافادة من الموضوعات الجانبية بقدر ما يحتاجه الباحث للتوضيح ولا يمكن عزل الموضوعات وتجريدها كليا من ذكر حقائق جانبية اخرى •

قال : « وليس من الابواب الا وقد يدخله نتف من ابواب اخرى على قدر ما يتعلق بها من الاسباب ويعرض فيه التضمين ، ولعله يكون بها اشد انتفاعا »(٨٦) •

ب ـ ملاحظة الدوافع والعصبيات :

لاحظ الجاحظ ان بعض النصوص والروايات تدخلها الدوافع الخاصة والنزعات الفكرية وتكون العصبية القومية والدينية والقبلية خلف كل ذلك •

وعلى هذا فانه حذر المؤرخ ان يلاحظ ذلك وانه يحذر ويوضح ذلك بقوله :

« وقد يكون ان ينقدح في قلوب الناس عداوات وضغائن سببها التحاسد الذي يقع بين الجيران والمتفقين في الصناعة ، وربما كانت العداوة من جهة العصبية فأن عامة من ارتاب في الاسلام انما كان اول ذلك رأي تلك الجزيرة احب من ابغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام اذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وكانوا السلف والقدوة »(٨٧) •

ولذلك ومن خلال هذا المبدأ نراه يرد على كثير من النصوص التي شوهت سمعة العرب واساءت الى تاريخهم ويبرر ذلك تبريرا عقليا يقول :

« والشعوبية والازاد مردية المبغضون لأن النبي (ص)

واصحابه ممن فتح الفتوح وقتل المجوس ، وجاء بالاسلام ، تزيد في جشوبة عيشهم (اي عيش العرب) ، وخشونة ، ملبسهم ، وتنقص من نعيمهم ورفاغة عيشهم ، وهم من احسن الامم حالا مع الغيث ، واسوأهم حالا مع فقد السحاب »[٨٨] .

ومع ذلك فهو لا يبالي اذا انتفت العصبية ان تؤخذ الرواية من كتب اية نحلة او اصحاب اي دين ما دامت الحقيقة المعروضة للبحث لم توضع لها النصوص المغرضة ، لغرض تشويهها .

قال : « فان شئتم فاعترضوا اصحاب (التفسير) و (السيرة) والتمسوا ذلك من قبل (اصحاب ابن عباس)

وان شئتم فأهل الكتاب (يهودهم) و (نصاراهم) ليس لهم في ذلك دفع مضرة ولا اجتلاب منفعة ، ولو اكثروا ذلك ان يجحدوا ما عرفوا ، وان يطيقوا على انكار ما عنموا »[٨٩] .

وهو يدعو الى الافادة من الشعر الذي نظمه الشعراء متفرقين وخاصة اولئك ، الشعراء الذين لم ينضووا الى الرفق ولا عرفوا النحل والمذاهب قال :

« واكثر من تكلم به (يشير الى خبر ما) ليسوا بذوى نحلة فيقتدروا له ، ولا بذوى معرفة فيعرفوا فضله ولا ذوى قرابة فيطلبوا السبق به مع الذي نجده في الاشعار الصحيحة القديمة ، وليس في الاشعار والاخبار فرق اذا جاءت مجيء الحجج ، وانما ذكرنا الاشعار مع الاخبار ليعرفوا ظهور امره ووجوب دلائله ، وقهر اسبابه وليكون انس للنفوس ، واقطع لشغب الخصم ولجحد المنازع .

... قال العجاج بن رؤبة وهو اعرابي ليس بذى نحلة ، ولا صاحب خصومة وقد ادرك الجاهلية .. (و) هؤلاء الذين ذكرنا شريح بن هاني ، والعجاج بن رؤبة ، والحارث بن هشام بن المغيرة ، وطريف بن عدي بن حاتم ، وحسان بن ثابت ، وطليحة الاسدى ، ومن اشبههم ليسوا باصحاب خصومات ولا نظر في الفاضل والمفضول »[٩٠]

د ـ تثبيت النص العلمي :

ان جميع المادة وانتفاء الدوافع العصبية في الخبرة تعد النص لان يكون مقبولا ولكن الجاحظ يضع امام المؤرخ حقائق اخرى يجب انطباقها على النص قبل ان يكون صالحا للتسجيل وان يكون معتمدا فعلا •

يشترط في النص التاريخي الصالح ان : « يمتنع فيـــه (العمد) و (الاتفاق) وهذا الجنس من الخبر هو الاجماع • »

ويشرح الجاحظ شروط ذلك الاجماع على الخبر الموثوق ويقول :

« وليس يكون الخبر اجماعا من قبل كثرة عدد الناقلين ولا مـــن قبل عدالة المحدثين •

وانما هو العدد الذي نعلم انهم لم يتلاقوا ولم يتراسلوا ولا تتفق السنتهم على خبر موضوع مع اختلاف عللهم واسبابهم ، ثم يكون معلوما عند سامع ذلك الخبر مع ذلك العدد انهم نقلوه عن مثلهم في مثل اسبابهم وعللهم • فاذا كان معلوما ان فرعه كأصله كان موجبا لليقين ، ونافيا لعرو الشك واسترابة التقليد »[٩١]

ويدعو الجاحظ الى تعديل الخلافات حول السنين والتاريـــخ بها يأخذ المعدلات الوسطى في سبيل الوصول الى حكم علمي مقارب ، وهو يؤكد ان الخلافات حول تاريخ الاحداث لا يدعو للقلق في الغالـــب لان الدوافـــع الشخصية ـ الا فيما ندر ـ تكون منتفية ، ولذلك فهو يقول :

« وهذه التاريخات والاعمار لا يستطيع احد جهلها ، والخلاف عليها لان الذين نقلوا التاريخ لم يتعمدوا تفضيل بعض على بعض ، وليس يمكن ذلك مع اختلاف عللهم واسبابهم »

ويرى الجاحظ حل الخلاف في ذلك :

« القياس ان يؤخذ باوسط الروايتين ••• فنأخذ اوسطها وهـــو اعدلها • وتطرح قول المقصر والغالي • ثم تطرح ما حصل في يديك مما روى عن عمره وسنه »[٩٢]

وقد صاغ الجاحظ عددا من المصطلحات لغرض تثبيت المقصود من النص الموثق •

فالوصول الى نوع من « الثقة » والقبول للنص العلمي الموثق يجعل كتابة التاريخ ممكنة والا فقد تعم الفوضى في رفض كل شيء وسمى هذا المبدأ (التصادق) كما دعا بان يتوفر الى جانب ذلك الاطمئنان العقلي لمحتوى النص واسمى ذلك (التعارف) وهو خضوع النص لما يمكن ان يقع فعلا ويشرح هذين المصطلحين كما يلي :

« ان الاخبار لابد منها من (التصادق)

كما لابد من درك العقول من (التعارف)

فان عدم (التعارف) في صحيح العقول و (التصادق) في صحيح السمع عدم الانصاف وبطلان الكلام »[٩٣]

ولا يجيز ان يستعمل (التصادق) في نص ويرفض في نص اخر له نفس المستوى من الرواية والاسناد ولذلك فهو يقول :

« ليس لكم ان ترفضوا خبرا في ضرب من الاسناد وتوجبون تصديق مثله لان كل واحد من الخصمين لا يعجزه دفع المستفيض بلسانه فضلا عن دفع الشاذ وان كان ناقله عدلا في ظاهره . فاذا كان ناقله كذلك فأولى الامور بكم وبهم الصدق . وليس كل من اراد الصدق في مثل هذا قدر عليه الا بالتقدم في كثرة السماع واتساع الرواية »[٩٤]

واكد الجاحظ حق الباحث في المواد الانسانية في الاستنتاج من المادة التي بين يديه واسمى ذلك (الاستخراج) الا انه اشترط (للاستخراج) شرطين فهو لا يجوز الاستنتاج الا بالمشاهدة او الرواية :

« لا يجوز ان يقولوا (استخرجنا) معرفة هذا المعنى لان (الاستخراج) لايكون الا عن (عيان) او (خبر) .. »[٩٥]

اما تفصيلات المنهج التي تناولت الجانب الادبي بجزئياته والنزول الى دراسة الشعر واللغة والبلاغة فقد عالجناها مجتمعة في بحثنا « النقد المنهجي في الحضارة العربية واثر الجاحظ فيه »[٩٦] ولا نحتاج الى اعادة التفصيل فيه هنا مرة اخرى .

وكان الجاحظ سواء في تنظيره او تطبيقه مفكرا فذا متوقد الذهن ، ذا حاسة نقدية حادة . ولا نشك ان اثره كان كبيرا في اجيال

من المفكرين ممن جاؤا بعده وافادوا من مناهجه في النقد العلمي .

المصادر والمراجع

١ - الجاحظ : كتاب الحيوان : تحـ : عبدالسلام هرون . القـــاهرة ط٢ ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
٢ - ـــ كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان : : د. محمد مرسي الخولي . القاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
٣ - ـــ كتاب العثمانية : تحـ عبد لسلام هرون . القـــاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .
٤ - ـــ كتاب البخلاء : تحـ : د. طه الحاجري . القاهرة .
٥ - د. داود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ (كتاب) ، مطبعة المعارف بغـداد ١٩٦٠ .
٦ - ـــ البحث والنقد والتحليل عند العرب (بحث نشر في مجلة الجامعة المستنصرية . العدد ٢ عام ١٩٧١ . بغداد .
٧ - ـــ الجاحظ مفكرا معاصرا (بحث نشر في مجلة المورد ، العدد ٤ عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م بغداد .
٨ - ـــ حقائق علمية عربية من احد كتب الجاحظ (البرصان والعرجان والعرجان والعميان والحولان) - (مقال نشر في مجلة البناء الحضاري ، العدد ٣ ، حزيران ١٩٧٨) بغداد .

الهوامش

(١) الحيوان ، حـ١ ، ص ٨١-٨٢ بتحقيق عبدالسلام هارون .
(٢) الحيوان ، حـ٦ ، ص ١٢-١٣ .
(٣) الحيوان ، حـ٤ ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .
(٤) الحيوان ، حـ٣ ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .
(٥-٨) الحيوان ، حـ٣ ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .
(٩) الحيوان ، حـ٤ ، ص ١٩٤ .
(١٠) الحيوان ، حـ٤ ، ص ١٩٤ .
(١١) الحيوان ، حـ٤ ، ص ١٦٣ .
(١٢) الحيوان ، حـ٥ ، ص ٢٥٧ .
(١٣-١٤) الحيوان ، حـ٥ ، ص ٥٢٦-٥٢٧ .

(١٥) الحيوان ، حـ٥ ، ص ٥٢٦ـ٥٢٧ .
(١٦) الحيوان ، حـ٥ ، ص ٢٤٦ .
(١٧) نفس المصـــــدر .
(١٨) الحيوان ، حـ٤ ، ص ٣٢٠ .
(١٩) البرصان والعرجان ، ص ٣٦ .
(٢٠) نفس المصـــــدر ، ص ٤٠ .
(٢١) نفس المصدر ، ص ٣٦ . والصفر : داء في البطن يصفر منه الوجه . والعدسة : بثرة تخرج في الجسم قلما يسلم المصاب بها ولعلهـــا بسبب نوع من الامراض الجنسية .
(٢٢) الحيوان ، حـ٧ ، ص ١٢٥ .
(٢٣) نفس المصـــدر .
(٢٤) الحيوان ، حـ٣ ، ص ٣٦١ـ٣٦٢ .
(٢٥) الحيوان ، حـ٣ ، ص ٣٦٢ .
(٢٦) الحيوان ، جـ٦ ، ص ٣٤ .
(٢٧) الحيوان ، جـ٥ ، ص ٤٦٨ .
(٢٨) الحيوان ، جـ٢ ، ص ٢٢٩ـ٢٣٠ .
(٢٩) الحيوان ، جـ١ ، ص ٣٠٨ ويشير بذلك الى رسالة التربيع والتدوير .
(٣٠) الحيوان ، جـ١ ، ص ١٥٠ .
(٣١) الحيوان ، جـ٧ ، ص ٨ .
(٣٢) الحيوان ، جـ١ ، ص ١٤٤ .
(٣٣) الحيوان ، جـ٥ ، ص ٢٢٣ .
(٣٤) الحيوان ، جـ٤ ، ص ٢٢٣ .
(٣٥) الحيوان ، جـ٣ ، ص ١٧٧ .
(٣٦) الحيوان ، جـ٣ ، ص ٥٣٤ .
(٣٧) الحيوان ، جـ١ ، ص ٧٥ـ٧٦ .
(٣٨) الحيوان ، جـ١ ، ص ٧٦ .
(٣٩) الحيوان ، جـ١ ، ص ٧٦ .
(٤٠) نفس المصـــــدر ، ص ٧٨ .
(٤١) الحيوان ، جـ٦ ، ص ٢٨٠ .
(٤٢) الحيوان ، جـ٢ ، ص ٧٨ .
(٤٣) نفس المصـــــدر ، جـ٦ ، ص ٢٩ .
(٤٤) نفس المصـــــدر ، جـ٥ ، ص ٥٠٢ .
(٤٥) الحيوان ، جـ٥ ، ص ٢٢٠ .
(٤٧) العثمانية ص ٧ .
(٤٨) العثمانية ص ١٥ـ١٦ .
(٤٩) نفس المصدر ص ١٧ .
(٥٠) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٥١) البرصان والعرجان ص ٢٣٧ .
(٥٢) العثمانية ص ٤٧ .
(٥٣) العثمانية ص ٤٧ .
(٥٤) المصدر نفسه .
(٥٥) العثمانية ص ٤٧_٤٩ .
(٥٦) العثمانية ص ٤٦ .
(٥٧) المصدر نفسه ص ٤٠ .
(٥٨) الحيوان ٢/١٢٠_١٢١ .
(٥٩) الحيوان ٢/١٢١ .
(٦٠) البحث والنقد والتعليل عند العرب . مجلة الجامعة المستنصرية العدد ٢ عام ١٩٧١ .
(٦١) البرصان ص ٤٨ .
(٦٢) البرصان ص ٤٩ .
(٦٣) البرصان ص ٤٧_٤٨ .
(٦٤) البرصان ص ٤٥ .
(٦٥) البرصان ص ٤٧ .
(٦٦) البرصان ص ٤٧ .
(٦٧) العثمانية ص ٢٨٠ .
(٦٨) نفس المصدر .
(٦٩) كذا في الاصل كما اشار محقق الكتاب الاستاذ عبدالسلام هارون .
(٧٠) العثمانية ص ٢٧٩ .
(٧١) العثمانية ص ١١_١٢ .
(٧٢) العثمانية ص ١٩٤_١٩٥ .
(٧٣) العثمانية ص ٢١٤ .
(٧٤) العثمانية ص ٢١٤ .
(٧٥) االبرصان ص ٤٩_٥٠ .
(٧٦) العثمانية ص ٢٧٩ .
(٧٧) العثمانية ص ٢٨٠ وانظر هامش ٦٧ و٦٨ .
(٧٨) العثمانية ص ٤ .
(٧٩) العثمانية ص ٩٥ .
(٨٠) الحيوان جـ٦ ص ٣٨_٣٩ .
(٨١) الحيوان جـ٥ ص ١٩٩ .
(٨٢) الحيوان (باب الكلاب) .
(٨٣) الحيوان جـ١ ص ٣١١ .
(٨٤) الحيوان جـ٦ ص ٤٩٦ .
(٨٥) الحيوان جـ٧ ص ٦٥ .

(٨٦) الحيوان جـ٦ ص ١٥ .
(٨٧) الحيوان جـ٧ ص ٢٢٠ .
(٨٨) البخـــــلاء ص ٢٠٩ .
(٨٩) العثمانية ص ١٥٤ـ١٥٥ .
(٩٠) العثمانية ص ١٢٤ـ١٢٥ و ١٢٧ .
(٩١) العثمانية ص ١١٥ـ١١٦ .
(٩٢) العثمانية ص ٥ و٦ .
(٩٣) العثمانية ص ٣٤ـ١٣٥ .
(٩٤) العثمانية ، نفس المصـــــدر .
(٩٥) العثمانية ص ١٧٠ـ١٧١ .
(٩٦) نشر البحث في كتاب (رحلة في الفكر والتراث) . اصدار جامعة بغداد ١٩٨٠ ، وراجع كذلك كتابنا : « النقد المنهجي عند الجاحظ » حول نقد الحديث والتفسير والنادرة والامثال .

أضواء جديدة على حصن الأخيضر الأثري

الدكتور عبد العزيز حميد
قسم الآثار كلية الآداب ـ جامعة بغداد

لقد مضى على اكتشاف حصن الأخيضر أكثر من ثلاثة قرون، حيث وردت أول إشارة واضحة إليه في كتابات الرحالة الإيطالي بتروديلا فيلا Petro Della Vella سنة ١٦٢٥. ثم تلاه تافرنيه سنة ١٦٣٨، أعقبه دبليونيوز سنة ١٧٤٥. ثم مر به جي روبرتس في سنة ١٧٤٨، تلاه الميجر جون تايلر سنة ١٧٩٠. ومنذ أكثر من قرن وعلماء الآثار مقبلون على دراسته، فكتب عنه عدد لا يستهان به من كتب وبحوث تناولت هذا الأثر الشاخص من جوانبه التاريخية والفنية والمعمارية. ومع كل ذلك فلازال الأخيضر يعد لغزاً غامضاً محيراً.

إن السبب في ذلك يعود بشكل أساس إلى أمرين. الأول أنه غفل من أية كتابة تاريخية معمارية مثل الشواهد التي تعلو في العادة واجهات الكثير من المباني الأثرية أو بعض أقسامها الداخلية. والأمر الثاني يعزى إلى سكوت المدونات التاريخية العربية والقديمة والبلدانية عنه بشكل يدعو إلى الحيرة والتفكير العميق، خاصة وقد وجدنا القصر بحالة جيدة من الحفظ إضافة إلى ما يتميز به من ضخامة ملفتة للنظر لدرجة عبر فيها بعض المستشرقين عن تلك الضخامة والعظمة بأن من ينظر إلى قصر الأخيضر في وسط الصحراء

القاحلة ليخيل إليه أن الجن هم الذين قاموا بتشييده لا البشر (شكل ١)[١].

لقد تناول هذا الحصن بالدراسة والبحث والتقصي عدد غير قليل من علماء الآثار والباحثين من عرب ومستشرقين وذهبوا في تاريخه وتسميته مذاهب شتى. أرجعه بعضهم إلى العصر السابق للاسلام غير أن غالبية علماء الآثار يرجعونه إلى العصور الاسلامية وبشكل خاص إلى العصر العباسي الأول، وذلك بسبب أدلة معمارية وتأريخية يسوقونها[١]. واستقر رأي الكثير من العلماء المتخصصين في الفنون الاسلامية إلى أن العناصر المعمارية لحصن الأخيضر تتماشى تماماً مع ما وصل إليه تطور الفن المعماري الاسلامي العام في تلك الحقبة الزمنية، وهي الحقبة التي تنحصر بين بدء تشييد مدينة السلام في سنة ١٤٥ هجرية (٧٦٢م) وتشييد مدينة سامراء في سنة ٢٢١ هجرية (٨٣٦م) العاصمة الثانية التي شيّدها العباسيون في إقليم العراق، وهي الأدلة التي لا نرى ما يدعو إلى مناقشتها أو التطرق إليها في هذا البحث.

ومهما يكن من أمر فإنه من المسلم به الآن أن الأخيضر كان قائمًا حوالى سنة ١٥٧ هجرية (٧٧٣م) وهي السنة التي تسبق وفاة ثاني خلفاء الأسرة العباسية أبي جعفر المنصور (١٣٤ ـ ١٥٨ هـ/ ٧٥١ ـ ٧٧٤م) وذلك نتيجة للعثور على عدد من المسكوكات يتراوح تاريخ ضربها بين سنتي ١٥٧ هجرية و١٦٢ هجرية. ربما من أهمها فلس نحاسي ضرب في مدينة السلام مؤرخ من سنة ١٥٧ هجرية يحمل المأثورات التالية[٢]:

---

(١) Bell, G. L. Palace and Mosque at Ukhaidir, p. 4.

(٢) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. II, p. 301

الوجه الأول

المركز: لا إله إلا
وحده الله
لا شريك له

الطوق: بسم الله ضرب (ب هذا
الفلس بمدينة) السلام
سنة سبع وخمسين ومئة

الوجه الثاني

المركز: محمد
رسول
الله
عدل

الطوق: بسم الله (مما
أمر به عبد) الله عبد
الله أمير المؤمنين
أعز الله نصره

ولما كنا نعلم أن المسكوكات النحاسية لا يمكن لها أن تبقى في التداول أمداً طويلاً بسبب قابليتها السريعة على التلف من جهة وإلى عدم رغبة الناس في اكتنازها أو ادخارها بسبب رخص معدنها من جهة أخرى. فربما انها وصلت إلى هذا الحصن في نهاية عصر المنصور أو في السنوات الأولى من خلافة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٧٤ ـ ٧٨٥م).

وهكذا فإنه لمن الغريب حقاً أن لا يجد المرء إشارات واضحة إلى مثل هذا البناء الشامخ العظيم، الذي يعود تأريخ بنائه إلى ما قبل أكثر من إثني عشر قرناً ونصف القرن في المصادر العربية القديمة رغم انه بناء شامخ مشيد بالحجارة والآجر والجص ويزيد ارتفاعه على تسعة عشر متراً وتنوف رقعة الأرض التي يشغلها على ثمانية وعشرين

---

(١) لقد عثر أثناء عمليات رفع الأتربة والأنقاض في الأخيضر خلال مواسم أعمال الصيانة التي تضطلع بها المؤسسة العامة للآثار والتراث العراقية على مجموعة من المسكوكات أغلبها مشوهة غير واضحة القراءة. من المسكوكات الفضية الجيدة التي اكتشفت في موسم سنة ١٩٦٨ درهم فضي عثر عليه عند مجري للماء يصل بين وادي الأبيض والحصن على بعد ثلاثة كيلو مترات منه تقريباً وهو مضروب في مدينة (جي) سنة ١٦٢ هجرية يحمل اسم الخليفة المهدي. (مظفر الشيخ قادر، مسكوكات من الأخيضر، مجلة المسكوكات، العدد ١، ١٩٦٩، ص٢٠).

ألفاً من الأمتار المربعة[1]. وهو الحصن المتميز بوسائل وإمكانات دفاعية التي لم يعرف ما يشابهها في أكثر البلدان الأوربية تقدماً وتطوراً قبل نهاية القرن الثاني عشر الميلادي. اللهم إلا إذا كان السبب في سكوت المؤرخين والبلدانيين القدامى عنه إنه لم يكن يعرف باسم واحد في جميع الحقب الزمنية التي كان شاخصاً فيها. فليس من المستبعد والحالة هذه أن يكون قد سمي بأسماء مختلفة متنوعة أو اقترن اسمه أحياناً بأسماء بعض الأمراء أو القبائل التي نزلته أو استفادت منه. ومما يدعم هذا الاقتراح ما كتبه الرحالة الإيطالي (بترو ديلا فيلا) الذي اجتاز به في طريقه من البصرة إلى حلب في النصف الأول من القرن السابع عشر، كما سبق وذكرنا، بأنه كان يسمى عند أهل المنطقة بقصر (الخفاجي). ومما يدعم ذلك أن المؤسسة العامة للآثار والتراث قد كشفت مؤخراً على بعض جدر حصن الأخيضر الداخلية نصاً كتابياً بخط النسخ قوامه سبعة أسطر كتب بالحبر الأسود على الكساء الجصي مباشرة. نفضت بعض كلماته نتيجة لعوامل الرطوبة والقدم مما جعل قراءة بعض أجزاء الكتابة صعبة جداً أو غير ممكنة (شكل ٢). ويمكن أن نقرأ الواضح من النص على النحو التالي:

حفظ الله أحمر ابن
أبي المولي الخفاجي
العيهلي (؟) المحسن إلى جاره
. . . .
. . . . بره واجره
كتبه ناصـ (ر) المعلم غفر الله له ولوالديه
ولجميع المـ (سلمين) ولمن دعا له بالمغفرة.

---

(١) يشكل حصن الأخيضر أرضاً أقرب إلى المربعة منها إلى المستطيلة. طوله من الشمال إلى الجنوب ١٧٥,٥م وعرضه من الشرق إلى الغرب ١٦٩,٣م. (Creswell, op.cit., Vol. II, P. 211.

إن من دراسة نمط الكتابة يمكننا إرجاع النص إلى حقبة زمنية لا تتجاوز نهاية العصر العباسي أو مطلع العصر المغولي التتري في العراق. ومهما يكن من أمر فإن ما يهمنا من النص هو اسم الرجل الذي من أجله كتب والذي ربما كان لسيد مرموق أو رئيس من رؤساء قبيلة خفاجة. فما هي علاقة خفاجة بحصن الأخيضر؟ تشير المدونات العربية القديمة أن هذه القبيلة كانت قبل الاسلام تقطن جنوب غرب يثرب من شبه جزيرة العرب نزحت إلى العراق على أثر الفتوح العربية الاسلامية الكبرى لتستوطن أو تجوب في ضـواحي الكوفة أو بالقرب منها، فقد كانت خفاجة أقرب إلى البداوة منها إلى أهل المدر. وكثرت الإشارات التاريخية إلى خفاجة منذ مطلع القرن الخامس الهجري، حيث ذكر أن أميرهم منيع بن حسان سار بخفاجة في سنة ٤١٧ هجرية (١٠٢٦م) إلى مدينة (الجامعين[١])، التي كانت آنذاك لنورالدين دبيس، فنهبها. ثم إلى الأنبار وهي في ذلك الوقت للأمير قراوش بن مقلد (المتوفي سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠م) فنهبها وأحرق أسواقـها[٢]. ولـما جاء طغـرلبك إلى العـراق سنة ٤٤٧ هجـرية (١٠٥٥م) استنجد به دبيس على خفاجة فسار إليهم فأجلاهم عن (الجامعين) ودخلوا المفازة فاتّبعهم فأدركهم بـ(خفّان) فـأوقع بهم، وحاصر حصن (خفّان) وفتحه وخرّبه. ثم سار إليهم البساسيري قائد جيوش الخلافة في سنة ٤٤٨ هجرية (١٠٥٦م) عندما عاثت خفاجة في المنطقة فساداً مرة أخرى فانهزمت منه ودخلت البر فلم يتبعهم وعاد عنهم فرجعوا إلى اقلاق راحة المواطنين في المنطقة، «فاستعد لسلوك البر خلفهم أين قصدوا وعطف نحوهم قاصداً حربهم فدخلوا البر أيضاً فتبعهم فلحقهم بخفان وهو حصن بالبر فأوقع بهم وقتل منهم ونهب أموالهم وجمالهم وعبيدهم واماءهم وشردهم كل مشرد

(١) هي مدينة الحلّة الحالية.

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص ٦٧.

وحصر .(خفّان) ففتحه وخربه وأراد تخريب القائم به بناء من آجر وكلس وصانع عنه صاحبه ربيعة بن مطاع بمال بذله فتركه وعاد إلى البلاد. وهذا القائم قيل إنه كان علمًا تهتدي به السفن لما كان البحر يجيء إلى النجف[1].

وفي سنة ٤٨٥ هجرية (١٠٩٢م) خرجت خفاجة على الحجيج القادمين من بغداد في طريقهم إلى الديار المقدسة لتأدية مناسك الحج فأوقعوا بهم وقتلوا أكثر الجند الذين معهم فانهزم باقيهم ونهبوا الحجاج وقصدوا الكوفة ودخلوها. وعندما وصل الخبر إلى بغداد سيّرت العساكر منها إليهم فانهزموا فأدركهم العسكر فقتل خلقاً كثيراً منهم ونهبت أموالهم. ويخبرنا ابن الأثير أنه لم يعد لخفاجة شأن بعد تلك الهزيمة[2]. غير أن السمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧م) والذي اجتاز بادية السماوة في حدود سنة ٥٥٠ هجرية (١١٥٥م)، وهي البادية التي عرّفها وحددها البلدانيون العرب وغيرهم من الباحثين القدامى بأنها ألصق البوادي بأرياف الفرات من جهته الغربية[3]. يخبرنا نقلاً عن خفيره ودليله (أبو زيد الخفاجي) بأنه كان يركب من قبيلة خفاجة على الخيل في أيامه أكثر من ثلاثين ألف فارس سوى المشاة[4]. ويذكر القلشندي نقلا عما كتبه المؤيد عماد الدين إسماعيل أبي الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هجرية (١٣٣٢م) إن اليد الطولى ما برحت لبني خفاجة في أواسط العراق وجنوبه حتى الفترة الزمنية التي عاشها[5].

وهكذا فإنه يستفاد مما أورده المؤرخون والبلدانيون العرب أن

---

(١) المصدر السابق، جـ ٨، ص ٦٧.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٣) محمد رضا الشبيبي، رحلة في بادية السماوه، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الحادي عشر، ١٩٦٤، صفحة (ن).

(٤) المصدر السابق، صفحة ت ت.

(٥) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ٢٤٧.

خفاجة كانت في النصف الثاني من العصر العباسي ثم في المئة السابعة والثامنة ربما من أهم قبائل بادية السماوة والكوفة[1]. غير انه يبدو أن تلك القبيلة هجرت البادية في القرون الأخيرة لتستقر على ضفاف الأنهار. وأن غالبية خفاجة تقيم الآن بين الشطرة والناصرية جنوب العراق، وهي عدة أفخاذ تعنى كلها بالزراعة. ومن أفرادها من يقيم قرب الحلة على شواطىء الفرات يتعاطون الزراعة أيضاً[2]. ولازال قسم منهم يسكن في الوقت الحاضر قضائي الكفل والقائم ويقدر عدد أفرادهم بنحو سبعة آلاف نسمة[3].

ومن دراسة النصوص القديمة يتبين لنا أن تلك القبيلة كانت في الماضي القريب أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة، تلجأ إلى المفازة كلما داهمها خطر. والمفازة هنا هي ذلك الجزء من بادية السماوة الذي يقع ضمن الرقعة الممتدة من شمال القادسية إلى الجنوب الغربي من كربلاء. فلا شك والحالة هذه أن حصن الأخيضر يقع ضمن المنطقة التي كانت تلجأ إليها خفاجة عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، غير أن المؤرخين العرب لم يشيروا في كتاباتهم إلا إلى حصن (خفّان) والقائم التي مرت الإشارة إليه، وهو الحصن الذي لا نستطيع أن نحدد موقعه بالضبط. إن أقدم الإشارات التاريخية إلى (خفّان) هي عند البلاذري فقد أشار إليه في موضعين من فتوح البلدان، الأول: «أقبل خالد إلى مجتمع الأنهار فلقيه (أراذبه) صاحب مصالح كسرى فيما بينه وبين العرب فقاتله المسلمون وهزموه، ثم نزل خالد (خفّان) ويقال: بل سار قاصداً خفّان[4]». وفي الموضع الثاني يكتب البلاذري نقلاً عن الواقري: «وجه المثنى بن حارثة النسير وحذيفة بن محصن بعد

---

(١) نفس المصدر، صفحة ت ت.

(٢) نفس المصدر، صفحة ت ت.

(٣) عبد الجبار فارس، عامان في الفرات الأوسط، ص٩٩.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٤.

يوم الجسر وبعد انحيازه بالمسلمين إلى (خفّان) وذلك في خلافة عمر بن الخطاب في خيل، فأوقعا بقوم من بني تغلب وعبر إلى تكريت فأصاب نعمًا وشاء»[1]... أما عند البلدانيين فإن الصورة عن (خفّان)، تختلف من حيث الصفة بعض الاختلاف. فيكتب لنا ياقوت الحموي (المتوفي سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م) بأنه «موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج احياناً، وهو مأسدة، وقيل هو فوق القادسية. قال أبو عبيدة السكوني: (خفّان) من وراء النسوخ على ميلين أو ثلاثة عين عليها قرية لولد عيسى بن موسى الهاشمي تعرف بخفان، وهما قريتان من قرى السواد من طف الحجاز»[2].

أما بالنسبة إلى المؤرخين العرب الذين أتحفونا بمدوناتهم التاريخية في القرن الأخير من العصر العباسي أو نحو ذلك، ومنهم ابن الأثير (المتوفي سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م) فإنه يذكر لنا أن (القائم) الواقع عند (خفّان) كان مشيداً «بالآجر والكلس» أي بالآجر والحجارة الكلسية وهي المواد البنائية نفسها المستعملة في بناء حصن الأخيضر. ثم إن القائم الذي «قيل إنه كان علمًا تهتدي به السفن لما كان البحر يجيء إلى النجف[3]». فإننا نعلم اليوم أن امتدادات بحر النجف كانت واسعة في العصور القديمة، وربما استمرت كذلك ولو بشكل أقل بكثير في العصور الاسلامية الأولى[4]. وقد تكون بحيرة الرزازة التي تقع قرب كربلاء تشكل قديماً جزءاً من بحر النجف. وان حدوده الطبيعية ربما امتدت إلى حافات تلول (الطار) غرباً، وهي التلول التي يمكن فيها مشاهدة حصن الأخيضر عن بعد.

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٥٠.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٧٩.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨ ص٦٧.

(٤) Caesar Voute A Prehistoire Find Near Razzaza, Sumer, 1957, p. 141.

ونتيجة لما تقدم فإن حصن (خفّان) كان يقع في المفازة الواقعة غربي الخيرة أو ربما إلى الشمال الغربي منها، أي في نفس المنطقة التي تقع فيها حصن الأخيضر. وعلى ذلك فنحن نسائل أنفسنا أحياناً فيما إذا كان بالمستطاع أن يكون حصن الأخيضر هو نفسه حصن (خفّان)؟.

وإذا تركنا خفاجة وشأنها ورجعنا قليلاً إلى الوراء نجد أن الهيمنة على المنطقة في أواسط القرن الرابع الهجري كانت لبعض الدعار وقطاعي الطرق، منهم ضَبيعة بن محمد الأسدي الذي استولى على عين التمر وما جاورها فملكها نيفا وثلاثين عاماً. وذكر عنه إنه كان «يسفك الدماء ويخيف السبل وينهب القرى ويبيح الأموال[1]». كما ذكر انه في بعض غاراته التي كان يقوم بها من حين إلى حين أغار على كربلاء ونهب مشهد الحسين (رض)[2]. ولم تفلح الخلافة العباسية في القضاء على تمرّده إلى أن نهض إليه عضد الدولة أبو شجاع فنا خسرو سنة ٣٦٩ هجرية (٩٧٩م) بنفسه على رأس جيش يبلغ تعداده نحو عشرة آلاف فارس فهاجم عين التمر وحاصر القلعة. ويذكر لنا ابن مسكويه أن ضبيعة لم يشعر إلا وعساكر بغداد توشك أن تحيط به فترك أهله وهرب بحشاشته إلى البادية[3].

فأية قلعة هذه في عين التمر التي تحصن بها ضبيعة نيفا وثلاثين عاماً؟ ونحن نعلم أن حصن الأخيضر لا يبعد عن عين التمر سوى بضع أميال.

وإذا تجاوزنا ضبيعة الأسدي نجد أن الهيمنة على تلك المنطقة قبل ذلك التاريخ كانت للقرامطة، حيث يروي أن أول ظهور لهم كل في أيام خلافة المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠١م) وذلك في

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، جـ٧، ص١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٢، ص ٤١٤.

(٣) ابن الجوزي، المصدر السابق، جـ٧، ص١٠١.

سنة ٢٨٤ هجرية. فقد استطاع في القطيف رجل يدعى أبا سعيد القرمطي أن يتغلب على (هجر) عاصمة البحرين فملكها[1] والذي يهمنا هو أنهم تمركزوا لأمد بعيد في منطقة الكوفة من العراق. وتجمعت طائفة منهم في عين التمر ونواحيها تحت لواء قائد من قوادهم هو عيسى بن موسى. وروى إنهم شيدوا في تلك الإصفاع حصناً ضخماً أطلقوا عليه اسم (دار الهجرة)، كما تذكر لنا المصادر التاريخية لعربية التي تناولت التاريخ العباسي بشيء من الإسهاب وذلك في حدود ٣١٦ هجرية (٩٢٨م)[2]. ونحن في الوقت الذي نستبعد فيه أن يكون حصن الأخيضر من المباني التي شيّدها القرامطة وذلك لأسباب معمارية صرفة وهي ان الطراز المعماري الاسلامي كان في العصر الذي ظهر فيه القرامطة قد قطع خطوات عظيمة في طريق التقدم وفي تحقيق طراز معماري إسلامي صرف بعيد كل البعد عن الطرز المعمارية التي كانت سائدة في العصور السابقة للاسلام وفي العصر الأموي وحتى القرن الذي تولى فيه بنو العباس خلافة المسلمين. بينما نجد أن المميزات المعمارية لحصن الأخيضر جعلت غالبية علماء الآثار يضعونه في فترة زمنية لا تتجاوز النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، إضافة إلى الأسباب الأخرى التي سبق وتطرقنا إليها في أول هذا البحث. ولكن من المعقول والمنطلق أن يكون القرامطة قد أفادوا فائدة كبيرة من وجود هذا الحصن الدفاعي العظيم، خاصة وإنه ليس ثمة شك في أنه كان قائماً في الحقبة الزمنية التي ظهروا فيها على المسرح السياسي.

وإذا تركنا العصر العباسي ورجعنا إلى فجر الاسلام فهناك الكثير من الإشارات التاريخية إلى وجود حصن عظيم في عين التمر أو قربها فيذكر الطبري عن فتح خالد بن الوليد لعين التمر انه كانت فيها

---

(١) ابن الجوزي. المصدر السابق، جـ٦، ص ١٨.

(٢) المصدر السابق. ص ١٠٧.

مرابطة ساسانية[1]. ويكتب البلاذري أن خالداً قد أتى بعد الأنبار «عين التمر فألصق بحصنها وكان فيه مسلحة للأعاجم حتى سألوا الأمان فأبى أن يؤمنهم وافتتح الحصن عنوة وقتل وسبى[2]. . . .» وفي رواية أخرى انه دخل عين التمر صلحاً[3]. ويشير البلاذري وغيره من أوائل مؤرخي العرب أن هناك حصناً معروفاً يقع في أو قرب عين التمر يعرف بقصر (مقاتل) وهو الحصن الذي ينسب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أمرىء القيس بن زيد مناة[4]. وهو الحصن الذي نزله الحسين بن علي (رض) بعد أن تحرك من القادسية متجهاً إلى كربلاء[5]. ويذكر ياقوت الحموي «أن قصر مقاتل كان بين عين التمر والشام[6]. ويذكر أيضاً أن قصر بني مقاتل أصبح لعيسى بن علي[7]. ونتيجة لما تقدم من نصوص التي أشار إلى معظمها أستاذنا الدكتور صالح أحمد العلي فهو يرى أن قصر مقاتل ربما كان الأخيضر نفسه «فإن لم يكن هو فإن قصر مقاتل كان قريباً جداً منه[8]».

وإذا تعمقنا في التاريخ الاسلامي ووصلنا إلى عصر الرسالة النبوية الكريمة تكثر الإشارات التاريخية إلى (دومة الجندل) وصاحبها أكيدر بن عبد الملك الكندي. ففي أخبار السنة التاسعة للهجرة ذكر أن النبي الكريم ﷺ بعث بخالد بن الوليد عندما كان النبي (ص) في تبوك في غزوة خاصة إلى (دومة الجندل). وتذكر لنا المدونات

---

(١) الطبري، التاريخ، جـ٣، ص ٣٧٦.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٨.
(٣) نفس المصدر، ص ٢٤٩.
(٤) نفس المصدر، ص ٢٨٢.
(٥) الطبري، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٦) ياقوت، المصدر السابق، جـ٤ ص ١٢١.
(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٥، ص٢٩١.
(٨) صالح احمد العلي، منطقة الكوفة، مجلة سومر، المجلد ٢١، ١٩٦٥، ص ٢٤٦.

التاريخية العربية أن خالداً استطاع أن يأسر أكيدر ويأتي به إلى الرسول الله (ص) فصالحه على دفع الجزية. ويذكر الطبري أيضاً بان أكيدر بن عبد الملك منع دفع الجزية بعد وفاة رسول الله (ص) أبان السنوات الأولى من الفتوح العربية الكبرى. وهنا تختلف الروايات التاريخية، فيكتب لنا الطبري إنه «لما فرغ خالد من عين التمر خلّف بها عويم بن الكاهل الاسلمي وخرج في تعبيته التي دخل بها العين ولما بلغ أهل (دومة) مسيرة خالد اليهم بعثوا إلى أحزابهم من كلب وغسان وتنوخ[1]...» وتم فتح الحصن على يد خالد في سنة ١٢ هجرية وقتل أكيدر. ويذكر البلاذري في ذلك روايتين: الأولى ان خالد أتى دومة من عين التمر ففتحها ثم أقبل إلى الحيرة ومنها مضى إلى الشام. والثانية انه مضى إلى الشام من عين التمر من دون أن يمر بالحيرة[2]. ويؤيد الرواية الأخيرة الطبري[3]. وقد ذكر أيضاً إنه لما نقض أكيدر الصلح مع النبي (ص) أجلاه عمر بن الخطاب (رض) عن (دومة الجندل) حين أجلى مخالفي الدين الاسلامي إلى الحيرة، فنزل في موضع قريب من عين التمر وبني منازل سماها (دومة) باسم حصنة بوادي القرى فهو قائم الآن إلا انه خراب[4]. غير أن ياقوت نفسه الذي أورد هذه الرواية قد شكك فيها لتناقضها مع ما أجمع عليه كتّاب الفتوح الاسلامية من أن خالداً قد قتل أكيدر في سنة ١٢ هجرية أيام خلافة أبي بكر (رض). ويميل ياقوت إلى ما ذكره أحمد بن جابر في كتاب الفتوح وهو انه «لما مات رسول الله (ص) منع أكيدر الصدقة وخرج من (دومة الجندل) ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناء سماه دومة... وقيل ان خالداً لما انصرف من

---

(١) الطبري، جـ٤، ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥١.

(٣) الطبري، جـ، ص ٢٣.

(٤) ياقوت، المصدر السابق، مادة (دومة الجندل).

العراق إلى الشام مرّ بدومة الجندل التي غزاها أولاً بعينها وفتحها وقتل أكيدر. وقد روي أن أكيدر كان منزله أولاً بدومة الحيرة هي كانت منازله وكانوا يزورون أخـوالهم من كلب، وإنه لمعهم وقـد خرجوا للصيد إذ وقعت له مدينة منهدمة لم يبق إلا حيطانها وهي مبنية وسموها (دومة الجندل) تفرقة بينها وبين (دومة الحيرة). وكان أكيدر يتردد بينها وبين (دومة الحيرة). فهذا يزيل الاختلاف[1]. . . «وقد سمي حصن (دومة الجندل) التي كانت تقع على بعـد سبع مراحل من دمشق في الطريق إلى مدينة الرسول (ص) بـ(المارد)[2].

ومهما يكن من أمر فيبدو لنا بـوضوح أن هنـاك (دومتين): واحدة قرب عين التمر وهي (دومة الحيرة)، والأخرى قرب تبوك وهي (دومة الجندل)، ولا خلاف في أن كليهما قد شيد على يـد شخص واحد هو أكيدر بن عبد الملك. وينحصر الخلاف فقط في أيتهما شيدت قبل الأخرى.

ومن المهم جداً في هذا الخصوص أن ننقل ما كتبه الرحالة إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني (المتوفى سنة ١٠٨٣ هـ/ ١٦٧٢م) في رحلته من المدينة المنورة إلى الديار الشامية: «استمرينا نسير فيه لا نألو جهداً ولا نميل عن التوجه قصداً. . . ونحن نتراءى قلعة الأخيضر ونتهاوى في السير لذلك المنزل النضر لما ملأ الأسماع من صفاته وشاقنا ما قابلناه من عذب نسماته. . . فنزلنا منه منزلاً لـين الموطأ عذب الهـواء، متسع الجـوانب، تعذب فيـه المسـارح والمذاهب، فإذا ماؤه أحلى ماء ذقناه بعد ماء المدينة ورأينا به قلعة عالية حصينة مربعة الوضع والأركان عالية البناء كأنها من قصور عبد المدان. مبنية بالحجارة المحكمة الإلصاق والبناء الناعمة المسّ فكأنها

---

(١) ياقوت، المصدر السابق، مادة (دومة الجندل).

(٢) نفس المصدر والصفحة.

أعكان حسناء. دخلتها للإحاطة فإذا هي مشتملة على أوضاع متعددة في أركانها وغيرها وبها ايوان مرتفع في مقابل بابها به محراب أعده أهل القلعة لصلاتهم وعباداتهم، وهو متسع الوضع حسنه، وبالقلعة زادهم وما يحتاجون إليه من قوتهم في عامهم... ترد عليهم الأعراب بالغنم والسمن والحشيش وما يحتاجون إليه فيدخرونه داخل القلعة وخارجها فإن خارجها أبنية كثيرة على صورة الدكاكين[١]...».

ويمضي الخياري المدني في القول بأنه في فجر اليوم التالي سار الركب بهم إلىٰ أن وصلوا بعد العصر (مغاير شعيب) ثم ساروا منها إلى أن وصلوا (تبوك) بعد طلوع شمس اليوم التالي[٢]. فمن الواضح من السرد أن قلعة الأخيضر هذه لا تبعد إلا مسيرة يوم واحد عن (تبوك). وقد ذكر موزيل Musil في كتابه (شمال الحجاز) بان المنزل القديم المعروف بـ(الأخضر) الواقع بين العظم وتبوك لازال يعرف بذلك الاسم[٣].

إن من دراسة ما يخبرنا به الرحالة المدني وأكده لنا المستشرق موزيل يجعلنا نرجح أن قلعة الأخيضر الشامية هي في الأصل قلعة (المارد) في (دومة الجندل). حيث انها من الناحية الجغرافية لا تبعد إلا قليلاً عن (تبوك). وما اسمها إلا تحريف عن اسم الأمير الذي قام ببنائها في الأصل وهو أكيدر بن عبد الملك وذلك قبيل الاسلام والقريب جداً من عصر الرسالة الشريفة أو خلال ذلك العصر. فإن لم تكن هي القلعة القديمة نفسها فربما تكون القلعة التي أمضى بها الخياري ليله وهو في طريقه إلى دمشق الشام في سنة ١٠٨٠ هجرية (١٦٦٩م)[٤]، قد شيدت على أنقاض تلك القلعة التي بناها أكيدر

---

(١) الخياري المدني، تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، جـ١، ص ٥٠ ـ ٥١.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٤.
(٣) موزيل، شمال الحجاز، ص ١٥٦.
(٤) الخياري، المدني، المصدر السابق، ص ٣٦.

فاكتسبت نفس الاسم القديم.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى حصن الأخيضر الواقع قرب عين التمر في الجانب العراقي من بادية السماوة. فإننا لنجد من الغريب حقاً أن يحمل نفس الاسم الذي كان يعرف به الحصن الذي يقع في الجانب الغربي من بادية السماوة قرب (تبوك). غير اننا إذا تذكرنا أن شخصاً واحداً مشيد (دومة الحيرة) قرب عين التمر و(دومة الجندل) قرب تبوك لربما يمكننا القول من غير جزم بأن حصن الأخيضر قرب عين التمر قد شيد على أنقاض (دومة الحيرة) التي شيدها الأمير العربي أكيدر بن عبد الملك. ونحن نميل إلى التسليم أيضاً بأن اسم (الأخيضر ما هو إلا تحريف عن اسم ذلك الأمير.

فهرست المصادر

١- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، طبعة بيروت، ١٩٦٧.

٢ - ابن الجوزي، ابن الفرج عبد الرحمن، (ت ٥٩٧ هـ/١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

٣ - ابن مسكويه، أحمد بن محمد، تجارب الأمم، ليدن ١٨٦٩.

٤ - البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان، طبعة مصر ١٩٣٢.

٥ - ، أنساب الأشراف، طبعة مصر.

٦ - الخياري المدني، إبراهيم بن عبد الرحمن، (ت ١٠٨٣ هـ/ ١٦٧٢م)، تحفة الأدباء و وسلوة غرباء، طبعة بغداد ١٩٦٩.

٧ - صالح أحمد العلي، منطقة الكوفة، مجلة سومر، المجلد ٢٠، ١٩٦٠.

٨ - الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٣م)، تاريخ الرسل والملوك، طبعة مصر، ١٩٦٠ وطبعة دار المعارف ١٩٦٩.

٩ - عارف ثامر، القرامطة، طبعة بيروت.

١٠ - عبد الجبار فارس، عامان في الفرات الأوسط، طبعة بغداد.

١١ - القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م) صبح الأعشى في قوانين الانشاء، القاهرة، ١٩١٣.

١٢ ـ القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، طبعة القاهرة، ١٩٥٩.
١٣ ـ محمد رضا الشبيبي، رحلة في بلدية السماوة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الحادي عشر، ١٩٦٤.
١٤ ـ مظفر الشيخ قادر، مسكوكات من قصر الأخيضر، مجلة المسكوكات،
١٥ ـ موزيل، شمال الحجاز، مترجم.
١٦ ـ ياقوت الحموي، (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م)، معجم البلدان، طبعة بيروت، ١٩٥٥.

١٦ - **Bell, G. L.,** Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, 1914.

١٧ - **Caesar, Voute,** A Prihistorie Find Near Razzaza Sumer, 1957

١٨ - **Creswell, K.A.C.,** Early Muslim Architecture Oxford, 1932.

جمعية الجوال
فصل من تاريخ القومية العربية في العراق المعاصر

بقلم الدكتور فاضل حسين
أستاذ التاريخ الحديث في جامعة بغداد

مقدمة

خلال السنوات الدراسية ١٩٧٤ ـ ١٩٧٧ أنيط بي تدريس موضوع «تطور الفكر السياسي في العراق المعاصر» لطلاب دراسة الدكتوراة في التاريخ الحديث في كلية الآداب في جامعة بغداد. تناول البحث، فيما تناول، تطور الفكر القومي. كانت هناك خلال ثلاثينات هذا القرن جمعية عربية قومية باسم «جمعية الجوال». وقد عاصرتها وكانت لي علاقات صداقة مع كثيرين من أعضائها بعضها صداقة حميمة. تذكرت نحو خمسين اسماً من أسماء الأعضاء. ومنذ ذلك الوقت عاودت الاتصال بالكثيرين ممن أعرف من أعضاء الجمعية، وأخذت على عاتقي كتابة هذا البحث.

منذ الثلاثينات انتقل إلى رحمة الله عدد كبير من أعضاء الجمعية، ومنهم من ينتظر. خشيت أن تضيع آثار الجمعية والمعلومات التاريخية عنها، أسهم عدد كبير من الجوالين في ذكر معلوماتهم واعارة أوراقهم، أخص بالذكر منهم الأستاذين سعدي خليل وناجي معروف. فلجميع من أسهم شكري الجزيل.

ذكرياتي عن الجمعية:

في ربيع سنة ١٩٣٢، حين كنت على وشك التخرج في دار المعلمين الأولية ببغداد، سمعت باسم جمعية الجوال من عبد المجيد عباس. في ذلك الحين كان من نصيبي تطبيق أصول التدريس في مدرسة تطبيقات دار المعلمين في الكرخ، وكان من بين أعضاء هيئتها التعليمية عبد الحميد كاظم ومحمد ناصر وسليمان قدوري واحمد حقي الحلي، من أعضاء جميعة الجوال فقامت بيني وبينهم صداقة.

بعد تخرجي عينت معلماً في المدرسة المحمودية في أبي الخصيب وعينّ معي محمود غناوي من أعضاء الجمعية، وقد عشنا معاً وسكنا داراً واحدة سنة واحدة، دارت خلالها مباحثات ومناقشات حول الأفكار القومية. ثم نقلت إلى التعليم في مدينة بغداد سنة ١٩٣٤، أي بعد اجازة جمعية الجوال رسمياً.

في بغداد حدثت لقاءات كثيرة مع أصدقائي من المعلمين وتعرفت على عدد آخر واطلعت على أفكار الجمعية وناقشتها. كنت التقي مع المعلمين ومع أعضاء الجمعية في نادي المعلمين الذي كان مقره في منطقة باب الآغا قرب سوق الصفافير ببغداد ثم نقل إلى منطقة المربعة، منهم سعدي خليل وتوفيق منير وجابر عمر ورشيد علي العبيدي وعبد المجيد صالح ونهاد عبد المجيد وعمر أحمد الراوي وداود يحيى ويوسف محمد سعيد وعبد الكريم كنونة من الجوالين.

وفي بغداد أيضاً سكنت في دار واحدة مع عبد الجليل علي الطاهر سنة واحدة وكان عضواً في الجمعية. وعينت في مدرسة واحدة مع عبد المجيد صالح وصار من أعز أصدقائي. وكنت بعد الدوام اذهب إلى المدرسة المأمونية التي كانت تقع في منطقة الميدان والتقي بمديرها توفيق منير ثم نذهب معاً إلى نادي المعلمين.

في خلال تلك الفترة انتميت إلى الثانوية المركزية المسائية سنة

١٩٣٥ ـ ١٩٣٦، وكان مديرها درويش المقدادي الذي سبق أن درسني تاريخ الأمة العربية في دار المعلمين، ثم درسني في الثانوية المسائية المنهج المقرر في التاريخ الإسلامي. أذكر أنه سألنا في أحد الامتحانات سؤالاً واحداً وهو «ماذا استفدت من دراستك للتاريخ العربي ـ الإسلامي»؟ فكان جوابي أن العرب كانوا أمة عظيمة أسهموا إسهاماً كبيراً بالحضارة الإنسانية وأنه من الممكن الآن أن ينهضوا ويعيدوا دورهم التاريخي العظيم وأن يسهموا بالحضارة الإنسانية المعاصرة. استحسن درويش المقدادي جوابي وأشاد به في الصف. وكان ممن درسني في الثانوية المسائية أيضاً ناجي معروف وصدقي حمدي ومجيد خدوري. وكان من بين طلاب الثانوية المسائية قاسم حمودي، وهؤلاء من أعضاء جمعية الجوال.

هذه الظروف ساعدت على تعرفي على المزيد من أعضاء جمعية الجوال، وكانت تدور بيني وبينهم مناقشات طويلة وكثيرة في نادي المعلمين وفي أماكن ومناسبات أخرى. ونمت بيني وبين أكثر الجوالين صداقة واحترام متبادل وكانت لي مع بعضهم صداقة حميمة. هذا وكنت مؤمناً بالوحدة العربية مثلما كانوا يؤمنون ولكنني اختلفت عنهم بتعاطفي مع «جماعة الأهالي». أخبرني سعدي خليل أن الجمعية كلفت عبد الجليل علي أن يفاتحني للانضمام إليها، ولكنه لم يفاتحني.

ملاحظات:

١ ـ أرجو ممن يطلع على هذا البحث أن يمدني بالمعلومات الإضافية عن الجمعية وبأسماء الأعضاء الذين لم أذكرهم في هذا البحث مع معلومات عنهم.

٢ ـ إن الآراء الواردة في هذا البحث تمثل فترة الثلاثينات. وقد تطورت آراء البعض وتغيرت آراء البعض الآخر ممن يخصهم الأمر خلال فترة نصف قرن.

٣ ـ أغفلت ذكر الألقاب، واعتمدت البساطة في التعبير عن الأشخاص وهوياتهم، إلا إذا اقتضى البحث غير ذلك.

تأسيس الجمعية

من استعراضنا للمعلومات التي توافرت لدينا، بدا لنا أن درويش المقدادي كان رائد جمعية الجوال في عشرينات هذا القرن، وكان يدرس التاريخ الإسلامي في الثانوية المركزية في بغداد خلال السنة الدراسية ١٩٢٦ ـ١٩٢٧، حين وقعت «حادثة النصولي» وملخصها أن أنيس زكريا النصولي اللبناني الجنسية مدرس التاريخ الإسلامي في الثانوية المركزية ودار المعلمين الابتدائية في بغداد خلال السنة الدراسية نفسها ألف كتاباً بعنوان **الدولة الاموية في الشام** ليدرسه لطلابه، اتخذ فيه وجهة نظر تمس عواطف بعض الطلاب والاهلين فأدى ذلك إلى اضطراب الوضع ولذلك منعت وزارة المعارف العراقية تدريس الكتاب المذكور وفصلت النصولي من الخدمة، فحاول بعض المدرسين السوريين واللبنانيين والعراقيين مساندة النصولي وحرضوا الطلاب على التظاهر انتصاراً لحرية الفكر. وقد أنهت وزارة المعارف خدمات المدرسين السوريين واللبنانيين المحرضين وطردت بعض الطلاب من مدارسهم، ونقلت درويش المقدادي إلى متوسطة الموصل للبنين.

في خلال السنة الدراسية ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ ألف درويش المقدادي في متوسطة الموصل «لجنة الرائد العربي» وهي ذات اتجاه قومي، وكان بين طلابه هناك سعدي خليل الذي انتسب إلى دار المعلمين الابتدائية في بغداد في خريف ١٩٢٩[١].

وخلال السنة الدراسية ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ فكر جماعة من الأساتذة القوميين بتأليف جمعية قومية في بغداد ومنهم، درويش المقدادي وناجي معروف وسليم النعيمي ومزاحم الشابندر وعبد الستار القرغولي ورشيد علي العبيدي وعارف ظاهر وأحمد عزت محمد (صاحب جريدة الصرخة)

---

(١) المصدر: سعدي خليل.

وحكمت عبد الرحمن (صاحب مخزن في الأعظمية) وهؤلاء هم جماعة الرصافة[٢].

وفي الوقت نفسه كان طلاب دار المعلمين الابتدائية يفكرون بالموضوع نفسه، وقد أثروا على بعض أساتذتهم أيضاً وهؤلاء هم جماعة الكرخ الذين صاروا بعد ذلك الأكثرية الساحقة في جمعية الجوال التي تألفت بعد ذلك من اندماج جماعة الرصافة مع جماعة الكرخ، وكان أنشط هؤلاء الطلاب عبد المجيد عباس ومحمد ناصر وجاسم محمد الباقلاني وتوفيق منير وجابر عمر وفخري محمد سعيد الشيخ وسعدي خليل وطه عمر وسليمان محمد وعبد الجبار نوفان وعباس محمد القدسي ومحمد سعيد جمعة وسليمان قدوري وهم الذين أسسوا التنظيم، أي تنظيم الكرخ. ثم فاتحوا خالد الهاشمي ومتى عقراوي وضموهما إليهم، ثم فاتحوا الآخرين أي الوجبة الثانية من طلاب دار المعلمين وضموهم إلى التنظيم، ومنهم خضر عبد الغفور ونعمان أمين العاني وعبد الله أمين العاني ونهاد عبد المجيد وعبد الرزاق محمد ومحمود غناوي وخير الله طلفاح وعبد اللطيف جاسم الدراجي وحسن الدجيلي وهاشم الحلي وطاهر يحيى ومحيي الدين النقاش وعبد الكريم كنونة وعبد المجيد عبد النبي وقاسم خليل وضياء أبو الحب ونوري جعفر وأمين مصطفى الراوي وعبد الجليل علي الطاهر وحسن موسى وعلي القزويني وشاكر سعيد وفخري عبد القادر ومحمد داود وحمودي مهدي ومحمد حسن عبد علي الطائي[٣].

ـ قام بعض طلاب دار المعلمين الابتدائية، ومعهم خالد الهاشمي، خلال عطلة نصف السنة الدراسية ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ أي في أوائل سنة ١٩٣١ بسفرة إلى البصرة عن طريق الكوت والعمارة في الذهاب، وعن

---

(٢) المصدر: سعدي خليل ومحمد سعيد جمعة وناجي معروف.
(٣) المصدر: سعدي خليل.

طريق قطار البصرة ـ بغداد في الاياب. وفي أثناء السفرة فاتح عبد المجيد عباس ومحمد ناصر بقية زملائهم بفكرة تأسيس جمعية قومية مستشهدين بما قام به الطلاب العرب من تأسيس جمعيات في استانبول وباريس وبيروت والقاهرة والشام في أوائل هذا القرن العشرين(٤).

نالت فكرتهم الاستحسان. ولما عرضوها على بعض أساتذتهم أيدوها ومنهم خالد الهاشمي ومتى عقراوي. كوّن هؤلاء تنظيمًا سرياً في بداية الأمر، وأقسم الأعضاء على القرآن والسيف واتخذوا العلم العربي ذا الألوان الأربعة علمًا لهم متعاهدين على العمل من أجل القومية العربية والوحدة العربية عن طريق الثقافة والتربية والتعليم، باعتبار أن أغلبهم يمتهنون مهنة التعليم(٥).

تخرج طلاب دار المعلمين وانتشروا في ألوية العراق للتعليم فيها، ثم اجتمعوا خلال العطلة الصيفية في مدرسة تطبيقات دار المعلمين التي كان يعينّ فيها أفضل المتخرجين في دار المعلمين الابتدائية، وبعد أن يعلّموا سنة أو سنتين يرسلون في بعثات إلى خارج العراق للتخصص بموضوع التربية على الأكثر. وكان من بين معلمي مدرسة التطبيقات عبد المجيد عباس ومحمد ناصر وعبد الحميد كاظم وأحمد حقي الحليّ وسليمان قدوري وسعدي خليل وجابر عمر وتوفيق منير وطاهر يحيى، وقد اختارهم للتعليم في تلك المدرسة متى عقراوي وخالد الهاشمي(٦).

كانت جماعة الرصافة ذات مسحة دينية، بينما كانت جماعة الكرخ أكثر تسامحاً مع الأديان والقوميات الأخرى. وفي سنة **١٩٣٢** صار معلوماً لدى كل جماعة وجود الجماعة الأخرى تحمل المبادىء والأفكار نفسها وتعمل للأهداف نفسها. ولذلك اتفقت الجماعتان على العمل معاً

---

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر: سعدي خليل ومحمد سعيد جمعة وناجي معروف.

(٦) المصدر نفسه.

وتكوين تنظيم واحد. وقد تم ذلك خلال الاجتماع الأول بينهما في دار المحامي أحمد عزت محمد. ثم عقد اجتماع آخر في دار خالد الهاشمي لانتخاب رئيس للتنظيم. وكان من المقرر وجوب حصول الرئيس على ثلثي أصوات الحاضرين، وكان المرشحان خالد الهاشمي وناجي معروف، ولما جرى التصويت لم يفز أحدهما بعدد الأصوات المطلوب. وفي اجتماع تال لم يفز أحدهما أيضاً بالأصوات المطلوبة، ثم تنازل ناجي معروف لخالد الهاشمي[٧].

أجيزت الجمعية رسمياً في صيف ١٩٣٤ باسم جمعية الجوال. وقد اختير الاسم على اعتبار أن الأعضاء دعاة القومية العربية العاملين على بعث الفتوة العربية الإسلامية «سيتجولون» في أنحاء العراق والوطن العربي لنشر مبادئهم وأفكارهم. وكلمة «جوال» في نظرهم أرفع مستوى من كلمة كشاف المعروفة حينذاك. من الذين قدموا طلب تأسيس الجمعية خالد الهاشمي وناجي معروف ونعمان محمد أمين العاني وعمر أحمد الراوي وربما جابر عمر ورشيد علي العبيدي[٨].

يروي سليم النعيمي أن جمعية الجوال لم تكن سوى واجهة علنية من واجهات التكتل القومي السري الذي تأسس في بغداد سنة ١٩٢٨، وكان له ارتباط سري على مستوى البلاد العربية مقره دمشق[٩].

استذكر الجوالون القوميون الوحدويون التاريخ العربي الإسلامي، وكيف قامت دولة عربية كبيرة على امتداد الوطن العربي الكبير خلال فترة الأمويين والعباسيين، وكيف أسهم العرب بالحضارة الإنسانية.

وفي التاريخ الحديث تأثروا بتاريخ المانيا وايطاليا خلال القرن التاسع عشر وكيف تم توحيد المانيا وايطاليا كدولتين قوميتين. وفي أوائل

---

(٧) المصدر: سعدي خليل وناجي معروف وخالد الهاشمي.

(٨) المصدر: سعدي خليل ونعمان محمد أمين.

(٩) المصدر: سليم النعيمي.

القرن العشرين قامت الجمعيات العربية في استانبول والمدن العربية الكبرى تدعو إلى النهضة واستقلال الوطن العربي وتوحيده، فاستذكروا بصفة خاصة أعمال جمعية «العهد» وجمعية «العربية الفتاة» والثورة العربية الكبرى. وتدارسوا ما حل بالوطن العربي بعد الحرب العالمية الأولى من تجزئة وتخلف. كل هذه الأمور كانت الحوافز لتأليف جمعية «الجوال».

تنظيم الجمعية

القانون الأساسي لجمعية الجوال:

عثرنا بين أوراق ناجي معروف على نص القانون الأساسي للجمعية الذي يمثل منهاجها. يتألف القانون الأساسي من تسع مواد خلاصتها(١٠):

١ ـ **المادة الأولى**: اسم الجمعية جمعية **الجوال** ومركزها بغداد.

٢ ـ **المادة الثانية**: أهداف الجمعية أو الغاية منها: تنمية روح الفتوة والرجولة في الشبان، وذلك بالتمرينات العسكرية والرياضية والعمل لتهذيب الخلق الشخصي، واسداء الخدمات الصحية والاجتماعية بالتجول في أنحاء القطر العراقي وخارجه والجوال بعيد عن الحزبيات السياسية والمنازعات الدنينية.

٣ ـ المادة الثالثة: الوسائل: تتوسل الجمعية لتحقيق غاياتها بالتدريب العسكري وإقامة الحفلات الرياضية والاستعراضات ومكافحة العوامل المنهكة للصحة والمضعفة للشخصية، بالكتابة والمحاضرات وإقامة المؤتمرات والاتصال بالجوالين والكشافين خارج القطر. وللجوال أن يتوسل لتحقيق غاياته بكل الوسائل المشروعة.

٤ ـ المادة الرابعة: الكيان: تتألف جمعية الجوال من الرئيس والهيئتين

---

(١٠) من أوراق ناجي معروف الخاصة بجمعية الجوال.

التنفيذية والعامة:

أ ـ ينتخب الرئيس من الهيئة العامة من قبل ثلثي الأعضاء، ولا يتغير إلا إذا أجمعت الهيئة على إسقاطه.

ب ـ ينتخب أعضاء الهيئة التنفيذية من قبل الهيئة العامة، على أن لا يقل عددهم عن خمسة أشخاص وذلك لمدة سنة على الأقل، على أن يكون من بينهم أمين السر وأمين المال.

جـ ـ يقبل العضو في الجمعية إذا توفرت فيه الشروط الآتية:

١ ـ بلوغه سن العشرين على الأقل.

٢ ـ أن يكون حسن السيرة والسلوك والصحة.

٣ ـ غير ساقط من الحقوق المدنية.

وذلك بعد موافقة الرئيس والهيئة التنفيذية. وعلى العضو أن يطيع الرئيس اطاعة تامة ضمن حدود الغاية والقانون. ويعدّ العضو مفصولاً إذا قررت الهيئة التنفيذية ذلك ووافق عليه الرئيس، وليس له عند فصله أو انسحابه شيء مما دفعه من مال.

د ـ تؤسس فروع للجمعية بموافقة الرئيس والهيئة التنفيذية، بعد الاذن من وزارة الداخلية.

٥ ـ المادة الخامسة: المالية: تتكون مالية الجوال مما يلي:

١ ـ رسم دخولية قدره ربع دينار.

٢ ـ بدل اشتراك شهري قدره ١٪ من عشرة الدنانير الأولى من الدخل الشهري و٢٪ من العشرة الثانية وهكذا[١١]. ويدفع الأعضاء من طلاب المدارس درهماً شهرياً.

٣ ـ التبرعات وريع الحفلات والهبات التي تتقبلها الهيئة التنفيذية،

---

(١١) بتاريخ ١٥ آب ١٩٤٠ طلب سكرتير الجمعية من الجوالين طلاب المدارس، أن يدفع العضو منهم اشتراكاً شهرياً قدره درهم واحد.

وفقاً لأحكام القوانين والأنظمة المرعية، وكذلك اليانصيب الذي يتم وفقاً لأحكام القانون أيضاً.

٦ ـ المادة السادسة: الاجتماعات: تعقد جمعية الجوال اجتماعات الهيئة العامة مرة في السنة على الأقل، وفي زمان ومكان تعينهما الهيئة التنفيذية بموافقة الرئيس عليها.

٧ ـ المادة السابعة: النظام الداخلي: للهيئة التنفيذية بالاتفاق مع الرئيس اصدار نظام داخلي يعين واجبات أعضاء الهيئة التنفيذية وأعمالهم، وتقديم صورة منه إلى وزارة الداخلية.

٨ ـ المادة الثامنة: إصلاح القانون الأساسي: لا يصلح هذا القانون الأساسي إلا بموافقة الرئيس وثلاثة أرباع الأعضاء.

٩ ـ المادة التاسعة: الرئيس هو الذي يتعاطى المعاملات باسم الجمعية.

تعليق: في النصوص المتوافرة عن الجمعية أن الرئيس يدعى العميد أو المعتمد. ومن الواضح أن القانون يؤكد على التمرينات والتدريبات العسكرية، ويعطي الرئيس صلاحيات واسعة، ولعل سبب ذلك إيمان الجوالين بفكرة الزعيم والزعامة.

هذا وكانت الجمعية تتشدد في قبول المرشحين للعضوية فتتأكد من ميول المرشح العربية وحسن سلوكه وأخلاقه[١٢].

النظام الداخلي لجمعية الجوال:

وعثرنا بين أوراق ناجي معروف على النظام الداخلي للجمعية. وفيما يلي خلاصته:

١ ـ المادة الأولى: الجوالون على أربع مراتب، تضم المراحل التالية حسب

---

(١٢) المصدر: نعمان محمد أمين.

قدم الانتماء للجمعية والاشتراك في دورات التدريب وتقديم الخدمات للجمعية:

١ ـ الجوال المستجد: وهو العضو المقبول حديثاً، فإن لم تثبته اللجنة الادارية بقرار، قبل مرور سنة على قبوله، يكون خلالها بمثابة عضو تحت التجربة، عد منفصلاً عن الجمعية. ويحق للجنة الادارية أن تمدد فترة التجربة إلى سنة ونصف من تاريخ قبوله.

٢ ـ الجوال المثبت: هو الجوال الذي ثبتته اللجنة الادارية بقرار وفقاً للبند الأول.

٣ ـ الجوال المدرب: هو الجوال المدرب الذي توفرت فيه الشروط الآتية:

أ ـ قام بالتدريب المقرر في منهج التدريب العام.
ب ـ مضت ستة أشهر على تثبيته على الأقل.
جـ ـ قررت اللجنة الادارية عدّه جوالا مدرباً.

٤ ـ الجوال الركن: هو الجوال المدرب الذي توفرت فيه الشروط الآتية:

أ ـ مضت سنة على الأقل على عدّه جوالا مدرباً.
ب ـ قدم خدمات محسوسة للجمعية.
جـ ـ قام بالتدريب المقرر الخاص بالمدربين وفقاً للمنهج.
د ـ عمره ٢٢ سنة على الأقل.
هـ ـ قرر مجلس الأركان عده جوال ركن بأكثرية ثلاثة أرباع الأصوات.

٢ ـ المادة الثانية: في التنظيم

البند الأول: في المركز:

يتألف مركز الجمعية من معتمد الجمعية (رئيس الجمعية) ولجنة ادارية ومجلس أركان.

١ ـ مجلس الأركان هو مصدر جميع السلطات في الجوال.
٢ ـ يتألف مجلس الأركان من جميع الجوالين الأركان في الجمعية.
٣ ـ يجتمع مجلس الأركان مرتين على الأقل في السنة بدعوة من المعتمد واللجنة الادارية.
٤ ـ تتخذ القرارات في مجلس الأركان بأكثرية الحاضرين.
٥ ـ يعتبر مجلس الأركان معقوداً والنصاب حاصلاً عند وجود أكثرية الجوالين الأركان. وإذا لم يتوفر هذا في الدعوة الأولى فيدعى المجلس للمرة الثانية، ويعدّ النصاب حاصلاً مهما كان عدد الحاضرين.
٦ ـ يضع مجلس الأركان المناهج والخطط والأنظمة. من حق المعتمد أو اللجنة الادارية دعوة الأركان المقيمين في المركز لوضع المناهج والخطط والأنظمة والأمور المستعجلة.
٧ ـ ينتخب مجلس الأركان المعتمد بأكثرية ثلثي الأصوات. كما ينتخب ثلاثة من ستة من أعضاء اللجنة الادارية بالأكثرية المطلقة. وإذا لم يحز أحد المرشحين لمركز المعتمد أكثرية الثلثين في التصويت الأول، يبقى الانتخاب بين الشخصين اللذين حازا على العدد الأكبر من الأصوات، وإذا لم تحصل أكثرية الثلثين بينهما في التصويت الثاني فيكتفي في التصويت الثالث بحصول المعتمد على الأكثرية.
٨ ـ يبقى المعتمد في منصبه لمدة ثلاث سنوات، ويحق لمجلس الأركان إسقاطه بأكثرية الثلثين بناء على طلب ثلث مجلس الأركان بمذكرة تبين الأسباب الموجبة لذلك. وتعقد جلسة يترأسها أكبر الأعضاء سناً، ويعطى المجال الكافي للمعتمد وللمطالبين بإسقاطه لبيان وجهة نظرهم.

البند الثاني: اللجنة الادارية:

يكون للجمعية لجنة ادارية مؤلفة من ستة أعضاء يعين المعتمد ثلاثة منهم وينتخب مجلس الأركان الثلاثة الآخرين. يعين المعتمد من هؤلاء نائب المعتمد وأمين السر وأمين الصندوق.

للجنة الادارية صفة استشارية فقط. وللرئيس أن يغير الأعضاء الذين عينهم هو، أو الذين انتخبهم مجلس الأركان عند توفر الأسباب الموجبة لذلك.

وتكون السلطة التنفيذية بكاملها بيد المعتمد، وهو مسؤول أمام مجلس الأركان عن استعمال صلاحياته هذه.

٣ ـ المادة الثالثة: التشكيلات:

تتشكل الجمعية من فرق وفصائل وحضائر.

تتألف الفرقة من مجموع الجوالين المقيمين في إحدى المناطق الثلاث: منطقة الموصل (وتضم ألوية الموصل واربيل وكركوك والسليمانية).

ومنطقة بغداد (وتضم مركز بغداد وألوية بغداد والدليم وديالي والحلة وكربلاء والديوانية والكوت). ومنطقة البصرة (وتضم الوية البصرة والعمارة والمنتفك).

رؤساء الفرق هم الجوالون الأركان، ويلقب رئيس الفرقة بالقائد، ومعه معاون قائد من الأركان أيضاً.

وتقسم كل فرقة إلى فصائل، ويضم كل فصيل ٢٠ ـ ٤٠ جوالاً، ويرأس كل فصيل جوال ركن يلقب بآمر الفصيل، وقد يرأس الفصيل جوال مدرب، بالوكالة.

يقسم الفصيل إلى أربع حضائر، وتتألف كل حضيرة من ١٢ إلى ١٦ جوالاً.

يجوز لكل فرقة تشكيل لجنة لادارة شؤونها، إلا أنها تبقى ذات صفة استشارية والرأي النهائي فيها لقائد الفرقة المسؤول أمام المعتمد ومجلس الأركان.

تعليق:

يلاحظ على النظام الداخلي:

١ ـ الصبغة العسكرية، فهناك تعبير الجوال الركن ومجلس الأركان والفرقة والفصيل والحضيرة والقائد والآمر.

٢ ـ السلطات الواسعة التي يتمتع بها المعتمد (أو العميد).

* * * *

اقتصرت الجمعية على مدينة بغداد ولم تفتح لها فروعاً خارجها، ولكن انتمى إليها أعضاء من جميع انحاء العراق.

قام محمد سعيد جمعة سنة ١٩٣٨ بتأسيس «نادي المهلب بن أبي صفرة» في البصرة لخدمة اغراض الجمعية. تم تنظيم الجمعية على شكل حلقات في بادىء الأمر. وكانت اجتماعات الجوالين تتم في دور الأعضاء، ولا سيما خلال العطلات الصيفية[١٣].

تولى رئاسة الجمعية خالد الهاشمي ثم متى عقراوي ثم درويش المقدادي. وتولى سكرتاريتها توفيق منير وعبد الحميد كاظم ونعمان محمد أمين وسليم النعيمي ومحمد ناصر. وكان أبرز أعضاء مجلس الأركان خالد الهاشمي ومتى عقراوي وناجي معروف وفخري محمد سعيد ومحمد بديع شريف وسعدي خليل ورشيد علي العبيدي وعبد الستار القرغولي ونهاد عبد المجيد ونعمان محمد أمين وعبد المجيد صالح[١٤].

يحضر المرشح للانضمام إلى الجمعية إلى غرفة فيها منضدة عليها العلم العربي بألوانه الأربعة. ويقسم المرشح أمام رئيس الجمعية يمين الولاء للوطن ولمبادىء الجمعية على المصحف والسيف أو المسدس[١٥].

---

(١٣) المصدر: سعدي خليل ومحمد سعيد جمعة وسليم النعيمي وجابر عمر وخضر عبد الغفور

(١٤) من أوراق ناجي معروف.

(١٥) المصدر: رجب عبد المجيد، ومحمد خضر الشطري.

الأعضاء العرب غير العراقيين:

كانت جمعية الجوال قومية ضمت في صفوفها أعضاء عرباً أو متعاطفين مع العرب من العراقيين، وأعضاء عرباً من سورية (أي سورية الحالية ولبنان والأردن وفلسطين) ومصر. منهم:

١ ـ من سورية: فريد زين الدين (وهو درزي) وعبد العزيز الكنفاني وخليل المصفي (درزي) وأمين رويحة وواصل رسلان (درزي)، سعد الدين العيسي، عثمان الحوراني.

٢ ـ من فلسطين: درويش المقدادي وصبحية المقدادي وأكرم زعيتر وجورج منصور ـ راسم الخالدي ـ ممدوح السخن ـ واصف كمال ـ فريد يعيش ـ خليل المقدادي.

٣ ـ من الأردن: فرحان شبيلات.

٤ ـ من لبنان: انيس الصغير ـ ابراهيم حيدر

٥ ـ من مصر: الدكتور مصطفى الوكيل.

الأعضاء العراقيون المتعاطفون مع العرب:

وقد تحمس بعض الشباب من الغراقيين ممن ينتمون إلى أصول غير عربية، ولكنهم يشعرون بالشعور العربي، وقد تأثروا بصفة خاصة بأستاذهم درويش المقدادي فانتموا للجمعية، ومنهم يونس نادي وإبراهيم وصفي رفيق ويوسف الحاج الياس(١٦).

الأعضاء النصارى:

انتمى بعض النصارى بدافع الشعور القومي العربي. منهم: متى عقراوي، ومجيد خدوري وفؤاد سفر وبشير فرنسيس ومجيد حسو وجورج

---

(١٦) المصدر: سعدي خليل.

منصور (سكرتير جمعية العمال العرب في يافا).

المرأة في جمعية الجوال:

أخبرني سعدي خليل وإبراهيم شوكت أن صبحية المقدادي كانت المرأة الوحيدة كعضو في الجمعية، وهي أخت درويش المقدادي من طولكرم في فلسطين وزوجة إبراهيم شوكت.

الأعضاء العسكريون في جمعية الجوال:

بعد حدوث انقلاب بكر صدقي سنة ١٩٣٦ سمح لخريجي دار المعلمين الابتدائية والأولية بدخول الكلية العسكرية، فتخرجوا فيها ضباطاً. كان بعضهم أعضاء في جمعية الجوال قبل انتسابهم إلى الجيش. وكانت في الجيش كتلة من الضباط القوميين تتعاطف مع جمعية الجوال ونادي المثنى، وكان لذلك أثر في إسهام بعض أعضاء الجمعية والنادي في الحرب العراقية ـ البريطانية سنة ١٩٤١. كانت تلك الكتلة بزعامة العقداء الأربعة المعروفين صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب. ولكن قوانين وأنظمة الجيش كانت تحظر على الضباط التدخل بالسياسة والانتماء إلى الجمعيات والأحزاب والنوادي.

كان من أنشط المدنيين المتصلين بالضباط محمد يونس السبعاوي. ونسبت جمعية الجوال أن يكوّن سليم النعيمي حلقة الاتصال بين الجمعية والضباط. وكان خير الله طلفاح يتسلم اشتراكات وتبرعات العسكريين(١٧).

فيما يلي أسماء بعض العسكريين الذين كانوا أعضاء في جمعية الجوال:

خير الله طلفاح ـ ناجي طالب ـ رجب عبد المجيد ـ شاكر سعيد ـ

---

(١٧) المصدر: ناجي معروف.

حمودي مهدي ـ طاهر يحيى ـ عبد اللطيف جاسم الدراجي وعبد الحق عبد المجيد العزاوي ومحيي الدين النقاش وحقي توفيق المفتي ومحمد حسن عبد علي الطائي والدكتور محمد صبري مراد والدكتور أمين رويحة، وخيري يحيى الحافظ ومحمد خضر الشطري.

مؤتمرات جمعية الجوال السنوية:

دأبت جمعية الجوال على عقد مؤتمرات سنوية لها منذ تأسيسها في صيف ١٩٣٤. وقد عقدت سبعة مؤتمرات كان آخرها المؤتمر السابع الذي عقد في اليومين الخامس والسادس من شهر أيلول سنة ١٩٤٠، وهو المؤتمر الوحيد الذي استطعنا الحصول على بعض المعلومات عنه بين أوراق ناجي معروف[١٨]. وقد طبعت المعلومات عنه في كراس بعنوان: **المؤتمر السنوي السابع لجمعية الجوال العربي المنعقد ببغداد في ٢ و ٣ شعبان ١٣٥٩هـ/ ٥ و٦ أيلول ١٩٤٠م** (بغداد، مطبعة الجزيرة).

هذا المؤتمر السابع يعطينا فكرة عن المؤتمرات السابقة. عقدت اجتماعات هذا المؤتمر في نادي المثنى. تضمن منهج اليوم الأول افتتاح المؤتمر بكلمة معتمد الجمعية درويش المقدادي، تلاها السكرتير محمد ناصر وتقرير المحاسب مزاحم الشابندر، وتقرير عن الجريدة لعبد المجيد عباس، وتقرير عن المطبعة لمحمد ناصر، ثم مناقشة الاقتراحات المقدمة من الأعضاء.

وفي صباح اليوم التالي نوقشت اقتراحات الجوالين، وتلاها اجراء انتخاب الهيئة الادارية واللجنة القضائية ثم كلمة المعتمد عن أسس القومية العربية. وكلمة لأكرم زعيتر عن واجب الجوال في بث الدعوة لفكرته وكلمة لعبد المجيد عباس عن الاقتراحات والردود وكلمة لمحمد صديق شنشل عن ميزات العامل القومي.

---

(١٨) من أوراق ناجي معروف.

ضم كراس المؤتمر أسماء سبعة وثمانين عضواً باسم الجوالين المؤسسين، وحين جرى انتخاب الهيئة الادارية انتخب درويش المقدادي معتمداً وعبد المجيد عباس نائباً للمعتمد ومحمد ناصر سكرتيراً ومزاحم الشابندر أميناً للصندوق، وانتخب كأعضاء: سليم النعيمي وعبد الستار القرغولي وناجي معروف وسليمان قدوري الناصري وجابر عمر وعباس محمد القدسي.

وضمت اللجنة القضائية: اكرم زعيتر وسليمان قدوري الناصري وعبد المجيد عباس ومتى عقراوي ومزاحم الشابندر.

نشاط الجمعية

نشطت الجمعية خلال السنوات الأولى من تأسيسها ١٩٣٤ - ١٩٣٦. ولما انضم الجوالون إلى نادي المثنى صار تاريخ الجمعية وتاريخ النادي مشتركاً، وقد تسبب سفر بعض أعضائها إلى خارج العراق للدراسة وحدوث بعض الاختلافات بين الأعضاء إلى إضعاف الجمعية نسبياً، فأدى ذلك إلى تصفية مطبعة الجزيرة وإيقاف مجلة «الفتوة» عن الصدور.

يمكن تلخيص أهم فعاليات جمعية الجوال بالأمور الآتية:

١ - شراء مطبعة الجزيرة واصدار مجلة الفتوة، ومحاولة اصدار جريدة تمهيداً لتأسيس حزب سياسي(١٩)، واصادر الكتب والمنشورات.
٢ - التدريبات العسكرية ونظام الفتوة.
٣ - إصدار كراس المنهج القومي العربي، وحركات الشباب في العالم.
٤ - الانضمام إلى نادي المثنى والاسهام بفعالياته، ومساندة جمعية الدفاع عن فلسطين، والتعاون مع أفراد وجمعيات قومية في العراق وخارجه.

---

(١٩) المصدر: سعدي خليل.

٥ ـ تأسيس جمعية التوفير.
٦ ـ القيام بسفرات وجولات داخل العراق وخارجه.
٧ ـ انتساب بعض الأعضاء إلى البعثات العلمية للدراسة خارج العراق.
٨ ـ تشجيع ثقافة الأعضاء ومطالعة الكتب المفيدة واعداد البحوث ومناقشة موضوع الوحدة العربية.
٩ ـ تشجيع الصناعات الوطنية، وارتداء سدارة الجوال القماشية (الاسكوجية)، وتشجيع الآخرين على ارتدائها، والدعوة إلى مقاطعة من هو ضد الأمة العربية وعدم التعامل معه.
١٠ ـ التبرع لسورية وفلسطين، والاهتمام بالمناسبات القومية والاتصال بالشخصيات القومية في العراق وخارجه.
١١ ـ مساعدة الأعضاء المحتاجين مالياً، من ذلك مساعدة العضو جاسم محمد الباقلاني بمبلغ (١١٥) ديناراً حين أصيب بالسل وتوفي به.
١٢ ـ الإسهام باللجنة الادارية لنادي المعلمين.
١٣ ـ النشاط الاجتماعي
١٤ ـ مكافحة النعرات الطائفية، وقد نشط محمد حسن عبد علي عضو الجمعية في هذا المضمار[٢٠].

مطبعة الجزيرة:

اشترت جمعية الجوال مطبعة الكرخ لصاحبها الملا عبود الكرخي بمبلغ ستمائة دينار مقسطة، أسهم الأعضاء بدفع ثمنها على أن يدفع العضو مبلغاً يساوي ضعف دخله الشهري. أطلق على المطبعة اسم مطبعة الجزيرة. وكانت تقع عند مدخل جسر الأحرار في جانب الكرخ. وفيها أقيمت ادارة المجلة التي أصدرتها الجمعية باسم مجلة **الفتوة** منذ

---

(٢٠) المصدر: سعدي خليل وخالد الهاشمي ومحمد حسن عبد علي الطائي.

العدد الأول للسنة الثانية الصادر في الأول من شباط ١٩٣٦، ثم نقلت المطبعة إلى مدخل شارع الفضل في الميدان في جانب الرصافة ببغداد. عهد إلى سعدي خليل ادارتها في بداية الأمر ثم تولاها محمد علي فارس وعبد الحميد الهلالي وعبد الله السامرائي (الذي كان يعمل في مطبعة السكك) ثم عهدت ادارتها أخيراً إلى زيدان خليفة رئيس عمال المطبعة وعضو الجمعية. وكانت المطبعة مسجلة باسم خالد الهاشمي.

بسبب الاختلافات حول اصدار جريدة وتطور الأحداث بيعت المطبعة إلى محمد مهدي الجواهري، وتم توزيع ثمنها على الأعضاء حسب نسب حصصهم فيها[٢١].

ذكر لي سعدي خليل أن المطبعة بيعت بعد سنة ١٩٤٤.

مجلة الفتوة:

بعد فترة من تأليف جمعية الجوال أصدرت مجلتها الفتوة لتكون المعبرة عن آرائها، ولبث أفكارها وأهدافها. ولكن لم يكن هناك قرار من جمعية الجوال بأنها تنطق باسم الجمعية رسمياً أو أن الجمعية تصرف عليها من ماليتها، بل أنها صدرت باسم صاحبها سعدي خليل واشراف مديرية دار المعلمين الإبتدائية، وموها المعلمون الجوالون في مدرسة تطبيقات دار المعلمين، فأتخذها الجوالون أداة تعبير عن آرائهم القومية ووسيلة توعية بتاريخ الأمة العربية وتراثها الإسلامي[٢٢].

صدر من المجلة واحد وعشرون عدداً. صدر العدد الأول في ٨ تشرين الثاني ١٩٣٤، وصدر عددها الأخير في ٤ تموز ١٩٣٦. توجد الآن من هذه المجلة مجموعات كاملة قليلة، علمنا أن لدى سعدي خليل واحدة منها وأخرى لدى صبيح الغافقي وثالثة في مكتبة المجمع العلمي

---

(٢١) المصدر: سعدي خليل.

(٢٢) المصدر: سعدي خليل.

العراقي ورابعة لدى نجدت فتحي صفوت الذي تفضل باعارتها لكاتب البحث للاستفادة منها.

كتب في أعلى صفحتها الأولى: «مجلة علمية مدرسية نصف شهرية لصاحبها سعدي خليل ـ مدرسة تطبيقات دار المعلمين ـ بغداد ـ تصدر باشراف مديرية دار المعلمين».

وفي السنة الثانية كتب في أعلى صفحتها الأولى: «مجلة علمية أدبية اجتماعية». طبعت خلال سنتها الأولى في مطابع مختلفة، وطبعت اعداد السنة الثانية (وعددها تسعة) في مطبعة الجزيرة. وجعل ثمن النسخة ثمانية فلوس.

يمثل العدد الأول من مجلة الفتوة، بوجه عام، صورة لاتجاه المجلة ومحتوياتها. كتب فيه أبرز أعضاء الجمعية وأصدقاؤها، وساعد بالرسم والكتابة أصدقاء الجمعية والمؤيدون. نشرت على غلاف العدد الأول خارطة الوطن العربي ورسمت فوقها صورة فارس عربي. نشرت في الصفحة الأولى مقالة عنوانها: «ماذا أعددتم لخدمة البلاد أيها الرفاق؟». وجاءت الافتتاحية بعنوان: «إلى فتيات العراق وفتيانه» تلتها كلمة الفتوة بعنوان: «نحو المجد» بقلم خالد الهاشمي مدير دار المعلمين، وبعدها مقالة بقلم متى عقراوي عنوانها «وطنيتان: وطنيتك صاخبة جوفاء أم عاملة صادقة».

كان شاعر المجلة عبد الستار القرغولي عضو الجمعية، نشر في العدد الأول قصيدة بعنوان «أيها الفتى» وكتب اسمه المستعار «الفتى» وكتب درويش المقدادي مقالاً بعنوان «فتياننا» وكتب أكرم زعيتر تحت باب أبطالنا مقالاً عن «محمد (ص)».

من الأبواب الثابتة في المجلة باب «العلوم» كان يحرره حكمت عبد المجيد من أصدقاء الجمعية، وباب «الفتاة» وباب «الصحة» اشترك في تحريره بعض الأطباء الأعضاء والأصدقاء، مثل الدكاتره عبد العزيز

الكنفاني وعلي غالب ومظهر المالح ورشيد معتوق وأمين رويحة وصائب شوكت.

وهناك باب «الألعاب واالرياضة» أسهم بالكتابة فيه أكرم فهمي من الأعضاء، وباب «اخبار العالم» وباب «للتسلية» وباب «بريد المدارس» وباب «مسابقة العدد». وهكذا كانت المجلة جذابة للمعلمين والطلاب وغيرهم.

ونشر على الغلاف الأخير في بعض اعداد المجلة أسماء وكلاء المجلة في الألوية العراقية من الأعضاء والأصدقاء ومنهم:

محمد سعيد جمعة ـ البصرة	حمودي عبد المجيد ـ العمارة
عبد الكريم جاسم كنونة ـ الحلة	حسن موسى ـ كربلاء
جمال الدين الآلوسي ـ الديوانية	داود يحيى ـ تكريت
داود محمد ـ أربيل (وهو كردي متعاطف مع العرب)	
عبد الغني الجرجفجي ـ الكوت	خضر عبد الغفور ـ عانة،
عبد العزيز جاسم ـ الموصل	محمد حسين ـ مندلي
اسماعيل عبد الوهاب ـ بعقوبة	خير الله طلفاح ـ بيجي
حسن سداد ـ كركوك.	ذيبان المولى ـ بغداد (في صوب الكرخ)

وكان رسام المجلة عطا صبري من أصدقاء الجمعية. وقد وزعت مع العدد الأول ورقة صغيرة إضافية عليها صورة سدارة الجوال الوطنية القماشية (الاسكوجية) التي اتخذتها الجمعية لباس الرأس لاعضائها.

اهتمت مجلة الفتوة بالفتاة العربية فكتبت عنها ونشرت أخبارها. وقد أسهم عدد كبير من الآنسات والسيدات، أكثرهن من المعلمات والمدرسات المتعاطفات مع جمعية الجوال، في تحرير مجلة الفتوة، منهن: كواكب نوري وماري جبران ورمزية أحمد عزت ورمزية الحاج سري

وأمينة داود وحياة رفائيل ونعيمة العبيدي وبسمت داود ثيادورس ونورية المختار.

وأسهم في تحرير المجلة بعض أعضاء الجمعية وأصدقائها، منهم: جابر عمر وخالد الهاشمي ومتى عقراوي وأكرم زعيتر وإبراهيم شوكت وعبد الستار القرغولي وناجي معروف وأكرم فهمي وفريد زين الدين وجمال الدين الآلوسي وعبد المجيد عباس وعبد الستار فوزي ومحمد علي كمال الدين وعبد المجيد صالح وعبد الجليل علي الطاهر وحفظي عزيز ونهاد عبد المجيد وفاضل الجمالي ويوسف محمد سعيد ودرويش المقدادي وأمين العمري وعبد الوهاب عزام ومحمود غناوي وعبد المجيد محمود وداود يحيى وبديع شريف وسعدي خليل ونعمان أمين العاني وموسى علي ومحمد مهدي كبة وعبد الغني الشرشفجي وأحمد حقي الحلي وعلي الصافي والضابط أبو المنذر (لعله نعمان ثابت الأعظمي).

وفيما يلي نماذج مما كتبه بعضهم في التثقيف والتوجيه:

١ ـ جابر عمر: «كيف يتعصب الغربيون لمنتوجات بلادهم ـ لماذا لا نكون مثلهم» العدد ـ ٣ ـ السنة: ١.

«الوطنية لا تعرف المجاملة ـ السدارة الوطنية في طريقها إلى الأمام» ٤ : ١ «وزراء المانيا والفقراء» ٣ : ٢.

٢ ـ خالد الهاشمي: «نحو المجد» ١ : ١

«إلى الخدمة أيها الطلاب ـ إلى الأنتظام في سلك كتائب العمل الجديدة» ٥ : ١.

٣ ـ متى عقراوي: «ذكرى النهضة ـ تدكار جهادنا في سبيل وحدتنا واستقلالنا» ـ

النهضة العربية في ٩ شعبان، ٢ : ١. «من هو العربي» العربي فتى وفتاة من ولد في بلاد عربية من أبوين عربيين وكانت العربية لغته التي تعلمها من أبويه وهو طفل، ٥ : ١.

٤ ـ أكرم زعيتر: «ابطالنا: محمد (ص)» ١ : ١.
«أبطالنا: أبو بكر» ٢و٣ : ١. «شهداء الثورة السورية»
١١ : ١. «شهيد ميسلون يوسف العظمة» ١١ : ١.
٥ ـ إبراهيم شوكت: «نظامنا الشمسي» ٢ : ٢.
«فن المصارعة» ٥ : ١. «لكمة القضاء» ٩ : ٢.
٦ ـ عبد الستار القرغولي: قصائد كثيرة منها: «الشهيد العربي المختار»
٨ : ١.
«جيش الفتوة» ٧ : ٢
٧ ـ ناجي معروف: «فاتح تفليس ـ حبيب بن مسلمة الفهري القرشي»
٢ : ١.
٨ ـ محمد علي كمال الدين: «حديث عن الفتوة في الثورة العراقية»
٣ : ١ و٥ : ١ و٨ : ١.
٩ ـ عبد المجيد صالح: مقالات مترجمة عن الفرنسية بتصرف ـ في أكثر الأعداد.
١٠ ـ عبد الجليل علي الطاهر: «حياة المعدان» ٣ : ١.
«زعيم الهند غاندي» ٥ : ١.
١١ ـ الطيار حفظي عزيز: «كيف تعلمت الملاكمة» ٣ : ١.
١٢ ـ يوسف محمد سعيد: «ابن جلول: هتلر الجزائر» ٩ : ١
١٣ ـ الزعيم أمين العمري: «تكوين قوى الدفاع الوطني» ١ : ٢ و٢ : ٢
و٣ : ٢ و٤ : ٢ و٥ : ٢.
«الدفاع السلبي» ٦ : ٢، «تسليح قوى
الدفاع الوطني» ٧ : ٢و٨ : ٢
١٤ ـ عبد المجيد محمود: «أبطالنا ـ عبد القادر الجزائري ـ حروبه
وانتصاراته» ١ : ٢ و٢ : ٢ و٣ : ٢ و٤ : ٢ و٥ : ٢
و٦ : ٢ و٨ : ٢.
١٥ ـ بديع شريف: «الجود والكرم ـ معن بن زائدة والعبد الأسود» ٢ : ١.

١٦ ـ سعدي خليل: «صفحة من تاريخ الفتوة» ٧:٢
«رياضة الأطفال» ٩:٢.

١٧ ـ نعمان العاني: «بلادنا العربية ـ قلب الجزيرة» ٢ : ٢.

١٨ ـ الطيار موسى علي: «عباس بن فرناس والطيران» ٣: ٢ و٤ : ٢.
«من هوربلين ـ درس في البطولة فليقرأه الفتيان»

١٩ ـ محمد مهدي كبة: «حاتم الطائي» ٤ : ٢.

٢٠ ـ أبو منذر (لعله نعمان ثابت الأعظمي):
«من ضابط فتى إلى جيش الفتوة» قصيدة: ٨: ٢

اعداد مجلة الفتوة الخاصة:

أصدرت المجلة ثلاثة أعداد خاصة:

١ ـ العدد الحادي عشر من السنة الأولى ـ ١٣ مايس ١٩٣٥ «عدد خاص بشهداء العرب». على الغلاف الأول صورة شهيد مشنوق وحوله ناس، وتحت الصورة هذا البيت من الشعر:

هم الأحرار ـ ما لانوا ولولا
أداة الشنق لم يلووا الرقابا

وفي داخل العدد مقال افتتاحي بعنوان: «عرس الشهداء» ومقال آخر بقلم أحمد عزت الأعظمي من رواد القضية العربية ومؤلف كتاب القضية العربية واحد قادة الحزب الوطني العراقي عنوانه «شهداء ٦ أيار».

يلي ذلك أقوال الشهداء الأبطال قبل الاعدام. ثم تلخيص ما ذكر في كتاب لبنان في الحرب عن إعدام الرعيل الثاني من الشهداء بقلم أحمد حقي الحلي.

ثم نشرت المجلة أسماء الشهداء، ونشيد الشهداء للشاعر خير الدين الزركلي. ونشرت قصيدة للشاعر الفتى عبد الستار القرغولي عنوانها «فتاة الشام» ومقالاً عن «شهداء الثورة السورية» «لأكرم زعيتر،

ومقالاً ثانياً بعنوان «شهيد ميسلون يوسف العظمة» لأكرم زعيتر أيضاً.

ونشرت قصيدة أحمد شوقي أمير الشعراء «دم الثوار» قالها بعد دخول الفرنسيين إلى سوريا وتدميرهم البلاد وقتلهم النساء والشيوخ والأطفال مطلعها:

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يا دمشق

واتبعتها قصيدة لناجي القشطيني بعنوان «نتيجة الحرب ١و٦ أيار». ومقال لنهاد عبد المجيد عنوانه «دروس في الوطنية ـ وطنية طالب عربي». ثم بقصيدة لجميل صدقي الزهاوي عنوانها «شهداء أيار ـ النائحة» ومطلعها:

على كل عود صاحب وخليل
وفي كل بيت رنة وعويل

واقتبست المجلة مقالاً من مجلة **الصرخة** عنوانه «شهداء وادي النيل» ومقالاً آخر من مجلة كل شيء بعنوان «مصطفى ماهر أمين». واقتبست ما نشره أمين سعيد في كتابه **الثورة العربية الكبرى** عن الشيخ شعلان أبي الجون» من أبطال الثورة العراقية». ونشرت مقالاً بقلم «ن» عن «الشيخ الشهيد ضاري المحمود» ومقالاً ثانياً عن «المرحوم عبد المجيد كنة» ومقالاً ثالثاً بقلم ياسين محمد عن «وضحة الشهيدة». ونشرت بعض أبيات أحمد شوقي عن الشهيد العربي عمر المختار مطلعها:

جرح يصيح على المدى وضحية
تتلمس الحرية الحمراء

ونشرت المجلة داخل العدد صور بعض الشهداء، قسم منها

مرسوم باليد، ونشرت على الغلاف الأخير صور شهداء من سوريا وفلسطين.

٢ العدد السابع من السنة الثانية - ١٨ مايس ١٩٣٦ (عدد خاص بجيش الفتوة):

وكتب الافتتاحية الفريق الأول طه الهاشمي رئيس أركان الجيش بعنوان «اغتباط الفتوة»، يليها مقال عنوانه «تسليح قوى الدفاع الوطني» للزعيم محمد أمين العمري، ومقال للرائد موسى علي آمر مدرسة الطيران عنوانه: «من هو زبلين - درس في البطولة، فليقرأه الفتيان».

ونشرت المجلة مقالاً علمياً لحكمت عبد المجيد بعنوان «الحرب والكيمياء»، ومقالاً لخالد الهاشمي بعنوان «القوة هدف ومطمح الأمم الحية».

ونشرت قصيدة عنوانها «جيش الفتوة» لشاعر الفتوة الخاص عبد الستار القرغولي، ونشرت صوراً كثيرة منها صور رؤساء الفتوة: المقدم صلاح الدين الصباغ مدرس مدرسة الأركان الحربية ووكيل مدير التربية البدنية في وزارة المعارف، وأكرم فهمي مدرس الرياضة البدنية في دار المعلمين ومساعد مدير التربية البدنية في وزارة المعارف، وصور جنود الفتوة طلاب المدارس في بغداد وخارجها.

ونشرت صورة لفريق من جمعية الجوال في بغداد أثناء استراحتهم في ميدان أم الطبول سنة ١٩٣٥، ونشرت مقالاً بعنوان «الحرب» للمحاضر العسكري النقيب حمدي إبراهيم. ونشرت «صفحة من تاريخ الفتوة» لصاحب مجلة الفتوة سعدي خليل.

ونشرت لبديع شريف «خطبة القائد عند استجار المعركة»، و«التربية في اسبارطه» للأستاذ المصري فؤاد عبد الله نويرة المدرس في المتوسطة المركزية ببغداد، و«الفتيان المحاربون» لعبد الحق العزاوي،

وقصيدة بعنوان «جنود الوطن» لرشيد الرستم من حلب.

ونشرت المجلة احصاء سنة ١٩٣٦ عن عدد طلاب الفتوة في العراق فذكرت أن عددهم «١٢١٤» فتى. ونشرت مقالاً ليونس نادي الطالب بكلية الطب العراقية عنوانه «أيها الفتى».

وفي العدد الثاني من المجلة أي الثامن من السنة الثانية نشرت قصيدة لأبي المنذر (لعله الضابط نعمان ثابت الأعظمي؟) مطلعها

خففت يا جيش الفتوة ما بي
من لوعة حرّى ومن أوصاب

٣ ـ العدد التاسع من السنة الثانية ـ ٤ تموز ١٩٣٦ «عدد خاص بالرياضة والألعاب» وهو آخر عدد صدر من مجلة الفتوة.

نشرت المجلة في أول العدد صورة الملك غازي الأول يلعب البولو.
وفي العدد صور رياضية كثيرة. أما أهم المقالات فهي:

«الألعاب الأولمبية في برلين ـ أعظم مظاهرة رياضية في العالم» لأكرم فهمي.
«الرياضة البدنية وعلاقتها بالجيش» للملازم محمد بسيم حسون ضابط ألعاب المدرسة العسكرية.
«التنس» لحكمت عبد المجيد
«لكمة القضاء» لابراهيم شوكت.
«المرأة والرياضة»
«ملاحظات حول المصارعة في العراق» للحاج عباس الديك.
«رياضة الأطفال» لصاحب الفتوة سعدي خليل.
«الرياضة» لمحمود غناوي الزهيري معلم الرياضة والكشافة في مدرسة دار السلام في بغداد.

صورة وزعت كهدايا مع اعداد المجلة:

١ ـ صورة السدارة الوطنية ١ : ١.

٢ ـ صورة فيصل العرب (الملك فيصل الأول) ٨: ١
٣ ـ صورة الملك غازي الأول: ١ : ٢.
٤ ـ صورة الأمير فيصل الثاني ٢ : ٢.
٥ ـ جميل صدقي الزهاوي (فقيد الأدب العربي الفيلسوف الأستاذ ٣ : ٢.
٦ ـ أحمد فؤاد الأول ٤ : ٢.
٧ ـ عبد العزيز المسعود ٥ : ٢.
٨ ـ يحيى حميد الدين ٦ : ٢.
٩ ـ طه الهاشمي ٧: ٢.
١٠ ـ عز الدين القسام (شهيد فلسطين الشيخ) ٨: ٢.
١١ ـ الملك غازي يلعب البولو ٩ : ٢.

أخبار الطلبة ونشاطهم:

دأبت المجلة على نشر أخبار المدارس وأخبار الطلاب ونشاطهم في العراق والعالم، وخصصت في بعض اعدادها صفحة خاصة بهم. ومن أخبارهم:

١ ـ نجدة فتخي صفوة (المأمونية ـ الصف السادس) ثم (الغربية المتوسطة ـ الصف الأول) مقالة بعنوان: «الصورة العجيبة» معربة عن التركية، ومقالة «من خرافات ألف ليلة وليلة ـ السجادة المسحورة» مترجمة عن التركية بتصرف.

٢ ـ في صفحة الطلبة أخبار عن إبراهيم عطوف كبة ٣ : ٢ ـ ونوري أحمد الراوي ٤ : ٢.

٣ ـ محمد خليل (الغربية المتوسطة) «كيف طال خرطوم الفيل» ترجمة، ٦ : ٢.

٤ ـ صور خمسة فائزين في بطولة الملاكمة لسنة ١٩٣٦ ـ الغلاف الأخير

٦ : ٢ و٩ : ٢، منهم نجم محيي الدين السهروردي بطل وزن الديك (الغربية المتوسطة).
٥ ـ يونس نادي (الطالب بكلية الطب العراقية) «أيها الفتى» ٧ : ٢.

محاولة اصدار جريدة:

كان المفروض أن يكون شراء مطبعة الجزيرة واصدار مجلة الفتوة مقدمة لاصدار جريدة يومية تعبر عن مبادىء وأهداف جمعية الجوال(٢٣). ففي **٢٩** حزيران **١٩٣٥** طلب المعتمد من الأعضاء أن يسهموا بمشروع الجريدة حالاً بأن يدفعوا إلى متى عقراوي ديناراً في كل شهر، وكان من المتفق عليه أن يدفع العضو ضعف دخله الشهري إسهاماً بهذا المشروع(٢٤).

ولكن الاختلافات التي حدثت حول موعد اصدار الجريدة وسفر بعض الأعضاء إلى خارج العراق للدراسة، وانضمام الجوالين إلى نادي المثنى أدت إلى إهمال الفكرة وبيع مطبعة الجزيرة وتصفية حصص الأعضاء فيها.

وكان من المؤمل أن تكون الجمعية والجريدة مقدمة لتكوين حزب سياسي قومي، ولكن تطورات الحوادث وقيام الحرب العالمية الثانية ونشوب الحرب العراقية ـ البريطانية وما آلت إليه، أخرت قيام الحزب المنشود. ولكن تحقق ذلك سنة **١٩٤٦** بقيام حزب الاستقلال.

نظام الفتوة:

تعود فكرة تدريب طلاب المدارس على الأسلحة والتدريب العسكري إلى سنة **١٩٣٢ ـ ١٩٣٣**، حين قامت الصحف والندوات

---

(٢٣) المصدر نفسه.
(٢٤) من أوراق ناجي معروف.

تطالب بوجوب تدريب الشباب على التمارين العسكرية واستعمال السلاح متأثرين بفكرة تدريب الشباب على السلاح في المانيا وايطاليا. وقد شجعت وزارة المعارف يومئذ هذا الشعور وزودت طلاب الثانوية المركزية ببغداد بالألبسة والتجهيزات والسلاح والضباط. وقد أكمل هؤلاء الطلاب مع المعلمين الذين شاركوهم دورة المشاة والفروسية. وفي تلك السنة قام طلاب ثانوية البصرة بالتدريب تحت ارشاد ضباط المنطقة الجنوبية.

في خلال سنة ١٩٣٣ - ١٩٣٤ خمدت جذوة الحركة، إلا أن وزارة الدفاع عادت فشجعت رغبة جمعية الجوال في التدريب على استعمال السلاح ومساعدتها بالضباط والسلاح والعتاد. فاتحت جمعية الجوال وزارة الدفاع، وكان طه الهاشمي آنذاك رئيساً لأركان الجيش، فوافق على طلب الجمعية وأرسل نائب الضابط مصلح مطلوب (هو الآن مقدم متقاعد) ومعه عريف للاشراف على تدريب جمعية الجوال في ساحة المدرسة المأمونية (تطبيقات دار المعلمين الإبتدائية)[٢٥]

اختار الجوالون ملابس رصاصية تشبه الملابس العسكرية مكونة من سترة وبنطلون قصير(يشبه بنطلون فرسان الجيش والشرطة) وجوارب طويلة وسدارة الجوال القماشية (الاسكوجية) المعروفة. وقد تم تدريب نحو (٢٥) عضواً من أعضاء الجمعية خلال السنة الدراسية ١٩٣٤ - ١٩٣٥، إذ أكملوا دورة المشاة في ساحة المدرسة المأمونية التي كانت تقع في الميدان قرب وزارة الدفاع. وتدربوا على أصول استعمال السلاح الأبيض في ساحة القلعة، وعلى الرمي بالبندقية والمسدس والرمانة في الوشاش وفي الميدان الكبير في ساحة أم الطبول وفي مدرسة الأسلحة وساحة الكرنتينة وسدة نظام باشا[٢٦].

---

(٢٥) المصدر: سعدي خليل.
(٢٦) المصدر نفسه، ومن أوراق ناجي معروف.

كان التدريب يجري لمدة ساعة صباحاً قبل الدروس خلال ثلاثة أيام في الأسبوع (السبت والاثنين والأربعاء) على ساحة مدرسة تطبيقات دار المعلمين (أي المدرسة المأمونية). استمر التدريب لمدة ثلاثة أشهر من عام **١٩٣٤ ـ ١٩٣٥**. كان الجوالون يرددون أثناء مسيراتهم في ضواحي بغداد بعض الأناشيد القومية مثل(٢٧):

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن
إلى مصر فتطوان

في **١٢** حزيران **١٩٣٥** ذكر المعتمد أنه تم الاتفاق مع وزارة الدفاع على التمرين على المسدس كل صباح في مدرسة الأسلحة الخفيفة في الوشاش، منذ الساعة الخامسة والنصف من أيام السبت والاثنين والأربعاء. وفي **٢٩** حزيران **١٩٣٥** طلب المعتمد من كل جوال أن يقتني مسدساً بطريقة مشروعة وأن يتقن استعماله.

نشرت مجلة الفتوة في عددها الخاص بجيش الفتوة (العدد السابع من السنة الثانية) صورة طلاب الثانوية المركزية عام **١٩٣٢ ـ ١٩٣٣** بألبسة جنود الخيالة وقد توسطهم بعض ضباط الجيش: الزعيم شاكر عبد الوهاب والملازم بشير يعقوب والنقيب صالح زكي مصلح، ومعهم بعض المدرسين: درويش المقدادي مدير الثانوية المركزية ونائب رئيس جمعية الجوال ومحمد علي صدقي واوهان دنحو وناجي يوسف وفاضل محمد علي وعبد الكريم الكيلاني، ومعهم السيد عبد المهدي وزير المعارف وسامي شوكت مدير المعارف العام.

ونشرت مجلة الفتوة أيضاً في العدد نفسه صورة فريق من أعضاء

---

(٢٧) المصدر: خالد الهاشمي.

جمعية الجوال في بغداد أثناء استراحتهم في ميدان أم الطبول عام ١٩٣٥ وفي وسطهم مدربهم الملازم الأول محمود بهجت. كما نشرت صورة رهط الفتوة في متوسطة البصرة عام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ يتوسطهم خالد الهاشمي مدير ثانوية البصرة ورئيس جمعية الجوال وبجانبه ضابط التدريب الملازم نور الدين.

ثم طالبت الصحف بتدريب الطلاب حين شرع بتنفيذ قانون الدفاع الوطني. وقد أعدت وزارة المعارف «نظام الفتوة» فشرعته الوزارة الهاشمية الثانية في الأول من تشرين الأول ١٩٣٥. وكتبت مجلة **الفتوة** في عددها الأول من السنة الثانية الصادر في الأول من شباط ١٩٣٦: «ما غاية الفتوة في ظهورها إلا تقديس مبادىء الجندية وتمجيد العلم والأدب والفن ومناصره المرأة في حركتها التحررية وتقوية الروح الوطنية في فتيان المدارس وسواد الجمهور، لنستطيع السير في حياتنا هذه وفق حاجات العصر ومقتضيات النهضة».

يعزى انتشار حركة الفترة وظهورها في فترة الثلاثينات إلى عاملين: الأول تشجيع جمعية الجوال والنفوذ الذي تمتع به أعضاؤها في وزارة المعارف، والعامل الثاني هو أن الوزراة القائمة حينذاك كانت وزارة قومية برئاسة ياسين الهاشمي الذي اهتم بتسليح الجيش وتعميم نظام الفتوة.

صدر نظام الفتوة تحت رقم (٥٠) لسنة ١٩٣٥ ويتضمن (١٣) مادة بينت غاية الفتوة في تعويد الفتيان على خشونة العيش وتحمل المشاق والاتصاف بخصال الرجولة. ونص النظام على قيام وزارة المعارف بانشاء مخيم صيفي سنوي في بقعة مناسبة في الجبال وأن لا تقل دورة المخيم عن شهر واحد، وأن تقوم الوزارة بدفع تكاليف المخيم، وأن يقوم ضباط من وزارة الدفاع بتدريب الطلاب.

تضمنت الموضوعات العسكرية التي يلقيها ضباط الجيش على فتيان المتوسطات والثانويات كدروس رسمية: تعريف الجيش وصنوفه والطيران

ونظام الخدمة العسكرية والاسلحة وانواعها والجيوس وتنظيمها والرتب ومبادىء التعبئة والمصطلحات العسكرية السوقية والسير ونظامه وتنظيم الجيش العراقي والمدارس العسكرية والتربية العسكرية والغازات وأنواعها وقراءة الخريطة والنفير.

كان من رؤساء الفتوة المقدم صلاح الدين الصباغ الذي كان مدرساً في مدرسة الأركان العسكرية آنذاك ووكيل مدير التربية البدنية في وزارة المعارف، وكان معه أكرم فهمي مدرس الرياضة البدنية في دار المعلمين الابتدائية ومساعد مدير التربية البدنية في وزارة المعارف.

قامت وزارة الدفاع بوضع (٢٠) ألف بندقية، كانت قد اشترتها من جيكوسلوفاكيا تحت تصرف وزارة المعارف لاستخدامها في تدريب الفتوة[٢٨].

بلغ عدد الفتيان في المدارس الثانوية والمتوسطة في مختلف ألوية العراق حسب احصاء سنة ١٩٣٦ (١٢١٤) فتى.

المنهج القومي العربي:

أصدرت جمعية الجوال كراساً من القطع الصغير عدد صفحاته (٦٣) صفحة بعنوان المنهج القومي العربي لفريق من شبان العرب المؤمنين. وقد كتب في الزاوية العليا اليمنى الرسالة الأولى. ولعل الجمعية تأثرت بجماعة الأهالي حين نشرت رسائل الأهالي إلى الشباب في تلك الفترة. نشر الكراس في بغداد بتاريخ ١٣ حزيران ١٩٣٥ وطبع بمطبعة المعارف ببغداد.

في ٢٩ حزيران ١٩٣٥ طلب معتمد جمعية الجوال خالد الهاشمي من الأعضاء مطالعة المنهج القومي العربي بإمعان وتفهم، وأن يكون

---

(٢٨) المصدر: سعدي (خليل.

العضو مستعداً لاداء فحص فيه عن كل نقطة من نقاطه كما طلب مطالعة كتب أخرى[٢٩].

يبدأ الكراس بتمهيد فيه تعريف بالوطن العربي بأنه البلاد التي تسكنها الأمة العربية الواقعة ضمن الحدود الطبيعية التالية: جبال طوروس والبحر المتوسط من الشمال، والبحر العربي وجبال الحبشة وصعيد السودان والصحراء الكبرى من الجنوب، والمحيط الأطلسي والبحر المتوسط من الغرب، وجبال بشتكوه والبختيارية والخليج العربي من الشرق.

وفيه أيضاً تعريف بالقومية العربية بأنها عقيدة مستمدة من العرب، عائدة إليهم جامعة لهم مؤلفة بقواهم السياسية والثقافية والاقتصادية، هدفها تحرير الأمة من النفوذ الأجنبي، وانشاء كيان عربي سياسي عمراني موحد قائم على أسس من سيادة الأمة والمساواة بين أبنائها والعدل في مجتمعها.

وتضمن الكراس بياناً مختصراً عن الأهداف القومية، فمن الناحية السياسية تضمن الكراس سبع قواعد:

١ ـ القاعدة الأولى: العرب أمة واحدة ـ القومية العربية تحتم الوحدة الشاملة.

٢ ـ القاعدة الثانية: السيادة للأمة.

٣ ـ القاعدة الثالثة: الأصل مصلحة الأمة.

٤ ـ القاعدة الرابعة: اخوان العرب (كالبربر والأكراد).

٥ ـ القاعدة الخامسة: الجهاد فريضة وهو سياج الأمة.

٦ ـ القاعدة السادسة: العرب والأمم الأخرى ـ إيجاد روابط الصداقة وتبادل المنافع.

---

(٢٩) المصدر: من أوراق ناجي معروف.

٧ ـ القاعدة السابعة: مالية الدولة ـ الضرائب العادلة القابلة للزيـادة والتخفيض وفقاً لحاجات الدولة القومية.

وتضمن الكراس اتجاه القومية الاقتصادي، وفيه أربع قوعد:

١ ـ القاعدة الأولى: الوطن العربي وحدة اقتصادية.
٢ ـ القاعدة الثانية: مرافق الوطن العربي للعرب وحدهم.
٣ ـ القاعدة الثالثة: مصلحة الأمة العامة قبل المنافع الفردية ـ ان حق التملك الفردي مقيد بمصلحة الأمة.
٤ ـ القاعدة الرابعة: التملك الفردي والعمل الحر ـ القومية تقر مبدأ الربح العادل المشروع.

واحتوى الكراس موضوع الثقافة، وفيه أربع قواعد:

١ ـ القاعدة الأولى: عناصر الثقـافة العـربية: اللسـان العربي، وبعث الأدب العربي، والموسيقى والفن، وتاريخ العرب.
٢ ـ القاعدة الثانية: التربية القومية: التعليم الإلزامي، وتوحيد المناهج في الوطن العربي.
٣ ـ القاعدة الثالثة: الحرية الفكرية: الحقيقة يجب أن تكون ضالة العربي أنى وجدها التقطها، والحرية حق غير مطلق بل نسبي لمصلحة الأمة.
٤ ـ القاعدة الرابعة: الإسلام والقومية: تعمل القومية على تقوية الشعور الديني.

وتناول الكراس موضوع الاجتماع والصحة وفيه ست قواعد:

١ ـ القاعدة الأولى: الأسرة العربية.
٢ ـ القاعدة الثانية: الأخلاق العربية.
٣ ـ القاعدة الثالثة: الحرية الفردية ـ حق غير مطلق بل مقيد ونسبي لمصلحة المجتمع وصلاحه.
٤ ـ القاعدة الرابعة: تحضير البدو

٥ ـ القاعدة الخامسة: الأمة بعددها ـ ولذلك تفرض القومية العربية تشجيع الزواج وتسهيله.
٦ ـ القاعدة السادسة: الصحة العامة.

وتناول الكراس موضوع الحركة القومية العربية، فعرّف الحركة بأنها حركة بعث الأمة والجهاد في سبيلها. وذكر القواعد السبع التالية:

١ ـ القاعدة الأولى: التنظيم، ويشمل:
أ ـ وحدة المنهج القومي العام.
ب ـ وحدة الكفاح.
جـ ـ شمول التنظيم، لجميع الوطن العربي فيشمل السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي.
د ـ الهيئات، تقوم الحركة على تأليف الأفراد المؤمنين بالعقيدة القومية.
هـ ـ قيمة التنظيم، الجهاد الصادق والعمل الجدي والجهد المستمر والنشاط المتواصل والتعاون المحكم.

٢ ـ القاعدة الثانية: خصائص الأمة، وجمهورها شبابها، وتشمل:
أ ـ الخصائص، توجيه الخصائص العربية الفردية توجيهاً اجتماعياً.
ب ـ الجمهور، بث العقيدة القومية بالجمهور، واتصال قادة الحركة بالجمهور.
جـ ـ الشباب.

٣ ـ القاعدة الثالثة: الزعامة، بالاخلاص والعمل.
٤ ـ القاعدة الرابعة: التعاون.
٥ ـ القاعدة الخامسة: الإستعمار.
أ ـ أسباب الاستعمار الرئيسة.
ب ـ أساليب الاستعمار.

٦ ـ القاعدة السادسة: الدعوة إلى السلم وإلى الأممية ـ الحركة القومية تريد

السلم على قاعدة من العدل والحق، وتقاوم الأممية المستطيبة لهضم الحقوق والقضاء على الأمم.

٧ - القاعدة السابعة: الاصلاح الحقيقي: تصرّف الأمة بمقدراتها واستثمار موارد البلاد العربية في مصلحة العرب.

وبحث الكراس الميثاق القومي العربي، وتناول النقاط الآتية:

١ - الأمة العربية أمة واحدة.
٢ - الاستقلال والوحدة.
٣ - المثل العليا: تقديس الخلق العربي.
٤ - الخصائص العربية والأخلاق العربية، وكثرة عددها وصحة أبدان أبنائها.
٥ - الأمة العربية، اخوة واحدة.
٦ - الجهاد: الجيش سياج الوطن.
٧ - احترام القوميات الأخرى.
٨ - جوهر الثقافة العربية، صريحة في عربيتها، حرة، نامية، متطورة، متنوعة، مولدة، محدثة.
٩ - مكافحة كل ما يتنافى مع إيمان العربي من النزعات والحركات التي تجزىء الأمة العربية.
١٠ - الحركة القومية حركة جهاد في سبيل الأمة العربية، عمله إنشائي يكافح فيه كل حركة غرضها الهدم والفوضى والتبلبل.
١١ - الحركة القومية حركة واحدة، في كافة الأمة العربية، والسعي لتوحيد جبهة الكفاح والعمل القومي في كافة الوطن العربي.

المنشورات:

صدرت مجلة الفتوة معبرة عن أهداف الجمعية ولكنها لم تستمر طويلاً. وأصدر بعض الجوالين المنهج القومي العربي. وأصدر سعدي خليل رسالة مجلة الفتوة الأولى بعنوان (حركات الشباب في العالم، مطبعة

المعارف، سنة ١٩٣٥). تناولت حركات الشباب في الهند ومصر والمانيا وايطاليا وكتائب العمل في بلغاريا وبيوت الشباب في انكلترا. وحبذت تنظيم حركة مشابهة في العراق والبلاد العربية الأخرى. أرسل الكتيب كهدية من مجلة الفتوة.

أصدر بديع شريف كتاباً عن أبي الطيب المتنبي، وألف درويش المقدادي وأكرم زعيتر كتاب تاريخنا، وألف عبد المجيد عباس كتيب أهدافنا ومثّل كتمثيلية. وأصدر ناجي معروف كتاباً عن المدرسة المستنصرية، وكانت جمعية الجوال قد أقامت مهرجاناً سنة ١٩٣٦ حول المدرسة المستنصرية، التي كانت الحكومة العراقية تستعملها كمخزن للكمارك، ثم أصدر ياسين الهاشمي رئيس الوزراء بعد المهرجان أمراً بالحاق المدرسة المستنصرية بمديرية الآثار القديمة.

هذا وأسهم الأعضاء بالكتابة في الصحف القومية داخل العراق وخارجه[٣٠].

تأسيس جمعية التوفير:

قامت جمعية الجوال بتأسيس جمعية للتوفير مرتبطة بها لغرض مساعدة الأعضاء وغير الأعضاء في إبناء المساكن وتأسيس حانوت تعاوني استهلاكي. وقد أطلعنا على أسماء بعض من أسهم بهذه الجمعية. ومنهم من غير الجوالين: هاشم الألوسي ومحمد عبد الحميد (أبو الخير) ومحمد حديد وعبد الكريم عسيران وتحسين إبراهيم وذنون أيوب وعبد المجيد محمود وعلي مظلوم وإبراهيم إسماعيل[٣١].

السفرات والجولات:

نظمت جمعية الجوال سفرات لأعضائها داخل بغداد وإلى بعض

---

(٣٠) المصدر: سعدي الخليل.

(٣١) المصدر: من أوراق ناجي معروف، وسعدي خليل.

المدن العراقية وإلى خارج العراق. قامت بجولات سيراً على الأقدام إلى الهنيدي والرستمية وقامت بسفرات نهرية منها سفرة إلى جزيرة كرد الباشا في ٢٦ تموز ١٩٣٥. ووضعوا منهاجاً للسباحة في ٢٧ تموز ١٩٣٦ لمدة ستة أسابيع في نهر دجلة. وقاموا بسفرات إلى سامراء وبعقوبة وكربلاء (وزيادة قصر الأخيضر)، ومندلي حين ظهرت مشكلات الحدود العراقية ـ الإيرانية(٣٢).

وزارت جماعة من الجوالين بعض امارات الخليج العربي (الكويت والبحرين والمحمرة) سنة ١٩٣٣ منهم ناجي معروف ودرويش المقدادي ومزاحم الشابندر وعبد المجيد عباس وبشير فرنسيس وسليم النعيمي، وكان معهم جواد علي الذي لم يكن عضواً في جمعية الجوال. وأرسلت الجمعية مجموعة أخرى في صيف ١٩٣٣ إلى سوريا ولبنان للمشاركة في مؤتمر (عصبة العمل القومي) تضم ناجي معروف وعبد الستار القرغولي وعبد المجيد عباس، ومعهم صادق البصام وصادق حبة ولم يكونا من الجوالين، وفي بلدة قرنايل اللبنانية عقد المؤتمر سراً ودام خمسة أيام واتخذ عدة قرارات من بينها انتخاب ناجي معروف نائباً للرئيس. وقد أرسل مع ناجي معروف عدد من الشخصيات القومية مثل صائب سلام وصبري العسلي وقسطنطين زريق وكاظم الصلح مذكرة إلى الملك فيصل الأول تطالب بضم سوريا إلى العراق. وفي بغداد قام ناجي معروف بتسليمها إلى البلاط، فرحبّ فيصل بالفكرة وسرّ بها كثيراً، وقال إنه سينظر في موضوعها عند عودته من سويسرا في أواخر صيف ١٩٣٣ غير أنه توفي هناك ولم يحدث شيء(٣٣).

في ١٩٣٥ ذهب بعض الجوالين إلى الحجاز للحج. وفي ١٩٣٦

---

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) المصدر: ناجي معروف.

ذهب سعدي خليل ومحيي الدين النقاش لحضور مؤتمر الكشافة الدولي وزارا بعض الدول الأوروبية.

وقامت الجمعية بسفرة إلى المخاويل وبسفرة أخرى إلى مضارب بني تميم في الكاظمية.

البعثات العلمية:

شجعت الجمعية أعضاءها وساعدتهم على الانتساب للبعثات العلمية للدراسة في خارج العراق، منهم:

١ - إلى المانيا: جابر عمر وعبد الكريم كنونة وبديع شريف وعلي الصافي وعبد الحميد الهلالي وأمين مصطفى الراوي وحسين كبة ودرويش المقدادي.

٢ - إلى انكلترا: عبد الرحمن البزاز ويوسف محمد سعيد وأحمد حقي الحلي.

٣ - إلى الولايات المتحدة: خالد الهاشمي وعبد الحميد كاظم ومحمد ناصر وعبد المجيد عباس وفخري محمد سعيد الشيخ وزكي صالح وحسن الدجيلي وهاشم الحلي.

٤ - إلى فرنسا: ناجي معروف وسليم النعيمي.

٥ - إلى لبنان: سعدي خليل وسليمان قدوري ونهاد عبد المجيد وخضر عبد الغفور وعبد الرزاق محمد العاني وضياء أبو الحب (الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت).

٦ - إلى مصر: محمود غناوي.

هذا وقد طلبت الجمعية من أعضائها في خارج العراق، أن يتعاونوا مع الطلاب العرب في كل ما يعود بالفائدة على الأمة العربية.

الثقافة والمطالعة:

في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٥ قرر العميد والهيئة الادارية تكوين لجنة للدعاية والنشر وصفتها بأنها أهم لجنة فعالة للجوال، من بديع شريف رئيساً وسعدي خليل كاتماً للسر وعضوية ناجي معروف ورشيد علي العبيدي وعبد الستار القرغولي ونهاد عبد المجيد ونعمان أمين وعبد المجيد صالح. وطلب من اللجنة تقديم تقارير أسبوعية وشهرية إلى الهيئة الادارية للجوال تذكر فيها أعمالها وخططها. ولخصت واجباتها بتحقيق كل ما يتعلق بأهداف الجمعية، وتستعين بالأساليب الآتية:

١ - الدعاية والنشر بالكتابة في الصحف واعداد النشرات والكتب التي تبشر بالمبدأ.

٢ - تتولى الاتصال بالصحافة العربية وغير العربية في الداخل والخارج، وتشترك بالجرائد والمجلات الضرورية للجوال.

٣ - تضع نواة مكتبة تحوي المصادر عن القضية العربية، وتقوم بالخطوات التمهيدية لاصدار الجريدة.

٤ - تصدر النشرات والكتب والرسائل لبث الفكرة العربية وترويجها.

٥ - تنظم من جميع الجوالين خطباء ومحاضرين للاجتماعات العامة لسواد الجمهور والمتأدبين، وذلك للتبشير بالمبدأ وخاصة في المدارس الليلية للأميين وفي السجون والقرى، بواسطة الجولات.

٦ - تشكيل لجان خاصة لدراسة بعض المشاكل الاجتماعية والأخطار التي تهدد الأمة العربية، كالصهيونية. والاستعمار والشعوبية والشيوعية وغيرها من العوامل الهدامة التي تعمل على إضعاف الأمة العربية وبلبلة أفكارها وبعثرة قواها، وتقدم التقارير التي تميط اللثام عن هذه التيارات والمؤسسات التي تعمل على ترويجها وبث الدعاية لها لتتمكن من محاربتها وضربها بالصميم.

٧ - يمكنها تنظيم أعمالها بالطريقة التي تراها مناسبة بعد موافقة العميد والهيئة الادارية.

٨ ـ تكون جميع أعمالها مكتومة وسرية[٣٤].

وكانت جمعية الجوال قد طلبت بتاريخ ٢٩ حزيران ١٩٣٥ من كل عضو أن يعد البحث أو الموضوع أو الواجب الذي كلفته به الجمعية، يكون جاهزاً بشكل رسالة صغيرة تتلى مع رفاقه في آخر الصيف. وطلبت أيضاً مطالعة ـ المنهج القومي العربي بامعان وتفهم، وأن يكون العضو مستعداً لأداء فحص فيه عن كل نقطة من نقاطه. وطلبت من الأعضاء مطالعة الكتب الآتية:

١ ـ على هامش السيرة لطه حسين.
٢ ـ النفط مستعبد الشعوب ليوسف إبراهيم يزبك
٣ ـ محمد لمحمد حسين هيكل.
٤ ـ كفاحي لهتلر.
٥ ـ المطبوعات العربية عن الحركة النازية والفاشية ورسالة الفتوة عن حركات الشباب في العالم تأليف سعدي خليل
٦ ـ سيد قريش لمعروف الأرناؤوط.
٧ ـ الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد[٣٥].

وكانت الوحدة العربية أهم موضوع تناوله الجوالون بالبحث والتفكير، وقد طرحت الآراء الآتية:

١ ـ رأى البعض أن يأخذ العراق على عاتقه قيادة الأمة العربية كما قادها زمن العباسيين، وأن يكون العراق للعرب كما كانت بروسيا بالنسبة لتوحيد المانيا وبيدمونت بالنسبة لتوحيد ايطاليا. اعتمد هذا الفريق على الدبلوماسية والوسائل السياسية لتحقيق هذا الغرض.

٢ ـ رأى فريق آخر أن القوة العسكرية هي الكفيلة لتحقيق الهدف، وعلى

(٣٤) من أوراق ناجي معروف.
(٣٥) المصدر نفسه.

الجيش العراقي، تسانده القوى العربية الأخرى، تقع مهمة تنفيذ ذلك واجتياح الكيانات العربية الهزيلة.

٣ ـ رأى بعضهم أن تكون الوحدة العربية شبيهة بما كان قائماً زمن الأمويين والعباسيين.

٤ ـ ورأى فريق آخر أن يكون النظام العربي المقبل شبيهاً بالولايات المتحدة الأميركية.

٥ ـ تحمس السوريون واللبنانيون والفلسطينيون من الجوالين وغيرهم للملك لفيصل الأول في بداية الأمر، ورأوا فيه الزعيم العربي المؤهل لتحقيق الوحدة العربية.

٦ ـ تحمس البعض للملك غازي بعد حادثة الآثوريين، ورأوه أجدر بزعامة الأمة العربية ولا سيما بعد مطالبته بضم الكويت إلى العراق.

٧ ـ اختلفت الأقطار العربية بظروفها السياسية والاجتماعية والثقافية، ولكن يبدو أن الجوالين لم يعطوا أهمية كبيرة لذلك. وقد ظهر ذلك واضحاً حين افتتح نادي المثنى ودعا محمد يونس السبعاوي الأستاذ المصري الدكتور محمود عزمي، لإلقاء كلمة تطرق فيها إلى الواقع العربي وطرح مشروعاً للوحدة يقضي بتحقيقها على مراحل، وذكر أربع مجموعات يمكن أن تكون المرحلة الأولى في طريق الوحدة: المجموعة الأولى تضم دول المغرب العربي: تونس والجزائر ومراكش، والمجموعة الثانية تشمل مصر والسودان وليبيا، والمجموعة الثالثة تتألف من الجزيرة العربية بما فيها اليمن وامارات الخليج، وتشمل المجموعة الرابعة سوريا والعراق ولبنان وفلسطين والأردن، مستنداً على ما هو قائم من الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية والعلاقات الخارجية في الوطن العربي. بعد ذلك يمكن تحقيق المرحلة التالية في توحيد كيانين أو أكثر من هذا الكيان وهكذا حتى يتم تحقيق الكيان الواحد للوطن العربي. وقد أثارت اقتراحات محمود عزمي استياءً

عاماً بين الجوالين والقوميين الآخرين لأنه لم يدع لتحقيق الوحدة العربية فوراً[٣٦].

وإذا ما نظرنا الآن إلى الوراء واستعرضنا تطورات الحوادث وما آل إليه الوضع في الوطن العربي، أدركنا مدى حماسة واندفاع الجوالين وراء العواطف ومدى بعدهم عن الواقع، وعلى أنهم كانوا حالمين رومانسيين في العمل وفي الفكر السياسي.

السدارة الوطنية:

لبس أعضاء الجمعية السدارة الوطنية، سدارة الجوال القماشية (الاسكوجية) وشجعوا الأصدقاء والمؤازرين على ارتدائها، وقد أحرق بعضهم السدائر الإيطالية. وخصصت مجلة الفتوة بعض مقالاتها وصورها للسدارة هذه:

١ ـ وزعت ورقة إضافية مع العدد الأول من السنة الأولى عليها صورة السدارة الوطنية.

٢ ـ مقالة بقلم جابر عمر: «كيف يتعصب الغربيون لمنتوجات بلادهم ـ لماذا لا نكون مثلهم» ومع المقالة صورة طالب يرتدي السدارة الوطنية ـ العدد الثالث من السنة الأولى.

٣ ـ الغلاف الأول للعدد الرابع من السنة الأولى: صورة طالب يرتدي السدارة القماشية. وكذلك غلاف العدد الخامس من السنة الأولى.

٤ ـ مقالة افتتاحية في العدد الرابع من السنة الأولى: «حول مشروع السدارة الجديدة ـ إن كنتم فتياناً فأثيروها حرباً اقتصادية».

٥ ـ قصيدة للفتى (عبد الستار القرغولي): «من قميص أو سدارة» ـ العدد

---

(٣٦) المصدر: ناجي معروف وأحمد حقي الحلي وخالد الهاشمي وجابر عمر وسليم النعيمي وسعدي خليل.

الرابع من السنة الأولى.

٦ ـ مقالة بقلم جابر عمر: «الأرقام تتكلم ـ الوطنية لا تعرف المجاملة ـ السدارة القماشية في طريقها إلى الأمام» ـ العدد الرابع من السنة الأولى.

٧ ـ الغلاف الأخير للعدد السادس من السنة الأولى: صورة طالب يرتدي سدارة الجوال.

وقد لبست أنا أيضاً سدارة الجوال هذه في تلك الأيام، كما لبسها آخرون من المؤازرين والأصدقاء.

الاهتمام بالمناسبات القومية:

أبدت جمعية الجوال اهتماماً كبيراً بالقضايا والمناسبات القومية فكانت تحتفل بها، مثال ذلك:

١ ـ ٩ شعبان ـ عيد النهضة العربية

٢ ـ ٦ أيار ـ ذكرى شهداء العرب في سوريا ولبنان.

٣ ـ قضية فلسطين.

٤ ـ قضية الاسكندرونة.

٥ ـ استشهاد عمر المختار في ليبيا[٣٧].

النشاط الاجتماعي:

نشطت جمعية الجوال في سنواتها الأولى في ميادين كثيرة ومنها الميدان الاجتماعي كالحفلات والتمثيليات والمحاضرات والمباريات. فألفت لجان للخطابة والتمثيل والشعر. وفيما يلي أمثلة عن النشاط الاجتماعي:

---

(٣٧) المصدر: سعدي خليل.

١ ـ مثل طلاب دار المعلمين الابتدائية حين كان مديرها متى عقراوي تمثيلية «أهدافنا» التي ألفها عبد المجيد عباس، تدور حول تاريخ العرب وخروجهم من الجزيرة العربية للفتح ونشر الإسلام، وإظهار اسهامهم بالحضارة الإنسانية وقد حضر الملك فيصل الأول هذه التمثيلية.

٢ ـ انتهز الجوالون فرصة وجود الوفود العربية في بغداد لتأبين الملك فيصل الأول، فأقاموا حفلاً تكريمياً في المدرسة المأمونية وانقلب الحفل إلى مهرجان قومي.

٣ ـ وأقام متى عقراوي حفلة كبرى تكريماً للوافدين العرب إلى العراق كعادل ارسلان وإحسان الجابري وفوزي القاوقجي وأمين رويحة وفريد زين الدين وأكرم زعيتر ومحمد علي علوية، واختار عدداً من الطلاب لإلقاء كلمات بهذه المناسبة وكان من بينهم محمد حسن عبد علي الطائي ومحمد ناصر.

٤ ـ وفي ربيع **١٩٣٥** أقيمت مباراة بين طلاب دار المعلمين الابتدائية وطلاب الثانوية المركزية بتوجيه من جمعية الجوال، حضرها رئيس الوزراء ياسين الهاشمي ووزير الخارجية نوري السعيد ورفائيل بطي، موضوعها «أيهما أفضل للنهوض بالعراق الطفرة أم التطور»؟. وقد مثل دار المعلمين الابتدائية ثلاثة طلاب على رأسهم صالح أحمد العلي (ولم يكن جوالاً) وثلاثة من طلاب الثانوية المركزية وعلى رأسهم نائل سمحيري[٣٨]. أدار المباراة خالد الهاشمي وقد اتضح أن الحاضرين كانوا يؤيدون الطفرة. وحين حاول خالد الهاشمي أخذ رأي الحاضرين واجراء التصويت قام نوري السعيد ليعلن أن الطريق

---

(٣٨) صالح أحمد العلي: نال بعد ذلك شهادة الدكتوراه بالتاريخ الاسلامي وصار استاذاً في جامعة بغداد، ورئيساً للمجمع العلمي العراقي، نائل سمحيري نال بعد ذلك شهادة الحقوق ثم صار عضواً في اللجنة الادارية للحزب الوطني الديمقراطي.

الأمثل هو اقتباس الثقافة الغربية.

٥ ـ وفي حفلة التخرج للسنة نفسها أقامت دار المعلمين الابتدائية، بتوجيه من جمعية الجوال أيضاً، حضرها عدد من المسؤولين كياسين الهاشمي رئيس الوزراء ومحمد رضا الشبيبي وزير المعارف. افتتح الحفلة خالد الهاشمي مدير دار المعلمين الابتدائية وتطرق إلى القومية العربية والوحدة العربية. نقل خالد الهاشمي على أثرها إلى مديرية معارف البصرة، فذهب إلى طه الهاشمي رئيس أركان الجيش ووكيل مدير المعارف العام يسأله عن سبب نقله فقال له: إنني بالرغم من منصبي الكبير لا اجرؤ على التحدث عما تحدثت أنت عنه في الحفلة[٣٩].

٦ ـ دعت جمعية الجوال الأعضاء للاستماع إلى محاضرة يلقيها فرج الله ويردي في ١٩ كانون الأول ١٩٣٥ عن «اختباراته في المانيا» في نادي المثنى[٤٠].

٧ ـ قام بعض أعضاء الجمعية بفتح صفوف لتعليم الأميين في المدارس الليلية، دون اجور.

ـ ٥ ـ

علاقات الجمعية

تأسيس نادي المثنى بن حارثة الشيباني:

في السنة التي أجيزت فيها جمعية الجوال أي سنة ١٩٣٤ تأسس في بغداد ناد قومي باسم «نادي المثنى بن حارثة الشيباني» تيمناً باسم القائد العربي الشهير. من الذين أسسوا النادي ودخلوا في عضويته: صائب شوكت ومتى عقراوي وخالد الهاشمي ودرويش المقدادي وإبراهيم عطار

---

(٣٩) المصدر: سعدي خليل ونعمان محمد أمين وخالد الهاشمي وناجي معروف.

(٤٠) من أوراق ناجي معروف.

باشي وسعيد الحاج وثابت وعبد المجيد القصاب ومحمد فاضل الجمالي ومحمد مهدي كبة وعبد المجيد محمود ومحمد يونس السبعاوي ومحمد صبري مراد وأمين رويحة ومحمد حسن سلمان وأحمد سهيل وسلمان الصفواني وعبد الرحمن الخضير ونور الدين داود ومحمد بديع شريف وداود السعدي ومحمد صديق شنشل وناجي معروف ورشيد علي العبيدي(٤١).

يلاحظ أن نسبة كبيرة من المؤسسين والأعضاء كانوا أعضاء في جمعية الجوال، ونظراً لتشابه المبادىء والأهداف القومية قررت جمعية الجوال الانضمام إلى نادي المثنى مع الاحتفاظ بكيانها. كان مركز النادي في بداية الأمر في الصالحية ثم انتقل إلى العيواضية، ثم تبرع الملك غازي بقطعة أرض في الوزيرية لتشاد عليها بناية النادي.

أصدر نادي المثنى مجلة أسبوعية باسم **مجلة نادي المثنى بن حارثة الشيباني**، وصدر العدد الأول منها في ٢٧ آب **١٩٣٥** وعالجت القضايا القومية، ومنها قضية فلسطين خاصة. ولما تأسست جمعية الدفاع عن فلسطين برئاسة سعيد الحاج ثابت جعلت مقرها في نادي المثنى. طبعت **مجلة النادي** في مطبعة الجزيرة، مطبعة جمعية الجوال. وفي المطبعة نفسها كانت تطبع النشرات الخاصة بجمعية الدفاع عن فلسطين.

بالرغم من احتفاظ جمعية الجوال بكيانها، فإن تاريخ الجمعية وتاريخ النادي صارا تاريخاً مشتركاً إلى أن حلّت الجمعية وحل النادي في سنة ١٩٤١.

علاقة جمعية الجوال بالعقداء الأربعة وضباط الجيش:

كانت هناك كتلة قومية في الجيش تزعمها العقداء الأربعة صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب. وكان أول

---

(٤١) المصدر: ناجي معروف وجابر عمر وسعدي خليل وسليم النعيمي.

المدنيين الـذين اتصلوا بالضبـاط محمد يـونس السبعاوي، ثم اتصـل الضباط بجمعية الجوال وبنادي المثنى، وصار عدد منهم يدفع تبرعات مالية إلى الجمعية. وقد وجدنا بين أوراق ناجي معروف وصولات كثيرة بتلك التبرعات. كان واسطة الاتصال بين جمعية الجوال والضباط سليم النعيمي. وكان خير الله طلفاح يجمع التبرعات المالية. حصل لدينـا التباس وابهام وصعوبة في التفريق بين الأعضاء الحقيقيين في الجمعية من الضباط، وبين الضباط المتعاطفين معها وكانوا يرسلون إليها التبرعات.

من بين الضباط الذين أسهموا بالتبرعات لجمعية الجوال ونادي المثنى ولم يكونوا أعضاء فيهما بسبب منع العسكريين من الأنتماء إلى الجمعيات والنوادي: عبد الكريم فيصل ورشيد فليح وهندي صالح وفخري عارف وفهمي سعيد وأحمد حسن البكر وأسعد جابر وبدر الدين محمود وعبد الحميد عبد الرحمن وسلمان الدرة وهاشم رجب وعبد الحميد عبد المجيد وخليل المفتي وبدري سلمان وسعد الله الياسين وجياد مرزوك وأحمد إسماعيل وفائق عبد الغفور وعباس توفيق وفاضل جاسم وصالح داود ومطر حافظ وإبراهيم محمود وعبد الحميد محمد العزاوي ورشيد مجيد وعبد الرحمن فتاح وعبد الحميد البشري وفالح عبد الكريم وقدري أمين محمود وعبد الوهاب الشيخ علي وعلي غالب عزيز وعبد الستار حلمي وعبد القادر عباس وإبراهيم حسين[٤٢].

ولما نشبت الحرب العراقية ـ البريطانية سنة ١٩٤١ انتظم الكثيرون من أعضاء جمعية الجوال في كتائب الشباب التي أيدت الجيش العراقي. ولما انتهت الحرب اعتقلت السلطات العـراقية المتعـاطفة مـع الانكليز الكثيرين من القوميين ومنهم أعضاء في الجمعية، واحتجزتهم خلال الفترة الباقية من الحرب العالمية الثانية، وهرب بعضهم، وحلت تلك السلطات نادي المثنى وألغت جمعية الجوال.

---

(٤٢) من أوراق ناجي معروف.

موقف جمعية الجوال من النازية والفاشية:

صادف تعاظم الحركة النازية في المانيا ووصول الحزب النازي إلى الحكم في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه جمعية الجوال القومية في العراق. وكانت النازية في المانيا مشابهة للفاشية التي ظهرت في ايطاليا، واستولت على الحكم فيها بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى بالأفكار السياسية والموقف من الاستعمارين الانكليزي والفرنسي ومحاولة إعادة تقسيم العالم من جديد، مما أدى بعد ذلك إلى قيام الحرب العالمية الثانية.

كان موقف العرب من الاستعمارين الانكليزي والفرنسي ومن الصهيونية موقفاً عدائياً، بسبب نقض الحلفاء لوعودهم للعرب في قيام دولة عربية مستقلة في الجزيرة والعراق وسوريا (أي سورياء الحالية ولبنان وفلسطين) ومساندتهم للصهيونية وإعطاء وعد بلفور وإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

لم تكن جمعية الجوال نازية بل كانت هناك مواقف متشابهة ومواقف أخرى متناقضة، بين النازية والفاشية من جهة وبين جمعية الجوال من جهة أخرى.

١ ـ كان تنظيم الحزبين النازي والفاشي شبه عسكري وشبه دكتاتوري، وإلى حد ما كان تنظيم جمعية الجوال كذلك، وقد اهتمت الجمعية بالتدريب العسكري ودعت إلى تنظيم الفتوة.

٢ ـ وقفت جمعية الجوال موقفاً عدائياً من الاستعمار الانكليزي والفرنسي ومن الصهيونية. وكذلك كان موقف النازية والفاشية أي أن النازية والفاشية كانتا عدوين لأعداء العرب. ذكر لي سعدي خليل أن عبد المجيد عباس ألقى قصيدة قومية بمناسبة الاحتفال بعيد النهضة العربية (٩ شعبان) بعيد وصول الحزب النازي إلى الحكم في المانيا، إختتمها ببيت كان عجزه: «وقولوا للشباب تهتلروا». وفي ٢٩ حزيران ١٩٣٥ طلب معتمد الجمعية من الأعضاء مطالعة كتاب

«كفاحي لهتلر»، والمطبوعات العربية عن الحركة النازية والفاشية.

٣ - كان موقف النازية والفاشية عدائياً من الشيوعية العالمية ومن الاتحاد السوفييتي، وكذلك كان موقف جمعية الجوال في العراق.

٤ - كانت قومية جمعية الجوال قومية تحررية ضد الاستعمار ولم تكن قومية عدوانية بل سعت لتحرير الوطن العربي وتوحيده، بينما كانت القوميتان الالمانية والايطالية اعتدائيتين، فقد احتلت ايطاليا ليبيا والحبشة وكانت المانيا تسعى لاستعادة مستعمراتها في افريقيا، ولها أطماعها في البلاد العربية.

٥ - كانت للنازية نظرة عرقية تعتقد بأفضلية الجنس الالماني النوردي على بقية الأجناس وتضع العرب واليهود والزنوج في أسفل سلّم الأجناس في العالم وقد استنكرت جمعية الجوال موقف النازية هذا.

موقف جمعية الجوال من الشيوعية والاشتراكية:

وقفت جمعية الجوال موقفاً معادياً صريحاً من الشيوعية العالمية باعتبارها ضد الدين والقومية والتنظيم الاجتماعي القائم، وتدعو إلى الأممية والحكومة العالمية وحرب الطبقات، وبذلك لا تعطي القوميات، ومنها القومية العربية، حقها في الوجود والنمو. ورأت الجمعية أن الاشتراكية القومية التي تدعو إلى العدل والمساواة بين أفراد الأمة الواحدة لا تتناقض مع القومية بل تنسجم معها.

في وقت ظهور جمعية الجوال ظهرت في العراق «جماعة الأهالي» التي دعت إلى بعض مفاهيم الديمقراطية الاشتراكية. ولكنها لم تهتم بالفكرة القومية والوحدة الغربية مثل اهتمام جمعية الجوال وسائر القوميين. ولذلك حدث ما يمكن أن يسمى سوء فهم متبادل: فقد نظر الجوالون والقوميون إلى جماعة الأهالي باعتبارها شيوعية ضد القومية، ونظرت جماعة الأهالي إلى جمعية الجوال ونادي المثنى باعتبارها نازية.

ركزت جمعية الجوال اهتمامها على القومية والوحدة العربية ولم تعط القضايا الاجتماعية والاقتصادية الاهتمام الكافي. وركزت جماعة الأهالي على القضايا الاجتماعية والاقتصادية والاصلاح والديمقراطية، وأهملت الفكرة القومية والدعوة إلى الوحدة العربية. وبالرغم من ذلك تحدث بين الطرفين نوع من اللقاء والمناقشة في أوائل ظهور الجماعتين ، إذ دعا جابر عمر، حين كان نائب رئيس نادي المعلمين، إلى حوار بين جماعة الأهالي وجمعية الجوال. مثل جماعة الأهالي عبد الفتاح إبراهيم ومثل جمعية الجوال فريد زين الدين. ركز عبد الفتاح إبراهيم على أهمية الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي باعتباره نقطة البداية في إنهاض الأمة العربية وتحقيق الاستقلال والوحدة، بينما ركز فريد على أهمية الوحدة العربية في استقلال الأقطار العربية وتحقيق الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي(٤٣).

هذا وقد وقفت جمعية الجوال ونادى المثنى والقوميون موقفاً عدائياً من وزارة حكمت سليمان التي جاء بها انقلاب بكر صدقي في سنة ١٩٣٦، والتي أسهم بها جماعة الأهالي وذلك لاعتبارها وزارة شعوبية وشيوعية معادية للقومية العربية والوحدة العربية.

علاقة جمعية الجوال بالسلطة:

وقفت جمعية الجوال موقفاً مؤيداً لوزارات ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني، وكان ياسين الهاشمي في نظر الجوالين والقوميين البطل القومي حتى دعي ببسمارك العرب. وقد أيد الجوالون والقوميون وزارة رشيد عالي الكيلاني حين قامت الحرب العراقية ـ البريطانية سنة ١٩٤١.

ووقفت الجمعية موقف المعارض لوزارة حكمت سليمان الانقلابية سنة ١٩٣٦، ووزارة نوري السعيد السادسة التي تألفت بعد فترة قصيرة

---

(٤٣) المصدر: سعدي خليل وجابر عمر.

من انتهاء الحرب العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٤١، وهي الوزارة التي حلت جمعية الجوال ونادي المثنى.

ووقفت الجمعية موقفاً إيجابياً من بقية الوزارات، أي وزارات جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي وطه الهاشمي ووزارات نوري السعيد الثالثة والرابعة والخامسة.

خلال وجود الجمعية (١٩٣٤ ـ ١٩٤١) وقفت السلطة، عدا وزارة حكمت سليمان، موقف المشجع لجمعية الجوال ونادي المثنى بقصد إضعاف جماعة الأهالي والشيوعيين.

علاقة جمعية الجوال بالأفراد والجماعات القومية:

كان للجمعية في العراق وخارجه مؤازرون وأصدقاء من المدنيين والعسكريين. وكان أكثرهم يدفع تبرعات للجمعية. من بين المدنيين توصلنا إلى معرفة الأسماء التالية: هاشم الألوسي وعلي مظلوم وتحسين إبراهيم ومحسن الدوري وإبراهيم إسماعيل وعلي حيدر الجميل وإبراهيم محمد نوري وداود الشواف وعبد الأمير البصام وجواد الجصاني وعبد الله خليل ومحمد مهدي الجلبي وسليم محمود وخيري خورشيد وجواد مصطفى وناجي عواد، وكاظم الصلح (من لبنان) وبدري قدح (من سوريا).

واتصلت جمعية الجوال بالجمعيات ذات الصبغة القومية والإسلامية مثل: جمعية الدفاع عن فلسطين وجمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية ونادي المثنى ونادي القلم وعصبة العمل القومي (في سوريا ولبنان) وجمعية العروة الوثقى (في الجامعة الأميركية في بيروت) والكشاف المسلم (في سوريا ولبنان) وكتائب الشباب في العراق سنة ١٩٤١، حين قامت الحرب العراقية ـ البريطانية.

واتصلت الجمعية ببعض الشخصيات القومية من غير العراقيين

مثل: إبراهيم هنانو وشكري القوتلي وجميل مردم وكاظم الصلح وقسطنطين زريق وفوزي القاووقجي وعبد القادر الحسيني ومحيي الدين النصولي وعبد الله مشنوق وعبد الرزاق الدّندشي (رئيس عصبة العمل القومي في سوريا ولبنان) وعلي ناصر الدين (رئيس فرع عصبة العمل القومي في لبنان) ومصطفى فتح الله (من الكشاف المسلم) وأنيس الصغير (من كلية المقاصد الإسلامية في بيروت).

واتصلت ببعض الشخصيات القومية من العراقيين مثل: أحمد عزت الأعظمي وساطع الحصري وسعيد الحاج ثابت وطه الهاشمي وفاضل الجمالي ومحمد يونس السبعاوي وعبد الجبار الجومرد وطالب مشتاق وعلي محمود الشيخ علي ومحمد أمين العمري[٤٤].

اتجاه بعض الأعضاء إلى اليسار:

بعد مضي فترة من الزمن على وجود الجمعية، وبسبب تطور الأحداث في العراق واتصال بعض الأعضاء بالتيارات الفكرية السائدة حينذاك مال توفيق منير إلى الأفكار اليسارية، وربما يعزى ذلك إلى حد ما إلى صلة القربى التي تربطه بعزيز شريف وصار بعد ذلك من أعمدة حزب الشعب الذي أسس سنة ١٩٤٦. وقد مال عبد المجيد صالح إلى اليسار أيضاً، ولما أسس حزب الشعب تعاطف معه. ومن الأعضاء الآخرين الذين مالوا إلى اليسار: عبد الجليل علي الطاهر ويوسف الحاج الياس وإبراهيم وصفي رفيق وعبد الجبار نوفان. وقد فصلت جمعية الجوال توفيق منير وعبد الجليل علي الطاهر من عضويتها.

---

(٤٤) المصدر: مزاحم الشابندر وسعدي خليل.

الخاتمة

كانت جمعية الجوال جمعية قومية عربية رائدة، دعت إلى الوحدة العربية الشاملة وهذه هي أهم مزاياها، ومن هذه الزاوية يمكن أن الجمعية بأنها كانت تقدمية. كانت الجمعية قومية ضمت في صفوفها العرب من عراقيين وغير عراقيين وبعض المتعاطفين مع العرب، وضمت المسلمين على اختلاف انتماءاتهم كما ضمت بعض النصارى.

مثلت الجمعية جماعة المثقفين - الانتلجنتسيا - وأكثرهم من المعلمين في مختلف درجات التعليم الابتدائي والثانوي والعالي. ومثلت الطبقة الوسطى النامية المعادية للاستعمار والتخلف والتجزئة في الوطن العربي. كما ضمت مدنيين وعسكريين.

كان الأعضاء، بوجه عام، قليلي التجربة في ميدان العمل العام السياسي، وغلب عليهم الاندفاع والعاطفة الرومانسية الحالمة في عالم السياسة. كان للجمعية منهاج اجتماعي جيد لم تسلط عليه الأضواء في حينه بصورة كافية. صارت الجمعية بعد وقت قصير من تأسيسها العمود الفقري لنادي المثنى بن حارثة الشيباني القومي الوحدوي . وقفت الجمعية، بصورة عامة، موقفاً إيجابياً من الطبقة الحاكمة في العراق.

لم تكن الجمعية نازية بل ناصرت كل من عادى الاستعمار الانكليزي والفرنسي والصهيونية.

الجوالون

لم نستطع أن نعرف عدد الجوالين بالضبط ولعلهم نحو مئة وخمسين عضواً. كما لم نستطع التثبت من أسماء الجميع، ولكن عثرنا بين أوراق ناجي معروف على أسماء سبعة وثمانين اسمًا ذكروا في كراسة **المؤتمر السنوي السابع لجمعية الجوال العربي المنعقد ببغداد في ٢ و ٣ شعبان ١٣٥٩هـ/ ٥ و٦ أيلول ١٩٤٠م**، ووصفوا بأنهم الجوالون المؤسسون،

وقد عرفنا أعضاء آخرين أثبتنا اسماءهم فيما يلي[٤٥]، ولم نتأكد من عضوية البعض الآخر[٤٦]:

١ - خالد الهاشمي: نال الدكتوراه بالتربية، وأصبح رئيس جامعة بغداد، وسفيراً.

٢ - متى عقراوي: نال الدكتوراه بالتربية، وأصبح أول رئيس لجامعة بغداد.

٣ - درويش المقدادي: صاد عميداً لدار المعلمين العالية في بغداد، ثم معاوناً لمدير المعارف في الكويت.

٤ - ناجي معروف: نال الدكتوراه بالتاريخ الإسلامي، وصار عميداً لكلية الآداب في جامعة بغداد، وصار عضواً بالمجمع العلمي العراقي.

٥ - فريد زين الدين: نال الدكتوراه بالقانون من المانيا وفرنسا، وصار سفيراً لسوريا.

٦ - أكرم زعيتر: صار سفيراً لدولة الأردن.

٧ - سليم النعيمي: نال الدكتوراه باللغة العربية وصار عميداً لكلية التربية، ونائب رئيس المجمع العلمي العراقي.

٨ - عبد الحميد كاظم: نال الدكتوراه بالتربية وصار عميداً لدار المعلمين العالية ووزيراً للمعارف.

٩ - محمد ناصر: نال الدكتوراه بالتربية وصار عميداً لدار المعلمين العالية، ووزيراً وسفيراً.

١٠ - عبد المجيد عباس: نال الدكتوراه بالعلوم السياسية، وصار وزيراً.

١١ - محمود غناوي: نال الدكتوراه باللغة العربية وصار عميداً لدار المعلمين العالية ثم عميداً لكلية الآداب.

---

(٤٥) المصدر: أوراق ناجي معروف، سعدي خليل، مزاحم الشابندر، نعمان محمد أمين جابر عمر.

(٤٦) لم نتأكد من عضوية وهوية أديب معوض وسليم كمال.

١٢ ـ إبراهيم شوكت: نال الدكتوراه بالجغرافية وصار أمينا عاماً لجامعة بغداد، وعضواً في المجمع العلمي العراقي.
١٣ ـ عبد الرحمن البزاز: صار سفيراً، ثم رئيسا للوزراء.
١٤ ـ جابر عمر: نال الدكتوراه بالتربية وصار وزيراً وسفيرا.
١٥ ـ عبد الكريم كنونة: نال الدكتوراه بالتربية، وصار وزيراً.
١٦ ـ حسن الدجيلي: صار وزيراً وسفيراً.
١٧ ـ أحمد حقي الحلي: نال الدكتوراه بالتربية وصار استاذاً في جامعة بغداد.
١٨ ـ بديع شريف: نال الدكتوراه باللغة العربية والقانون وصار رئيس ديوان رئاسة الجمهورية.
١٩ ـ خضر عبد الغفور: صار استاذاً في جامعة بغداد، ثم وزيراً.
٢٠ ـ سعدي خليل: صار استاذاً في جامعة بغداد.
٢١ ـ صدقي حمدي: نال الدكتوراه بالتاريخ الإسلامي وصار استاذاً في جامعة بغداد.
٢٢ ـ طه باقر: صار أستاذاً في جامعة بغداد، وعضواً في المجمع العلمي العراقي.
٢٣ ـ عبد الحميد الهلالي: نال الدكتوراه بالاقتصاد، وصار وزيراً.
٢٤ ـ مجيد خدوري: نال الدكتوراه بالعلوم السياسية وصار استاذا في جامعة بغداد.
٢٥ ـ محمد حسن سلمان: كان دكتوراً بالطب وصار وزيرا.
٢٦ ـ معمر الشابندر: كان دكتوراً بالطب وصار أستاذا في جامعة بغداد.
٢٧ ـ فؤاد سفر: صار مفتشاً للآثار.
٢٨ ـ يونس نادي: صار دكتوراً بالطب.
٢٩ ـ حسين كبة: نال الدكتوراه باللغة العربية، صار مفتشاً مختصاً بوزارة التربية.
٣٠ ـ صديق شنشل: صار وزيراً.

٣١ ـ سلمان الصفواني: صار وزيرا.
٣٢ ـ توفيق منير: صار نائب نقيب المحامين.
٣٣ ـ عبد الجبار نوفان: صار أستاذا في جامعة بغداد.
٣٤ ـ مزاحم الشابندر: صار مدوناً قانونيا.
٣٥ ـ حامد مصطفى: صار مدوناً قانونياً.
٣٦ ـ عبد الحق فاضل: صار سفيرا.
٣٧ ـ فرحان شبيلات: صار سفيراً لدولة الأردن.
٣٨ ـ رشيد علي العبيدي: صار عميداً لكلية الشريعة في جامعة بغداد.
٣٩ ـ عارف ظاهر: صار موظفا في جامعة الدول العربية.
٤٠ ـ سليمان قدوري: نال الشهادة العالية بالكيمياء ـ مدير قسم في معهد الصناعات الكيمياوية.
٤١ ـ علي القزويني: نال شهادة الحقوق.
٤٢ ـ عبد المجيد صالح: نال شهادة الحقوق.
٤٣ ـ عبد الستار القرغولي: صار مدير معارف بغداد.
٤٤ ـ نهاد عبد المجيد: صار مرشداً تربوياً مختصاً.
٤٥ ـ نعمان محمد أمين العاني: نال شهادة الحقوق، صار نائب نقيب المحامين الأول.
٤٦ ـ أحمد معروف: صار مرشداً تربوياً مختصاً.
٤٧ ـ عواد معروف: نال شهادة الحقوق.
٤٨ ـ عبد الملك الزئبق: صار سفيراً.
٤٩ ـ عبد الرزاق حمود: صار نائباً في البرلمان.
٥٠ ـ عبد الجبار عبد الفتاح العماري: كان دكتوراً بالطب.
٥١ ـ قاسم حمودي: صار مديراً مسؤولاً لجريدة لواء الاستقلال.
٥٢ ـ حسن مصطفى الخليل: نائب أحكام أقدم في وزارة الدفاع.
٥٣ ـ حسن موسى: صار مديراً عاماً في وزارة التربية.
٥٤ ـ طه عمر: مدير مدرسة ـ متقاعد.
٥٥ ـ عزيز مصطفى الخليل: اشتغل بالأعمال الحرة.

٥٦ ـ عباس محمد القدسي : اشتغل بالتعليم ـ متقاعد.
٥٧ ـ عمر أحمد الراوي : صار موظفاً في ديوان وزارة المعارف.
٥٨ ـ عبد الرزاق محمد العاني: نال الشهادة العالية بالتربية ـ صار مدير قسم في وزارة المعارف.
٥٩ ـ قاسم خليل: صار مفتشاً في وزارة المعارف.
٦٠ ـ محمد علي فارس: محاسب السفارة العراقية في بيروت.
٦١ ـ محمد سعيد جمعة: صار مفتشاً في وزارة المعارف.
٦٢ ـ يوسف محمد سعيد: صار مهندساً بالسكك.
٦٣ ـ ياسين محمد: مدير مدرسة ـ متقاعد.
٦٤ ـ أحمد المغربي[٤٧]:
٦٥ ـ أكرم الهاشمي: مدير الجمعيات في وزارة الداخلية.
٦٦ ـ بهاء عوني: صار سفيراً.
٦٧ ـ جورج منصور: كان سكرتير جمعية العمال العرب في يافا.
٦٨ ـ حكمت عبد الرحمن: كان صاحب دكان في الأعظمية.
٦٩ ـ داود يحيى: صار موظفاً في ديوان الرقابة المالية.
٧٠ ـ نجم الدين جلميران: صار مدير البنك العربي في بغداد.
٧١ ـ راسم الخالدي: فلسطيني / كان مدرساً في المدارس الثانوية العراقية.
٧٢ ـ زهير الدملوجي: طبيب.
٧٣ ـ عبد الستار الحران: نال شهادة الحقوق، صار مدوناً قانونياً.
٧٤ ـ علي خليل: اشتغل بالتعليم ـ متقاعد.
٧٥ ـ عبد الله حلمي العمر: موظف في وزارة الخارجية.
٧٦ ـ عبد الحسين العاملي: اشتغل بالأعمال الحرة.
٧٧ ـ عبد الخالق عبد المجيد: نال شهادة الحقوق، صار معاون رئيس تسوية.

---

(٤٧) لم نتأكد من هوية أحمد المغربي.

٧٨ ـ عثمان الحوراني: سوري/ مدرس في المدارس الثانوية العراقية.
٧٩ ـ أمين مصطفى الراوي: اشتغل بالتعليم ـ توفي مبكراً.
٨٠ ـ فالح ذياب: معاون مدير ثانوية.
٨١ ـ فخري عبد القادر: ضابط.
٨٢ ـ قاسم محمد الرجب: صاحب مكتبة المثنى.
٨٣ ـ محمد كاظم الحمداني: مفتش مختص بوزارة التربية.
٨٤ ـ ممدوح السخن: فلسطيني / صار صاحب مذخر في عمان.
٨٥ ـ محمد داود: اشتغل بالتعليم.
٨٦ ـ نعمان حمودي: اشتغل بالتعليم.
٨٧ ـ **واصف كمال**: فلسطيني / مدير أحد البنوك العربية في بيروت.
٨٨ ـ رجب عبد المجيد: صار عميداً بالجيش، ووزيراً وسفيراً.
٨٩ ـ ناجي طالب: صار لواء بالجيش، ورئيس وزراء.
٩٠ ـ خيرا الله طلفاح: صار ضابطاً بالجيش، ومحافظاً لبغداد ورئيساً لمجلس الخدمة.
٩١ ـ شاكر سعيد: صار لواء بالجيش.
٩٢ ـ حمودي مهدي: صار لواء بالجيش ورئيس أركان الجيش، ووزيراً.
٩٣ ـ عبد اللطيف الدراجي: صار لواء بالجيش ووزيراً وسفيراً.
٩٤ ـ ضياء أبو الحب: نال الدكتوراه بعلم النفس وصار استاذاً في جامعة بغداد.
٩٥ ـ عبد الجليل علي الطاهر: نال الدكتوراه بعلم الاجتماع وصارا استاذاً في جامعة بغداد.
٩٦ ـ محمد حسن عبد علي الطائي: صار ضابطا بالجيش ومديراً لسجن بغداد.
٩٧ ـ محيي الدين النقاش: صار ضابطاً بالجيش.
٩٨ ـ عبد الهادي المختار: صار مدير معارف، ومفتشا مختصاً بوزارة المعارف.

٩٩ ـ زيدان خليفة: صار مديراً لمطبعة الجزيرة.
١٠٠ ـ مصطفى كامل ياسين: نال الدكتوراه بالقانون وصار أستاذاً في جامعة بغداد وسفيراً.
١٠١ ـ جاسم محمد الباقلاني: توفي في وقت مبكر بالسل.
١٠٢ ـ عبد اللطيف الكمالي: صار مديراً للمكتبة الوطنية.
١٠٣ ـ زكي صالح: نال الدكتوراه بالتاريخ الحديث وصارا أستاذاً في جامعة بغداد، وعضواً في المجمع العلمي العراقي.
١٠٤ ـ طاهر يحيى: صار فريقاً في الجيش ورئيساً للوزراء.
١٠٥ ـ صبحية المقدادي: السيدة الوحيدة بالجمعية، أخت درويش المقدادي، وزوجة الدكتور إبراهيم شوكت.
١٠٦ ـ أحمد عزت محمد: صاحب جريدة الصرخة، صار موظفاً بالسلك الدبلوماسي (قنصل عام في نيويورك).
١٠٧ ـ نورى جعفر: نال الدكتوراه بالتربية وعلم النفس وصار استاذاً في جامعة بغداد.
١٠٨ ـ أمين رويحة: كان دكتوراً بالطب وصار ضابطاً طبيباً.
١٠٩ ـ مجيد حسو: نال شهادة الحقوق، واشتغل بالتجارة.
١١٠ ـ بشير فرنسيس: عمل موظفاً بالآثار العامة.
١١١ ـ خليل إبراهيم: صار مدير مدرسة ابتدائية.
١١٢ ـ حقي توفيق المفتي: صار ضابطاً ونال شهادة الحقوق.
١١٣ ـ محمد صبري مراد: كان دكتوراً بالطب وصار ضابطاً طبيباً.
١١٤ ـ عبد الله محمد أمين العاني: صار معلمًا، توفي مبكراً.
١١٥ ـ سليمان محمد فهد: صار مفتشاً بالزراعة.
١١٦ ـ عبد العزيز الكنفاني: كان دكتوراً بالطب.
١١٧ ـ إبراهيم وصفي رفيق: صار عضو محكمة التمييز.
١١٨ ـ يوسف الحاج الياس: نال شهادة الحقوق.
١١٩ ـ هاشم الحلي: صار موظفاً بالسلك الدبلوماسي (قنصل عام في نيويورك)

١٢٠ ـ عبد المجيد عبد النبي: صار مدير التعاون الزراعي العام.
١٢١ ـ واصل رسلان: طبيب سوري (درزي)
١٢٢ ـ فخري محمد سعيد الشيخ: توفي بحادث سيارة في الولايات المتحدة.
١٢٣ ـ أنيس الصغير: دكتوراه في العلوم، كان استاذاً في بغداد(٤٨).
١٢٤ ـ ابراهيم حيدر: لبناني / كان مدرساً في بغداد.
١٢٥ ـ شاكر محمود الهيتي: نال شهادة الحقوق.
١٢٦ ـ أحمد محمود الجنابي: صار عميد ركن في الجيش.
١٢٧ ـ جهاد عبد الغني: صار ضابطاً طياراً.
١٢٨ ـ علي الصافي: نال الدكتوراه بالاقتصاد: صار وزيراً.
١٢٩ ـ حازم المفتي: نال شهادة الحقوق، صار نائباً في البرلمان.
١٣٠ ـ فريد يعيش: فلسطيني / كان مدرساً في بغداد.
١٣١ ـ خليل المصفي: طبيب سوري (درزي)
١٣٢ ـ سعد الدين العيسى: طبيب سوري.
١٣٣ ـ مصطفى الوكيل: دكتوراه بالرياضيات (استاذ في دار المعلمين العالية)(٤٨).
١٣٤ ـ خليل المقدادي: فلسطيني ـ اخو درويش المقدادي، كان مدرساً في بغداد.
١٣٥ ـ شاكر محمود الجودي: صار مفتشاً مختصاً في وزارة المعارف.
١٣٦ ـ عبد الحق عبد المجيد العزاوي: صار ضابطاً.
١٣٧ ـ نوري عبد السلام الحافظ: نال الدكتوراه بالتربية، صار عميداً لكلية التربية في جامعة بغداد.
١٣٨ ـ خيري يحيى الحافظ: صار ضابطاً، ثم متصرفاً.
١٣٩ ـ محمد خضر الشطري: نال شهادة الحقوق.

---

(٤٨) يقول سليم النعيمي ان أنيس الصغير ومصطفى الوكيل كانا مؤازرين

الأهمية الجغرافية ـ الاقتصادية والسياسية لحوض نهر الكونغو ـ زائير[1]

د. غزال عباس حسين
قسم الجغرافية كلية الآداب ـ جامعة بغداد

١ ـ المقدمة.
٢ ـ الوصف الجغرافي لحوض نهر الكونغو ـ زائير.
٣ ـ التركيب الاجتماعي والاقتصادي في حوض نهر الكونغو.
٤ ـ الأهمية السياسية لحوض نهر الكونغو.

١ ـ المقدمة:

إن الغرض من دراسة منطقة حوض نهر الكونغو[1]، هو بيان الظروف الجغرافية العامة التي أعطتها الأهمية الدولية مثلما أعطت ظروف جغرافية معينة منطقة الشرق الأوسط أهميتها المعروفة. ويضم حوض نهر الكونغو خمس دول هي: جمهوريات (زائير ـ التي تفوق الجميع في المساحة والنفوس ـ ورواندا وبروندي، وإفريقيا الوسطى والكونغو الشعبية) (جدول رقم ١). وهذا الحوض يتوسط قارة إفريقيا وتبلغ

ملاحظة: إن الأرقام الواردة في هذا المقال وضعت، بعناية بعد تدقيق مصادر مختلفة في إحصاءاتها حول الحقائق المتشابهة.

(١) لقد بدلت جمهورية الكونغو اسمها إلى جمهورية زائير في سنة (١٩٧١) وكذلك اسم نهر الكونغو إلى نهر زائير، ولكن اسم الكونغو لا يزال يستعمل في المحافل الدولية (١٦: ص ٧٤١).

مساحة سطفة تصريفه المائي ٣,٦٠٠,٠٠٠ كم٢[١] أي ١/٥ (خمس) مساحة القارة البالغة ١٩,٠٠٠,٠٠٠كم٢. كما أنه يحتل قلب الإقليم المداري الإفريقي. وهو يمتد بين خطي عرض ١٠° شمالاً و٢٧, ١٣° جنوباً، وبين خطي طول ٣٥, ١٢° شرقاً و١٥ و٣١° غرباً. وإنه يحاذي لمسافة قصيرة عند مصبه في الغرب ساحل المحيط الأطلسي[٢] الذي يمتد غرب القارة ويبتعد حوالى ١٢٠٠كم عن المحيط الهندي الذي يحد قارة إفريقيا من الشرق وبمقدار ٢٣٣٢ كم عن مدينة الكاب في دولة اتحاد جنوب إفريقيا من الجنوب وبمقدار ٢٣٥٠كم عن ساحل البحر المتوسط من الشمال. وتبتعد أطراف هذا الحوض بعضها عن بعض بمقدار ٢٠٠٠كم. وقد ساعد الموقع الوسطي والمساحة الواسعة لحوض الكونغو على تنوع عناصر بيئته الطبيعية في المناخ والنبات والتربة والموارد المعدنية والمائية وكذلك على زيادة أهميته الاقتصادية والسياسية بحيث أصبح من مناطق الصراع الدولي في الوقت الحاضر. ولقد بدأ هذا الصراع حينما عقد مؤتمر برلين بين سنتي ١٨٨٤ و١٨٨٥ الذي خطط الحدود الأولية لاقتسام حوض نهر الكونغو آنذاك بين الدول الاستعمارية بحيث أصبح كل جزء من الحوض مستعمرة لدولة أوروبية معينة. فالكونغو صار في حوزة بلجيكا ورواندا وبروندي في حوزة ألمانيا، وقد انتقلت إدارة هاتين المستعمرتين إلى بلجيكا بحسب نظام الانتداب بعد خسارة ألمانيا الحرب العالمية الأولى، وإفريقية الاستوائية ـ جمهورية إفريقيا الوسطى ـ وجمهورية الكونغو الشعبية وجمهورية الغابون إلى حوزة فرنسا. وقد نالت هذه المستعمرات استقلالها خلال المدة الواقعة بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٤. ولم يخل هذا الاستقلال من بقايا التبعية الأجنبية لأن وضعها الاقتصادي والاجتماعي قد حتم عليها قبول المعونة من الدول التي لها مصالح وفق

---

(١) تبلغ سعة تصريف حوض نهر الأمزون ٥٣١٨١٠٠كم٢ (١٦، ص ٦٥٦)

(٢) تمتلك زائير مصبّ نهر الكونغو الذي لا يتجاوز عرضه ٣٣كم تحده جمهورية أنجولا من الجنوب ومقاطعة كابندا التابعة لها من الشمال.

شروط قد تكون استغلالية وتعسفية. إن هذه الظاهرة تعاني منها بعض دول العالم الثالث حيث تسعى الدول الكبرى إلى جرها ضمن إطار نفوذها السياسي تحت ستار المساعدات الاقتصادية والثقافية. والموضوع يتناول ثلاثة أقسام وهي:

الوصف الجغرافي لحوض نهر الكونغو - زائير.
التركيب الاجتماعي والاقتصادي لحوض نهر الكونغو.
الأهمية السياسية لحوض نهر الكونغو.

٢ - الوصف الجغرافي لحوض نهر الكونغو - زائير.

يتميز حوض نهر الكونغو ببساطة تركيبه الفيزيوغرافي إذ هو عبارة عن سهل فيضي يبلغ طوله ١٣٠٠كم ينحدر نحو الوسط ثم إلى الغرب على شكل مدرجات متداخلة وذلك بعد أن امتلأت بحيرة الكونغو القديمة بالرواسب الطموية. إن تضاريس هذا السهل قليلة على وجه العموم ومن النادر أن يزيد ارتفاعها على ١٠٠ متر عن المستوى الأفقي للسهل ذاته وتكثر المستنقعات والبحيرات في أجزائه المنخفضة، ومن أبرزها (بحيرة ماي ندونب، وبحيرة تامبا، وبحيرة شانكليل، وبحيرة نزيلو، وبحيرة ديلي كميون)[١]. ولقد تعرض الحوض لسلسلة من الحركات الأرضية أدت إلى رفعه أكثر من ٣٠٠ متر عن مستوى سطح البحر كما أدت إلى حدوث انكسارات والتواءات في الجهات المحيطة به، مما أدى إلى تكوين الجنادل والشلالات التي تعرقل الملاحة في النهر إلا أن بعضها يشكل مساقط مائية مناسبة لإنشاء محطات لتوليد الطاقة الكهرومائية. وتحيط بسهل الكونغو حافات ومناطق تقسيم المياه التي تفصل بين حرف حوض الكونغو وأحواض بعض الأنهار الإفريقية الأخرى مثل حافة تقسيم المياه الاستوائية الشمالية التي تفصل بين حوض

---

(١) Lakes Mai Nodunb, L. Tamba, L. Shanklil, L. Nazilo and L. Dily Komun).

نهر الكونغو وأحواض أنهار النيل وشاري والنيجر التي تجري نحو الشمال وحافة تقسيم المياه الجنوبية التي تفصل حوض نهر الكونغو عن أحواض الزمبيزي وكوانزا ومابردج ولوج ودندي وبنكو[1] التي تجري نحو الجنوب والغرب ثم المدرجات الغربية ذات الصخور البلورية التي تشكل شلالات لفنجستون التي تنحدر على شكل مدرجات مائية حوالى ٣٠٠متر فتفصل سهل الكونغو الأوسط عن منطقة مصب نهر الكونغو الأسفل. وقلما يزيد ارتفاع هذه الحافات والهضاب على ١٥٠٠ متر باستثناء قمة الكميرون التي يصل ارتفاعها إلى ٤٠٠٠ متر. وتكون الحافة الشرقية معقدة وتشكل الجزء الغربي من الوادي الأخدودي الإفريقي الذي يمتد مسافة ١٤٤٠ كم من الجنوب إلى الشمال في حين يصل عرضه إلى حوالى ٤٢ كم. وقد يصل ارتفاعها في جبال رونزوري (قمة ستانلي) إلى ٥١٠٩ متر بالقرب من الحدود الأوغندية و٤٥١٩ متر عند جبال رواندا البركانية. ويضم الفرع الغربي من الوادي الأخدودي بحيرات (ميلاوي وتنجانيقا وكيفو وموبوتو وأمين) وينساب من هذه الهضاب والمرتفعات المحيطة نهر الكونغو وروافده بحيث يصل طوله ٤٨٢٧كم.[2]. يشحل نهر الكونغو الأعلى مجرى النهر ما بين شمال زامبيا وإقليم شابا في جمهورية زائير حتى مدينة كازنجاني (ستانلي فيل) ويبدأ برافد لولايا الذي يتصل به رافد شميزي ولولوكا وجميعها تنبع من هضاب الفانا الجنوبية ويكون اتجاه النهر من الجنوب نحو الشمال الشرقي. ويبدأ قسم الكونغو الأوسط ما بين مدينتي كازنجاني شرقاً والعاصمة كنشاسا غرباً بمسافة ١٦٦٦كم حيث يكون صالحاً للملاحة ويسير مع خط الاستواء ويتسلم النهر هنا مياه روافد مونكلا وتيميري وأروميمي وأيمومي وأبونكي ولولونكا وروكي[3] ومياه بحيرة تومبا.

---

(١) Rivers of (Zambizi, Kwanza, Mabridge, Log, Dundy and Bingo).

(٢) ١٧ ص ٥٦٠ ـ ٥٦٥، ١٦: ص١٥٠ ـ ١٥١

(٣) Tributaries of (Mongla, Timari, Urimimi, Imomi, Ubangi, Lolonga and Rocky).

ويتراوح عرضه ما بين ٢ - ١٥ كيلومتراً عند مروره بمنطقة المستنقعات الوسطى ومن ثم يتصل به رافده الكبير كساي عند مدينة ماليبو Malebo (ستانلي بول) حيث توجد شلالات لفنجستون ومن أبرزها شلالات انكا Anga التي تقع على مسافة ٤٢ كم شرق ميناء ميتادي وهو أكبر موانىء زائير. ويدخل النهرعندئذ جزءه الأسفل حيث يبلغ طوله ١٣٤ كم وعلى طول هذا الجزء تقوم موانىء ميتادي وبوما وبنانا. ويبلغ معدل حرفه حوالى ١,٢٠٠,٠٠٠ قدماً مكعباً «٤٠٠٠٠متراً مكعباً» في الثانية[1]. ويخترق مجراه قاع المحيط الأطلسي مسافة ١٦٧كم بعمق ١٣٥٠ متراً بينما يستمر تيار مياهه واضحاً على سطح مياه المحيط مسافة ٥٠ كم. وعموماً يبلغ طول الأجزاء الصالحة من النهر ومن روافده للملاحة حوالى ١٤٠٠٠كم. وتربط السكك الحديدية أو الطرق البرية بين الأجزاء الصالحة للملاحة في المناطق التي تعترض النهر الجنادل والشلالات (خارطة رقم ١, ٢)[2].

وللمناخ المطير تأثير كبير على الكميات الهائلة من الموارد المائية التي يقوم نهر الكونغو بتصريفها فلا تفوقها من حيث الكمية إلا المياه التي تنصرف من نهر الأمزون في أمريكا الجنوبية. ولكن إمكانية نهر الكونغو من حيث توليد الطاقة الكهرومائية تفوق غيره من الأنهار الكبيرة[3].

---

(١) تبلغ كمية صب نهر الأمزون ١٧٥٠٠٠م³/ثانية - حيث تبلغ مساحة حوض نهر الكونغو ٧٠٪ من مساحة حوض نهر الأمزون وكمية صبه ١/٤ كمية مياه نهر الأمزون (٥: ص ١١ - ١٢).

(٢) لقد بلغت طول الطرق البرية بأنواعها المختلفة عند تأسيس الحكم الوطني في جمهورية زائير ١٤٠٠٠٠كم في سنة ١٩٦٠ من ضمنها ٤٦٠٦ كم من السكك الحديدية ثم انخفضت تدريجياً وبقي الصالح منها ٢٠٠٠٠ كم في سنة ١٩٧٧ بسبب صعوبة صيانة طرق المواصلات في بلدان فقيرة ومطيرة وغابية وتربة غير مستقرة (٥: ص ١٧٣)، وإن أفضل وسائط النقل هي الوسائط الجوية التي تتخطى المصاعب الأرضية وحمولتها في تزايد مستمر.

(٣) تشكل إمكانية حوض نهر الكونغو الكهرومائية نسبة ١٦٪ من مجموع إمكانية العالم

ويؤثر المناخ كذلك في نوع وكثافة النبات الطبيعي ونوع التربة والحيوان وفي نشاطات الإنسان وعدده في هذا الحوض.

يخترق خط الاستواء حوض نهر الكونغو الذي يقع بمجموعه ضمن نطاق حركة الشمس الظاهرية بين المدارين ٢٣.٥ ش جـ وضمن منطقة الضغط الخفيف التي تلتقي عندها الرياح والأعاصير الاستوائية والموسمية (Inter Tropical Convergence Zone, ITCZ). فالمناخ المداري هو السائد وهو يتسم بمعدل عالٍ للحرارة يصل إلى ٣٠°م إلا أنه قلما يزيد على ٣٥°م كما يتميز بمدى حراري يقل عن ٧°م سنوياً فهو أقل من فرق الحرارة اليومي الذي قد يصل ١٢°م. ويكون الليل هو فترة انخفاض درجات الحرارة النسبية. كما أنه ليس هناك اختلاف كبير في طول الليل والنهار. أما من ناحية الأمطار فإنها تكون غزيرة منتظمة السقوط بشكل عام على جانبي خط الاستواء وقد تصل كمية الأمطار الساقطة حوالى ٢٠٠سم في السنة إلا أنها تتناقص إلى ٩٠ سم في الجهات الجنوبية والشمالية حيث يمتد فصل الجفاف إلى أربعة أشهر في أقاليم السفانا، وتغزر الأمطار في فترة تعامد الشمس في الربيع والخريف إذ تزداد الرطوبة ويقل الضغط وتصل الأعاصير الموسمية، وتحدث الأمطار التصاعدية الرعدية بينما تقل الأمطار أو تنعدم عند ابتعاد الشمس باتجاه المدارين وعند ارتفاع الضغط نسبياً في أقاليم السفانا. وتختلف درجة الحرارة حسب الارتفاع، ففي المرتفعات الشرقية تصل إلى حوالى ٣٠°م في الوديان و١٨°م على ارتفاع ١٦٥٠ متراً و٦°م على ارتفاع ٤٥٠٠متراً[(١)]. وفي الواقع، ان كمية الأمطار ومقدار ذبذبتها وليس تغير درجة الحرارة، يشكلان عاملين مهمين يؤثران في توزيع النبات الطبيعي والنشاط

الكهرومائية ونسبة ٤٠٪ من إمكانية قارة إفريقيا المائية وهي تساوي (١٦٣) مليون وحدة قوة حصان (١٠٣) مليون كيلو واط والطاقة المتولدة فعلاً حول ٢٨٠٠٠ وحدة قوة حصان. (٦: ص ٢٣ ـ ٢٧).

(١) (٢١ : ص ١٣٢).

الزراعي في الجهات السهلية. كما أن تنوع النبات يتماشى مع تنوع المناخ خاصة كمية الأمطار وفصل سقوطها. فتسود الغابات الاستوائية على جانبي خط الاستواء. وهي كثيفة دائمة الخضرة والنمو وكثيرة التنوع إذ قد تزيد على ٢٠٠٠ نوع من النبات في الكيلومتر المربع الواحد. ونباتاتها تتنافس من أجل نور الشمس والمكان لاستمرار حياتها. فأشجارها متشابكة طباقية قد يصل ارتفاع البعض منها إلى ٧٥ متراً تغزوها الأشجار المتسلقة التي تزيد من ظلمة الغابات الاستوائية التي قلما تسمح بنمو نباتات أرضية ثانوية إلا إذا وجد المكان ونور الشمس، وأشجارها تتميز بخشبها الصلب الذي يصعب على الآلات الميكانيكية تشكيله. ومن أبرز أنواع الأشجار ذات القيمة التجارية الماهوكني والبلزا والمطاط والقطن الفضي.

وعند الابتعاد عن المنطقة الاستوائية شمالاً وجنوباً تتحول هذه الغابات إلى نباتات السفانا «Park Land» المتكونة من حشائش طويلة وخشنة وأشجار متفرقة (acacia) غابات السنط المقاومة للجفاف التي تجف أو تسقط أوراقها في فصل الجفاف، وهي تغطي أعالي روافد أونيكي وأولي وكساي وإقليم شابا في الجنوب والمناطق الشمالية من جمهورية إفريقيا الوسطى في الشمال. بينما تتنوع النباتات على سفوح المرتفعات الشرقية من النباتات الاستوائية في الوديان إلى القصب والخيزران المداري على ارتفاع ٢٦٠٠ متر. ويتأثر نوع التربة بالمناخ والنبات الطبيعي والصرف، فهي تربة منقولة خصبة نسبياً على جانبي النهر ولكنها تربة مدارية حمراء إلى صفراء حامضية الخواص غنية بهايدروكسيدات الحديد والألمنيوم والمنغنيز التي تحمل الأسماء التالية: La-teretic, Terra Rosa, and Red Yellow Podzolic Soils وهي ترب ناضجة تكونت من تعرية صخور أركية وباليوزكية قليلة الخصوبة بسبب نقص عناصر الكلس والبوتاس والفوسفات والنتروجين، ثم سرعة تحلل

وأكسدة المواد العضوية Photo Oxidation[1] وترسبها في الآفاق السفلى من مقر التربة حيث يصعب على الخضر والحبوب التي تتركز جذورها عند السطح الاستفادة منها على عكس نباتات الأشجار ذات الجذور الطويلة. فالتربة المدارية تكون أنسب لزراعة الأشجار المثمرة والزراعة المتنقلة، أو لا بد من بذل جهود كبيرة لأجل رفع خصوبتها لتكون الأرض مهيأة للإنتاج الزراعي التجاري. وتوجد التربة البركانية (Nito-zols, Andosols) على سفوح المرتفعات الشرقية ووديانها وخاصة في جمهوريتي رواندا وبروندي.

٣ ـ التركيب الاجتماعي والاقتصادي في حوض نهر زائير (الكونغو)

يتباين المجتمع الإفريقي في جنوب الصحراء الكبرى. فتغلب عليه حياة البساطة والقبلية القائمة على روابط القرابة والدم والمسؤولية الجماعية، ثم التنوع في اللغات واللهجات والعادات فتوجد مثلاً حوالى ٢٥٠ لهجة يتكلمها سكان حوض نهر الكونغو، مئتان منها في جمهورية زائير[2] وحدها فقط. إلا أن اللغة الفرنسية أصبحت الآن اللغة الرسمية الجامعة ولغة الحضارة الحديثة بسبب استعمار بلجيكا وفرنسا لأقطار هذا الحوض لفترة طويلة. من هذا يظهر أن شعوب القارة السوداء لا تمتلك أسس الوحدة القومية سواء أكان ذلك من حيث اللغة أم الدين أو التاريخ المشترك رغم انتماء أكثريتهم في حوض نهر الكونغو إلى الجنس والسلالات الزنجية: كالباتثو، وهم الأكثرية إضافة إلى سلالات النيليون والأقزام.

---

(١) (١٢: ص ٨٠).

(٢) إن أبرز اللغات السائدة هي لغة بكانكو Bakongo ولنكالا Linkala المنتشرة في شمال غرب زائير وكنتوبا Kantoba والككنغو في حوض زائير الأسفل ولغة بالوبا في إقليم شابا ورواندا وبروندي ولغة زاندي Zande في شمال شرق زائير وكنيارواندا في رواندا ولغة Kirundi في بروندي ولغات سونكو Songo وكبايا في امبراطورية إفريقيا الوسطى.

لقد بلغ تعداد سكان أقطار هذا الحوض ما يقرب من ٣٨ مليون نسمة سنة ١٩٧٥. وهم يزدادون سنوياً بنسبة تصل إلى ٢,٨٪ تقريباً بالرغم من كثرة الوفيات الناتجة عن الإصابة بالملاريا ومرض النوم والديدان والسل والحميات والجذام. ويصيب الكيلومتر المربع الواحد ١٠ نسمات بصورة عامة وقد يرتفع هذا العدد إلى ١٥٠ نسمة في جمهوريتي رواندا وبروندي أو ينخفض إلى ٤ نسمات في جمهورية إفريقيا الوسطى وجمهورية الكونغو الشعبية.

وتشير الإحصائيات الحديثة إلى أن نسب أعمار من لم يبلغوا سن السادسة عشرة تصل إلى ٤٦٪، وإن نسبة ما بين السادسة عشرة والخامسة والستين هي ٥٠٪[١]، وإن نسبة أعمار ما بعد الخامسة والستين هي ٤٪، وإن معدل العمر للسكان هو ٤٠ سنة. وكان من نتيجة انخفاض المستوى الصحي ومعدل العمر وانتشار البطالة انخفاض نسبة قوة الأيدي العاملة من السكان إلى ما يقرب من ٢٠٪ فقط. إن هذه الحالة رفعت نسبة الإعالة إلى ٨٠٪ وهي البقية الباقية من السكان. إن هذا بدوره يشير إلى انخفاض آخر في طاقة العمل والإنتاجية ومستوى المعيشة بين أكثرية السكان السود من الأفارقة الذين قلما يتجاوز معدل الدخل السنوي للفرد منهم ١٦٠ دولاراً سنوياً[٢]. وإن هذا الدخل المنخفض لا يساعد على الإدخار والتنمية القومية السريعة. وكذلك يشكل الأميون نسبة تتراوح بين ٥٠٪ في جمهورية زائير، و٧٥٪ في جمهوريتي إفريقيا الوسطى والكونغو الشعبية من مجموع السكان. في حين

---

(١) من الملاحظ تضارب نسبة الذين في سن الإنتاج حيث تكون ٥٠٪ في بروندي و٥٢٪ في رواندا و٥٥٪ في جمهورية إفريقيا الوسطى و٣٥٪ في جمهورية الكونغو الشعبية و٤٤٪ في جمهورية زائير. (إحصائيات الأمم المتحدة سنة ١٩٧٧) علماً أن هذه الأرقام قد كورت.

(٢) قد يهبط هذا الدخل إلى ٥٠ دولاراً في الريف وقد يرتفع إلى ٢٠٠ دولاراً للفرد الواحد في المدن سنوياً. إحصائيات الأمم المتحدة.

يؤلف سكان الأرياف نسبة ٦٤٪ في جمهورية زائير و٩٠٪ في جمهوريات إفريقيا الوسطى ورواندا وبرونـدي من هذا المجمـوع. وقلما يشعر هؤلاء بوجود زعامة خارج نطاق القبيلة أو الإقليم الذي ينتمون إليه. لذلك نجد أن الدول الإفريقية بحدودها الحالية ليست في الواقع سوى تشكيلات غربية اقتضتها ظروف اتفاقيات استعمارية تواجدت في المدة الواقعة بين سنوات ١٨٨٥ و١٩٢٠، و١٩٥٠، دون حسبان التركيب الجنسي والثقافي ورغبة المواطنين الأفارقة أنفسهم في هذا المجال. وإن المجتمع الإفريقي يعيش في ازدواجية صعبة كبقية أكثر مجتمعات أقطار العالم الثالث. ففي واقع الحال هناك أقلية من المواطنين المثقفين ترغب في تغيير حياة مجتمع تشعر أنه متفسخ حتى لو اقتضى ذلك استعمال العنف لتحقيقه[1]. وهناك أكثرية تقليدية هي في العادة محافظة على تراثها القبلي وترفض مثل هذا التغيير المتوقع.

لقد كانت أولى محاولات هذا التغيـير هي التخلص من الحكم الأجنبي المباشر والتـوصل إلى الاستقـلال الذي كـان حصيلة استبعاد الخلافات العنصرية والدينية والقبيلية وحتى الطبقية بين سكان البلاد. إلا أن الحصول على الاستقلال أدى في الحقيقة إلى ظهور متاعب جديدة أخذت تهدد الوحدة الوطنية، منها أمور تتعلق بالخلافات القبلية والدينية ونزاعات الحدود وصراعات العقائد السياسية المستوردة. وعندما عجزت حكومات الاستقلال الضعيفة عن تلبية مطالب السكان المتنوعة والمتباينة ولا سيما إشباع البطون الجائعة المتكاثرة إضافة إلى مطالب ورغبات الدول الاستعمارية بدأت الاضطرابات في الانتشار كما بدأت حركات التمرد التي تهدف إلى أن يأخذ الجيش بزمام الأمور في مختلف أقطار حوض نهر الكونغو. هذا

---

(١) راجع مصدر رقم (١٩)، جمهورية برونـدي ١٩٦ ـ ٢٠٥، إفـريقيـا الـوسطى ٢٤١ ـ ٢٥٩، الكـونغـو الشعبيـة ٢٨٣ ـ ٢٩٩، وروانـدا، ٧٢١ ـ ٧٣٠، وزائـير ٩٩٧ ـ ١٠٢٦).

إضافة إلى ظهور حكومات جديدة استندت في وجودها إلى استعمال سياسة القوة والنظام الديكتاتوري الذي يتمتع الحاكم وحاشيته بالامتيازات المختلفة. وكان من المحتم لتغيير هذا النوع من الحكومات القيام بانقلابات عسكرية أثقلت كاهل الدولة مادياً ومعنوياً بالنسبة إلى سكان هذا الجزء من إفريقيا[1]. وبذلك حرمت هذه الأقطار من نعمة التطور التدريجي السليم لمرافق الحياة المختلفة في ظل الاستقلال.

إن بيئة حوض نهر الكونغو المدارية التي تتوفر فيها إمكانات طبيعية (مناخية ونباتية وتربة محدودة الخصوبة) تساعد على قيام اقتصاد أساسه حرف الجمع والصيد والزراعة البدائية إضافة إلى تربية الحيوان التقليدية. وإن هذه الحرف تضمن حياة الكفاف الصعبة لسكان عددهم قليل ومستواهم المعاشي والاجتماعي منخفض ومواصلات تكاد تكون معدومة. إلا أن قدوم الرجل الأبيض الذي استهدف التجارة والاستغلال للمستعمرات الإفريقية غير بعض أساليب الحياة العامة في هذه المستعمرات وذلك بخلق حاجات ودوافع اقتصادية واجتماعية آنية لاستغلال موارد القارة بشكل جديد وعلى الصعيد التجاري لصالحه. لذلك نلاحظ أن الدول الأوروبية المستعمرة بدأت تغذي عمليات التعدين وقطع الأخشاب وصيد الأسماك وزراعة المحاصيل التجارية وحتى التوسع في زراعة المحاصيل الغذائية التي تستهلك محلياً. ولما كانت الدول الأوروبية المستعمرة تسعى إلى جعل البناء الاقتصادي الإفريقي

---

(١) لقد تغيرت حكومات دول حوض نهر الكونغو بانقلابات عسكرية، فقد حدث انقلاب في سنة ١٩٦١، وسنة ١٩٦٥ في جمهورية زائير، وألغيت الملكية في ١٩٦٦ وانقلاب آخر في سنة ١٩٧٦ في بروندي، وانقلاب في سنة ١٩٦١، وآخر في سنة ١٩٧٣في رواندا، وانقلاب في سنة ١٩٦٥، وآخر في سنة ١٩٧٥، وثالث في سنة ١٩٧٩، في جمهورية إفريقيا الوسطى. وتعرضت حكومة جمهورية الكونغو الشعبية لمحاولات انقلابية عديدة بعضها ناجحة وأخرى آلت إلى الفشل.

تابعاً وخاضعاً لحاجات الاقتصاد الغربي المتطور، فإنها عمدت إلى تشجيع إنتاج المحاصيل التي لها قيمة تجارية دولية في مستعمراتها لسد حاجة الأسواق الأوروبية والأمريكية في هذا الصدد. ومن المعروف أن هذه الأسواق لا تستطيع أن تستوعب سوى كميات محددة من المواد الأولية التي تشابه ما ينتج في الأقاليم المدارية من المستعمرات الأخرى. لذلك أصبح من الطبيعي أن يقتصر التأكيد على إنتاج مادة أو مادتين في كل منطقة في هذه المستعمرات (أي أنه حصل تخصص في الإنتاج بدون اختيار). ولما انحسر الاستعمار الأوروبي عن هذه المناطق وجدت الأقطار الناهضة حديثاً أنها في وضع اقتصادي غير سليم، أساسه:

١ ـ إنتاج المواد الأولية من عمليات التعدين وقطع الأخشاب.
٢ ـ صناعات أولية.
٣ ـ زراعة وتربية حيوان غير متطورة بدرجة كافية[١].

١ ـ إنتاج المواد الأولية:

تشير الخارطة رقم (٤) إلى توزيع موارد الثروة المعدنية فتتركز خامات المعادن بشكل خاص في شرق حوض نهر الكونغو وجنوبه الغربي. وتظهر هذه الخامات المعدنية على شكل عروق متممة للعروق المعدنية الممتدة في هضاب إفريقيا الجنوبية في Wit Water Srand في جمهورية اتحاد جنوب إفريقيا وGreat Dyke في زمبابوي وفي زامبيا وهضبة لواندا في أنجولا. ومن أبرز المراكز المعدنية في حوض الكونغو هي منطقة شابا في جنوب شرقي زائير ومنطقة كاساي وناشيكايا في الجزء الجنوبي الغربي وفي منطقة كيفو الواقعة في الشرق. وتوجد بعض خامات الماس واليورانيوم في جمهورية إفريقيا الوسطى ومخزونات نفطية وغازية مع

---

(١) للتفصيل راجع جدول رقم ١.

خامات البوتاس في جمهورية الكونغو الشعبية. كل هذه المراكز تصدر أكثر من ٢٥ مادة معدنية خاصة من جمهورية زائير التي تعتبر القطر الخامس في إنتاج المعادن في إفريقيا، وتشكل المعادن أربعة أخماس صادراتها وهي القطر الخامس في إنتاج النحاس في العالم والسابع في إنتاج القصدير والأولى في إنتاج الماس الصناعي والكوبالت[١]. ومن أهم خامات المعادن المصدرة هي (خامات النحاس والألماس والذهب والكوبالت والمنغنيز والزنك واليورانيوم في حين تصدر جمهورية الكونغو الشعبية البترول والغاز الطبيعي والبوتاس والرصاص والزنك في الوقت الذي تصدر فيه جمهورية إفريقيا الوسطى الألماس إلى الأسواق الأوروبية والأمريكية[٢]. ورغم أن الثروة المعدنية تشكل مصدر العملات الصعبة في زائير والكونغو الشعبية والتي يمكن أن تستعمل بشكل أكثر فعالية في مجال التنمية القومية، إلا أن هذا المصدر المالي شجع النظم السياسية في هذه الأقطار على إعطاء أهمية أقل لتطوير مصادر الاقتصاد الريفي الذي عجز عن توفير الغذاء الكافي للسكان المتزايدين في العدد والعمل لمنع الهجرة المتزايدة من الريف إلى المدن[٣].

أما في مجال استغلال الثروة الخشبية فإن مقدار ما يصدر منها يصل إلى ٢ بليون متر مكعب في السنة، من أخشاب الماهوكني «الكابلي»

(١) (٣: ص ٢٥٥ - ٢٥٦).

(٢) تسيطر الشركات الفرنسية على استغلال الثروة المعدنية في جمهورية إفريقيا الوسطى وجمهورية الكونغو الشعبية، كما تسيطر شركات التعدين الأنكلو-أميركية المعروفة Anglo-American and Roam Selection Trust على نصف الإنتاج المعدني في زامبيا. كـ تسيطر شركة التعدين الزائرية المعروفة: a Générale de Carrieres et de Mines (GECAMINCS)التي هي وريثة اتحاد شركات التعدين البلجيكية والغربية في عهد الاستعمار والتي لا زالت تحتفظ بنسبة عالية من الأسهم في شركة زائير الجديدة التي تسيطر على معظم الإنتاج المعدني في زائير.

(٣) (٣: ص ٢٥٥).

والساج والخيزران. إن هذه كميات قليلة بالنسبة إلى إمكانية إنتاج الغابات المدارية التي تغطي نصف مساحة حوض الكونغو تقريباً. فقد حددت الظروف الطبيعية السائدة إضافة إلى شدة منافسة أخشاب المناطق المعتدلة والصنوبرية اللبنة القريبة من أسواق الاستهلاك الرئيسة الغربية الكميات المقطوعة والمصدرة في هذا الحوض. وإن تطوير الموارد الخشبية يتوقف على زيادة الاهتمام الرسمي بها وتسهيل عمليات ووسائل النقل وقطع الأخشاب الحديثة.

٢ ـ الصناعات الأولية:

لقد رافق دخول الرجل الأبيض وظهور سيطرته الاستعمارية تأسيس بعض الصناعات الأولية (Primary Industries) التي لها صلة بعمليات تنقية المعادن وتعبئة المواد المنتجة محلياً. وقد زادت الحركة الصناعية خلال الحرب العالمية ومابعدها حتى بلغت القدرة الصناعية في القارة ٨,٢٪ من الطاقة الصناعية في دول العالم الثالث. وقد شكلت قدرة دول حوض الكونغو الصناعية حوالى ١,٥٪ من طاقة القارة الإفريقية في سنة ١٩٧١[١]. وتتقدم جمهورية زائير على غيرها في القدرة الصناعية ومعدل النمو الصناعي الذي يصل إلى ٤٪ سنوياً أحياناً. ومن أبرز الصناعات الموجودة هي تنقية المعادن وصناعة النسيج وطحن الحبوب وتعبئة المياه المعدنية وصناعة الأطعمة والمواد الإنشائية والمواد البلاستيكية والأدوات المنزلية وتصفية المطاط والزيوت وبعض الصناعات الكيماوية. وهذه الصناعات تعاني من انخفاض النوعية والمنافسة الخارجية وأغلبها يتركز في العواصم والمدن الكبرى في المناطق المعدنية. ومن الجدير بالذكر أن عمال الصناعة لا يؤلفون إلا نسبة ضئيلة جداً من مجموع اليد العاملة في أقطار حوض الكونغو[٢].

---

(١) (١٩: ص ٤٦ ـ ٤٧).

(٢) بلغ عدد العاملين في الصناعة في جمهورية زائير ١٠٠ ألف عامل في سنة ١٩٧٣ من مجموع عدد العاملين البالغ ١٢ مليون.

٣ - الزراعة وتربية الحيوان:

إن كثافة وخضرة النبات الطبيعي في حوض نهر الكونغو لا تعني ملاءمة ظروف التربة المدارية لزراعة محاصيل اقتصادية متنوعة. فالترب المدارية عموماً فقيرة تحتاج إلى بذل جهد بشري كبير قد يصل أضعاف ما يبذله فلاح المناطق المعتدلة في تهيئتها ورفع خصوبتها إلى الدرجة المطلوبة في هذه الجهات من إفريقيا. لذا بقيت المساحات المزروعة محدودة، وإنتاجيتها منخفضة. وتشير الإحصائيات إلى أن المساحات القابلة للزراعة تصل إلى ١٠٪ من المساحة الكلية والمزروع منها لا يتجاوز النصف، على أنه يمكن رفع هذه النسبة إلى ٥٠٪ بعد تحقيق برامج من الاستصلاح الزراعي[١]. فبينما ركزت المزارع التجارية (Plantations) على زراعة المطاط والبن والشاي والكاكاو والكولا والكنين وقصب السكر والتبغ والقطن، وهذه المحاصيل لا تغطي سوى مساحات قليلة من المساحة الكلية المزروعة[٢]، ركزت المزارع الوطنية الصغيرة أو الكبيرة والتي تتراوح مساحاتها ما بين ٤ و١٠ دونمات في مناطق الغابات، وأكثر من ذلك في مناطق حشائش السفانا تبعاً لسهولة تحضير الأرض، على زراعة محاصيل جوز الهند والموز واليام والذرة والكاسافا وأنواع الخضرة والفاكهة بالدرجة الأولى لغرض سد حاجة الاستهلاك المحلي المتزايد. وربما يحتفظ الفلاح ببعض الفراخ وعدد محدود من الماعز والأغنام والخنزير والبقر التي قد يتزايد عددها دون تحسن كبير في نوعيتها في مناطق السفانا (جدول رقم ١). ويعطي البقر الإفريقي خمس كمية الحليب التي يعطيها البقر الأوروبي وثلث كمية اللحم منه. يعتمد ما

(١) إن الأرقام تقريبية بعد دراسة مصادر مختلفة حول الموضوع.

(٢) لقد بلغت مساحة المزارع الواسعة الأوروبية في زائير ٣٨٨٥كم٢ من أصل ٦٤٠٠كم٢ وقد أممت هي وبعض الصناعات بين سنتي ١٩٧٣ - ١٩٧٤، وأعطيت إلى المتنفذين أو وضعت تحت إدارة حكومية ثم أعيد بعضها إلى أصحابها الأوائل بعد فشل إدارتها (١٤: ص ١٧٣ - ١٧٥)، (خارطة رقم ٣).

تقرب من ٧٥ إلى ٩٥٪ من سكان هذه المنطقة على النشاطات الزراعية والحيوانية في معيشتهم. ويشكل الدخل الزراعي والحيواني من ١٥٪ في جمهورية زائير إلى ٨٥٪ في جمهوريتي رواندا وبروندي من الدخل القومي. وتشير الإحصائيات إلى أن نسبة زيادة السكان السنوية هي في حدود ٢,٨٪ في حين قد تصل نسبة تزايد الإنتاج الزراعي إلى نسبة ١٪، الأمر الذي يجعل ظاهرة الضغط على الغذاء في ازدياد مما يدفع أقطار حوض نهر الكونغو خاصة جمهورية زائير إلى أن تستورد أكثر من ٣٠٪ من حاجتها من الأغذية الرئيسة. وتزيد كثرة الضرائب التي قد تأخذ نصف دخل الفلاح وهجرة الشبان إلى المدن وعدم استقرار الملكية وصعوبة الخزن والمواصلات المشكلة الغذائية سوءاً سنة بعد أخرى[1].

ولعل من الأجدر أن نعقد في هذا المجال مقارنة بين حوضين كبيرين لنهرين عظيمين هما نهر الكونغو ونهر الأمزون. فبينما تسود العزلة والإهمال مرافق حوض الأمزون يتمتع حوض الكونغو بظروف اجتماعية وسياسية أفضل من حيث عدد السكان وتوفر الأيدي العاملة ومن حيث نجاح الرجل الأبيض في إدخال الكثير من مظاهر المدنية الإيجابية لاستغلال موارده. ولكن حوض نهر الكونغو يتخلف في تطوره عن منطقتي جنوب وجنوبي شرق آسيا التي تتميز بسعة مساحات الأراضي الصالحة للزراعة وسكانها الذين لهم تقاليد زراعية قديمة شجعت على قيام معظم المشاريع الاقتصادية الزراعية الاستعمارية هنا، بدل قيامها على نطاق واسع في مناطق إفريقيا المدارية في بداية حركة الاستعمار الغربي.

---

(١) يتبين من تحليل الواقع الاقتصادي، أن الأهمية الاقتصادية لحوض نهر الكونغو الخارجية تتركز حالياً في استخراج وتصدير مختلف الخامات المعدنية. بينما تقتصر الأهمية الزراعية والصناعية على سد بعض الحاجات الأولية للمواطنين. ولا تصدر أقطار حوض الكونغو إلا كميات محدودة من المنتجات النقدية كالمطاط، والقهوة، والشاي والقطن والأخشاب. (راجع جدول رقم ١).

٤ ـ الأهمية السياسية لحوض نهر الكونغو:[١]

لقد ساعدت حركة الاستكشاف الجغرافي لا سيما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الدول الأوروبية على بسط نفوذها على جزء من القارة الإفريقية والقارات الأخرى وتحقيق منافع سياسية واقتصادية والقيام بالتبشير الديني فيها. وكانت المناطق الساحلية ومصبات الأنهار أولى الأجزاء التي سيطرت عليها الدول الأوروبية، وقد جاءت أول محاولة لتقسيم هذه القارة وتعليم حدودها بين الدول الأوروبية في مؤتمر برلين في المدة الواقعة بين سنتي ١٨٨٤ و١٨٨٥. وقد عمد الأمير بسمارك، وبتشجيع من البرتغال إلى دعوة كل من (امبراطورية النمسا والمجر وبلجيكا والدنمارك وفرنسا وإيطاليا وهولنده والنرويج وروسيا وإسبانيا والسويد والمملكة المتحدة والولايات المتحدة والدولة العثمانية) لدراسة مشاكل قارة إفريقيا وبضمنها مشكلة تعليم حدود حوض نهر الكونغو الذي سبق أن طلب الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا من الدول الأوروبية الاعتراف بسيادته على هذا الحوض في مؤتمر بروكسل. لقد كان المؤتمر غير رسمي وقد عقد في عام ١٨٧٩. وكان قد دعى إلى عقده علماء الطبيعة والجغرافية. وقد تمخض عن المؤتمر تأسيس الجمعية الدولية الخاصة بتطوير حوض نهر الكونغو برئاسة ستانلي. وبالفعل فقد وقع أعضاء مؤتمر برلين وثيقة تتضمن الاعتراف بتأسيس دولة الكونغو الحرة برعاية الملك ليوبولد الثاني. وقد كان من جملة قرارات هذا المؤتمر ما يأتي:

١ ـ على كل دولة مشتركة في هذا المؤتمر تحاول استعمار جزء من قارة إفريقيا أن تخبر الدول الأخرى بذلك.

٢ ـ حرية التجارة الدولية في نهري الكونغو والنيجر.

---

(١) Gann. L.H. and Duignan (editors): Colonialism in Africa (1870-1960) vol. 1.2. Cambridge University Press. London. 1970.

٣ ـ أن يصبح حوض الكونغو منطقة إفريقية محايدة.
٤ ـ العمل على محاربة تجارة العبيد في منطقة حوض الكونغو والجهات المجاورة لها.
٥ ـ وضع قواعد خاصة لأجل السيطرة على أمن سواحل القارة الإفريقية.

لقد وقعت هذه القرارات جميع الدول التي حضرت المؤتمر باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية التي فضلت سياسة العزلة والابتعاد عن مشاكل العالم القديم. ولقد مرت قارة إفريقيا منذ مؤتمر برلين حتى الآن بثلاث مراحل تاريخية وهي:

١ ـ فترة تقسيم القارة بين الدول الاستعمارية بين عام ١٨٨٥ وعام ١٩٢٠.
٢ ـ فترة الاستغلال الاقتصادي للقارة في المدة الواقعة بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٥٥.
٣ ـ فترة بدء حركات الاستقلال والتحرر وقيام الحكم الوطني وذلك بعد سنة ١٩٥٥.

١ ـ فترة تقسيم القارة بين الدول الاستعمارية بين عامي ١٨٨٥ و١٩٢٠.

سارعت الدول الأوروبية الاستعمارية كالبرتغال وفرنسا وبريطانيا وألمانيا إلى تطويق النفوذ البلجيكي، وذلك بالاستيلاء على المناطق المحيطة بحوض نهر الكونغو. فأقدمت على عقد اتفاقيات ثنائية كما جرى في الاتفاق بين انكلترا وألمانيا في عام ١٨٩٠. فقد ثبتت هاتان الدولتان مناطق نفوذهما في شرق إفريقيا وجنوب غربها. كذلك الاتفاق الفرنسي الانكليزي في عام ١٨٩٠ لتعليم الحدود بين مناطق نفوذهما التي استقرت في عام ١٩٠٤. والاتفاق بين البرتغال وانكلترا في عام ١٨٩١ لتعليم حدود مناطق نفوذ البرتغال في أنجولا وموزانبيق. كذلك الاتفاق الألماني الفرنسي في عام ١٨٩٤ لتعيين

مناطق نفوذ الدولتين. وهكذا تركز النفوذ الفرنسي في جهات إفريقيا الاستوائية الشمالية كما تركز النفوذ الانكليزي في جهات السودان وأوغندا وكينيا وزامبيا، كما تركز النفوذ الألماني في جهات الكاميرون وتنجانيقا «تنزانيا» ورواندا وبروندي حيث كلفت عصبة الأمم أ إدارتها (حسب نظام الانتداب) إلى كل من انكلترا وفرنسا وبلجي وذلك بعد الحرب العالمية الأولى[1]. أما النفوذ البرتغالي فإنه تركز ا كابندا التي تقع عند شمال مصب نهر الكونغو وفي أنجولا الواقعة إلى جنوب جمهورية زائير وفي موزامبيق.

٢ ـ فترة الاستغلال الاقتصادي الاستعماري للقارة في المدة الواقعة بين عامي ١٩٢٠ و١٩٥٥.

إن هذه الفترة كانت فترة تخطيط اقتصادي استعماري لقارة إفريقيا. كانت تهدف إلى إدخال الاقتصاد الإفريقي إلى مجال التجارة العالمية لسد متطلبات الأسواق الأوروبية والأمريكية من المواد الأولية سواء أكانت زراعية أم مواد خام معدنية. فعمدت الدول المستعمرة إلى إدخال زراعة المطاط والقطن والبن والشاي والتبغ والتوسع في زراعة نخيل الزيت والفول السوداني والموز وصيد الأسماك وقطع الأخشاب. ثم أقدمت هذه الدول المستعمرة إلى تأسيس شركات للتعدين لاستغلال الموارد المعدنية لخامات النحاس والألماس والقصدير والمنغنيز والذهب والفضة والرصاص التي توجد في هذا الحوض. إن هذا التهافت الاقتصادي الاستعماري استدعى إنشاء طرق مواصلات برية ومائية داخلية لإيصال هذه المواد إلى موانىء ساحلية لكي يتم تسويقها إلى قارتي أوروبا وأمريكا الشمالية. وبالنظر إلى تشابه المحاصيل التجارية الإفريقية المدارية وعدم توفر

---

(١) تولت بلجيكا إدارة مستعمرتي رواندا وبروندي، وتولت فرنسا إدارة الكاميرون، وتولت بريطانيا إدارة تنجانيقا «تنزانيا».

الأسواق الداخلية ضمن أجزاء قارة إفريقيا وإلى اتباع سياسة استعمارية من قبل الدول المهيمنة لجعل دول الحوض مرتبطة بها من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، فقد أصبح اتصال دول هذه المنطقة مع أقطار العالم الخارجي أسهل بكثير من اتصالها مع الأقطار الإفريقية خلال حدودها السياسية. لذلك لا يكون عجيباً أن تصبح دول الحوض مرتبطة كلياً بالدول الاستعمارية الأوروبية وتستجيب لها في سلوكها وتعاليمها حتى وقت قريب.

٣ ـ فترة بدء حركات الاستقلال والتحرر وقيام الحكم الوطني وذلك بعد سنة ١٩٥٥.

لقد كان حصول ليبيا عام ١٩٥١ وأقطار إفريقية أخرى[١] على الاستقلال عاملاً مهمًا في مطالبة دول حوض الكونغو باستقلالها. وقد تم إنجاز ذلك في المدة الواقعة بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٢ (جدول رقم١). على أن حصول هذه الدول على استقلالها قد زاد من صراع الدول الاستعمارية المعروفة سابقاً مع دول استعمارية جديدة كالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي وإن دوافع هذا الصراع الذي أخذ شكلاً جديداً يمكن تلخيصها على الشكل الآتي:

١ ـ كثرة الموارد النباتية والمائية والمعدنية التي يمكن تطويرها واستغلالها بسرعة ضمن نظام سياسي معين وفي ظل حاجة متزايدة لأنواع الموارد المدارية.

٢ ـ سعة مساحة حوض نهر الكونغو وكثرة موارده مما تجعل قابليته على إعالة أعداد كبيرة من السكان أمراً ممكناً سواء تمت الزيادة بطريق

---

(١) لقد حصلت أقطار تونس والمغرب والسودان على استقلالها في عام ١٩٥٦، وجمهورية غانا في عام ١٩٥٧، وجمهورية غينيا في عام ١٩٥٨.

الهجرة أو الزيادة الطبيعية للسكان فيها إذا استغلت هذه الموارد بشكل جدي.

٣ ـ وهناك أهمية استراتيجية في السيطرة أو الهيمنة على هذا الحوض. ذلك أن أي دولة من الدول الكبرى إذا قدر لها أن تسيطر على هذا الحوض الذي يتوسط القارة الإفريقية فسيكون بمقدورها التأثير المباشر الفعال على القارة الإفريقية بأسرها إضافة إلى الأجزاء المجاورة من قارتي آسيا وأوروبا من النواحي الاستراتيجية والاقتصادية.

لذا فقد قامت الدول الاستعمارية القديمة والحديثة بوضع خطط لرسم سياسات معينة لكل منها نجملُ أهدافها كما نرى بالشكل الآتي:

١ ـ سياسة الدول الأوروبية الاستعمارية:

إن سياسة الدول الأوروبية الاستعمارية تقوم على أسس عديدة منها:

أ ـ إبقاء نفوذ الدولة المستعمرة على مستعمراتها السابقة بالرغم من حصول هذه المستعمرات على الاستقلال ذلك لأن هذه الدول المستعمرة لا تزال توجه السياسة الاقتصادية والنشاط السياسي بشكل خفي ومن وراء الستار(*).

ب ـ وفي سبيل الغزو الجماعي لهذه الدول الإفريقية الناشئة، عمدت الدول المستعمرة القديمة إلى السماح لدول السوق الأوروبية[1]

(*) ينشط النفوذ الفرنسي في القارة الإفريقية مجدداً وخاصة في مستعمراتها.

(١) بلغت قيمة تجارة دول السوق الأوروبية مع دول قارة إفريقيا ما عدا جمهورية اتحاد جنوب إفريقيا ٣٥ بليون دولار في عام ١٩٧٥. تبلغ تجارة دول حوض الكونغو حوالى ١ بليون دولار. وقيمة تجارة اليابان ٣,٥ بليون وتجارة الاتحاد السوفييتي ١ بليون وتجارة الصين ١ بليون مع الدول الإفريقية، وإن تجارة هذه الأقطار مع دول حوض الكونغو محدودة باستثناء اليابان. (٤: ص ٤٤٣ ـ ٤٦٤) (١٨: ص ٦٠ ـ ٦١).

المشتركة باستغلال هذه المستعمرات بقدر لا يهدد مصالحها الخاصة . .

جـ ـ العمل من أجل عدم فسح المجال لتدخل منظمة الأمم المتحدة التي تهيمن على شؤونها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي بوساطة حق الفيتو في شؤون دول حوض الكونغو وجهات إفريقيا الأخرى قدر الإمكان[1]. لأن الدول الاستعمارية الأوروبية تعتقد أن مثل هذا التدخل يساعد على انتشار المبادىء الشيوعية في القارة كما أنها لا تريد توسيع النفوذ الأمريكي القوي بإمكاناته الاقتصادية والعسكرية المتفوقة .

د ـ ممارسة خطة توازن بين النفوذين الأمريكي والسوفييتي ، خاصة بعد أن بدأ نفوذها يتدهور بناءً على سمعتها الاستعمارية وتضاؤل إمكاناتها الاقتصادية والسياسية .

ونتيجة لهذه السياسة فقد تغاضت نوعاً ما عن تغلغل نفوذ الاتحاد السوفييتي ضمن مستعمراتها في نفس الوقت. الذي أخذ فيه النفوذ الأمريكي يطغى في هذه المستعمرات[2].

---

(١) بينما كان يسود الطابع الأوروبي عصبة الأمم (١٩٢٠ ـ ١٩٤٠) التي لعبت انكلترا وفرنسا دور السيدتين فيها .

(٢) صرح مستر أوين وزير خارجية بريطانيا: «ان للاتحاد السوفييتي نفس الحق الذي يمتلكه الغرب في إفريقية». بينما حذر المستر كالاهان رئيس الوزارة البريطانية السابق الاتحاد السوفييتي وطلب منه الابتعاد عن قارة إفريقيا في مؤتمر الاشتراكيين في امستردام في ١٩٧٨ بقوله: « أنا لا أنكر أن الاتحاد السوفييتي يمثل قوة عظمى ـ ولكن القوة، الكبرى يجب أن تحمل مسؤوليات القوة الكبرى ـ يجب أن تعرف أين يجب أن تقف بعيداً عن إفريقيا». وقد ذهب بنفس المعنى تقريباً الرئيس الفرنسي ديستان . (الشيوعي الإفريقي ١٩٧٧، ١٩٧٨). راجع (٢٢: ص ٣٦٨ ـ ٤٠٧ ، ٢٣ : ص ٣٨٣ ـ ٣٩٨، ٢٤ ، ٢٥) .

٢ - سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بحوض الكونغو وإفريقيا[١].

تهدف سياسة الولايات المتحدة إلى توسيع نطاق الامتيازات السياسية والاقتصادية التي حصلت عليها الشركات الأمريكية قبل الحرب العالمية الثانية لاسيما في جمهورية ليبيريا التي أوجدتها الولايات المتحدة لتكون نقطة ارتكاز لها في قارة إفريقيا وفي أقطار أخرى من القارة كاتحاد جنوب إفريقيا وروديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية والكونغو «جمهورية زائير» التي تحظى الآن برعاية أمريكية قوية. وبعد القضاء على دول المحور «ألمانيا الهتلرية واليابان وإيطاليا» وانتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) توسع نطاق الامتيازات الأمريكية بحيث شمل دولاً أخرى في القارة نظراً لما قدمته الولايات المتحدة إلى الدول الأوروبية المشتركة في الحرب السابقة من مساعدات عسكرية واقتصادية.

وفي الواقع وجدت هذه الدول الأوروبية أن وضعها الاقتصادي والاجتماعي آخذ بالتدهور وبها حاجة إلى المساعدات الأمريكية سيما وأن الخطر الشيوعي ونمو الحركات الاستقلالية في المستعمرات قد أخذت تظهر بصورة قوية. وقد قامت الولايات المتحدة بمساعدة الدول الأوروبية في المجال الاقتصادي بوساطة مشروع مارشال الذي وضع في سنة ١٩٤٧ وبوساطة الأحلاف العسكرية التي من أهمها منظمة حلف شمال الأطلسي التي قامت في سنة ١٩٤٩ لإعادة تعمير أوروبا الغربية ومواجهة الحركة الشيوعية التي أخذت تهدد أوروبا وأنحاء أخرى من العالم كالشرق الأوسط الذي توجد فيه ينابيع البترول والغاز الطبيعي وهو معتمد أوروبا الرئيسي لتجهيزها في هذه المواد المهمة عبر البحر المتوسط وحول رأس الرجاء الصالح والذي صار من مناطق العالم الملتهبة بعد

---

(١) راجع نفس المصادر المذكورة أعلاه ومصادر (٢) عدد ربيع ١٩٧٩، (١٠) ربيع ١٩٧٩، (١٤) خريف ١٩٧٨، (٢٦) صيف ١٩٧٩.

خلق إسرائيل من قبل الدول الغربية. لذلك قامت الولايات المتحدة بتشجيع توظيف رؤوس الأموال الأمريكية والتي بلغت أكثر من ١٠ مليارات من الدولارات في مشاريع تعدينية وتجارية، وقلما وظفت في مشاريع زراعية في أنحاء قارة إفريقيا بحيث بلغت قيمة التجارة مع دول القارة حوالى ٧ مليارات من الدولارات في عام ١٩٧٥. ولكن قيمة التجارة الأمريكية مع دول حوض نهر الكونغو في حدود ٤٠٠ مليون دولار فأصبحت ثاني جهة بعد دول السوق الأوروبية في هذا المجال. وقد اعتمدت الولايات المتحدة في تثبيت نفوذها وتوسيعه بمؤسسات النقطة الرابعة وفرق السلام Peace Corps وهيئات المساعدات الفنية والعسكرية والقروض وأحياناً الانقلابات العسكرية.

٣ ـ سياسة الاتحاد السوفييتي:

إن غاية السياسة الروسية هي نيل الغايات التي يقررها النظام السياسي التي من أبرزها توسيع رقعة انتشار الفكر الشيوعي وبسط نفوذه تدريجياً. إن هذه سياسة تقليدية قيصرية استطاعت روسيا من خلالها أن توسع مساحة أرضها من ٥٠٠ ألف كيلومتر مربع في عام ١٦٥٠ إلى ١٣,٥[١] مليون كيلومتر مربع في الوقت الحاضر. لذلك كونت امبراطورية مترامية الأطراف قاومت عوامل التفكك والانحلال على عكس الامبراطوريات الأوروبية الأخرى.

وتطبيقاً لهذه السياسة جدد الاتحاد السوفييتي محاولاته التوسعية عندما طلب إشراكه في إدارة المستعمرات التي خسرتها إيطاليا في الحرب العالمية الثانية. إلا أن تصدي الدول الغربية لهذه المحاولة حال دون

---

(١) تلعب المثل العقائدية في دفع الشعب الروسي نحو التضحية في سبيل توسيع امبراطورية الاتحاد السوفييتي. ففي العهد القيصري لعبت المسيحية والدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية دورها المهم والآن تلعب العقيدة الماركسية ـ اللينينية دورها الفعال.

تحقيق ذلك[١]. وقد وجد الاتحاد السوفييتي في الصراع العربي الإسرائيلي الفرصة المناسبة للتوسع. وقد نجح بالفعل في الحصول على مكاسب اقتصادية وعسكرية وأدبية في الوطن العربي وإفريقيا نتيجة قبول سوريا ومصر للتجهيزات العسكرية من الدول الاشتراكية وبعض وجهات النظر للسياسة الروسية. وفعلاً لقد أيد الاتحاد السوفييتي بعض حركات الاستقلال الإفريقية لإزالة نفوذ الدول الأوروبية عن قارة إفريقيا. إلا أنه تبنى سياسة التشكيك ضد بعض الدول الإفريقية التي لم تأخذ بوجهات نظرته السياسية. وأخيراً نجد أن الاتحاد السوفييتي قد لجأ إلى التدخل المباشر والمغامرات العسكرية وبأساليب مشابهة للأساليب الأمريكية وذلك بإرسال الخبراء والمستشارين والمعدات العسكرية باسم تقديم المساعدات إلى دول صديقة وإرسال قوات كوبية وخبراء من دول أوروبا الشرقية للسيطرة على إدارة بعض الدول الإفريقية ووضعها في أيدي عناصر مؤيدة لسياسته. وقد تم ذلك في جمهوريات أنجولا الشعبية وموزامبيق والحبشة وله نفوذه في جمهورية الكونغو الشعبية وحاول التوغل في جمهورية زائير عدة مرات منها في سنة ١٩٦٠، و١٩٧٧، و١٩٧٨. وهي نقطة صراع حادة بينه وبين دول غربية معينة وإذا قدر له السيطرة على جمهورية زائير فيمكن أن تتصل مناطق نفوذه في شرق إفريقيا وغربها بعد التوغل جنوبي السودان. كما أن وجود أنظمة سياسية مؤيدة له في اليمن الجنوبية وأفغانستان يجعل مناطق البترول في الشرق الأوسط ضمن تهديد الاتحاد السوفييتي المباشر. وهذا ما يقلق الدول الغربية الآن[٢]. وقد ضاعف الاتحاد السوفييتي مساعداته الفنية والعسكرية للأقطار الإفريقية الصديقة له بمقدار ٨,٥ ضعفاً ما بين عامي ١٩٦٠ و١٩٧٥[٣] وزادت قيمة

---

(١) لقد طالبت جامعة الدول العربية منح ليبيا الاستقلال التام.

(٢) لقد وقع الاتحاد السوفييتي معاهدات صداقة وتعاون مع جمهوريات أنجولا في سنة ١٩٧٦، والحبشة سنة ١٩٧٨، وأفغانستان سنة ١٩٧٨. (٢: ص ٧٣٥).

(٣)(٢٠ ص ٧ ـ ٨)، راجع مصادر (٢) مجلة الشؤون الدولية ربيع ١٩٧٩، (١٠) مجلة

تجارته مع أقطار إفريقيا على بليون دولار في عام ١٩٧٥، ولا زالت علاقاته التجارية ضعيفة مع دول حوض الكونغو.

٤ ـ السياسة الصينية تجاه قارة إفريقيا:

إن الصين قد طورت سياستها بشكل أدى إلى تقسيم دول العالم إلى ثلاث مجموعات:

أ ـ مجموعة دول العالم الثالث التي تشمل جمهورية الصين الشعبية نفسها وهي تنشد الحرية والاستقلال والتخلص من مظاهر التخلف والتبعية الاستعمارية.

ب ـ مجموعة الدول الصناعية في أوروبا الغربية واليابان التي تسعى الصين إلى التقرب منها للاستفادة من قدرتها الفنية والعسكرية والاقتصادية لمواجهة الضغط الروسي والأمريكي. وخاصة إبراز خطر ضغط الاتحاد السوفييتي الذي يشكل الخطر المشترك للصين واليابان ودول أوروبا الغربية.

جـ ـ الدولتان الكبريان (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي) الساعيتان إلى بسط نفوذهما على مختلف أجزاء العالم والتدخل في شؤون أي دولة باسم مساعدة حركات التحرر ونشر الشيوعية من قبل الاتحاد السوفييتي لبناء امبراطوريته الاشتراكية، وبحجة حماية العالم الحر من الغزو الشيوعي من قبل الولايات المتحدة التي ابتلعت الامبراطوريات الغربية تقريباً. والصين تحذر دول العالم من هذه المكيدة المكشوفة، وخاصة الاستعمار السوفييتي الذي يهدد دول العالم وقد ابتلع دول أوروبا الشرقية وركز أقدامه في بعض أقطار

الشؤون الدولية ربيع ١٩٧٩، (٢٢) ص ٣٦٨ ـ ٤٠٧ ، (٢٦) مجلة العلوم السياسية الدورية ص ٢٦٣ ـ ٢٨٦ .

الهند الصينية وأفغانستان ثم في أنجولا وموزامبيق والحبشة ويضغط على جمهورية زائير ودول جنوب القارة الإفريقية. وهذا العداء الصيني الشديد للاتحاد السوفييتي يعودُ إلى خلافات إقليمية وعقائدية تدفع الصين إلى جعل سياستها أكثر مرونة مع مصالح الدول الغربية وأمريكا في مقاومة النفوذ السوفييتي المتزايد في قارة إفريقيا.

أما من الناحية الاقتصادية فتحذو الصين حذو اليابان في توسيع أسواقها في قارة إفريقيا عند بيع بضائعها الرخيصة التي تناسب أذواق الناس ودخلهم المحدود وشراء المواد الأولية دون الالتفات إلى العقائد السياسية المختلفة. وتزداد روابط الصين مع جمهورية زائير بصورة عامة حالياً[1].

وخلاصة القول، إن حوض نهر الكونغو غني بموارده ودوله لم تستطع تطوير هذه الموارد بالمستوى المطلوب لأنها تعاني من مشاكل كثيرة لا يقدر على معالجتها إلا نظام سياسي مستقر تهيمن عليه عقول ناضجة وأيدٍ نظيفة لا تزال غير متوفرة في دول هذا الحوض.

---

(١) لقد قررت الصين منح جمهورية زائير تسهيلات اقتصادية تبلغ قيمتها ١٠٠ مليون دولار في سنة ١٩٧٩.

الدعايـــة المضـــادة وســـبل مواجهتهـــا

الدكتورة حميدة سميسم

قسم الاعلام ــ كلية الاداب ــ جامعة بغداد

تعتبر الدعاية كأحد اوجه الصراع بشكل عام ، وأحد ابرز المحاور في الظروف الاستثنائية ، وعلى الاخص في ظروف الحرب • فقـــد برزت اهمية الدعاية وضرورتها في الحرب العالمية الثانية ، وفي الحروب المحلية والاقليمية التي تلتها • وكانت الدعاية وما زالت تمثل احد ابرز اوجـــه المواجهة في حربنا العادلة مع النظام الفارسي العنصري •

وفي هذا البحث سأتناول الدعاية المعادية عامة والرعاية الفارسيـــة خاصة من حيث مفهومها ، وانواعها وقوانينها ، مع بيان اهم الاسس التي اعتمدها النظام الفارسي العنصري في الدعاية ، مستخلصة اهم المحاور الاساسية التي يمكن ان ترتكز عليها في مجابهة الدعاية المضادة باعتبارها وسيلة من الوسائل المستخدمة في التأثير على امن وسيادة واستقلال قطرنا المناضل •

من المعروف ان الدعاية باعتبارها احدى قنوات الاتصال الجماهيري ومن أهم مرتكزات الحرب النفسية(١) • لعبت دورا فاعلا في التأثير على الجماهير وتوجهاتهم قديما وحديثا • وقد اتخذت اشكالا متعددة واطرا مختلفة حسب هرفها ونوعية الشرائح الاجتماعية الموجهة اليها لغرض دفع الجماهير نحو هدف محدد بما يخدم مصالح الجهـــة القائمـــة بالدعايـــة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعلميا الـــخ ••••

ولقد تطورت اساليب الدعاية بفعل تطور المجتمع الامر الذي تطلب بالمقابل وسائل اعلامية حديثة تكنولوجيا • لغرض ضمان سرعة الاتصال ومن ثم زيادة التأثير بهدف تحقيق النتائج المتوخاة منها •

وكما استخدمت الدعاية في الماضي لتحقيق اهداف معينة ومحددة فانها تستخدم اليوم بشكل مكثف بقصد تشويه الحقائق التاريخية(٢) التي تحكم مسار حركة الثورة والنهوض القومي الذي تشهده المنطقة العربية خاصة والعالم الثالث عامة • وهذه الممارسة الدعائية لا يمكن عزلهـــا وفصلها عن حلقات التأثير الامبريالي الصهيوني الرجعي المشبوه فـــي المنطقة ، الهادفة الى تزييف الحقائق وتشويه القضايا المصيرية والتأثيـــر

على عواطف وعقليات الجماهير[٣] ، وبالتالي لحملها على اتخاذ قرارات معينة او تحييدها على الاقل في الصراع التاريخي بين القوى المضادة وحركة الثورة العربية •

والهدف من هذه الدعاية كما هو واضح هو حث الجماهير على القيام بعمل من الاعمال من شأنه تحويل الايجابية الكامنة في نفوسهم تجاه مصالحهم ومصالح المجتمع الى سلبية • وهي في هذا لا تعدو عن كونها محاولة لاغتصاب الضمير • او اعتداء مستمرا على حرية الفرد الفكرية • وهذا ما عرفت به الدعاية النازية واجتهدت في تحقيقه • لذا فأن الدعاية لا تخرج من مفهومها عن كونها جهودا متعمدة ومقصودة تقوم بها جماعات محددة « دولة ـ مؤسسات ـ افراد » ومنظمة من اجل تبديل مواقف واراء ومعتقدات او ترشيد مفاهيم محددة تجاه موضوع او مسألة محددة • فهي بذلك محاولة تهدف التأثير على الدول او الجماهير او الافراد والسيطرة على سلوكهم او دفعهم لانتهاج موقف معين تجاه موضوع معين وفي زمن ومكان معين • ومن هذا يتضح ان الدعاية ضرورية[٤] ••• ولكن اي نوع من الدعاية يجب تقديمه للجماهير ••••

ولقد اشار احد قادة المشاة في الجيش الالماني في الحرب العالمية الأولى وبشكل صريح الى « اننا نستهلك الكثير من الذخائر لتدمير مدفع في يد جندي ، اليس الارخص ان توجد الوسيلة التي تسبب اضطراب الاصابع التي تضغط على زناد المدفع »[٥] ، مشيرا الى الدعاية ودورها الفاعل الكبير •

وتصنف الدعاية الى انواع مختلفة وتبعا لتنوع اهدافها ونستعرض هنا انواع الدعاية التي تؤثر بشكل مباشر او غير مباشر على الجماهير وتوجهاتها والتي يمكن اجمال اهمها بما يلي : ـ

١ ـ ألدعاية البيضاء[٦] : وهي الدعاية المكشوفة غير المستورة ، والتي تأخذ شكل النشاط العلني من اجل الوصول الى هدف معين عبر وسائل الاعلام العلنية اليومية والمباشرة •

٢ ـ الدعاية الرمادية[٧] : وهي الدعاية التي لا تخشى من أن تقف الجماهير على مصادرها الحقيقية بقدر ما تختفي وراء هدف من الاهداف كما هو الحال في اذاعة اوربا الحرة .

والجدير بالذكر ان هذا اللون الدعائي غير المباشر ذو اثر اقوى واشد خطورة من الدعاية المباشرة لان التعرض الناتج عن غير المباشر يعطي لها استراتيجية اقوى من المباشرة في سرعة التأثير في الهدف وفي تحقيق النتائج المتوخاة منها .

٣ ـ الدعاية السوداء[٨] : وهي المستورة القائمة على نشاط المخابرات السرية حيث لا تكشف هذه الدعاية من مصادرها ولكنها تنمو وتتولد بطريقة سرية وذلك في داخل الساحة المواجهة او في الاهداف القريبة من الهدف ويمكن اجمال اهم وسائل هذا النوع من الدعاية : ـ

أ ـ الاذاعات السرية [٩] : التي تلعب دورا كبيرا في تمزيق وحدة الجماهير وينتقل اثرها عند توجهها الى الاوساط التي لا تتمتع بقدر كاف من الثقافة والوعي ، حيث تدفعهم بصورة غير مباشرة الى رد الفعل الاتي والسريع تجاه حدث معين تكون مردوداته سلبية على الدولة التي يعيشون في ظلها وتوجهاتها المبدئية مستخدمة النشرات السرية والبيانات الكاذبة والاخبار الملفقة . مثال ذلك اذاعة صوت مصر الحرة عام ١٩٥٥ والموجهة الى الشعب المصري واذاعة صوت الحق التي كانت تدار من بيت نوري السعيد

ضد ثورة يوليو عام ١٩٥٣ واذاعة صوت لبنان واذاعة العميل سعد حداد •

ب ـ وقد تتخذ بعض الاذاعات الطنية او وكالات الانباء الكبرى اطارا لها لنشر الدعاية المضادة وتبرير وجودها بصورة قانونية هادفة من ذلك بث الاخبار[١٠] الملفقة او تكيد معلومات زائفة وترسيخها في اذهان الجماهير من خلال تبادل الادوار فيما بينها وتنفيذ مخططات معينة ضمن خطط مدروسة ومبرمجة كاذاعة طهران باللغة العربية واذاعة « صوت امريكا ببعيد حيث تجند كل طاقاتها وبدوافع مكشوفة وبتخطيط متقن لتشويه الحقائق التي تفرزها الوقائع اليومية مثال ذلك نتائج حربنا العادلة مع النظام الفارسي•

جـ ـ النشرات السرية[١١] : وتستخدم مثل هذه النشرات من قبل القوى المعادية وضمن خطط مدروسة ومبرمجة فيها عوامل الزمن وطبيعة الظروف التي تعيشها الدولة المستهدفة ويتم توزيع مثل هذه النشرات بواسطة العديد من قنوات الاتصال وتعتمد هذا النوع من الدعاية المضادة الاسلوب العاطفي كمؤثر اساس او قد تستخدم مثل هذه النشرات لدفع الجنود للاستسلام وخاصة في ظروف الحرب كما هو الحال في نشرات الاستسلام •

٤ ـ الدعاية الحمراء [١٢]: وهي الدعاية الخاصة بالحركات التحررية والوطنية في العالم وتمارس من خلال الاذاعات الموجهة الخاصة بتلك الحركات اضافة الى

الاذاعات الموجهة من المعسكر الاشتراكـــي ،
وهي تهدف الى : ـ

أ ـ كسب تأييد الجماهير داخليا وخارجيا •
ب ـ التأثير في افكار الكتل الشعبية وانتزاعها من تأثيرات الافكار المعاديـــــة •
جـ ـ مواجهة الغزو الاعلامي الخارجي بالعقيدة الاشتراكية والثورة •
د ـ فضح اساليب الاعداء ومحاولة خلخلة النظام المعادي توطئـــة لاسقاطـــــه •

اضافة الى ما ورد انفا يلاحظ ان القوى المعادية قـد توظـف وتلفق الاخبار الصادرة من الدولة المستهدفة لتبرير اتخاذ اجراءات معينـــة ضدها كما هو واقع الحال للكيان الصهيوني الذي استخدم الاعلام المصري القائل بقذف اليهود في البحر ابان نكسة حزيران ١٩٦٧ لتبرير عدوانهم(١٣) من جهة وحث الجندي الاسرائيلي للدفاع عما يسمى بمشروعية وجوده في فلسطين العربية ولكسب الرأي العام العالمي والتأثير عليه واظهار الكيان الصهيوني وكأنه قلة مستضعفة مهددة بالفناء •

ناهيك من ان الدعاية قد تأخذ اشكالا اخرى منهـا مـا يتمثـل بالنشرات الصحفية الجيدة الطبع وبالاسلوب المحلي للدولة المستهدفـة وبأسلوب مبسط مشوق والمتضمنة اخبارا حول موضـــوع معيـن تهـدف الجماهير الاستزادة منه ويزداد خطورة مثل هـذا الاسلـوب في حالـة استخدامه ضد دول معينة يهتم اعلامها على موضوع معين وفي ظروف معينة ولا يعتمد اسلوب المصارحة الجماهيرية مما يدفع الجماهير الى التقصـي عن الحقائق حتى ولو كان من مصادر معروفة بعدائها لدولتهـم • او قـد تستخدم الدعاية لموضوع معين على شكل نشر نكتة معينة بيـن صفـوف الجماهير المستهدفة ذات طابع سياسي •

كما تستخدم الدعاية المضادة الكتيبـات والصحـف المأجـورة وتزييف اعداد مجلات معروفة وتحريف بعض مضامينها وتـوزع لغرضـ

الدعاية لصالح القوى المعادية ناهيك عن استخدام بعض الاذاعات من تزييف الاصوات وخاصة المسؤولين وخطبهم واحاديثهم[١٤] واستخدام مكبرات الصوت ابان فترة الحرب ودبابات الدعاية لغرض التأثير على الجنود او في استخدام العامل الديني في الدعاية لضرب التوجه القومي والذي سنتطرق اليه فيما بعد •

وفي ضوء الدعاية المضادة يلاحظ انها تمارس عملية التكرار في بث المعلومات والاخبار وذلك بهدف ترسيخ المفاهيم في عقول الجماهير المستهدفة كما تستخدم ايضا الاناشيد والاغاني ناهيك عن استخدام اسلوب الكذب والاختلاق في الاخبار والمعلومات تجسيدا لمقولة غوبلز : « اكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس »[١٥] وهناك اساليب كثيرة لا مجال الان لذكرها كالاسلوب المستخدم من قبل الوعاية الصهيونية الذي يتميز بالاستعطاف والاستضعاف « اعطونا لنعيش »[١٦] و« تبرع دينارا تقتل عربيا »[١٧] وغيرها من الاساليب المستخدمة في الدعاية •

اما قوانين الدعاية[١٨] الاساسية فيمكن ايجازها في الاتي ، كي يمكن تحديد الاسس التي ترتكز عليها الدعاية الفارسية العنصرية : ـ

١ ـ قانون التبسيط والعدد الاوحد حيث تجتهد الدعاية قبل كل شيء في جميع ميادين عملها على التبسيط فهي تجزأ عقيدتها وحججها الى نقاط محددة بوضوح قدر المستطاع ويكون في متناول المستخدم للدعاية عددا من الوثائق كالبيانات والشهادات والتصريحات والتي تنبثق منها بشكل ايجابي على وجه العموم عدد من العبارات المكتوبة في نص مختصر وواضح لغرض تأكيد المعلومات الواردة في الدعاية وتعزيزها •

٢ ـ قانون التضخيم والتشويه : ان تضخيم الاخبار طريقة صحفية

مألوفة لدى صحافة العديد من الدول والاحزاب والقوى السياسية فمجرد ان ينطق سياسي ما بعبارة او حديث عابر او معين او قيامه بتصرف شخصي معين يصار الى تضخيم ذلك وعكسه على الدولة واجهزتها وسياستها سلبيا ٠

٣ ـ قانـون التـوزيع : ويعني تكرار المعلومات بصورة ذكية تكفل عدم خلق الملل لدى الجماهير المستهدفة ٠

٤ ـ قانـون التحويـل : حيث يعتقد القائمون بالدعاية انه من الممكن ممارسة الدعاية انطلاقا من العدم وفرض اية فكرة عامة على الجماهير في اي وقت كقاعدة عامة فأن الدعاية تعمل دوما في ساحة موجودة مقدما كالاساطير والاقوال والامثال ٠

٥ ـ قانون الاجماع والعدوى : ان معظم الناس يحرصون قبل كل شيء على التجاوب مع اقرانهم وقلة من يجروا على تعكير الانسجام السائد حولهم لنشر الفكرة المناقضة للرأي العام فهذا الاجماع يشكل وسيلة لاثارة الحماس والرعب في آن واحد ، حيث ان وجود خاصية الترابط الحسي بين الجماهير تنشأ ظاهرة اخرى ملاصقة لظاهرة الاجماع الا وهي ظاهرة « العدوى » والتي تتضح كنتيجة لتأثير نماذج بشرية اخرى مهما كانت درجة الوعي الحسي عند الاخيرة ، ويزداد مثل هذا الامر تعقيدا ويسهل مرور الدعاية المضادة هو تصور التغطية الاعلامية لكثير من الاحداث بالنسبة للدولة المستهدفة مما يجعل جماهيرها ان تكون وسطا ملائما

لتقبل الدعاية المضادة او وسطا متلهفا لسماعها
او لنقلها وتناقلها وبذا يتكون تحفيزا ذاتيـــا
مسبقا للايمان بالدعاية المضادة ويزداد اثـــر
الدعاية المضادة في الاوساط غير المثقفة والذين
يقطنون خارج العاصمة او الاشخاص الذيــن
لا تساعد اعمالهم الى متابعة وسائل الاعــلام
المختلفة وذلك لسببيــن مركزييــن اولاهمـا
ابتعادهم عن الاحتكاك بالواقــع وتلمسهــم
للحقائق • والثاني بعدهم وعــدم تأثيرهــم
بالمحيط العائلي والمجتمعي مما يهيئهم نفسيا
لتقبل الدعاية المضادة •

ويلاحظ في اوقات الازمات التي تمـر
بها الدولة المستهوفة وخاصــة ابــان فتــرة
الحروب ان الدعاية المضادة تأخــذ اشكــالا
خاصة من ابرزها [١٩] : —

أ — الدعاية الاستراتيجية : وهي ذات اهداف بعيدة المــدى واهمهــا التشكيك بحركة معينة •

ب — الدعاية التكتيكية : وهي تعمل على التشكيك بالقوة الدفاعية للقوات المسلحــة وقلة الاسلحــة وســوء التوزيــع والتنظيم •

جـ — الدعاية التعزيزية : وهي التي تقوم بمهمة الاقناع بعــد الوصــول الى هدف معين مستغلة انكسار الجيش فــي واقعة معينة او في جزء من جبهة القتال لتعزيز الدعاية المضادة ولتأكيد صحة ما ذهبت اليه •

د — الدعايــة السوقيــة : كما تستعمل القوى المعادية في كثير مــن الاحيان انواعا اخرى من الدعايــة في اوقــات الحروب الا وهي الدعاية السوقية وهي الموجهة

الى سكان القطر وتهدف الى التشكيك بقدرات القطر الاقتصادية وزعزعة ثقة الجماهير بالضغط على النظام القائم الى الاستسلام او اتخاذ مواقف لا تعبر عن نهج الدولة وتوجهاتها المبدئية .

هـ ـ الدعاية التشبثية : وهي الرعاية الموجهة الى المدنيين في المناطق المحتلة لكسب تأييدهم لصالح القائم بالدعاية او في الحد الادنى على الاقل تحييدهم .

و ـ الدعاية التعبوية : وهي من اخطر انواع الدعاية لانها موجهة ضد القوات المسلحة والاجهزة الخاصة هادفة التشكيك بأتجاه القيادة وامكانياتها وارتباطاتها من اجل دفع هذه القوات والاجهزة الى اتخاذ مواقف معينة لا تخدم الدولة وجماهيرها .

وفي ضوء ذلك يمكن تحليل واستنباط اهم المرتكزات والاسس التي ارتكز[٢١] اليها النظام الفارسي العنصري ومن ورائه الامبريالية في دعايته داخليا وخارجيا : ـ

اولا ـ ترتكز الدعاية الفارسية ومن ورائها الاعلام الامبريالي على شخصية خميني واعتباره قائدا لكل البلدان الاسلامية وهاد لاية ثورة اسلامية وان دوره لا يقتصر على قيادة وتوجيه الثورة الاسلامية في ايران[٢١] بعدما ايقنت الدوائر الامبريالية من افول نجم الشاه وكان بديلها الجديد الذي استقرت عليه ليلعب نفس الدور السابق للشاه وذلك بعد دراسة شخصيته دراسة دقيقة والذي لن يستمر بالسلطة مدة طويلة لكبر سنه ولعقليته المتخلفة التي تؤدي الى فوضى ومتابعات تضر بالانتفاضة الحقيقية للشعوب الايرانية وتجهضها الى عدائه للتقدم واليسار الذي سيدفعه بالتالي الى تصفية كل الحركات

التقدمية واليسارية ربما يخدم في المنطقة • وكانت للدعاية الكبيرة اثرا فاعلا في ركوبه موجة الانتفاضة الايرانية •

ثانيا ـ في الوقت الذي تشهد فيه امتنا العربية نهوضها القومي الذي اطل عليها من بوابتها الشرقية « العراق » استخدمت القوى المعادية للامة العربية اسلوبا جديدا في الرعاية للانظمة المأجورة والعميلة ليس هو بجديد على ثورتنا وجماهيرنا المثقفة الواعية الا وهو استخدام العامل الديني كأسلوب للدعاية في محاولة يائسة لتمرير هذا المخطط ، وتكمن خطورة هذا العامل في توقيت استخدامه وذلك لوقف النهوض القومي او الحد من الدور القومي البارز للقطر العراقي تطبيقا لنظرية بريجنسكي القائلة بضرب التوجه القومي بتوجه طائفي[٣٢] •

وقد شخص الرئيس صدام حسين ذلك عندما اشار بقوله : ـ

« ان بعض القوى المضادة صارت تستخدم الدين لاهداف سياسية ، فعليك ان لا تستخدم الدين لاهداف سياسية وان لا تصطدم بهم بشكل مباشر وبأساليب تقليدية• ان بعض الاوساط الرجعية عندما تتصرف تصرفات استفزازية ضد الثورة تحت غطاء الشعائر الدينية فانها وبدافع من الاستعمار تقصد جر الثورة واجهزتها الى التدخل في الشؤون الدينية وفق صيغ واساليب غير متوازنة بما يثير اوساطا شعبية هي جزء من الحركة العامة للثورة ومصلحتها جزء من مصلحة الثورة[٣٣] • وكما لم يغب عن كورش « الاخميني »[٣٤] السابق ان يستغل الدين لغزو بابل وتحقيق احلامه المريضة لم يغب عن بال الخميني اللاحق انيسير على النهج نفسه فكان اسوأ سلف في تحقيق هذا المبدأ المثقل بالحقد والكراهية تجاه كل ما هو عربي واسلامي •

ثالثا ـ لقد لعبت الدوائر الامبريالية دورا فاعلا في دفع النظام الفارسي العنصري الى شن عدوانه على القطر العراقي يوم

٤-٩-١٩٨٠ والذي سبق له وقام بمحاولات قبل هذا التاريخ[٣٥] . بواسطة اعوانه في الداخل الى تأجيج الوضع الامني في القطر العراقي والايحاء له بأن ما حصل في ايران يمكن ان يحصل في العراق بمجرد شن العدوان ؛ وبعد فشل هذا العدوان بفعل وجود القيادة التاريخية الحكيمة المتمثلة بشخص السيد الرئيس المناضل صدام حسين والتفاف الجماهير حوله ايمانا بالقيادة والمشروعية ضد العدوان لجأت الدعاية المضادة التي تحركها وتوجهها الامبريالية والصهيونية منذ بدء العدوان على القطر العراقي لعبة خبيثة الا وهي لعبة التقليل من اهمية الانتصارات التي حققتها جحافل قادسية صدام في كل جبهات القتال واوردت في ذلك اخبارا وتلفيقات كاذبة من جهة ، واوحت الى النظام العنصري بأن اطالة امد العدوان وعدم الموافقة على وقف اطلاق النار من جانبه سيكون ذا مردودات ايجابية لصالحه وان النصر الاكيد حليفه ، كما حاولت الدعاية الفارسية ومن خلفها الدعاية الامبريالية ان تنال من قيمة الانتصارات التي حققها جيشنا المقدام متذرعة بأن الجيش العراقي لم يستطع دخول كل المدن الايرانية متناسين الاهداف المرسومة من قبل قيادة الحزب والثورة للجيش العراقي « فالعراق لم يستهدف احتلال كل المدن الايرانية وانما كان دخوله لبعض المدن في ضوء القرارات التي اتخذتها القيادة (قصر شيرين - مهران - كيلان - المحمرة) بغية دفع الخطر عن القطر وللضغط على النظام الفارسي واجباره على الاعتراف بحقوقنا المشروعة في الارض والمياه وعندما تقرر القيادة ان امن القطر يحتاج الى السيطرة على اية مدينة اخرى فان الجيش العراقي قادر على دخولها مثلما دخل المدن الاخرى ».

وكما اكد السيد الرئيس المناضل صدام حسين « ان ما نطالب به ان تعترف الحكومة الايرانية اعترافا صريحا وقانونيا وفعليا بحقوق العراق التاريخية المشروعة في ارضه ومياهه وان تتمسك بسياسة حسن الجوار والتخلي عن اتجاهاتها العنصرية والعدوانية والتوسعية »[٣٦] .

رابعا ـ محاولة الدعاية الفارسية العنصرية تجسيد مقولة كوبلز « اكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس » وذلك على الصعيد الداخلي والخارجي من خلال التعتيم على الوضع المتردي الذي تعيشه ايران وجماهيرها وحالة القسر والارهاب والاعدام والمصادرة في ايران من خلال ايراد بيانات وتصريحات لانتصارات مزعومة على الجبهة وقوة النظام وتخطيطه وامكانياته الكبيرة في الاستمرار في العدوان والتي انكشفت بفعل الخسائر المتلاحقة للنظام الفارسي على الصعيد الخارجي رغم محاولات الاعلام الغربي وحلفائه المستمرة لتأكيد انتصارات النظام الفارسي عبر وسائل الاعلام المختلفة .

خامسا ـ لقد حاولت الدعاية الفارسية التي تحركها وتخطط لمسيرتها وتوجهاتها الدوائر الامبريالية والتي سخرت لها كافة الامكانيات المتاحة لذلك مستخدمة شتى اشكال الدجل والتضليل في محاولة منها لاستمرار العدوان وتصدير الفوضى والاضطراب[٣٧] والابقاء على النظام القائم في ايران ويمكن ابراز المجالات الاخرى التي ارتكزت عليها الدعاية الفارسية[٣٨] كما يلي : ـ

أ ـ التأكيد على اسلامية النظام الفارسي وعدم تبعيته للامبريالية وبانه العدو رقم واحد للامبريالية من خلال استخدامه لعبة الرهائن التي اكشفت اوراقها .

ب ـ استغلال الدعاية الفارسية للتوجهات الاسلامية للشعوب

الايرانيـة ابشـع استغـلال ومحاولـة توظيـف مثل هذه التوجهات لصالح المخطط الامبريالـي الصهيونـي الرجعي المشبوه في المنطقة وللاستمرار في العدوان مستغلة نقص الوعي والادراك لشريحة كبيرة من هـذه الشعـوب بفعل توجهات الشاه السابقة العسكرية وعدم اهتمامه بأمور التربية والتعليم ناهيك عن محاولة الدعاية الفارسية ترسيخ وتأكيد كفر الثورة في القطر العراقي بسبب توجهاتها الوطنية والقومية واستخدام اللهجة المحلية العراقية في هذه الدعاية عبر الاذاعة العربية من طهران .

جـ ـ استخـدام الدعايـة الفارسية لاسلوب الترغيـب والترهيـب فـي انتخابات اركان النظام نفسه بغية دفـع الجماهيـر الـى انتخاب المرشحين المفروضين من قبل النظام على الشعوب الايرانية او دفعهم الى عدم انتخاب منافسيهم في الحـد الادنى على الاقل بعد سقوط الشاه وبعد مصرع اركـان النظام على يد المعارضة الايرانية .

د ـ تركيـز الدعايـة الفارسيـة علـى الدور الذي يمكن ان تلعبه الزمر العميلة المرتبطة بها في داخل القطر العراقـي ومحاولتهـا الدائمة لتعزيز توجهاتها التخريبية ووقوفها ضـد الثـورة وجماهيرها في القطر العراقي وتضخيم عددهم وامكانياتهم واختلاق وقائع غير موجودة اصلا « تدمير منشـآت ـ مظاهرات » والتأكيد علي مسألة الفروق المذهبية في محاولة لزعزعة الوحدة الوطنية ، لاظهار الثورة في القطر العراقي امام الشعوب الايرانية والرأي العام العالمي وكأنها فعـلا تعيش حالة اختناق من جراء المعارضـة الكبيـرة للثـورة وتوجهاتها المبدئية ولتبرير استمرار النظام الفارسي فـي العدوان ولتصدير ما يسمي بالثورة الاسلامية من جهة كما ركزت الدعاية الفارسية على تدهـور الوضـع السياسـي

والاقتصادي للقطر العراقي واوردت في ذلك بيانات مختلفة في الوقت الذي لا يزال فيه اقتصادنا وبشهادة الجميع يتمتع بثبات كبير ، وللتعتيم على الوضع السياسي والاقتصادي المتردي الذي تعيشه ايران في ظل حكم الطغمة الفاسدة •

هـ ـ تركيز الدعاية الفارسية على قيام القوات المسلحة العراقية بضرب المدن الايرانية الاهلة بالسكان المدنيين ليبرر النظام الفارسي قيامه بضرب المدن العراقية الاهلة بالسكان المدنيين كما يحصل فعلا لمدينة البصرة وليقدم بالتالي على قتل الاسرى العراقيين في محاولة منه لوقف الاندفاع الجماهيري الكبير في صد العدوان الفارسي من جهة ولتؤكد الدعاية الفارسية من جهة اخرى على حسن المعاملة عبر وسائل الاعلام التي يتلقاها الاسرى العراقيين في ايران ظنا منها بأن العراق يقدم على ارتكاب مثل هذا العمل اللا انساني الذي اقدمت عليه الزمرة الجاهلة الحاكمة في ايران متناسية انسانية الثورة وحكمتها وصبرها •

و ـ تأكيد الدعاية الفارسية عبر اركان النظام على عدم وقف اطلاق النار والاستمرار بالعدوان رغم خسارتهم المعركة في محاولة يائسة لخلق اليأس والملل في نفوس مقاتلينا الذين يبرهنون يوما بعد يوم على اصرارهم على انتزاع الحقوق المغتصبة بقوة واقتدار عاليين •

ز ـ تسعى الدعاية الفارسية الى تفتيت وحدة الامة العربية من خلال استمرار النظام في العدوان على العراق واقطار الخليج العربي والعمل من جهة اخرى على تدعيم علاقاته ببعض الانظمة العربية المعروفة بتوجهاتها اللا قومية مع الادعاء بمساعدة الثورة الفلسطينية وركوب موجتها « كما فعلت بعض الدول العربية » في محاولة يائسة منها لتبرير

تمسكها باحتلال اراضي عربية « الجزر العربية الثلاث »
وابراز ذلك اعلاميا وتاكيدها على القضيــة الفلسطينيــة
اعلاميا فقط واطلاق تسميات فلسطينية وعربية على بعض
عملياتها العسكرية في محاولة للتعتيم علـى دور النظـام
الصهيوني في ايران وفي العدوان كما افرزتـه الوقائـع .
ويلاحظ بعد الهزائم المتكررة للنظام الفارسي على جبهات
القتال انه حاول ان يركز الدعاية علـى تبريـر التعـاون
مع الكيان الصهيوني في محاولة لاخفاء ارتباطات النظـام
الفارسي به كما بررت من قبل استخدام ما يسمى بالحرس
الثوري للاسلحة الاسرائيلية وبكونها موجودة من زمـن
الشاه لتبرير استخدامها .

وهكذا تتضح الاغراض المشبوهة للدعاية الفارسية
العنصرية بعد ان توضح للعالم اجمـع حقيقـة النظـام
الفارسي وحقيقة ارتباطاته ودوره المشبوه في المنطقة ضمن
الحقائق والمستجدات التي افرزها الواقع .

خ ـ تحاول الدعايــة الفارسيــة ان تبرر عمليــات الاعــدام التي ترتكبها
الطغمة الحاكمة في ايران وعمليات القهر والبطش والتعذيب
بحق ابناء الشعوب الايرانية بانها انتصار للقيم « الروحية
والانسانية والاسلامية » التي يدعيها النظام الفارسي والتي
لابد منها للوصول الى ما يسمى بالمجتمع الاسلامي المزعوم
من جانب وتبرير ذلك كونه عملا اعتياديا فيما اذا قورن بما
حصل في الماضي وما يحصل اليوم على الساحة الدولية من
حوادث مماثلة طالبة من المجتمع الدولي الذي يستنكر مثـل
هذه الحوادث تركها وعدم التركيز عليها مدعين ان نشـر
مثل هذه المعلومات يشكل تدخلا في شؤونهـم الداخليـة
وعدوانا على « قيمهم الجديدة » .

د ـ ترتكز الدعايــة الفارسيــة علـى بعضـ ما ينشـر مـن مقالات

ونشريات في الصحف والمجلات الاجنبية « والتي ظاهرها التعاطف مع النظام الايراني او الاشادة بالانتصارات المزعومة التي يمكن ان تحققها ايران في المستقبل القريب على اعدائها وباطنها وضع النظام الفارسي لمواصلة العدوان داخليا بحق الشعوب الايرانية وخارجيا على الاقطار المجاورة وفي مقدمتهم العراق « وذلك لتضليل الشعوب الايرانية عن حقيقة ما يجري في داخل ايران وعلى الجبهة من احداث وبالتالي لدفع هذه الجماهير للاشتراك في مواصلة العدوان من جهة وعدم الضغط على النظام الايراني من قبل ابناء الشعوب الايرانية للاستجابة لصوت الحق والضمير في وقف اطلاق النار بالرغم من الخسائر الجسيمة التي الحقت بالشعوب الايرانية جراء عدوان النظام الفارسي على العراق من جهة ثانية وليتسنى للنظام الفارسي مواصلة وتنفيذ المخطط الامبريالي في ضرب التوجه القومي تحت ستار « الدعوة الاسلامية » من جهة ثالثة .

ي ـ ترتكز الدعاية الفارسية على الانتصارات الوهمية التي استطاعت ما تسمى بالثورة الاسلامية تحقيقها على امد الثلاث سنوات الماضية وذلك بتاكيدها على التظاهرات والندوات والاجتماعات المعقودة الموالية لسياسة النظام الفارسي ولتبرر الدعاية بالتالي ان عدم تمكن النظام الفارسي من تحقيق شعاراته المزعومة في تحقيق العدل وبناء المجتمع وتقدمه ورفاهيته هو بسبب مؤامرات الشرق والغرب التي تحيل دون تحقيق هذه الاهداف وبأن النظام الفارسي لا يمكن ان يحقق ذلك الا بعد استكمال عدوانه على العراق والمنطقة ، هادفا من ذلك تخدير عقول ابناء الشعوب الايرانية وعدم اثارة انتباههم عن حقيقة النظام وحقيقة الاوضاع التي تعيشها الشعوب الايرانية في ظله وحقيقة ما

ينفذه من مخططات مرسومة له من قبل الدوائر الامبريالية والصهيونية والتعتيم عن الخسائر الجسيمة التي الحقت به في الجبهة ، والمتتبع للاعلام الفارسي في الاونة الاخيرة يلاحظ ذلك بصورة واضحة حيث لجأت الدعاية الفارسية الى عوم ذكر الخسائر الملحقة به او خسائر الجانب العراقي بالارقام او بالتفصيل وانما تشير الى الاخيرة بكونها كبيرة وفادحة وذلك في محاولة يائسة للتعتيم عن حجم الخسائر الكبيرة التي الحقها به القطر العراقي في الجبهة •

ولذا يتطلب منا فضح التوجهات الحقيقية للدعاية الفارسية والتي يكمن اهمها ضمن المحاور الاساسية التالية : —

١) الاستمرار في فضح الدور المشبوه الذي يلعبه النظام الفارسي وتوجهاته العنصرية والعدوانية على الامة العربية وتحالفاته المشبوهة عبر وسائل الاعلام المختلفة ووفق الحقائق الدامغة والاحداث المستجدة التي تؤكد استمرار هذا النظام وتنفيذه للمخططات الامبريالية في المنطقة ومثال الاعتداء على القطر الكويتي الشقيق والمؤامرة الايرانية في البحرين والتهديد لدول الخليج العربي ليس ببعيد •

٢) التنسيق على الصعيد القومي والدولي لمواجهة العدوان الفارسي واظهار زيف وبطلان وحقيقة الدعاية الفارسية وذلك في كافة المجالات المتاحة « عقد ندوات — مؤتمرات — نشريات — الصور — الخ » ناهيك عن ضرورة تقوية البث الاذاعي والتلفزيوني العراقي •

٣) التأكيد على العزلة الدولية التي يعانيها اركان النظام الفارسي مع المكانة القومية والدولية المرموقة لقطرنا المناضل •

٤) فرض الرقابة والمتابعة للكتب والنشريات المستوردة التي تحمل في طياتها الدعاية للنظام الفارسي او ذات التوجهات

المعادية للثورة وجماهيرها .

٥) الاستمرار في التأكيد اعلاميا على البطولات الفذة التي يسطرها مقاتلونا على طول الجبهة للمحافظة على روح النصر وتعزيزه وبأن العراق مصمم على انتزاع حقوقه مهما طال العدوان واستمر .

٦) الاستمرار في سياسة المصارحة الجماهيرية التي تتبعها قيادة الحزب والثورة في تبيان الحقائق وتشخيص الوقائع للجماهير العربية والتي كانت عاملا مهما من عوامل فشل الدعاية الفارسية ومخططاتها المشبوهة .

الهوامش

(١) د . حامد ربيع ــ مقدمة في العلوم السلوكية (القاهرة) ص ٢٧٦ .

(٢) د . عبدالرحمن الزامل / ازمة الاعلام العربي / الدار المتحدة للنشر بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٣ .

(٣) فيورغ كلاوس « قوة الكلمة » موسكو ، دار التقدم ، ١٩٦٧ ، ص ٣٠

(٥) علم النفس كسلاح / سلسلة كتب اصدرتها وزارة الدفاع الاتحادية بالمانيا الغربية / ١٩٦٠ ، ص ٣٣ .

(٦) صلاح نصر / الحرب النفسية ــ معركة الكلمة والمعتقد / الجزء الاول الطبعة الثانية / ١٩٦٧ ، ص ٤٣٨ .

(٧) د . عبداللطيف حمزة / الاعلام والدعاية / دار العربي ــ القاهرة ١٩٧٨ ، ص ١٦١ .

(٨) انظر ب . لاينباردجر ›› الحرب النفسية ›› موسكو ١٩٦٢ ، ص ٢١٧ .

ولنظر / كراس الحرب النفسية ، سلسلة الثقافة الثورية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ٩ .

(٩) د . ابراهيم امام / الاعلام والاتصال بالجماهير / مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٥ ، ص ٣٠٢ .

وانظر ايضا : ديفيد وايز وتوماس روس / الحكومة الخفية / ترجمة جورج عزيز ، دار المعارف بمصر ــ القاهرة ، ص ٣٦٥ .

وانظر ايضا : د . ابراهيم الداقوقي : الاذاعات السرية والحرب النفسية الاذاعية ، مجلة فنون اذاعية ــ بغداد ١٩٧٧ ، العدد

الوقايــــة
احدى وسائل التصدي لظاهرة انحراف الاحداث

اعـــداد
الدكتور مازن بشير الراوجي
رئيس قسم الاجتماع
كليــة الاداب
جامعـة بغـداد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

ان مشكلة جنوح الاحداث ظاهرة اجتماعية عاصرت كافة المجتمعات المتقدمة منها والمتأخرة وقد اختلفت الفلسفة نحو الحدث الجانح والنظرة اليه ، وعلى الرغم من هذا الاختلاف يمكننا القول بان هذه الظاهرة ناتجة عن اسباب وعوامل عديدة تتفاعل مع بعضها ينتج عنها السلوك الجانـح لذا فأن البحث في ميدان التصدي والمعالجة لهذا السلوك وهذه الظاهرة يتطلب معالجة كافة العوامل التي يمكن ان تكون سببا في خلقه وبعبارة ادق معالجة كافة العوامل التكوينية والمساعدة المهيئة للانحراف .

تتضح اهمية دراسة ظاهرة انحراف الاحداث من الاخطار التي تشكلها على حياة الاخرين باعتبار الحدث المنحرف عنصر قلق واضطراب يظهر في كل حين لونا من الوان السلوك المنحرف قد يعرض فيه حيـاة الاخرين للخطر ، كما ان هؤلاء المنحرفين يمثلون خطرا كبيرا على انفسهم

وعلى حياتهم فضلا عن انهم يمثلون مشكلة قانونية قضائية ؛ ويتمثل هذا في ازدياد عدد المخالفات او القضايا التي يرتكبونها نتيجة الاستغراق في ارتكاب الوان السلوك المنحرف الامر الذي يتطلب مزيدا من الاجراءات القانونية لمواجهة هذه المشكلة .

كما ان هذه الظاهرة تمثل مشكلة اقتصادية خطيرة تتمثل في الخسارة التي تعود على المجتمع من جراء فقدان هذه العناصر البشرية التي بامكانها ان تساهم في عملية البناء والتنمية في المجتمع . فالجانحون خسارة لانفسهم وخسارة لمجتمعهم من حيث هم قوى عاملة معطلة عن العمل والانتاج ، يعيش معظمهم عالة على ذويهم ومجتمعهم وان انتجوا فان انتاجهم لا يشكل الا القليل والتافه الذي لا يمكن ان يتحقق من وراءه فائدة او مكسب .

وعلى الرغم من ان هذه الظاهرة تعتبر من المشاكل الاجتماعية لكننا نرى ان النظرة اليها تختلف من قطر لاخر لذا يمكننا القول بان هذه الظاهرة مسألة نسبية لذا « فان الحكم على حالة السوء او حالة الشذوذ والانحراف انما هي مسألة نسبية تختلف من مجتمع الى مجتمع اخر ؛ بل تختلف داخل المجتمع الواحد من مكان لاخر ومن طبقة لاخرى ومن وقت وبيان ذلك يرجع الى ان لكل مجتمع مقاييسه واحكامه وقيمه التي على اساسها تتحدد تلك المقاييس والاحكام »(1)

وهكذا فان الجنوح لا يخضع لتحديد مقياس معين ؛ فالحدث الذي نعتبره — على سبيل المثال — في مجتمع ما جانحا فان فعله هذا قد لا يعتبر جنوحا في مجتمع اخر .وهذا يرجع بطبيعة الحال الى شكل وطبيعة المعايير والقيم والقوانين التي تسود المجتمعات . ولتوضيح ذلك فاننا نرى ان مفهوم الجنوح يتسع في الولايات المتحدة ليشمل مختلف انواع السلوك — غير المقبول — مثل الهرب من المدرسة او عدم اطاعة الوالدين او شرب الخمر ، وحتى التدخين ويدخل المروق وبيع السلع التافهة ضمن الجنوح ايضا في قوانين جمهورية مصر العربية ؛ ومعظم دول اوربا ، بينما لا يعتبر التشرد جرما يعاقب عليه القانون في التشريع الفرنسي ، ولو ان محاكم الاحداث تخضعهم الى الاصلاح والتهذيب .

كما ان التشريع المصري يفرق بين المتشرد والحدث الجانح ولكن المنحرفين والمتشردين يعاملون سويه في كافة الاجراءات والمؤسسات ، وقد عالج التشريع العراقي معظم حالات التشرد فقد نصت المادة ٤٩ من قانون الاحداث الجانحين على شمول ممارسة صبغ الاحذية وبيع السكائر من قبل الاحداث حالة من حالات التشرد •

ولما كانت مشكلة جنوح الاحداث احدى الظواهر الاجتماعية فاننا نرى ان دراستها تتطلب تحليل ودراسة الحياة الاجتماعية على انها كل عضوى نظرا للتساند المتبادل بين الظواهر الاجتماعية وافتراض تميزها بطابع اجتماعي معين هو وجوب تفسيرها بعوامل اجتماعية متعددة دون تحيز لعامل اجتماعي معين اي ان يكون التفسير متكاملا كليا — يجمع في اطاره — ما استطاع — كل العوامل الاجتماعية »(٢) •

ومن هذا المنطلق نجد ان معالجة ظاهرة انحراف الاحداث وجنوحهم تتطلب بالضرورة النظر اليها بمستويين من مستويات التحليل والتجريد •

الاول فردي وحدة الدراسة فيه تتطلب متابعة وتشخيص وتحديد ما يصدر عن الجانح من سلوك في سبيل التوصل الى معرفة وما يعترى شخصية الجانح من اضطراب وصراعات نفسية •

اما المستوى الثاني فهو مستوى جماعي وحدة الملاحظة والدراسة فيه هي الجماعه وما يصدر عنها من سلوك جانح وذلك في سبيل التوصل الى معرفة العوامل التي ادت الى هذا السلوك الجمعي الجانح عن طريق ما ينتاب البيئة الاجتماعية من تفكك واضطراب فاذا كان المظهر المعبر عن وحدة الدراسة في المستوى الفردي هو ما يأتيه الفرد من سلوك فان المظهر المعبر عن وحدة الدراسة في المستوى الجمعي هو النتائج الموضوعية لسلوك مجموعة من الافراد الجانحين في جماعة معينة والصور التي تعبر عن هذه النتائج الموضوعية •

ومهما تكن طبيعة الدوافع التي تدفع حدثا بعينه الى الجناح فان النتائج لسلوك مجموعة من الاحداث الجانحين في جماعة ما •

والطرق والمظاهر التي تعبر بمقتضاها هذه النتائج الموضوعية عن نفسها في واقع الامر ظواهر اجتماعية خالصة مهما كان الدافع لها في حالاتها الفردية سيكولوجيا وبيولوجيا ، وهي بهذه الصورة لا تحمل طابع الفرد ولكنها تحمل طابع الجماعة التي يعيش الفرد في اطارها •

ومن خلال وقائع المؤتمر الذي نظمته الامم المتحدة في دمشق خلال شهر ايلول ١٩٦٤ والذي تناول المواضيع الثلاثة التالية : —

١ — الوقاية السابقة على الاجرام والانحراف

٢ — الوقاية من التكرار

٣ — الجهاز المكلف بالوقاية من الجريمة وتطبيق مبادىء الدفاع الاجتماعي •

وبالرغم من مرور ١٧ عاما على ما قرره هذا المؤتمر من توصيات فلا نجد الا انجازا ضئيلا لما اوصى به وتناولته ابحاثه وهذا ما يدعونا الى القول بان التذكير بهذه التوصيات لا يخلو من فائدة بالرغم من مرور تلك الحقبة من الزمن على اقرارها •

وعلى الرغم من ان المؤتمرين الذين شاركوا في هذا المؤتمر قد اجمعوا على ان الانحراف لم يبلغ بعد حدود الخطر في البلاد العربية الا انه يشكل ظاهرة مستحدثة تستدعي الاهتمام وتوجب اتخاذ التدابير الوقائية العاجلة للحؤول دون تفاقم الخطر ، حتى يتمكن المسؤولون من معالجة هذه الحالة قبل ان تتعقد المشكلة وتتشعب فيستحيل بعد ذلك مداواتها بصورة ناجحة •

وتأتي الحلقة الدراسية التي تعقدها مديرية البحوث والدراسات في مديرية الشرطة العامة مساهمة جادة وفريدة من نوعها وفعالة في خطاها واساليبها العلمية في طرح هذه المشكلة من اجل تشخيص العوامل المؤدية اليها وصولا الى كشف اهم الطرق والوسائل والاساليب التي يمكن بواسطتها الوقاية والتصدي لهذه الظاهرة ، وظهر هذا بوضوح في النظرة التحليلية العلمية المشخصة في ورقة العمل المعدة من قبل مديرية الدراسات والبحوث والتي طرحت فيها اهم المحاور التي يمكن ان تكون دليل عمل للمؤتمرين المشاركين في هذه الحلقة الدراسية •

وعلى هذا الاساس فاننا نجد ان معالجة ظاهرة إنحراف الاحداث تتطلب بالضرورة التأكيد على الجوانب الاساسية التالية والتي يمكن اعتبارها محاورا مركزية لا يمكن التخلي عن اي منها باعتبارها حلقات متصلة بعضها ببعض وظهر هذا بوضوح من خلال ما اكد عليه قانون اصلاح النظام القانوني الذي صدر في العراق عام ١٩٧٧ . « الحد من مشكلة جنوح الاحداث والوقوف بشكل فعال امام تفاقمها عن طريق ايجاد نظام متكامل يستند الى اسس علمية والى تناسق في العمل يبدأ بالوقاية وينتهي بالرعاية اللاحقة ، مرورا باللقاء الاول مع السلطة العامة . ولاجل تحقيق ذلك ينبغي تخصيص مؤسسات علاجية لائقة ومتنوعة وعلى مستوى تهذيب عالي تدار من متخصصين بشؤون الاحداث وربط جميع اجهزة النظام بوزارة العدل لتكون وحدة متكاملة مع الاجهزة التحقيقية والمحاكم الخاصة بالاحداث .. ومتى ما وجد هذا بمتطلباته البشرية والمادية جاء دور القانون ليحدد شكلا وموضوعا ما تقتضيه محاكمة الحدث والتدابير اللازمة بحقه على أن يتضمن الاسس التالية :ـ

١ ـ اعتماد مبدأ مشاركة اعضاء هيئة التحكيم من المتخصصين في اصدار الحكم .

٢ ـ النظر في المخالفات والجنح التي لا تزيد عقوبتها القصوى عن حد معين من قبل حاكم الاحداث وحده .

٣ ـ اقرار مبدأ مسؤولية الوالدين في حالة جنوح اطفالهم بحيث يمكن محاسبتهم عن اعمالهم كافعال مستقلة عن الجنوح

٤ ـ ادخال مبدأ انتزاع السلطة الابوية من قبل الدولة عندما تقتضي مصلحة الحدث والمجتمع ذلك »[٣]

انطلاقا من هذا الواقع لابد من تخطيط جديد للطريقة التي تعالج بها مشكلة جنوح الاحداث على ان يعتمد هذا التخطيط على التحليل العلمي للسلوك المنحرف كمشكلة اجتماعية قائمة في المجتمع كما يعتمد على المبادرة الخلاقة التي لا تعرف الملل او التراجع لان الطريق طويل وشاق تعترضه الصعاب النابعة من طبيعية الانسان ومجتمعه وبيئته

ويضاف الى ذلك ان ما نجهله عن مشكلة جنوح الاحداث اكثر مما نعلمه ولكن قلة ما نعلم يشكل حافزا لمعالجة هذه الظاهرة التي تشكو منها كل المجتمعات الانسانية باسرها ، فكم من مرض تم القضاء عليه دون ان تتوفر المعرفة الكاملة باسبابه وخصائصه •

ولابد لنا من التأكيد في هذا الصدد بان الوقاية والتصدي وعلاج ظاهرة الجنوح لا يمكن ان يقع عبئها على كاهل الدولة لوحدها ، لان الدولة لا يمكن ان تؤدي وظيفتها الاجتماعية اذا لم تنتظم سائر المؤسسات الاجتماعية ابتداء من العائلة والمدرسة والمؤسسات والمنظمات الجماهيرية ضمن حلقة منسجمة من النشاطات البناءة المتوجهة نحو دعم فعالية كل منها بصورة متكاملة تحقيقا للاهداف التي وجدت من اجلها •

الوقاية احدى وسائل التصدي لجنوح الاحداث

ان الحديث عن التصدي لظاهرة جنوح الاحداث تتطلب النظرة اليها من الجوانب الاساسية التالية : —

أ — الوقاية من مشكلة انحراف الاحداث

ب — الاساليب العلاجية والتأهيلية لسلوك الاحداث الجانحين

جـ — الرعاية اللاحقة الواقية من العود للانحراف

ولما كان الهدف من الوقاية حماية الحدث من الخروج على الضوابط السلوكية التي اختطها المجتمع لتأمين سلامة وجودة وأمان افراده في ارواحهم واجسادهم واموالهم • فالوقاية وسيلة من الوسائل التي ترمي الى تخليص المجتمع من وجود اشخاص منحرفين فعلا ، احداثا كانوا او شبابا او بالغين ، ذكورا او اناثا ، اي القيام بالتدابير الاجتماعية والاقتصادية والتربوية التي تحد من وجودهم ، وبعبارة اخرى اعادة تنشئتهم اجتماعيا وتربويا ليصبحوا مواطنين صالحين في المجتمع وهذا يعني ان القيام بكل هذه الامور من قبيل الوقاية الايجابية للمجتمع منهم في نفس الوقت ، ثم الوقاية منهم قبل ان يشبوا ويصبحوا شبانا جانحين او كبارا منحرفين •

لذا فاننا نجد ان الوقاية من الجنوح تتطلب بالضرورة الاخذ بنظر الاعتبار كل ما يؤدي الى حماية الحدث في المرحلة التي تسبق انحرافه

عن طريق تشخيص السلوك المشكل للحدث بغية دراسة هـذا السلوك والعمل على مساعدته لحل هذا الاشكال ، دون اغفال الجانب التكميلي لهذه الوقاية بعد خروج الحدث من المؤسسات المقيدة للحرية عن طريق ما يقدم اليه من عون من خلال ما يسمى بالرعاية اللاحقة • وهذا بطبيعة الحال يتطلب احكاما تشريعية ترمي حماية الحدث من الاهمال والاستغلال والتعرض للمفاسد والخطر والتسول والتشرد فضلا عن اعطاء اهمية خاصة للدور الذي يمكن ان تلعبه التدابير الاجتماعية والادارية التي ترمي الى حماية الاحداث من المؤثرات السيئة وابعادهم عن الاماكن الفاسدة الموبوءة وتزويدهم بما يحتاجون اليه من العون والمساعدة عن طريق المؤسسات الاجتماعية والتربوية المنشأة لهذا الغرض •

اننا نجد ان كافة المؤتمرات والحلقات الدراسية التي تعقد لدراسة هذه الظاهرة قد اكدت في توصياتها على كثير من الاتجاهات والنظريات العامة والتي يمكن من خلال تطبيقها التصدي لظاهرة جنوح الاحداث ، ولهذا فقد كانت توصيات الحلقة الدولية الثالثة عشر لعلم الجريمة الذي عقد عام ١٩٦٦ حول التنمية الاقتصادية ومشكلات السلوك الاجتماعي التي عقدها المركز القومي للبحوث الاجتماعية الجنائية في القاهرة تؤكد بوضوح على الجوانب التالية : ـ

١ ـ ضرورة وجود برامج تعني عناية خاصة بالظروف السيئة التي تفرضها البيئة المنخفضة اجتماعيا واقتصاديا على الطفل مثل تلك البرامج التي تنمي المهارات الاساسية كتعليمه القراءة والحساب والتي تنمي في الطفل حب التعلم وغير ذلك من المهارات التي يعجز الفقر والاسرة المفككة والوالدان والاميان عن توفيرها للحدث •

٢ ـ ضرورة وجود برامج تتعهد للطفل الذي ينمو في ظروف سيئة وهو في سن صغيرة وتغير فكرته عن نفسه من انه فاشل لا محال والتي ترفع من اماله ومن تقديره لنفسه •

٣ ـ ضرورة وجود برامج تتعهد الشباب الذي يميل الى الانقطاع عن الدراسة ، والشباب الذي يود أن يعمل ولكنه يجد بعد فوات الاوان ، انه بدون تدريب معين يتعذر عليه الحصول على عمل والذي

بنتيجة لذلك يهجر طريق الحياة العادية الامنة ويلجأ الى نمط من الحياة يعادي المجتمع ويسلك سلوكا انحرافيا •

٤ ــ ضرورة وجود برامج تساعد الشباب العاطل والذي سبق انحرافه تعني بتدريبهم ويفتح ابواب العمل امامهم مع تقديم الخدمات الاجتماعية المناسبة لهم ومتابعة حياتهم لفترة ما •

٥ ــ ضرورة وجود برامج تساعد الحدث الذي نشأ في حي فقير على ان يقف على معالم مدينته وان يدرك ان المجتمع اوسع من مجرد الحي البائس الذي نشأ فيه •

ولابد لنا من الإشارة ان هذه التوصيات وما اكدت عليه من برامج انما تمثل جانبا من مشكلة فقط لان احدا من تلك البرامج وحده لا يحل المشكلة التي تواجه المجتمع فلابد من تجريب تلك البرامج كلها في وقت واحد على جماعة واحدة • بعد ذلك تقوم بتنسيق هذه البرامج مع غيرها من البرامج التي تهدف الى علاج كافة الظواهر الاجتماعية المرضية سواء ما يتعلق منها بالمشاكل الاسرية ، او فشل التنشئة الاجتماعية الاسرية ، وغير ذلك من المشاكل التي تتعلق بمشكلة جنوح الاحداث •

لذا فاننا نرى هذه التوصيات والمقترحات يمكنها ان تلعب الدور الفعال في عملية التصدي والحد من مشكلة جنوح الاحداث اذا ما ترجمت بالفعل والواقع الى مواد قانونية تتعلق بالمحاور التي سبق وان اكدنا عليها مبتدأه بالوقاية ومنتهية بالرعاية اللاحقة ومارة باللقاء الاول مع السلطة العامة •

وبهذا الخصوص فاننا ان نتطرق الى كافة الجوانب التي يمكن ان تساهم في تحقيق عملية التصدي للانحراف ، وانما سنؤكد على بعض الجوانب التي تمتلك القدرة والفعالية اكثر من غيرها في الوصول الى الهدف ومنها : ــ

١ ــ الاسـرة :

اثبتت الدراسات النفسية والتربوية ان طابع الشخصية لاي فرد يتكون اولا في الاسرة التي نشأ فيها وان تعامله مع نفسه وفي عمله وفي

عادة او حرفة او يفقد طابعه الظاهري من البراءة واللا شعورية ليصبح نشاطا اجراميا او شعوريا يتعين التدخل للحد منه في الوقت المناسب دون تسامح عاطفي او مغالاة في اللين يصبح معها من قبيل العبث الصبياني ما هو في حقيقته الا نواة لجريمة الغد ان لم يكن قد اصبح بالفعل جريمة »[٥] .

ومما يؤيد دور عامل التنشئة الاجتماعية في خلق السلوك المنحرف ان النتائج للدراسات الميدانية التي اجريت في هذا المجال لتؤكد بوضوح أثر المشاكل العائلية وانعكاس ذلك الاثر على سلوك ابنائهم « تشير النتائج الميدانية بان عامل التنشئة الاجتماعية السيئة كان مسؤولا عن قيام ١١٤ حدثا جانح من مجموع ١٦٠ (٧١٪) بارتكاب الافعال السلوكية الشاذة هذه الافعال التي قادت المسؤولين على احالتهم الى محاكم الاحداث او الاصلاحيات »[٦]

ولما كان الطفل الحجر الاساس في بناء المجتمع الجديد لذا لابد لنا من مضاعفة الاهتمام والعمل على تنمية وعيه باتجاه احترام القانون وتجنب الانحراف حيث ان سلوك الطفل والنشيء في مراحل حياتهم كلها يتأثر بخبرات الطفولة المبكرة اي بفترة السنوات الخمس او الست الاولى وهذا ما تؤكد عليه الدراسات التبعية للاطفال والدراسات الكلينيكية والتحليل النفسي للكبار وكذلك الدراسات الانثروبولوجية لكثير من الشعوب والقبائل عن الحقيقة التالية « ان الاتجاهات النفسية والمعايير الخلقية والمعتقدات والعادات السلوكية التي توضع اصولها في فترة الطفولة المبكرة ذات اثر خالد في حياة الفرد كلها وفي خلقه واسلوب تعامله تعامله الاجتماعي مع الناس .... انه من المستحيل ـــ على رأي ـــ ومن الصعب على رأي اخر ـــ ان يتحرر منها الفرد في كبره مهما حاول » .[٧]

كل ذلك يؤكد لنا بوضوح اهمية الدور الذي يمكن ان تلعبه الاسرة في الجانب الوقائي اذا ما توفرت لها الامكانيات التي تساعدها في تنفيذ هذه المهمة ومنها : ـــ

١ ـــ توفير الخدمات الوقائية الشاملة التي قد تؤدي الى ظهور بعض الاضطرابات التي لا محال ستنعكس بصورة سلبية على سلوك

المجتمع يتوقف على الطابع الثابت نسبيا الذي تكون في محيط حياته في الاسرة . ولهذا فان الطريقة التي يعامل بها الحدث في المنزل تكون على قدر كبير من الاهمية وليس هناك اختلافا حول اهمية توفير العناية الجسمية والتغذية والرعاية الصحية . اما اهمية الجو السايكولوجي والاستقرار النفسي لافراد الاسرة بالنسبة للنمو الانفعالي السوي عند الطفل فهو مالا يدركه الكثيرون رغم علاقته المباشرة ببناء الشخصية السوية للطفل « لقد اثبتت الابحاث التي اجريت في هذا المجال ان معظم الاطفال المشكلين يأتون من منازل مفككة وفيها مشاكل بين الزوجين اكثر مما يتأتون من منازل تتوافر فيها علاقات سليمة ، فحيثما يكون جو المنزل متوترا بسبب اختلاف الابوين فان الطفل عادة يكون حائرا بين خضوعه للاب وخضوعه للام وفي بعض الاحيان يتعلم الطفل ان يستخدم احد الابوين ضد الاخر، او ان يهمل الابوين الطفل مما يجعله يعتقد انه غير محبوب او عديم القيمة وهو سلوك يهدد امن الطفل ويتركه فريسة للشك والوحدة مما قد يؤدي الى الاضطرابات السلوكية المتنوعة وقد تختلف في الشدة من مجرد صورة الغضب لجذب الانتباه الى السلوك المنحرف كالسرقة او التخلف الدراسي او السلوك العدواني او الخروج عن لسلطة وتحديدها . . . . الى غير ذلك »[٤]

ان ترعرع الطفل في مثل هذه الاجواء العائلية لا محال سيدفعه الى الهروب من المنزل الى الشارع لعله يجد فيه متنفسا عما يجده من متاعب في المنزل حيث يبدأ سلسلة من السلوك غير المرغوب والذي يتسم دائما بمعارضة للقانون وتحديه للمجتمع ويزداد هذا السلوك خطورة اذا ما انسجم مع سلوك مجموعة من الاحداث الجانحين الذي يجد في صحبتهم خير مجال للتنقل والعبث والمخاطرة والانغماس في احلام اليقظة بما ينسجم والخصائص الجسمية والنفسية والعقلية للاحداث في هذه المرحلة « ... يضاف الى ذلك الميل الى التنقل والمخاطرة عندهم يعززه حب التقليد وهو غريزة طبيعية فيهم فينشأ بينهم نوع من التضامن يضاعف اعوانهم وقد يصل بهم الى تكوين جماعة اجرامية تهدف الى المجازفة للكشف عن كل مجهول ومجابهة كل خطر ؛ فلكي لا يتحول هذا النشاط الى

الصغار ، وذلك بتقويم الاسرة وتأهيل القادرين من افرادها لاقيام بعمل مثمر يعاون الاسرة في مواجهة النفقات المتزايدة التي تواجهها •

٢ ــ تقوية الاسرة ومساندة مجهوداتها واحلال عادات طيبة محل العادات المستهجنة في تربية الاطفال عن طريق التوجيهات والارشادات المباشرة للاباء والامهات اضافة الى التوجيهات المتعلقة بالاساليب المثلى لتربية اطفالهم وتقويم سلوكهم •

٣ ــ ان تعمل الاسرة على تكوين العادات الصالحة عند الاطفال في مراحل النمو المختلفة ، فعلى مدى ماتنمي فيهم عادات طيبة ، يشبون وقد اصبحوا مواطنين صالحين خالين من مظاهر سوء التوافق الشخصي والاجتماعي والذي قد يدفعهم الى مواقف سلوكية منحرفة بعد ذلك •

٤ ــ ان تهتم الاسرة بضرورة خلق مثل جديدة ممكنة في الحياة المبكرة لدى الطفل وكذلك خلال سنوات النمو التالية وان هذه الاشكال او النماذج لا يجب ان تكون مجرد صور خيالية يطلب من الطفل الاحتذاء بها ولكن يجب ان تكون نماذج قابلة للتطبيق في الحياة العملية مختارة من بيئته ومجتمعه تساعده على تكوين شخصيته بصورة متوافقة •

٥ ــ ان تؤكد الاسرة على دورها الاساسي في التنشئة الاجتماعية في تربية الاطفال وحسن رعايتهم وسد مطاليبهم واشباع حاجاتهم المادية والروحية والعاطفية والنفسية وعليها يقع قسط كبير من التربية الخلقية والوجدانية والدينية في جميع مراحل الطفولة بل وفي المراحل التالية كذلك •

ب ــ المدرسة :

ـ تعتبر المدرسة احدى المؤسسات الاجتماعية التربوية الثانية بعد الاسرة والمكملة لوظائفها اضافة الى الدور الخطير الذي تقوم به من حيث تربية واعداد الفرد للحياة الخارجية ونظرا لما تبين من ان التسرب الكبير الذي يتم بين التلاميذ انما يتم بصورة اوضح في المرحلة الاولى وفي المرحلة الاعدادية وهما من اخطر مراحل الجذب نحو الانحراف •

ومن هذا المنطلق فأن المدرسة بامكانها ان تساهم من جانبها في الحد من مشكلة الجنوح من خلال ما يلي : ــ

١ ـ تهيئة الجو الذي ينمي مظاهر السلوك الاجتماعي بشتى صوره ، اي ان تكون مجالا للنمو الاجتماعي والاخلاقي من خلال تهيئة الصور السليمة للمنافسة ، مع التأكيد على البرامج التعليمية القابلة لتطبيق والافادة منها في الحياة دون ان تتحول الى غاية في ذاتها •

٢ ـ تهيئة المواقف التي يستطيع فيها الحدث ان يفهم امكانياته وخبراته ودرجة توافقه الانفعالي والاجتماعي تخلصا من خلق بعض المواقف التي قد تكون سببا في احداث اي شكل من اشكال الصراع النفسي المؤدي الى الانحراف •

٣ ـ تهيئة اوجه النشاطات المختلفة التي تشبع الميول والاتجاهات المتباينة وتدرب الاطفال على الاستقلال الذاتي ومواجهة مواقف المنافسة في محيط المدرسة من جهة وفي المجتمع الخارجي من جهة اخرى ، ويمكن اعتبار اوجه هذا النشاط المدرسي الذي يتيح فرص الاشباع عن الدوافع والتنفيس عن الطاقات الكامنة عاملا وقائيا بالغ الاهمية •

٤ ـ تنمية علاقات ودية طيبة بين الطفل ومدرسته لما لذلك من اثر عميق في وقاية الناشيء الصغير من الانطواء تحت لواء العصابات والجماعات المنحرفة التي قد يجد لديها الاشباع النفسي الذي يفتقده وكلما تهيأت الفرصة للتلميذ لكي يتفهم اهداف الثواب والعقاب في النظام المدرسي وكلما قام هذا النظام على فلسفة تربوية ثابتة كانت المدرسة مجتمعا يهيء فرص النمو لافرادها •

٥ ـ ان تعمل المدرسة على تحقيق التعاون بينها وبين الاسرة بطريقة مرضية وهادفة وبخاصة في القيام باحداث التكامل في عملية التنشئة الاجتماعية ووسائلها في ذلك كثيرة • متعددة ومن اهمها ما يمكن ان تلعبه مجالس الاباء والمعلمين اذا ما وظفت بالفعل مشاكل الطلبة بغية التعرف عليها وتشخيصها من كلا الجانبين والتعاون في حلها وبالاساليب العلمية والتربوية السليمة •

٦ ـ ان تحقق المدرسة للتلاميذ عن طريق مناهجها وبرامجها التدريبية تلك المهارات التي تتفق مع قدراتهم وامكانياتهم ومستوياتهم التحصيلية حتى يكون هناك اتساق بين مفهوم التلميذ عن ذاته وبين

قدراته الحقيقية ... (ان الاطفال في حاجة ماسة الى ان يتعلموا ان يصنعوا لانفسهم اهدافا تتفق مع قدراتهم وتكون مدركة بشكل واقعي حتى يمكن تحقيقها كما انهم بحاجة الى تنمية مفاهيمهم عن الذات وبصورة ايجابية وصحيحة في نفس الوقت » .(٨)

من هذا المنطلق يمكن القول بان مفهوم الذات عند الطفل يحقق دورا كبيرا في التنبؤ بالانحراف في السن من ١٢ـ١٥ سنة وان المجهود الذي يبذل لتهيئة الطفل لكي يتقبل المعايير والقيم والاهداف والمستويات يمكن ان يبعده عن الانحراف .

اركان الوقاية من الجنوح :

لقد تطرقنا سابقا الى مفهوم الوقاية باعتبارها احدى الوسائل المهمة والفعالة في التصدي لمشكلة انحراف الاحداث ، وعلى الرغم من كل ما تقدم فاننا نؤكد مرة ثانية بان تلك المقترحات والاتجاهات والنظريات والتوصيات سواء اصدرت من مؤتمرات او دراسات ميدانية او نظرية ، تبقى اتجاهات عامة تترجم الى نصوص قانونية من خلالها يمكن المساهمة الفعلية لمعالجة ظاهرة الجنوح ولكي تأخذ الوقاية دورها الفعال في هذا الخصوص لابد ان تتوفر لها مجموعة من الاركان يعتمد عليها المشرع عند تشريعه لقانون رعاية الاحداث الجانحين ، ومن هذه الاركان : ـ

أ ـ اعتماد مبدأ الاكتشاف المبكر للظواهر والحالات السلوكية المشكلة التي تظهر على الحدث سواء داخل الاسرة او المدرسة او المجتمع ،

أ ـ الاكتشاف المبكر :

يعتبر هذا الركن من الاركان المهمة والتي يمكن ان يلعب الدور الفعال في معالجة الجنوح باعتباره العنصر الاساس في عملية الوقاية فهو عماد الرعاية الاجتماعية الواقية من الجنوح ، حيث يمكن بواسطته فرز الحالات المعرضة للجنوح بصورة مبكرة قبل استفحالها وتعقدها حيث ان هذا

الركن يسهل من عملية تشخيص كافة الحالات الفردية منها والجماعية المعرضة للجنوح بغية دراستها من كافة جوانبها وصولا الى افضل السبل لمعالجتها وتقويمها ووقاية من اتسم سلوكه بها من الجنوح والانحراف •

لايمكن ان يتحقق هذا الركن الا من خلال توسيع اطار المساهمة فيه من قبل كافة المؤسسات والمنظمات الجماهيرية والمهنية والتعليمية ولكي تستطيع هذه المؤسسات والمنظمات من تأدية دورها لابد من توفير بعض المتطلبات ومنها :-

١ - تعيين باحث اجتماعي او مرشد نفسي لرصد وتشخيص الحالات السلوكية المشكلة للاحداث في كافة المؤسسات التي تكون نسبة الاحداث فيها عالية كالمدارس والمراكز الشبابية وفق أسس علمية منهجية وبتخطيط مبرمج وفق سقف زمني ، وان تعذر تهيئة العدد المطلوب منهم فلا ضير من البدء ببعض المؤسسات على شكل تجريبي الى ان تعم هذه الفكرة بعد توفر الكادر المتخصص لهذه المهمة •

٢ - انشاء مراكز للخدمات الاجتماعية النفسية والفعلية تكون مهمتها معالجة كافة الظواهر السلوكية المشكلة والمحالة اليها من قبل الباحث الاجتماعي والمرشد النفسي والتي يصعب حلها من قبلها خاصة تلك الحالات التي تنذر بالخطر قبل تعقدها ووصولها الى الحالة التي يصبح علاجها امرا ليس باليسير •

٣ - توسيع اطار مساهمة ومسؤولية المنظمات الجماهيرية والمهنية كأدارات المدارس والمنظمات الشبابية والنسائية عن طريق الزامها بنصوص قانونية في مجال الرعاية الاجتماعية الواقية من الجنوح بعد توفير كل ماتتطلبه هذه المؤسسات والمنظمات من كوادر قادرة على القيام بهذه المهمة •

وبهذا الخصوص يمكن ان يساهم الاتحاد العام لنساء العراق في الرعاية الاجتماعية الواقية من الجنوح سواء عن طريق انشاء مراكز استشارية اسرية تكون مهمتها ارشاد الاسر بشأن العلاقات الزوجية وتربية الاطفال وحل مشاكلهم كما يمكن ان تساعد هذه المراكز ادارات المدارس في رصد الاحداث المشكلين ومعالجتهم كما يمكنها ان تتعاون مع شرطة

الاحداث في رصد الاحداث المشكلين او المعرضين للجنوح والاخبار عنهم وعن اولياء امورهم خاصة الذين يسيئون معاملة اولادهم مما يساعد في دفعهم الى الانحراف .

كما يمكن للاتحاد العام لشباب العراق الذي يضم بين صفوفه ذلك العدد الكبير من الاحداث وبمختلف اعمارهم ان يساهم المساهمة الجادة في عملية الوقاية من الانحراف من خلال مايمده من برامج وهذا ما اكدت عليه الورقة المعدة من قبل الاتحاد العام لشباب العراق «ان مكافحة الجريمة هي جزء من التوجه الكامل لمكافحة الامراض الاجتماعية وان تنظيم الشباب فكرا وثقافة ومهارة وعلما وتوجيهه توجيها سليما للتعرف على المجتمع — ايجابياته وسلبياته — ووضعه في الطريق الذي يستطيع ان يقدم خدماته لتطوير المجتمع ويسهم بشكل مباشر او غير مباشر في درء الاخطار الاجتماعة ، ان مثل هذا التنظيم الشبابي يكون سببا من اسباب مكافحة الجريمة بشكل غير مباشر ومعالجة الامراض الاجتماعية بشكل مباشر ان مكافحة الامراض الاجتاعية ومنها الجريمة لاتأتي عن طريق المعالجة فحسب بل ان (الوقاية من العلاج) والوقاية لاتتم الا بوضع الاسس الصحيحة كتنظيم طاقات افراد المجتمع ومنهم الشباب ، وبذلك فان التنظيم الشبابي يمتص جزءا كبيرا من الطاقة الاجتماعية المهدرة ويحولها بتوجيهه وبممارساته وانشطته نحو تطوير المجتمع وتحصينه ازاء الاخطار التي تجابهه داخليا وخارجيا »[٩] .

من هذا المنطلق فأننا نؤكد ان الاتحاد العام لشباب العراق ومن خلال مايملكه من قدرات سواء مايتعلق منها بالبرامج الثقافية والتدريبية والاعدادية سيكون له الدور الرائد في عملية الوقاية من الجنوح وباعتبار ان هذه البرامج وسيلة من الوسائل الجادة والمهمة في عملية التنشئة الاجتماعية السليمة وخير طريقة لقضاء اوقات الفراغ وتصريف الطاقة الفائضة بما ينمي شخصية الحدث ويعمل على بنائها بناء سليما خاليا من كل مايؤدي الى الانحراف وتبرز اهمية هذا الدور في هذه المرحلة باعتبار « ان الشباب اكثر الفئات التي تقبل على الاتجاهات الجديدة لان هذا التجديد يعني الحركة والحيوية والفاعلية ، وهي كلها من صفات مرحلة

العمر التي تعرف بمرحلة الشباب ، ويتحقق ذلك بواسطة القدرة والممارسة الجماعية عن طريق الوعظ والارشاد بل عن طريق تقديم نماذج ايجابية من خلال النشاطات المختلفة داخل المراكز الشبابية»[١٠] •

كما يمكن للاتحاد الوطني لطلبة العراق باعتباره احد المنظمات الجماهيرية الثورية بجانب المنظمات الاخرى ، ان يلعب الدور الوقائي المساند للمهام التي تقوم بها بقية المنظمات الاخرى من خلال مايملكه من قدرات فائقة ووسائل علمية اثبتت نجاحها على كافة الاصعدة المحلية والقومية والعالمية في حل المشاكل الطلابية ، وبناء جيل طلابي ثوري قادر ان يأخذ دوره في عملية البناء والعطاء ، حيث يستطيع الاتحاد عن طريق لجانه الاتحادية ان يأخذ بايدي الاحداث والشباب والذين يعانون من بعض المشاكل السلوكية ويعمل على حلها سواء عن طريق الاعانات المالية او الارشاد والتوجيه وبالتعاون مع ادارات المدارس واولياء امورهم •

ب ــ الرعاية اللاحقة :ــ

يقصد بهذا الركن رعاية المطاق سراحهم او الذين لازالوا تحت الافراج الشرطي بما يضمن عودتهم منصلحين الى المجتمع ، فعن طريقه يمكن رعاية الحدث بعد انتهاء مدة ايداعه في المؤسسات الاصلاحية بما يضمن اندماجه في المجتمع وضمان عدم عودته الى الجنوح مرة ثانية • « ان الرعاية اللاحقة تتمة طبيعية لجهود التأهيل والتهذيب التي تبذل اثناء التنفيذ العقابي السالب للحرية ولهذه الرعاية دوران :ــ

الاول تكميلي لعملية التهذيب والتأهيل •

والثاني ، يتمثل في صيانة الجهود كي لاتفسدها العوامل الاجتماعية التي قد يتعرض لها الشخص الذي اخلي سبيله بعد الافراج مباشرة وتكون اهمية هذا الركن في ان المفرج عنه يتعرض لظروف قاسية بعد الافراج منه يمكن تسميتها (بأزمة الافراج) ويفرض هذا الوضع على الجهات المعنية ان تسرع لمساعدة ومعونة هؤلاء الاشخاص تجنبا لما قد يترتب على هدم تدخل الجهات المسؤولة من امكانية عودة المفرج عنه الى الجريمة وتعريض المجتمع للخطر ، ومن الواضح ان المفرج عنه يواجه صعوبات كبيرة في التكيف مع الظروف الجديدة في المجتمع الذي عاد اليه بعد قضاء

وقت قد يكون طويلا في المؤسسات العقابية ، وقد تتعلق هذه الصعوبات بعدم القدرة على ايجاد عمل وعدم توفر المال الكافي له للقيام بنشاط معين لكسب الرزق وعدم تقبل المجتمع له • ويمكن ايجاز اهداف الرعاية اللاحقة بانها عون على تخطي ازمة الافراج او مايترتب عليها من تجنب احتمال العودة الى الجريمة»[١١] •

وعلى ضوء ماتقدم فان للرعاية اللاحقة صورتان :ـ

١ ـ تزويد المفرج منه بعناصر بناء مركزه الاجتماعي التي يعجز من توفيرها بنفسه •

٢ ـ ازالة العقبات التي تعترض جهوده في هذا السبيل •

هاتان الصورتان ترميان ، الى اعادة تكيف المحكوم عليهم بعد الافراج عنهم مع المجتمع وتهيئة الظروف الاجتماعية لهم لتحقيق هذا الغرض • «ففي بعض البلدان توجد منازل أختيارية للمفرج عنهم تساعدهم على الاندماج مع الحياة وذلك بتقديم المنام والمأكل لغاية ايجاد عمل لهم ويترك الخيار لهم اذا تركوا هذه المنازل . وتنتشر في امريكا والدول الاسكندنافية وبريطانيا وغيرها مع دول العالم وهي مايسمى نصف الطريق الى البيت وفي بلدان اخرى يرسل المفرج عنهم الى معسكرات للعمل باجور مادية لجمع المال لاي مشروع يستطيعون ادارته بانفسهم»[١٢] •

« ان الانجاه الحديث يميل الى وجوب ان يعهد الى السلطات العامة للاشراف على الركن من اركان الوقاية . باعتباره جزء من السياسة العقابية وان هذا الاختصاص يعتبر وظيفة من وظائف الدولة لان هذا العمل يتطلب اموالا لاتستطيع الموارد الفردية توفيرها ثم ان الرعاية اللاحقة تفترض ان تمارس السلطة نوعا من التوجيه والاشراف على المفرج عنهم وهو ليس من السهل ان يعهد به الى هيئات خاصة »[١٣]

لذا فان اعطاء اهمية خاصة لهذا الركن باعتباره حلقة مكملة لعملية الوقاية من الجنوح أصبح يستحق وقفة التأمل ؛ حيث اننا قد اوضحنا سالفا بان معظم الدول التي اتجهت في تعاملها مع الحدث الجانح نحو نظرية الاصلاح والتأهيل قد اخذت بهذا الركن واعطته من الاولوية في مكان من حيث التطبيق لما يمتلكه من فاعلية واثر في عملية العلاج والوقاية•

لذا نجد من الضروري التأكيد على انشاء دائرة للرعاية اللاحقة حيث عن طريقها يمكن تحقيق كثير من الاهداف التي سيكون لها دورا كبيرا في حماية الاحداث من العودة الى الانحراف وذلك عن طريق ماسيحصل عليه الحدث من فائدة وعلى سبيل المثال :ـ

١ ـ اسكان واطعام الاحداث المطلق سراحهم ولمدد محددة خاصة الذين ليس لديهم من يلتحقون به وقت اطلاق سراحهم تجنبا من عودتهم مرة ثانية الى الشوارع والازقة عندما يكونوا عرضة للعودة الى الجنوح مرة ثانية •

٢ ـ مساعدة الاحداث قبل اطلاق سراحهم عن طريق تزويدهم بالوثائق اللازمة والتي تقتضي الحصول على عمل لهم •

٣ ـ تزويد الاحداث بالارشادات اللازمة لمواجهة متطلبات الحياة الجديدة ومساعدتهم في اتخاذ القرارات الصحيحة •

٤ ـ مد الاحداث المطلق سراحهم بمساعدة مالية يستطيعون بها مواجهة الحياة الجديدة على ان يستقطع هذا المبلغ بعد حصولهم على عمل مثمر •

٥ ـ الاتصال بذوي الاحداث قبل فترة زمنية معينة ليكونوا على بينة بالفترة التي سيطلق فيها سراح ابنائهم ليكونوا على استعداد لاستقبالهم •

٦ ـ توسيع العلاقات مع المنظمات الجماهيرية والجمعيات الخيرية وصولا الى تحسين ظروف المطلق سراحهم ونشر الفكر الاصلاحي بما يضمن تقبلا اكثر من قبل المجتمع بفكرة الاصلاح •

من هذا يتبين لنا بأن هناك تلازم وترابط تام بين هذين الركنين ولايمكن ان نفصل احدهما عن الاخر ، حيث كل منهما مكملا للثاني :ـ

جـ ـ العلاج والاصلاح والتأهيل والتدريب :

حاولنا ان نجمع في الركن الثالث والاخير من اركان الوقاية من الجنوح اهمية الدور الذي يمكن ان تلعبه المؤسسات الاصلاحيه والعلاجية والتدريبية والتأهيلية في عملية اعداد وتأهيل واصلاح الاحداث الجانحين من خلال البرامج والخطط المعدة في هذه المؤسسات لهذا الغرض •

لكننا نجد ان البحث في هذا الميدان يتطلب من الباحث ان يسير جنبا الى جنب مع كافة الاجراءات التي تسير عليها وبموجبها المؤسسات الاصلاحية منذ دخول الحدث الى هذه المؤسسات حتى ساعة اخلاء سبيله واعادته الى الهيئة الاجتماعية حرا طليقا ، هذا مايشكل صعوبة على اي باحث مهما امتلك من قدرة وقابلية في الكتابة ، سيما اذا قررنا بان عملية اصلاح او تأهيل الحدث عملية مستمرة تتغير باستمرار تبعا للتطورات المتعلقة بالموقف وماينتج عن سير العملية بأجمعها من مشكلات تطبيقية ميدانية لكننا مع ذلك نجد انه بات من الضروري توفير المستلزمات التالية والتي لابد من توفرها في البرنامج الاصلاحي والتأهيلي وهي :ـ

١ ـ توفير المؤسسات الاصلاحية مع تزويدها بكافة العناصر اللازمة للقيام بعملية العلاج والاصلاح حيث ان توفر هذه العناصر سيعطل هذه المؤسسات من عملها الاصلاحي والعلاجي •

٢ ـ توفر الاخصائيين والاداريين •

٣ ـ اعداد المناهج والبرامج الاصلاحية والتدريبية والاعدادية والتثقيفية وتنبثق الضرورة لتوفير هذه المناهج باعتبار ان هذه المؤسسات غايتها علاج واصلاح وتأهيل الحدث الجانح لذا فمن الضروري ان تتوفر في مناهجها وبرامجها التعليمية والتدريبية والتربوية والعلاجية ما يحقق الهدف الاساس الذي وجدت من اجله هذه المؤسسات •

مفهوم الذات وعلاقة ذلك في الوقاية :

تغيرت معاني مفهوم الذات خلال رحلته الطويلة عبر القرون • فقد ناقش هذا المفهوم الفلاسفة في الشرق والغرب وكانت تناقش الذات في بعض الاحيان بمعنى الروح واحيانا اخرى بمعنى الذات واخرى بمعنى الانا ، كان هذا المفهوم ولازال من المفاهيم الذي نشأ في اطار البحث العلمي ونتيجة للدراسات والبحوث التي اهتمت بهذا الموضوع فقد تبين بان الذات تتكون خلال التفاعل المستمر بين الكائن الحي والبيئة التي يعيش فيها الفرد خاصة ذلك الجزء من البيئة الذي يتكون من الاخرين المحيطين بالفرد باعتبارهم مصدرا لاشباع او احباط حاجاته ومصدرا لتقييمه المستمر فمن تقديرات الاخرين للفرد ومن اشباعهم او احباطهم

او من ثوابهم او عقابهم يكون الفرد فكرته او مفهومه عن نفسه او عن ذاته • ويكون هذا المفهوم بشكل ثابت مستقر من مجموعة من الصفات او القيم او الاتجاهات •

لما كان الحدث الجانح هو ذلك الفرد الذي تعرض لمؤثرات بيئة قد ترجع الى اسلوب تربيته او سوء العلاقة بين والديه وقد تكون مؤثرات خارج الاتجاه نحو الذات ونحو الاخرين ، لاتحقق له التوافق مع نفسه او مع المجتمع الذي يعيش فيه فان هذ الظروف او بعضها تتفاعل وتنظم تنظيما ديناميكيا بحيث يترتب على هذا التفاعل اكتساب السلوك الجانح •

ولما كان مفهوم الذات عند الحدث يؤثر تأثيرا ملحوظا في هذا التنظيم وفي اساليب توافقه مع مخاوفه وصراعاته لذلك كان لابد من دراسة مفهوم الذات عند الحدث الجانح حتى نستطيع ان نفهم سلوكه ومايدور في نفسه من صراعات ومخاوف تدفع به الى نوع او اخر من السلوك الجانح وبتغير مفهوم الذات وتعديله يمكن لنا بالتالي تغير السلوك وتعديله لدى هذه الفئة من افراد المجتمع •

من هذا المنطلق تأتي اهمية الدور الذي يمكن ان تلعبه المؤسسات الاصلاحية والعلاجية في عملية تغير سلوك الحدث الجانح خاصة اذا ما اخذت بنظر الاعتبار ان الاساس الاول في علاج الانحراف والتصدي لظاهرة الجنوح تأتي عن طريق الجهود التي ستبذل في المؤسسات الاصلاحية ومدى نجاح البرامج الاصلاحية(١٤) والعلاجية والثقافية في تعديل فكرة الجانح من ذاته حيث ان بعض الدراسات قد اكدت بوضوح احتمال وقوع الحدث في اخطاء كبيرة ادت به الى امتصاص قيم غيره واعتبارها قيمة له وبتعديل الفكرة عن الذات يصبح من الممكن ادخال خبرات جديدة في التكوين الشخصي للحدث الجانح مع التأكيد على السماح لهذه الخبرات بان تدخل ضمن التنظيم الشخصي او تنظيم الذات بطريقة شعورية يزول الشعور بالتناقض والصراع الذي يهدد وحدة الفرد • وبالتالي ينعدم عنده الشعور بالتوتر ويتحقق التوافق وهذا ماكد عليه كثير من العلماء المختصين في هذا المجال •

وتحقيقا لذلك لابد ان يهدف البرنامج الاصلاحي العلاجي في المؤسسات الاصلاحية للاحداث الجانحين الى :ـ

أ ـ محو التعليم السابق المرتبط بالعادات والخبرات غير السوية واساليب السلوك غير الصحيحة وادخال خبرات جديدة في التنظيم الانفعالي للجانح •

ب ـ ان تكون الخبرات عاملا اساسيا في اعادة صياغة فكرة الحدث عن خصائصه الجسيمة وقدراته العقلية واستعداداته المهنية ودوره في الاسرة وفي المجتمع الخارجي لما لذلك من اثر كبير في تكوين صورة جديدة عن الذات •

جـ ـ تكوين عادات سلوكية جديدة تهيء للحدث الجانح التوافق مع ذاته وتحقق له الارتباط السليم بالاخرين سواء داخل الاسرة او خارجها •

بعد هذا العرض السريع لاهم الاركان الاساسية لعملية الوقاية فاننا نجد ان هذه الافكار وهذه الاتجاهات والمقترحات لازالت بحاجة لاعادة النظر في الموضوعات التالية والتي ترتبط بها ارتباطا مباشرا ومن خلالها يمكن الوصول الى تحقيق الاهداف وهي :ـ

أ ـ الاحكام التشريعية للاحداث الجانحين •

ب ـ التدابير الادارية والاجتماعية الرامية لحماية الحدث وتزويد الاحداث بكل مايحتاجون اليه من عون •

اما مايتعلق بالاحكام التشريعية الخاصة بقانون الاحداث الجانحين فاننا نجد ان القانون المعمول به لازال بحاجة الى اجراء تعديل وتغيير بما ينسجم والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي يشهدها عراق الثورة عراق البعث •

من هذا المنطلق تصبح الحاجة ملحة الى اعادة النظر في القوانين المتعلقة بالاحداث الجانحين والعمل على تعديلها او تبديل البعض منها او استحداث بعض القوانين بما يتلائم ومتطلبات بناء المجتمع الجديد ووفق تصور ثوري تكون حصيلته تحقيق الاهداف القومية التي تسعى الى تحقيقها حركة التنمية القومية • ولما كان القانون نتاج ارادة السلطة الثورية واداة الثرة الرئيسة لتغير المجتمع وبناء الغد المشرق فانه يلعب دورا بالغ

الاهمية في المشاركة الفعلية لاحداث هذا التغير المنشود •

من هذا المنطلق صدر قانون اصلاح النظام القانوني ، فقد اكد هذا القانون بوضوح في احد ابوابه على بعض المبادىء الاساسية والتي اعتبرها المشرع الركائز الاساسية في عملية التصدي لمشكلة جنوح الاحداث وهي :ـ

أ ـ اعتماد مبدأ مشاركة اعضاء هيئة التحكيم من المتخصصين في اصدار الحكم •

ب ـ النظر في المخالفات والجنح التي لاتزيد عقوبتها القصوى عن حد معين من قبل قاضي الاحداث وحده •

جـ ـ ادخال مبدأ انتزاع السلطة من قبل الدولة عندما تقتضي مصلحة الحدث والمجتمع ذلك •

د ـ اقرار مبدأ مسؤولية الوالدين في حالة جنوح اطفالهم بحيث يمكن محاسبتهم عن اعمالهم كأفعال مستقلة •

من كل ماتقدم فاننا نجد ان عملية التصدي لمشكلة جنوح الاحداث وكما اكد عليها قانون اصلاح النظام القانوني لايمكن ان تتحقق الا من خلال ايجاد نظام متكامل لرعاية الاحداث الجانحين يستند الى اسس علمية والى تناسق في العمل يبدأ بالوقاية وينتهي بالرعاية اللاحقة مارا باللقاء الاول بالسلطة العامة •

هذا يعني ان نبدأ بدراسة تعمقية تعتمد الاسلوب الاحصائي للعوامل الدافعة للجنوح كي نتمكن من تشخيصها بغية استئصالها من جذورها وذلك تتم عن طريق دراسة تحليلية للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والصحية والذاتية التي يعيشها الاحداث الجانحون ليبدأ العمل الوقائي بتلافيها عن طريق التخطيط الشامل لحركة التنمية ككل من جهة ومن جهة اخرى فان النظام المتكامل هذا بحاجة الى المؤسسات الخاصة بالاحداث على ان تدار من قبل المتخصصين في شؤون الاحداث لتقوم باستقبال الحدث الجانح منذ اللقاء الاول بالسلطة العامة • اذ ان هذا اللقاء يعتبر في كثير من الاحيان العامل الاساس في نجاح او فشل عملية التحقيق والاصلاح •

حينما نؤمن بالحدث ثروة اجتماعية فهو الثروة الحقيقية للدولة خاصة

في الدول النامية والتي يطلق عليها في كثير من الاحيان بالدول الفتية نسبة الى مايمثله الاحداث فيها مقارنة مع بقية ابنائها لذا فان الاهتمام بهـذه الشريحة الاجتماعية له من الاثر البالغ على حركة التنمية وبناء مستقبل هذه الامة وقد اكد السيد الرئيس القائد صدام حسين في حديثه في الاجتماع الموسع للاتحاد العام لشباب العراق في ١٥-٧-١٩٧٦ «٠٠٠ بعد هـذه المقدمة البسيطة نعود نسأل : لماذا تهتم الدول الفتية التي تضع برنامجـا ثوريا لعملية التغير السريع نحو الافضل بالشباب اهتماما خاصـا ، دون ان تنسى الاهتمامات العامة بالقطاعات والشرائح الاجتماعية الاخرى كما هـو حال حزبنا وكما هو حال الثورة في هذا القطر ؟ لان الشباب يعيش فتـرة اطول بالمقارنة مع غيره من مراحل عمر الانسان الاخرى لذا فان الفترة التي ستوكل الى الشباب في بناء المستقبل المطلوب ضمن عملية التغير الثـوري ستكون فترة اطول ٠٠٠ ولكي يساهم الشباب بشكل فعال في عملية التغـير فهم يحتاجون الى تركيز خاص في الاهتمام والى برنامج خاص بالاضافة الى البرنامج العام لكي يكون دورهم دورا ايجابيا وفعالا في عملية تغـير المجتمع وبذلك تكون صياغتهم صحيحة وعندها نضمن المستقبل ونضمن ان يستخدم عمرهم الطويل بين مرحلة الشباب ومرحلة الانتهاء لخدمـة اهداف الثورة[١٥] .

وبما ان للدولة حقوقا وواجبات على افراد المجتمع فعليها حماية الحدث من السلطة الابوية متى ادت هذه السلطة الى تعريض حيـاة او اخـلاق او تربية او دراسة او صحة الحدث النفسية او الفعلية الى خطر ، لكـي لانخسر هذه الشريحة المهمة .

فللدولة كل الحق ان تحد من السلطة الابوية باعتبار هذا المبدأ مـن المبادىء المهمة لاكمال عملية الوقاية من وقوع الاحداث في الجنوح ففـي حالة ثبوت تحقق الخطر وثبوت تقصير مالك السلطة الابوية على اي شكل من اشكال التقصير والتي يراها قاضي الاحداث تؤدي الى جنوح الحـدث فأنه برأينا ان يختار مايلي :ـ

أ ــ ان يترك الطفل في محيط عائلته بشروط وقيود معينة يلزم بها ولي الحدث ببعض الشروط التي تمكن الحدث من خلالها الوقاية دن تعرضـه الى الجنوح كالزام الولي بارسال الحدث الى مؤسسة صحية او ثقافيـة او تدريبية معينة او بفرض رقابة من قبل باحث اجتماعي يقـوم بزيارات منتظمة للعائلة للاطلاع على تطورات حالة الحدث بغية تذليل الصـعاب التي تعترض حياة العائلة والحدث نفسه •

ب ــ ان يلجأ قاضي الاحداث الى سحب الطفل من محيطه العائلي الذي يعيش فيه في الحالات التي يجد فيها ان بناء الطفل في مثل هذه الاجـواء الاجتماعية خطرا على سلوكه وحياته الاجتماعية وتسليمه الى :ــ

١ ــ احد اقرباء الحدث على ان يكون أهلا لذلك ووفق شروط معينـة يقرها القانون •

٢ ــ معهد تربوي او مهني او صحي ينشأ ويعد لهذا الغرض

٣ ــ مأوى مختص لاستقبال الاحداث في مثل هذه الحالات •

هذا فيما يتعلق بالحد من السلطة الابوية ، كما لابد لنا من التأكيـد على ضرورة اخذ المشرع بالمبدأ الذي اقره قانون اصلاح النظام القانوني والعمل على اقراره والمتعلق بتحميل الوالدين مسؤولية جنوح اطفالهم بحيث يمكن محاسبتهم وفق تلك المواد المقرة بالقانون عن اعمالهم كفعال مستقلة من الجنوح وفي الحالات التي يثبت فيها انهم كانوا السبب في دفع اطفالهم الى الانحراف والجنوح •

ففي حالة ثبوت تقصير الوالدين بحق اطفالهم بحيث ادى هذا التقصير الى انزلاقهم في هوة الجنوح تحققت مسؤوليتهم الجنائية لاخلالهم بقاعدة اساسية عامة تقضي بالتزام الوالدين بتربية وتنشأة اطفالهم النشأة الصحيحة وعلى هذا الاساس يحاسبون جنائيا عن تقصيرهم المؤدي الى جنـوح اطفالهـم •

فالحدث يسأل عن فعله الجانح والوالد يسأل عن فعله الخطأ وهـو اخلاله بالقاعدة الاساسية وتقصيره المتعمد او غير المتعمد المؤدي بمن هو تحت رعايته الى هوة الجنوح فالاب يسأل عن خطئه عن فعله مستقلا عـن فعل الحدث الجانح وبذلك فلا مساس بشخصية العقوبة ولامجال للقـول

ايضا بأن هذا هو وجه من اوجه المسؤولية عن فعل الغير .[١٦]

ولكي يحقق هذا النظام المتكامل اهدافه المتعلقة بحماية الحدث من الجنوح لابد من الاشارة الى ضرورة اتخاذ بعض التدابير الادارية والاجتماعية لحماية الحدث من الجنوح ، وقد تطرقنا الى البعض منها عبر حديثنا عن الرعاية اللاحقة ولابد من التذكير بالبعض الاخر والذي نجده من الاهمية بمكان الى الاستحداث لما له من اثر بالغ في عملية الوقاية والاصلاح الرامية الى التصدي لمشكلة جنوح الاحداث وعلاجها ومنها :ـ

١ ـ البحث في استحداث تشكيل اداري يضم بين اعضائه ممثلين عن كافة الجهات المعنية بشؤون الاحداث ليتولى هذا التشكيل الاداري عملية وضع ومتابعة الخطة العامة والزامه للحد من هذه المشكلة ، حيث سيكون لهذا التشكيل القدرة والقابلية على الزام تلك الجهات باتباع سياسة موحدة ومنظمة وفق ماسيتفق عليه من خلال الخطة الموضوعة من قبلهم .

٢ ـ وضع نظام دقيق يتم بموجبه اختيار واعداد شرطة الاحداث مع التأكيد على العنصر النسائي ومن لهم الرغبة في العمل مع الاحداث ومن يتمتعون بصفات شخصية تؤهلهم لهذا النوع من العمل مع التأكيد على نظام الحوافز لترغيب العنصر النسائي للعمل في هذا المجال .

٣ ـ النظر في توسيع صلاحية شرطة الاحداث وصولا الى استحداث مديرية عامة لشرطة الاحداث ، وذلك لاهمية الدور الوقائي الذي يمكن ان تلعبه هذه المديرية في وقاية الحدث من الانحراف .

٤ ـ اعادة النظر في برامج التدريب المهني التي تقرها المؤسسات الاصلاحية مع ربط هذه البرامج بالاحتياجات المهنية والخامات المتوفرة في القطر واحتياجات التنمية الاقتصادية .

٥ ـ ضرورة تكامل البرامج الاجتماعية والتربوية والثقافية والمهنية في هذه المؤسسات باسلوب يمكن ان يحقق التكامل في شخصية الحدث واعادة تنشئته بصورة طبيعية تكفل المشاركة الايجابية في تنمية المجتمع بعد الخروج من المؤسسة ومزاولة الحياة الطبيعية .

٦ ـ ضرورة وضع نظام ثابت في المؤسسات الاصلاحية يخضع له الحدث منذ دخوله لهذه المؤسسات بحيث يمهد هذا النظام من خلال البرامج

المعدة له الاعداد السليم للحدث الجانح ويعمل على ربط حياته في هـــذه المؤسسات وقابليته فيها من خبرة بالحياة الاجتماعية خارج المؤسسة حتى لايفاجأ الحدث بيوم خروجهمن المؤسسة وهو بعد لم يعد اعدادا ســليما لذلك اليوم مما يعرضه للفشل والانحراف مرة اخرى •

الخاتمـــة :

ان معالجة ظاهرة انحراف الاحداث تتطلب بالضرورة النظر اليهــــا بمستوى من مستويات التحليل العلمي الدقيق وصولا الى معرفة الاسباب التي ادت الى هذه المشكلة السلوكية ٠

الاول فردي وحدة الدراسة فيه تتطاب متابعة الحدث الجانح ومايعتري شخصيته من اضطرابات نفسية وعقلية يكون لها ذلك الاثر الفعال في دفـع الحدث الى الانحراف والجنوح ٠

اما المستوى الثاني : فهو مستوى جماعي وحدة الملاحظة والدراســة فيه هي الجماعة ومايصدر عنها من سلوك جانح وذلك في سبيل التوصـيل الى معرفة العوامل التي ادت الى هذا السلوك الجمعي عن طريق ماينتاب البيئة الاجتماعية من تفكك واضطراب ٠

ومهما كان شكل وحدة الدراسة لهذا السلوك المنحرف فاننا نجـد ان الحديث في الوقاية من الجنوح يدعونا بالضرورة الى التصدي للعامل السببي المؤدي الى الانحراف والجريمة باعتبار هذا العامل من العوامل المهمـة في خلق هذه المشكلة دون اغفال العوامل الاخرى المهيئة والمساعدة للانحراف

ولما كانت الوراثة هي المصدر الاول للعامل السببي بصرف النظر عما يضاف اليها من عوامل اخرى فان الوقاية من العامل السببي معناها الوقاية من الوراثة السيئة كالوقاية من الامراض العقلية والنفسية والامـــراض الجسمانية كالسل الرئوي باعتبار هذه الامراض ذات صلة وثيقة بالجريمة ويمكن ان يلعب التشريع دورا وقائيا في هذا المجال خلال مايسنه ويشرعه المشرع من قوانين ونظم يمكن بواسطتها التغلب على كثير من العوامـــل الســـببية ٠

وقد اختلفت الدول في موقفها من خلال ماأصدرته من احكام بغيـــة الوقاية من الوقوع تحت تأثير هذا العامل السلبي «فقد صدرت في الولايات المتحدة مثلا في سنتي ١٩٠٧ و ١٩٠٩ قوانين توجب تعقيم المجرميـــن والمصابين بامراض عقلية او نقائص نفسية وحذت حذوها بعد ذلك كنـــدا وسويسرا والدانمارك والسويد وفنلندة واخيرا المانيا عام ١٩٣٩»[١٧]

وقد اعتمدت بعض الدول على الفحص الطبي السابق علـــى الزواج باعتباره وسيلة من الوسائل المساهمة للوقاية من الامراض التي يمكن ان تكون سببا في خلق بعض المشاكل التي تؤثر على الحياة الزوجية وتكون عاملا في دفع الفرد للانحراف •

اما الرأي السائد في ايطاليا فهو نشر الوعي بين المواطنين بكافــــة الوسائل الكفيلة بان تبصرهم بدور الوراثة في نقل الامراض حتى لايقـــدم احد منهم على الزواج الا بعد ان يعالج نفسه على الاقل سواء عقليـــا او نفسيا او جسمانيا ويحصل بذلك على مايؤهله لحسن اداء رســـالة الزواج ومايرجع لديه الحصول على ابناء اصحاء •

اما فيما يتعلق بمكافحة العامل المهيء او المساعد للانحراف والتـــي يمكن ان تكون داخلية أو خارجية فان ذلك يتطلب التخطيط العلمي المدروس والمتمكن للتصدي بكل العوامل سواء كان منها مايتعلق بالتعليم او الحالـــة الاقتصادية او الاجتماعية او الحضارية وغيرها من العوامل المساعدة والمهيئة لجنوح الحدث • كما ان هذا التخطيط يحتاج الى تشريع قانوني يمكـــن بواسطته الزام كافة الجهات ذات العلاقة بشؤون الاحداث لتأخذ دورها في عملية الوقاية والعلاج •

الهوامش

(١) سعد المغربي ، انحراف الصغار ، دار المعارف في مصر ، ١٩٦٠ ، ص ٢٣ .
(٢) وزارة العدل ، قانون اصلاح النظام القانوني ، بغداد ١٩٧٧ ، ص ٦٨ – ٦٩ .
(٤) عثمان فراج ، الصحة النفسية للاسرة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
(٥) د. رؤوف عبيد ، علم الاجرام ، ط٣ ، ١٩٧٠ ، القاهرة ، ص ٢٤٦–٢٤٨
(٦) د. احسان محمد الحسن ، دراسة ميدانية في اثر التفكك العائلي في جنوح الاحداث في العراق (غير مطبوع) .
(٧) د. احمد عزت راجح ، اصول علم النفس ، ط٥ ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٥٠٨–٥١٠ .
(٩) راجع ورقة العمل التي اعدها الاتحاد العام لشباب العراق للمؤتمر الحادي عشر للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة والتي اعدته المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي والذي عقد في طنجة للفترة ١٩–٢٣ تشرين الاول ١٩٨١ ، ص ٦ – ٨ .
(١٠) اكرم مصاروة ، دور المؤسسات الشبابية في الوقاية من الجريمة ، طنجة ١٩٨١ ، ص ٩–١٠ .
(١١) د. محمود نجيب حسني ، علم العقاب ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٦٥١–٦٥٣
(١٢) خالد رداينه ، دور العمل الاجتماعي في الوقاية من الجريمة ، طنجة ، ١٩٨١ ، ص ٥٣–٥٤ بحث مقدم الى المؤتمر الحادي عشر للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة .
(١٣) الدكتور سالم الكسواني ، دور المؤسسات الاصلاحية في الوقاية من الجريمة ، طنجة ١٩٨١ ، ص ٤٧ ، بحث مقدم الى المؤتمر الحادي عشر للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة .
(١٥) الرئيس القائد صدام حسين ، نكسب الشباب لنضمن المستقبل ، بغداد ١٩٧٧ ، ص ٥ – ٦ .
(١٦) انظر الدكتورة واثبة السعدي ، مناقشة ورقة عمل اصلاح النظام القانوني في القطر ، او ورقة عمل النظام الجزائي للاحداث ، مجلة العلوم القانونية والسياسية ، بغداد ١٩٧٨ .
(١٧) د. رمسيس بهنام ، الاجرام والعقاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ٢٤٠ .

المصادر العربيــة

١ ـ بهنام ، رمسيس : الاجرام والعقاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ .
٢ ـ بهنام ، رمسيس : علم الاجرام ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ .
٣ ـ حسني ، محمد نجيب (الدكتور) : علم العقاب ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
٤ ـ الحسن ، احسان محمد (الدكتور) : اثر تفكك العائلة في جنــوح الاحداث ، بحث مقدم الى الحلقة الدراسية الخاصة بمعالجة ظاهــرة انحراف الاحداث ، مديرية الشرطة العامة ، بغداد ، ٧ـ١٩/١١/١٩٨١
٥ ـ خيرالدين ، حسن محمــد (الدكتور) : مدخل العلوم السـلوكية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
٦ ـ راجح ، احمد عزت (الدكتور) : اصول علم النفس ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
٧ ـ رداينه ، خالد (الدكتور) : دور العمــل الاجتماعي في الوقــاية من الجريمة ، بحث مقدم الى المؤتمر الحادي عشر للدفاع الاجتماعي ضـد الجريمة ، طنجة ، ١٩٨١ .
٨ ـ السعدي ، واثبة (الدكتورة) : مجلة العلوم القانونيــة والسياسية ، العدد الاول والثاني ، بغداد ، ١٩٧٨ .
٩ ـ صدام حسين (رئيس الجمهورية العراقية) : نكسب الشباب لنضـمن المستقبل ، بغداد ، ١٩٧٦ .
١٠ ـ العوجي ، مصطفى (الدكتور) : التصدي للجريمة ، بيروت ، ١٩٨٠ .
١١ ـ العوجي ، مصطفى (الدكتور) : الجريمة والمجرم ، بيروت ، ١٩٨٠ .
١٢ ـ عبدالستار ، فوزية (الدكتورة) : علــم الاجرام وعلــم العقاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
١٣ ـ عبيد ، رؤوف (الدكتور) : مبادئ علم الاجرام ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
١٤ ـ عريم ، عبدالجبار : العقوبة والمجرم ، بغداد ، ١٩٥٠ .
١٥ ـ فراج ، عثمان (الدكتورة) : الصحة النفسية للاسرة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
١٦ ـ المنظمة الدولية للدفاع الاجتماعي ، دور الجمهور في منــع الجريمة ، التقرير النهائي للحلقة الدراسية حول دور الجمهور في منع الجريمــة والوقاية منها ، ١٩٧١ .
١٧ ـ الكسواني ، سالم : دور المؤسسات الاصلاحية في الوقاية من الجريمة ، طنجة ، ١٩٨١ ، المؤتمر الحادي عشر للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة .
١٨ ـ مصاروة ، اكرم : دور المؤسسات الشــبابية في الوقاية من الجريمة ، بحث مقدم للمؤتمر الحادي عشر للوقاية من الجريمة ، طنجة ، ١٩٨١ .
١٩ ـ يونس ، انتصار (الدكتور) : السلوك الانساني ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
٢٠ ـ وزارة الشباب في العراق ، ورقة العمل المعــدة للمؤتمر الحادي عشر للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة ، طنجة ، ١٩٨١ .
٢١ ـ وزارة العدل ، قانون اصلاح النظام القانوني ، بغداد ، ١٩٧٧ .

حول مصرع الملك غازي

د. رجـاء حسني حسين الخطاب
قسم التاريخ ـ كلية الاداب ـ جامعة بغـداد

المقدمـــة :

يستأثر موضوع الملك غازي باهتمام المؤرخين . لاسيما ان حياته انتهت بشكل غامض ، وعند البعض في شكل مؤامرة وقد حظي الموضوع باهتمام المؤرخين(١) . وقد كان على صلة ببحوثي في تاريخ العـــراق الحديث ، وجلب انتباهي موضوع وفاته حيث بدأت بتجميع مايتوفر في الاطلاع عليه من المعلومات والوثائق التي رأيت ان اضعها أمام القاريء بهد فالاسهام في تسليط مزيد من الضوء على حياة الملك غازي ونهايتها . يحيط بشخصية الملك غازي الغموض فهو الابن الوحيد للملك فيصل الاول. ولد في مكة عام ١٩١١ جاء الى بغداد في عام ١٩٢٣ مع والدته وشقيقاته. وقد تثقف على يد احدى المربيات الانكليزيات . سافر الى لندن في ٢٢ اذار عام ١٩٢٦ ودرس في هارو حيث ابدى قليلا من التقدم بسبب قابلياته المحدودة ، كما تشير المعلومات البريطانية وعدم اعداده بالمستوى المطلوب في صغره ، وعند رجوعه الى العراق درس في الكلية العسكرية وتعلم ركوب الخيل بمهارة لكنه كان طالبا ضعيفا في العلوم العسكرية . وقد تـــرك

الكلية العسكرية مبكرا في عام ١٩٣٣ وأصبح ولي عهد لوالده الملك فيصل الاول وقد عمل كنائب للملك على العرش خلال غياب الاخير عن العراق في صيف ١٩٣٣ • وبعد وفاة والده في ٨ أيلول ١٩٣٣ جاء الى العرش ، وخطب عالية ابنة عمه علي الملك السابق للحجاز وكان على غازي ان يتحمل مسؤوليات كثيرة مع العلم انه كان قليل الخبرة في ذلك[٢] •

أما الذين عاصروه فقد اشاروا الى معلومات تختلف عما أوردته المصادر البريطانية فيذكر العقيد الطيار حفظي عزيز الطيار الخاص للملك غازي بأن من أهم هواياته هي :

١ ــ قيــادة الطيارات
٢ ــ يمتاز بفروسية ممتازة
٣ ــ يمتاز بقابلية جيدة في رماية البندقية
٤ ــ له مهارة ممتازة في قيادة السيارات[٣] •

أما صلاح الدين الصباغ فيذكر «انه التقى بالامير غازي سنة ١٩٢٨ في لندن وبعدها عاد ودخل الكلية العسكرية واشترك في معرض الخيل وتسلم من ابيه فيصل الاول الجائزة الاولى في طفر الموانع»[٤] • أما عن دوره في زمن والده الملك فيصل فيقول «ان غازي أصبح وكيل أبيه الغائب في أوربا فتحدى الانكليز وابدى لهم عزة نفسه وأنفته امام ثورة الاثوريين»[٥] • كما يذكر طه الهاشمي «في ٨ أيلول ١٩٣٣ اعتلى غازي العرش في ظروف مساعدة له وكان قويا في النيابة والاهلون امينون»[٦] •

يظهر من روايات المصادر البريطانية وروايات الذين عاصروه تناقضات واضحة في تقييم الملك غازي ، ففي حين نحت الاولى باتجاه تقييمه علميا متناسية مايتطلبه اعداد ملك يحكم ، كشفت الروايات المعاصرة له قدرات متعددة جعلته شخصية محبوبة وقادرة على الحكم خاصة انه قضى على تمرد الاثوريين ولما تسنم العرش أظهر ميولا في ممارسة هوايات تعبر عن رجولة مبكرة ، وكشف عن خبرة في السياسة تنطلق من حسه الشخصي لظروف العراق وما يجب ان يكون عليه مستقبله •

سوف اركز في هذا البحث على سياسته تجاه كل من :

١ ـ الانكليـز

٢ ـ القضـية الفلسطينية •

٣ ـ الدعوة الى الوحدة العربية •

كما أعرض موقف البريطانيين من سياسة الملك غازي التي ظهرت متناقضة مع المصالح البريطانية والتي بسبب تناقضها هذا استقرت في ذهن الكثيرين ممن عاصروا الفترة على انها احد الاسباب وراء مقتله باعتبارها طرفا مستفيدا من ذلك •

سياسة الملك غازي :

كان غازي الاول يختلف عن والده في امور كثيرة في طبعه وعلاقاته واسلوب حياته ، والاهم من كل ذلك في العديد من وجهات نظره السياسية • ففي الفترة الاخيرة من حكمه بدأ يجاهر الانكليز العداء ويفصح عن مشاعره القومية ، وقد اتخذ له اذاعة في دار استراحته كان يعبر من خلالها عن افكاره التي انصبت على ثلاث مسائل جوهرية :

١ ـ العـداء للانكليـز •

٢ ـ تأجيج المشاعر القومية والدعوة الى الوحدة العربية •

٣ ـ قضـية فلسـطين[٧] •

وكانت المسألة الثانية ، من ابرز مواقفه ، فقد اخذت دعوته للعرب الى النهوض والتماسك سكل تحريض عام اثر في قطرين من أقطار العرب على الاقل هما الكويت وسوريا •

ففي الكويت ظهرت حركة سياسية نشطة ومنظمة تدعو الى الوحدة مع العراق ، حتى ان مظاهرات خرجت تطالب بذلك[٨] • واستجاب المجلس التشريعي لطلبها واتخذ قرارا بهذا الصدد غير ان الانكليز اجبروا حاكم الكويت على حل المجلس التشريعي ومجابهة الحركة بعنف[٩] •

أما في سوريا فقد تأثر الشباب بدعوات غازي فبعثوا له ببرقيات تأييد ووجهوا اليه الوفود «التي بايعته ملكا على سوريا»[١٠] •

ليس واضحا حجم التهديد للمصالح البريطانية الذي كان يترتب على هذه السياسة ولاتتوفر وثائق خاصة يمكن من خلالها تقدير طبيعة مخططات الملك الرامية الى الوحدة ، غير أن انعكاساتها في الكويت وسوريا لها اكثر من دلالة ومغزى واذا كانت علاقات العراق بهذين القطرين شبه طبيعية لاعتبارات عدة فمما لاشك فيه ان ظهور الميل للوحدة مع العراق في هذين القطرين يكتسب أهمية خاصة في ظروف ماقبل الحرب ويوحي بأن توقيته كان ذكيا لان كان من المحتمل ان يحظى باهتمام ودعم دولي طالما ان هناك أطراف متنازعة . كان الملك غازي يستغل كل فرصة للتعبير عن مشاعره فقد اختتم اخر خطاب له كان يلقيه بمناسبة عيد ميلاده بالقول نصا : « قبل ان أنهي كلمتي هذه لا اتمالك من ان اتوجه بفكري الى اخواننا العرب الذي يهمنا أمر مصيرهم راجين من الله ان يحقق في مفتتح هذا العام ماتصبوا اليه نفوسهم من أماني سامية .»[١١]

ومهما كانت دوافع هذه المشاعر وخفاياها الذاتية فانها يقينا ماكانت تتفق في شيء مع الوجود البريطاني ومع المخططات الانكليزية المتشعبة بالنسبة للشرق الاوسط ـ المنطقة الاكثر حساسية في «لعبة الامم» القائمة يومذاك . ومن هنا بالتحديد أصبح غازي موضع رصد خاص ، وفي ذلك تكمن ـ كما نرى ـ جميع دوافع وصية السفير البريطاني لعبدالاله عشية مغادرته لبغداد بمناسبة انتهاء مهامه :

« ان الملك غازي يجب ان يسيطر عليه او يخلع»[١٢] .

ويقينا مرة اخرى ان المفاجئة لم تلعب اي دور في انتقال الوصاية على العرش العراقي الى واحد من عراقيين اثنين[١٣] . كانا يمسكان بطرف من أطراف المفتاح السري . وهنا أيضا لايغير موت الملك غازي صدفة ام غيلة من حقيقة الامر في شيء ، فبعد وقوع الحادث جاء على لسان السفير نفسه قوله «ان من المفرح ان يعين ابن عمه عبدالاله كوصي على العرش»[١٤] .

ولاداعي اصلا للبحث الطويل والتنقيب المضني والمقارنة المنطقية لوضع اليد على الفاعل ، ان وجد ، لان الاهم في الموضوع هو التقييم البريطاني الاخير ومفاده :

» كانت وفاة الملك احد الجوانب المفيدة جدا للمصالح البريطانية» (١٥)
ـ والقول أيضا للسفير العالم بالاسرار نفسه •

اذن هذا ما اراده الانكليز بتوقع منهم او بدونه ، وهذا هو المقياس الاول الذي يجب ان يقاس به سياسة غازي وتوجيهاته الفكرية بغض النظر عن جميع مدركاتها المرئية وغير المرئية •

موقف البريطانيين من سياسة الملك غازي :

تشير الوثائق البريطانية بأن البريطانيين فكروا في الاشخاص الذين يمكن ان يحلوا محل الملك غازي منذ حزيران ١٩٣٦ • وذلك على اثر هروب اخت الملك الاميرة عزة مع شخص يوناني كان يخدم في البلاط وزواجها منه ، حيث اتخذ ياسين الهاشمي من حادثة الهروب هذه سببا لإصدار قانون نظم بموجبه شؤون الاسرة المالكة وأحوالها الشخصية وكان من نتائجه تقييد حرية الملك الشاب والتضييق على تصرفاته الشخصية •

ولقد اشارت احدى الوثائق البريطانية بأنه لاتوجد حاجة للبحث عن البديل من خارج أعضاء الاسرة الهاشمية لان الشعب العراقي لايرضى بأمير اخر كما ان الرأي العام العراقي لم ينضج بدرجة تتقبل تجربة جمهورية •(١٦)

أما الموقف فيما يتعلق بالامراء الهاشميين فقد حددته احدى الوثائق البريطانية الخاصة بهذا الشكل : «ان الملك فيصل والد الملك الحالي كان له شقيقان احدهما علي ملك الحجاز السابق والاخر عبدالله أمير شرق الاردن الحالي واخ غير شقيق هو الامير زيد وقد توفي علي في سنة ١٩٣٥ ويقال ان ولده عبدالاله لطيف وخجول ولايقوم بأي دور في الحياة العامة • ومن بين ابني عبدالله يبدو ان نايف اكثرهما اهلية ولكن عمره واحد وعشرون سنة فقط ولم تتح له لحد الان اية فرصة تبين هل هو من وزن يكفي للتفكير في امره فيما يتعلق بهذه القضية(١٧) •

وقد أكدت الوثيقة نفسها ان الامير زيد كان في رأي الجميع خير

ممثل للمائلة . مما يجعله بالتأكيد البديل المناسب الوحيد للملك غازي • وهو في الاربعين من العمر درس في أوكسفورد وبرز بنجاح في المعارك ضـد الاتراك وقد قام بالنيابة على العرش لفترة قصيرة في سنة ١٩٢٤ خـلال غياب الملك فيصل وهو يشغل منصب وزير العراق المفوض في برلين[١٨]

اما رأي السر آ • كلارك كير فانه كان يميل الى تفضيل عبدالاله ابن الملك علي هذا مع العلم بأن السر آ • كلارك كير لم يسبق له ان قابل الامير زيد والامير نايف نجل الامير عبدالله[١٩] •

ويذكر جيجي وارد بان الملك غازي قد نال تأييدا حماسيا محموما منذ سنة ١٩٣٣ باعتباره شخصية ثورية معادية للاجانب • ويذكر وارد بان هناك بديل في شخص طفل الملك غازي على ان معنى ذلك هو قيام وصاية لمدة طويلة جدا[٢٠]

كما كان من رأي ياسين الهاشمي بأنه سيكون من الصعوبة بمكـان عظيم في العراق تكوين مجلس وصاية وانه حتى فيما لو كان تحقيق ذلـك ممكنا فانه سيكون تجربة محفوفة بالمخاطر الى حد كبير[٢١] • ولكن يذكر جيجي وارد ان وجود الطفل مع ذلك له أهمية من حيث أنه سيزيد مـن تعقيد مشكلة تغيير الملك غازي واحلال أي البدائل المذكورين اعـلاه محله[٢٢] • في حين أضاف جي • سي ستراندل بنيت بأن هناك أسبابا تدعو الى الامل بأن مركز الملك غازي مع شيء من العناية قد يمكن تحسينه تدريجيا وان قضية تنازله لاتبدو آنية[٢٣] • ويتفق ل • أوليفانت مع رأي جي سي ستراندل بنيت • كما ريضيف ر• فانستيارت بأن زيد في الحقيقة هـو أفضل المرشحين[٢٤] •

الظاهر بأن مسألة تنحية الملك غازي عن العرش كانت شائعة ومنتشرة على نطاق واسع بحيث استفاد منها الفريق بكر صدقي لكسب تأييد الشعب عند قيامه بالانقلاب في ٢٩-١٠-١٩٣٦ حيث ذكر في أمر الحركات المرقـم ١٠٠١ «سقطت الوزارة الهاشمية التي كانت تنوي خلع صاحب الجلالة»[٢٥] وبعد انهاء حكومة انقلاب بكر صدقي بقتل قائد الانقلاب من قبل الكتلـة القومية في الجيش[٢٦] • بسبب توجهه الغير الوطني واللاقومي تعـززت مكانة الجيش وخاصة بعد الدور الذي قام به في اقصاء جميل المدفعي وازداد

دوره في السياسة العراقية ، الامر الذي اثار حفيظة بريطانيا لخوفها من تأثير ذلك على مستقبل مصالحها خاصة في حالة قيام الحرب ، ولذلك انصبت السياسة البريطانية خلال هذه الفترة على :

١ ـ ضرورة تحجيم الجيش العراقي ومنع استخدامه في السياسة .

٢ ـ الحيلولة دون تنامي الموقف العراقي من القضية الفلسطينية بشكل مغاير للسياسة البريطانية .[٣٧]

ساعد كلا الامرين على تصاعد أهمية الجيش ومكانته في الحياة السياسية وقد كانت بريطانيا ترقب النشاط السياسي في الجيش وتعتبره نشاطا غير مريح[٢٨] . والظاهر انها كانت تربط بين النشاط السياسي في الجيش وبين الساسة من امثال رشيد عالي الكيلاني وعندما عين الاخير رئيسا للديوان الملكي وسكرتيرا خاصا للملك أعرب السفير البريطاني عن عدم ارتياحه لتطورات الوضع السياسي[٢٩] . وقد كان مصدر تخوف بريطانيا احتمال نجاح رشيد عالي في كسب الملك والتنسيق بينه وبين الجيش[٣٠] .

اقترحت بريطانيا على نوري السعيد ان يلجأ الى كسب البرلمان ومجلس الوزراء للحد من نفوذ الجيش[٣١] . كما شجعت رئيس الوزراء على الحد من نشاط بعض الضباط ولا سيما رئيس اركان الجيش وقائد الفرقة الاولى[٣٢] .

وفي ٥ اذار ١٩٣٩ أعلنت الاحكام العرفية وأعلن عن اكتشاف مؤامرة هدفها قلب نظام الحكم والمجيء بالامير عبدالاله ملكا بدل الملك غازي واعتقل حكمة سليمان من الضباط[٣٣] . وهكذا فان جميع الاحداث تشير الى ان الملك غازي كان يجب ان يزاح بشكل او باخر .

مقتل الملك غازي :

يفسر السفير البريطاني هذا الانعطاف الكبير في الموقف من الملك غازي بأنه قد نجم من وقوع الاخير تحت تأثير رشيد عالي الذي استخدم وظيفته في البلاط وقربه من الملك غازي في اقناعه بضرورة سيطرته على سياسة

الطيارة وارجاعه الحادث الى عبث الملك غازي[٤٧] •

٤ ــ يذكر صلاح‌الدين الصباغ بأن صباح بن نوري السعيد في سنة ١٩٣٧ فاتحهم بخصوص قتل الملك غازي والحاقه ببكر صدقي[٤٨] • الا ان العقيد فهمي سعيد وصلاح‌الدين الصباغ رفضا ذلك ونصحاه بأن لايكـرر ماقال ولايفاتح به احدا ابدا[٤٩] •

٥ ــ يذكر السفير البريطاني بأن الملك غازي بعد استقالة جميـــل المدفعي سنة ١٩٣٨ أرسل في طلب حكمة سليمان ولم تعرض رئاسة الحكومة على نوري السعيد الا بعد ان اعتذر حكمة سليمان عن تشكيل الحكومة[٥٠]

ب ــ عبدالالـــه :

لقد كان الامير عبدالاله من أهم المستفيدين من مقتل الملك غـــازي وذلك لانه كان يطمح في ان يكون ملكا على العراق وربما طموحه هـــذا جاء متأثرا بطموح والده الملك علي الذي كان يطمح في الوصول الى عرش ســـوريا[٥١] •

ولقد عمل عبدالاله للوصول الى هدفه عن طريق تقربه مـــن نوري السعيد وبريطانيا التي أيدت خطط نوري السعيد للتخلص من الملك غازي، لذلك فان تقربه من بريطانيا وتنفيذ مخططاتها للتخلص من الملك غـــازي أعطاه فرصة للوصول الى العرش •

ولقد تمادى الوصي عبدالاله للخضوع الى المطاليب البريطانية في السياسة الداخلية للعراق[٥٢] •

سبيل الاحتفاظ بمنصبه كوصي على العرش العراقي الى الحد الذي جعل بريطانيا تعتقد بأن الوصي من الممكن ان يساعدهم ويسهل تدخلهم فـــي

جـ ــ بريطانيا : سبق الاشارة الى موقفها • هذا مع العلم بأن الوضع الدولي بلغ ذروة تأزمه في عام ١٩٣٩ وكان واضحا ان العالم يتجه الـــى صدام دولي ، وكان هذا التطور في الوضع الدولي يقلق بريطانيا لذلك كانت ترقب تطوراته ونتائجه على أمنها وأمن مصالحها[٥٣] •

الهوامش

(١) كرس الزميل د. لطفي جعفر فرج رسالته لنيل شهادة الدكتوراه لهذا الموضوع بالذات (راجع : الملك غازي ودوره في سياسة العراق في المجالين الداخلي والخارجي ١٩٣٣-١٩٣٩) ، عبدالجبار العمر . حكم الانقلاب امام المجلس العرفي العسكري ، مجلة آفاق عربية ، العدد ١٢ ، اب ١٩٧٦ .

(٣) مقابلة شخصية مع العقيد الطيار حفظي عزيز بتاريخ ١٩٧٨/١٢/٢٠ .

(٤) الصباغ . صلاح الدين . فرسان العروبة في العراق (الشباب العربي - ١٩٥٦) ، ص ١٩ .

(٥) ن.م ، ص ٢٩ .

(٦) الهاشمي ، طه . مذكرات طه الهاشمي بين ١٩١٩-١٩٤٣ تحقيق وتقديم خلدون ساطع الحصري ، جـ١ ، (بيروت - ١٩٦٧) ، ص ١٢٥ .

(٨) كتبت جريدة البلاد البغدادية في عددها الصادر يوم ١٧ شباط ١٩٣٩ « ان شباب الكويت الاحرار يهتفون بحياة جلالة الملك غازي المفدى . مظاهرات قومية رائعة في الكويت ... على اثر ما نشرته الصحف العراقية وما اذاعه راديو قصر الزهور عن الحالة الراهنة في الكويت وما انتهى المذيع من اذاعته حتى هتف الشباب الكويتي بحياة العراق ونادى بالملك غازي ملكا للوحدة العربية المنتظر ... قام الشباب القومي بمظاهرة منادين بحياة العراق وبحياة الجيش الباسل وحملوا الواحا كتب عليها : الكويت جزء من العراق » .

انظر ايضا جريدة البلاد ١٩ و٢٨ شباط ١٩٣٩ .

لقد ذكر السفير البريطاني ان الملك غازي قبل بضعة اشهر من وفاته وصف شيخ الكويت بأنه رجعي الا ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية وقفت الى جانب شيخ الكويت لانها تعتقد بأن شخصية غازي لم تكن ثابتة ولا مستقرة وغير مهيىء ليكون حاكما على العراق والكويت .

(١٠) راجع « البلاد » ، ٤ نيسان ١٩٣٩ .

(١١) « البلاد » ، ٦ نيسان ١٩٣٩ ، وقد نشرت الجريدة الخطاب تحت عنوان « الوصية الخالدة ، ميثاق من الملك للشعب عامة والشباب خاصة ... خطاب الملك غازي في عيد مولده ٢١ آذار ١٩٣٩ » .

(١٢) صفوت ، نجدة فتحي . العــراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب ، (بيروت - ١٩٦٩) ، ص ٢٠٩ .

(١٣) نقصد بالثاني نوري السعيد .

(٢٥) امر الحركات المرقم ١٠٠١ اصدره قائد القوات الوطنية الاصلاحية الفريق بكر صدقي . مخطوط بخط بكر صــــدقي وبتوقيعه وصادر بتاريخ ١٩٣٦/١٠/٢٩ .

(٢٦) وزارة الدفاع ، مديرية ادارة الضباط ، الاضبارة الشخصية ابكـــر صدقي ، رقم الاضبارة ٢١ ، محضر التحقيق للمجلس التحقيقي المعقد للنظر في اغتيال الفريق بكر صدقي بتاريخ ١٩٣٧/٨/١١ والموجه الى مدير ادارة الضباط وبتوقيع رئيس المجلس العرفي العسكري التحقيقي العقيد عبدالغفور المرقم ٣٧٤١ في ١٩٣٨/١١/٤ .

(٣١) الخطاب ، رجاء حسين حسني . تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره السياسي من ١٩٢١ــ١٩٤١ ، (بغداد ــ ١٩٧٩) ، ص ٢٠٧ وسأرمز له الخطاب . رجاء حسين حسني ، تأسيس الجيش العراقي .

(٣٢) ن.م ، ص ٢٠٧ .

(٣٣) الخطاب ، رجـــــاء حسين حسني . تأسيس الجيش العـــــراقي . ص‌ص ٢٠٨ــ٢١٤ .

ملاحظة : يوجد بحث مفصل عن هذه المؤامرة وفقا لما موجود عنهـــا من معلومات وثائقية مستندة على سجلات المجلس العرفي العسكري لمعسكر الرشيد وسجلات قائد القوات العسكرية لمعسكر الرشيد وجواره . ووثائق بريطانية ومصادر اخرى . فلذلك آثرت عدم بحث هذه المؤامرة في هذا البحث تجنبا للتكرار .

، انظر ايضا ، مجلة آفاق عربية ، العدد ١٢ الصـــادر في آب ١٩٧٦ . ص ١١٨ــ١٥٨ عنوان البحث « حكم الانقلاب امام المجلس العسكري » للاستاذ عبدالجبار العمر في المقال تفصيل جيد للمؤامرة ومعلومات وثائقية فيما يخص مقتل الملك غازي حاولت جهد الامكان ان لا اكرر ما موجود في هذا المقـــال وانما ثبت جوانب اخرى واعتمدت على وثائق جديدة لم يتطرق لها البحث .

، انظر ايضا د. لطفي جعفر فرج . الملك غازي ودوره في سياسة العراق في المجالين الداخلي والخارجي ١٩٣٣ــ١٩٣٩ . رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الاداب بجامعة بغداد بتاريخ ١٩٨١ . وهي غير منشورة . لم يتطرق فيها البحث بشيء مهم عن المؤامرة ولكنه تطرق الى موضوع مقتل غازي مستندا على مصادر ووثائق مهمة وبعض الوثائق مكررة في بحث الاستاذ عبدالجبار العمر .

(٣٩) من سجلات القصر الجمهوري ، ديوان مجلس الوزراء ، قرارات مجلس الوزراء ، تسلسل الملف ٣/١ ، قرارات مجلس الوزراء في ٤ نيسان ١٩٣٩ أما نص النعي : « بمزيد الحزن والالم ينعي مجلس الوزراء الى الامة العراقيـة انتقال المغفور له سيد شباب البلاد جلالة الملك غازي الاول الى جوار ربه على اثر اصطدام السيارة التي كان يقودها بنفسه بالعمود الكهربائي الواقع في منحدر قنطرة النهر بالقرب من قصر الحارثية في الساعة ١١/٣٠ من ليلة امس .

اما سبب الوفاة فقد بينها بيان رقم (٢) الموقع من قبل الاطباء وهم كل من (١) الدكتور ابراهام (٢) الدكتور سندرسن (٣) الدكتور صائب شـــوكة (٤) الدكتور صبيح الوهبي (٥) الدكتور جلال حمدي .

فنعي بمزيد الاسف وفاة صاحب الجلالة الملك غازي الاول الساعة الثانية عشر والدقيقة الاربعين في ليلة ٣ــ٤ نيسان ١٩٣٩ متأثرا من كسر شـــديد

للغاية في عظام الجمجمة وتمزق واسع في المخ حصلت هذه الجروح نتيجة اصطدام سيارة صاحب الجلالة عندما كان يقودها بنفسه بعمود كهرباء بالقرب من قصر الزهور الساعة الحادية عشرة ونصف من تلك الليلة ولقد فقد صاحب الجلالة شعوره مباشرة بعد الاصطدام ولم يسترجع شعوره حتى اللحظة الاخيرة ٣ـ٤ نيسان ١٩٣٩ .

انظر جريدة البلاد ، ٤ نيسان ١٩٣٩ ، العدد ١١٦٩ (بيان رسمي رقم ٢) .

(٤٠) من سجلات مديرية الامن العامة ، سجلات القيود السرية ، كتاب صادر من مديرية شرطة لواء بغداد بتوقيع مدير شرطة لواء بغداد وموجه الى قائد القوات العسكرية في معسكر الرشيد برقم ٧٦٣ وبتاريخ ١٢/٤/١٩٣٩ . انظر ايضا من سجلات وزارة الدفاع ، مديرية الدائرة القانونية ، اضبارة قائد القوات العسكرية لمعسكر الرشيد ، رقم الاضبارة ٤/١٠/س الموضوع : التوقيف .

ملاحظة :

ان وكيل رئيس اركان الجيش القى خطاب من محطة الاذاعة بعد ان الف نوري السعيد وزارته بعد وفاة الملك غازي في ٦/٤/١٩٣٩ وهذا مما يدل ان الجيش غير مرتاح من الحكومة الجديدة وجعل الناس يستنجون من فحوى الخطاب بأن الجيش غير مرتاح ولو لم تكن حاجة للخطابة لما اقدم المشار اليه على اذاعتها انظر : من سجلات وزارة الداخلية ، مديرية الشرطة العامة ، شعبة ادارة التحقيقات الجنائية المركزية ، كتاب سري للغاية موجه الى وزارة الداخلية بموضوع تقرير خاص بتاريخ ٢٤/٦/١٩٣٩ وبرقم ١١٧٤ ، الفقرة الثالثة من التقرير الخاص .

ملاحظة :

لقد كان رد البرلمان البريطاني على السؤال الذي طرحه نوبل بيكر بخصوص وجود علاقة بين قتل القنصل البريطاني ووجود عملاء لحكومة اوربية هو كالاتي : « بأنه في الوقت الذي قتل فيه السيد مونك ماسون كان لدى الجنرال نوري شك بأن الاشخاص الذين اوقفوا في بغداد لتوزيعهم المنشورات التي اشير فيها الى ان الانكليز كانوا هم السبب في موت الملك غازي يظهر بانهم ينتمون الى جماعة منظمة ضد البريطانيين . وفي الحقيقة فان التحقيق الذي تم للان مع هؤلاء الاشخاص ومع الذين اوقفوا بسبب القتل لم يظهر ا ارتباط مع عملاء اجانب .

Sir Harry C. Sinderson Basha, Ten Tousand and one Noght, (London — 1973).

يذكر سندرسن (ان كروبا همس للوزير الامريكي بول في معرض حديثهم ما يأتي « سمعت ان سندرسن لم يدعه يعيش » .

(٤٨) من سجلات وزارة الدفاع ، مديرية الدائرة القانونية ، سجلات دائرة رئاسة المجلس العرفي العسكري ، بغداد ، افادة صلاح الدين الصباغ ، ص٥ افاد الشهيد صلاح الدين الصباغ « بأن الملك غازي توفي نتيجة مؤامرة الانكليز ونوري السعيد » .

(٤٩) صلاح الدين الصباغ ، فرسان العروبة ، ص ٩٠ .

(٥١) عبدالاله : هو ابن الملك علي . الابن الاكبر لحسين وهو اول ملك للحجاز والاخ الاكبر للملك فيصل . جاء الى بغداد في حزيران ١٩٢٦ بعد ان اجبره ابن سعود على مغادرة البلاد . وقد عمل كوصي على عرش العراق عدة مرات عند غياب الملك فيصل عن العراق وقد خطبت ابنته عالية من قبل الملك غازي في ايلول ١٩٣٣ ويطمح الملك علي في الوصول الى عرش سوريا وقد التقى لاكثر من مرة مع القائم بالاعمال الفرنسي في بغداد حول تشكيل حكومة ملكية لسوريا وقد ذهب في صيف ١٩٣٣ الى سويسرا مع الملك فيصل في بيرن في وقت وفاته وقد ذهب في الخريف الى اوربا وقضى بضعة اسابيع في باريس حيث التقى مع مسؤولين فرنسيين وتباحث معهم بشأن القضايا السياسية وخاصة حول موضوع تنصيبه ملكا على سوريا وان الملك علي كان يرغب في ان يرسل ابنه عبدالاله البالغ من العمر ثمانية عشر عاما الى اوكسفورد او كمبرج ولكنه يشك في ان ابنه سيكون ذا ثقافة عالية ويحصل على شهادة من احدى الجامعات انظر :

الوثائق العربية غير المنشورة :

١ ـ آمر الحركات المرقم ١٠٠١ اصدره قائد القوات الوطنية الاصلاحية الفريق بكر صدقي ، مخطوط بخط بكر صدقي وبتوقيعه وصادر بتاريخ ١٩٣٦/١٠/٢٩ .

٢ ـ سجلات وزارة الدفاع ، مديرية ادارة الضباط ، الاضبارة الشخصية لبكر صدقي ، رقم الاضبارة ٢١ ، محضر التحقيق للمجلس التحقيقي المنعقد للنظر في اغتيال الفريق بكر صدقي بتاريخ ١٩٣٧/٨/١١ الموجه الى ادارة الضباط وبتوقيع رئيس المجلس التحقيقي العقيد عبدالغفور المرقم ٣٧٤١ في ١٩٣٨/١١/٤ .

٣ ـ سجلات القصر الجمهوري ، ديوان مجلس الوزراء ، قرارات مجلس الوزراء تسلسل الملف ٣/١ ، قرارات مجلس الوزراء في ٤ نيسان ١٩٣٩ .

٤ ـ سجلات مديرية الامن العامة ، سجلات القيود السرية ، كتاب صادر من مديرية شرطة لواء بغداد بتوقيع مدير شرطة لواء بغداد وموجه الى قائد القوات العسكرية في معسكر الرشيد برقم ٧٦٣ وبتاريخ ١٩٣٩/٤/١٢ .

٥ ـ سجلات وزارة الدفاع ، مديرية الدائرة القانونية ، اضبارة قائد القوات العسكرية لمعسكر الرشيد ، رقم الاضبارة ١٠/ع/س ، الموضوع : التوقيف .

٦ ـ سجلات وزارة الداخلية ، مديرية الشرطة العامة ، شعبة ادارة التحقيقات الجنائية المركزية ، كتاب سري للغاية موجه الى وزارة الداخلية بموضوع تقرير خاص . بتاريخ ١٩٣٩/٦/٢٤ وبرقم ١١٧٤ ، الفقرة الثالثة من التقرير الخاص .

٧ ـ سجلات وزارة الدفاع ، مديرية الدائرة القانونية ، سجلات دائرة رئاسة المجلس العرفي العسكري ببغداد ، المحاكمة الغيابية لصلاح الدين الصباغ وجماعته ، رقم الدعوى ٤١/٢٨٣ و ١/٢٨٤ الموحدة آ .

الرسائل العلمية الغير منشورة :

١ ـ القيسي . سامي عبدالحافظ . ياسين الهاشمي ، دوره في السياسة العراقية حتى عام ١٩٣٦ . رسالة ماجستير ، تقدم بها المؤلف سنة ١٩٧٤ الى جامعة بغداد / كلية الاداب .

٢ ـ فرج . لطفي جعفر . الملك غازي ، رسالة دكتوراه مقدمة الى جامعة بغداد / كلية الاداب بتاريخ ١٩٨١ .

المقابلات الشخصية :

١ ـ مقابلة شخصية مع الطيار الخاص للملك غازي العقيد الطيار حفظي عزيز بتاريخ ١٩٧٨/١٢/٢٠ .

الكتـــب :

١ ـ الصباغ ، صلاح الدين . فرسان العروبة في العراق (الشباب العربي ـ ١٩٥٦) .

٢ ـ الهاشمي . طه . مذكرات طه الهاشمي بين ١٩١٩ـ١٩٤٣ تحقيق وتقديم خلدون ساطع الحصري ، الجزء الاول ، (بيروت ـ ١٩٦٧) .

٣ ـ الخطاب . رجاء حسين حسني . تأسيس الجيش العراقي وتطــور دوره السياسي من ١٩٢١ـ١٩٤١ (بغداد ـ ١٩٧٩) .

٤ ـ صفوت . نجدت فتحي ، العراق في مذكرات الدبلوماســيين الاجانب (بغداد ـ ١٩٦٩) .

الكتب الاجنبية :

الجرائد والمجلات :

١ ـ جريدة البلاد : العدد ١١٣٦ . السنة العاشرة . ١٩٣٩ في ١٧ شباط .

٢ ـ جريدة البلاد . العدد ١١٣٧ . ١٤ شباط ١٩٣٩ .

٣ ـ جريدة البلاد : العدد ١١٤٤ . ٢٨ شباط ١٩٣٩ .

: العدد ١١٦٩ ، ٤ نيسان ١٩٣٩ .

. العدد ١١٧١ ، ٦ نيسان ١٩٣٩ .

٤ ـ مجلة آفاق عربية ، العدد ١٢ ، سنة ١٩٧٩ .

ابن الخل الشاعر
٤٨٢ـ٥٥٢هـ

عبداللطيف سلمان الدوري
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

حياتـه :

هو شريف الدين ابو الحسين احمد بن المبارك بن محمد بن عبدالله بن الخل[١] الشاعر ، كان اديبا وفقيها فاضلا وشاعرا ماهرا[٢] ، ولد ببغداد سنة ٤٨٢هـ وتوفي في ذي القعدة من سنة ٥٥٢هـ فجأة[٣] او في السنة التي بعدها[٤] ونقل الى الكوفة ودفن مع اخيه محمد بن المبارك . وبيت الخل اسرة بغدادية معروفة برز منها عدد من العلماء والادباء[٥] وقد اشتهرت بالفقه لمكانة محمد بن المبارك[٦] العلمية في زمانه فقد ورث الاب وابناؤه المكانة العلمية المتميزة من الدين والفقه اضافة الى مواهبه الشعرية «فأبوه المبارك الملقب بأبي البقاء كان متصوفا يتكلم على لسان المتصوفة وينظم باشاراتهم كلمات عجيبة اكثرها غير مفهوم»[٧] واخوه ابو الحسن محمد بن المبارك من كبار فقهاء الشافعية[٨] ، وولده فخرالدين ابو القاسم علي بن احمد [٩] اشتهر ايضا بالشعر وكان أرق شعرا من ابيه[١٠] .

كان ابن الخل على جانب عظيم من الاخلاق الكريمة والفضائل الجمة والظرافة المتناهية والسمعة الطيبة والسيرة الحسنة والخصال الحميدة ، وهذه الصفات الفاضلة هي التي تميز بها ابن الخل والتي جعلت منه شخصية محبوبة بين معارفه وخلانه ، فقد قال عنه العماد في خريدته «كان من ظراف الناس ، قد اجتمعت فيه الخصال الحميدة والاخلاق : فهو مجمع الفضائل من شرف النفس وكرم الاخلاق والفضل الكامل»(١١) • ومن كانت هذه صفاته وظرافته كان من البداهة أن يذاع صيته وتلهج الالسنة بالثناء عليه فقد كان حضوره مجالس الشعراء وحلبات الادب وانشاده الشعر في المحافل الرسمية منها او العامة خير دعاية له حتى قربه مسؤولو الدولة وكبراؤها ووجهاؤها اليهم فلا يكاد يخلو مجلس من مجالس الا وابن الخل واسطة العقد فيه يتحفهم بما نظمه من شعر جديد او رباعيات رقيقة تدخل في نفوسهم المتعة فتطفح على وجوههم البهجة والحبور •

شعره :

ان النزر الذي عثرت عليه من شعره كان يتدفق حيوية وعذوبة فهو قوي المعنى سهل الاسلوب متين الالفاظ تنقاد اليه القوافي طواعية حتى أن العماد اثنى عليه احسن الثناء فقال « كان نظمه حلي الزمان العاطل وفيض خاطره أغزر من فيض الغمام الهاطل»(١٢) • كما ان العماد نفسه فقيه واستنشده وسمعه ينشد كثيرا في «المواكب الشريفة»(١٣) «وبين يدي الوزير ابن هبيرة»(١٤) • كان ابن الخل يميل الى نظم الرباعيات البديعة التي سارت له اوزانها الغريبة سيرا لطيفا في الاوساط الشعبية خاصة وحظيت باهتمام الجمهور واخذوا يتداولونها في مجالسهم لانهم يعدون هذا اللون من الشعر فنا جديدا في الادب العربي لم يألفوه من قبل ، وقد زاد اهتمام ابن الخل في نظم هذه الرباعيات حين وجد اقبال الناس عليها وتغنيهم بها فأكثر من النظم في هذا الفن وولع فيه فكان من المبدعين به ، ولعل رباعياته التي نظمها ضاعت او عفى عليها النسيان لان الادباء والشعراء لم يقروا هذا اللون من الشعر فعدوه فنا طارئا بل عدوا هذه

الرباعيات «مخالفة للدين الاسلامي»[15] فلم يدونها المؤرخون المعاصرون له ، ولايعني هذا ان ابن الخل ماكان ينظم في الشعر العمودي الموروث انما كان الى جانب ماينظمه فيه كانت هذ الرباعيات موضع اهتمامه وذلك لرقتها وسلاستها وسهولة حفظها في المجالس الشعبية منها خاصة ، فهو يظهر لنا في رباعيته التالية مدى مالقيه من هم وحزن حين ابتعد عنه احباؤه وساروا فأحس لفراقهم لوعة وأسى ونارا تتقد بين جوانحه من شدة الشوق حتى صاح مقرا بخذلانه وخوره وضعفه فقال :

ساروا وأقام في فؤادي الكمد
لم يلق كما لقيت منهم أحد
شوق وجوى ونار وجد تقد
مالي جلد ضعفت مالي جلد[16]

ثم يفصح عن شدة ولهه وكم لاقى من صعاب في كتمان هواه لكنه تمسك بالصبر صونا لحبه وارغاما لهوى نفسه وكبحا لجماحها من ان تزل أو تميل ، ثم يظهر تعجبه ممن أخذوا يتهامسون عن حبه ويتحدثون به بالرغم من الكتمان الشديد في اخر حبه وفي اوله ولكن العشق فضاح وان تستر به صاحبه ، اسمعه يقول :

هذا ولهي وكم كتمت الولها
صونا لوداد من هوى النفس لها
يا اخر فتنتي ويا اولها
آيات هواي من اولها ؟[17]

وقد زادت هذه الرباعية طلاوة لما ورد فيها من جناس عفوي ،وينتقل الشاعر في الرباعية التالية الى العقاب ، فالقافلة التي تحمل حبيبته على وشك الرحيل فهو يترسل بحادي العيس ان يترفق بحاله ، فالحادي لايحدو الا حين ترحل القافلة ، وبما ان الحداء لون من الغناء المؤثر الحزين الذي يثير الاشجان ويترك لوعة قاسية في نفوس المحبين ، لذا نجده يستعطف الحادي ان يكف عن الحداء او يتمهل قليلا بغنائه ، فارتحال القافلة أمسى وشيكا وفراق حبيبته صعب وشديد ، لقد استبد بقلبه القلق فلم يغمض له

جفن وسفحت دموعه وضاق ذرعه وخارت قواه حين دنت ساعة الفراق قال :

ماضر حداة عيسهم لو رفقوا
لم يبق غداة بينهم لي رمق
قلب قلق وادمع تستبق
أوهى جلدي من الفراق الغرق[١٨]

ومن ظرافته المستحسنة ودعبته المستطحة هذان البيتان اللذان تعجب فيهما من خصر الحبيب وردفه ، فخصره وردفه كثيف : فكيف يحمل الخصر النحيف الردف الكثيف ؟ هذا ماحيره واعجزه . ويستشهد العماد في خريدته قائلا «انشدني مجد الدولة ابو غالب بن الحصين قال انشدني ابن الخل لنفسه بيتين يكتبان على منطقه»[١٩]

انا بالخصر وللرد ... من مطيف ورديف
معجزي أن رفيقي ... نحيف وكثيف[٢٠]

وتطوف بمخيلته ذكريات الصبا ومباهج الشباب التي مرت لياليها الغارقة بالاحلام وأيامها التي قضى فيها أبهى وابهج أوقات لهوه ، واليوم أمسى كهلا قد لانت شواته وتجعد وجهه مدهن عظمه فهو يتحسر على ريعان الشباب الذي مر كالسحاب فيتأسف لايامه الماضيات التي كان يمرح فيها مع لداته ويرتع معهم في الرياض الفتانة الفينانة وتحت الخمائل المظلة فقد غابت تلك المباهج عن ناظريه ومرت مسرعة خاطفة كأنها لم تحصل فأصابه الوهن والضعف وقد عبر عن ذلك بهذه الرباعية قال :

سقيا لزمان وصلنا من زمن
ايام رتعت في رياض الفتن
اضحى فكأن كونه لم يكن[٢١]
والصبر بناؤه على النقيض بني

ويبدو من ابياته التالية انه قالها في مدح الوزير بن هبيرة او غيره من كبار الدولة أو من وجهائها المحسنين او المتنفذين فهو يمدح فيه جوده واحسانه وفضله وان يده المعطاءة كالغيث المنهمر . بيضاء صافية نقية كالبرد ، في حين يشبه الحاجة التي جاء من اجلها (بالداء الاسود) ثم يعود

فيثني على تلك اليد بأنها قادرة على الحل والعقد لانها ماســـكة بزمـام المعالي والمكارم يقــول :

يــد من الغيث أجود بيضاء والداء اسود
يــد نطـاق المعالـي بها يحل ويعقـد

وفي تغزله صفاء ونقاوة اضافة الى التشبيه الرائع الذي يصور وجه حبيبه بالفارس الشجاع المندفع الى المعركة يشق صفوفها وقد انتفخـت أوداجه واحمر وجه وبدا يشع من تحت عذاب كالذهب ، ولكن اي عذار هو؟ انه المزرر كدرع المقاتل الذي يقي وجهه وجسمه من هجمات الاعـــداء وضرباتهم يقــول :

فلاح لي وجه حـرب تحت العــذار المزرد

ثم يتغزل بصاحبته ويعاتبها ويشكو لها مايقاسيه في هواه فهو المدنف المتيم الذي برح الحب بقلبه حتى أقضى مضجعه وهيج بلباله فيتوسل اليها ويترجاها الوصال لان بعادها عنه سيقضي عليه ويقتله ، لكنها من شـدة عجبها بنفسها وتيهها وكبرها ابتسمت له متهكمة به وتقول دون مبـــالاة : لاتلح في الرجاء فلست انت المدنف الوحيد الذي تيمته ووقع في شراكي فقتلته عيناي انهم كثر امثالك يقول :

قلت لهـا لاتقتلـي مدنفـا هواك قد هيـــج بلبالـــه
مازال يرجـو منك وصلا الى أن قطع البحـران أوصـــاله
فابتسمت تيهـا وقالت وكم قد قتلت عيناي امثالـه(٢٣)

قلنا ان الظرافة غلبت على طباع الشاعر فاذا تحدث في مجلس كان حديثه ممتعا شيقا لايخلو من الفكاهة والنكتة المستحبة البريئة كما يلجـأ أحيانا الى الهجاء اذا أغضبه أو تعرضه أحد أو يتغاضى عن أمر مخالف للحق والدين ، ونجد في ابياته هجاء لاذعا لواعظ يكشف فيه الشاعر زيفه ونفاقه وانه منسوب الى الدين زورا وبهتانا وليس له من وشيجة تربطه به ســوى الجبة والعمامة اللتين اتخذهما ستارا يغش الناس بهما اما عقله فأفرغ من فؤاد أم موسى ، هذا بالاضافة الى ما في لسانه من العي في النطق والحصر في الكلام ، فكيف يفهم منه الناس امور دينهم ؟

وكيف يكون مثل هذا واعظا وخطيبا ؟ اما قلبه فقد انطوى على الغل والحقد ، ونلاحظ ايضا ان الشاعر لجأ الى استعمال كلمة عاميـــة (ايش اقول) ليحط من شأن هذا الواعظ وليزيد من النكاية به ، لان اللغة العامية لايستعملها شاعر فصيح الا لغرض فضح المهجو والهزء به ، استمع اليه كيف يتندر عليه ويهجوه يقول :

ومـن الشـقاوة انهـم ركنوا الى	نزغات ذاك الاحمق التمتـام
شـيخ يبهـرج دينـه بنفاقـــه	ونفاقـه منهـم على أقـوام
واذا رأى الكرسـي تـاه بأنفـــه	أي ان هــذا موضعي ومقامي
ويدق صـدرا ما انطـوى الا على	غل يواريـه بكـف عظـام
ويقول (أيش أقـول من حصر بــه	لا لازدحـام عبارة وكلام[٢٤]

واذا انتقلت الى مقطعاته الشعرية الاخرى فانك ستجد فيها العذوبة تجري في ثنايا ابياتها وتلاحظ الرقة في اللفظ والسهولة في الاســـلوب والجزالة في المعنى ناهيك عن اختياره البحور الشعرية الرقيقة التي ترتاح اليها الاذن حين تنصت مرهفة لسماع تلك الابيات التي تنساب من خلالها الى النفس فتتقبلها بارتياح تام ، فقد جاءت مقطعته التالية على مجـزوء الرمل الذي يتميز بقلة كلمات البيت وقصر شطريه ، ويخيل للقارىء وهو يقرأ هذه المقطعة لاول وهلة ان ابن الخل من الشعراء المدمنين علـــى الخمرة ومن رواد مجالس الشراب واللهو والمجون الا انه كان يحاكـي الشعراء القدامى فهو لم يذقها ولم يعرف طعمها حيث اجمعت المصادر على ان اسرته اشتهرت بالفقه والدين والمكانة العلمية وقد شملته هذه الصفات واتصف بها الا اننا كل مانود قوله هو ان الشاعر طرق ابواب الشـــعر ومنها وصف الخمرة ولعله أراد ان يروح عن نفسه في جلسة هادئـــة بريئة مع اصحابه وخلانه فهو يتشبه بالمدمنين حين يطلبها اذ انه يرغـب ان يكون الراح غير ممزوج بالماء القراح وان يدركوه بالغناء قبل ان يحل الصباح ، ويعد هذا اليوم الذي بدت عليه علامات الارتياح والفـــلاح يوم لهو ومجون ومزاح ، ويبدو ان جلسته هذه كانت مع رفيقين له على شاطىء دجلة من ليلة مقمرة ولكن سرعان ما أخذت امواج النهر تعلـــو وتهبط من غضب الرياح وجورها فانتاب مرحهم ترحا وتعكر صفوهم حين

اكفهر الجو واقبلت الغيوم السوداء المحملة بالماء والمنذرة لهم بالمطر واختفى القمر بين طياتها بعد ان كانوا يهتدون بضوئه الساطع الفضي فنسدت عليهم جلستهم ، يقول :

روحـا روحـي بـراح ليس بالماء القراح
وادركاني بالاغاني قبل ادراك الصباح
فهو يوم قد بدت فيـ ... ـه أمارات الفلاح
يوم لهو وفنون من مجون ومزاح
سيما والغيم قد أقبـ ... ـل من كل النواحي
واستغاث الماء في دجـ ... ـلة من جور الرياح
ودعا عذلكما لي في فسادي وصلاحي
ففساد العقل أن البـ ... ـصر في ذا اليوم صاحي[٢٥]

اما المقطوعة الاخرى فقد كشف لنا ابن الخل فيها ظلم حبيبه وانقطاعه عنه وانه يبخل بالوصال حتى اذا كان طيف خيال فتكون زيارته خاطفة لم تشف غليله ولم ترتح اليها نفسه ومع ذلك كله فهو يرضى ويقنع بهذه الزورة السريعة الخاطفة واذا كانت حتى هذه لم تقع ولم تتحقق فلتكن ولو وعدا منه ممطولا فهو راض به وقانع ، يقول :

زار طيف الخيال نضو خيال زورة ما تموهت بالوصال
غير ان المحب يرضى بطيف أو بوعد منغص بمطال

ويصف هذا الطيف بانه على يسر هذه الزيارة الا انه حين يبتعد عنه ويغيب عن ناظريه يزداد خباله ويتضاعف عليه وجده وشوقه يقول :

على انه يسر ولكن حين يسر عني يزيد خيالي[٢٦]

ثم يتطرق الى قلة تجلده ونفاد صبره من العذال الذين يقفون له بالمرصاد ويحيطون به من كل جانب ينمون وينافقون ويحاولون الايقاع بينه وبين من يحب فالويل كل الويل لهؤلاء النمامين المنافقين ، انه يتشوق الى حبيبه الذي يشبهه بالغزال ولكن هيهات لذاك الحسن والجمال ان يقاس بالغزال فالغزال أقل حسنا منه ، واما محياه فالقمر في ليلة تمامه وأين منه القمر ؟ ان ضوءه يبدو ضعيفا ضئيلا بجانب وجه حبيبه :

آه من قلة التجلـد والصـ ••• بر ووياي من كثرة العـذال
وبنفسي ذاك الغزال وحاشا حسنه أن أقيـه بالغـزال
والبديع الذي اذا بلبل الاحد ••• داغ أعدي القلوب بالبابـال
ومحياه كالكهـلان اذا أقـ ••• مر في ثمه ولا كالهلال(٣٧)

وبعد فالذي دفعني الى دراسة هذا الشاعر هو اني من خلال اعدادي لرسالة الماجستير عن الارجاني الذي عاصر ابن الخل وبحكم دراستي لـه وتتبعي في بطون المضان الادبية والتاريخية فقد اطلعت على كثير من الشعراء العرب المعاصرين لهما ممن عاشوا في بغداد والاهواز(٢٨) فرأيت ان اكشف صفحة نقية من أدبنا العربي في العصر العباسي المتأخر فبدأت بابن الخال علني استطيع ان أزيل الغبار عن شاعر أضاع حبه الاهمال وطوى شـعره النسيان ففقد اكثر وأندثر وبالاخص رباعياته التي يبدو لي انه كـان من المبرزين في نظمها والمولعين بها وربما كان فارسها المجلي فيها وفي غيرها من الوان الشعر والادب ، وقد عزمت ان اكشف عن شعراء اخرين في هذا العصر وعسى ان اوفق فأزيل تراب السنين الغابرات عن هؤلاء الشـعراء أو بعضهم ممن اندثروا تحت كثبان تلك الحقب الطويلة مـن الازمنـة أو ينبري معي الباحثون فنشمر عن سواعدنا ونغوص في بطـون المصادر المخطوطة منها والمطبوعة لنستخرج الدرر اللامعة من اشعارهم المكنونة في اصدافها كي يزداد تراثنا الادبي نورا على نور من شعرهم الذي كـان منسيا طوال القرون الماضية ، ومن الله التوفيق •

الهوامش

(١) الخل بفتح الخاء ما حمض من عصير العنب وغيره ، وفي الحديث : نعم الادام الخل . والخل القليل اللحم ، الخفيف الجسم . انظر مادة (خلل) في لسان العرب ٢١١/١١ ، ولم تشر المصادر الى اصل هذا اللقب ، ولعل هذه الاسرة اتخذت عمل الخل مهنة لها فاشتهرت به .

(٢) انظر وفيات الاعيان ٢٢٧/٤ وطبقات الشافعية ٤٨٨/١ والنجوم الزاهرة ٣٢٦/٥ وشذرات الذهب ١٦٤/٤ .

(٣) فوات الوفيات ٢٥٥/١ .

(٤) وفيات الاعيان ٢٢٧/٤ .

(٥) تاريخ اربل لابن المستوفي القسم الثاني ص ٥٠٦ .

(٦) الخريدة قسم العراق ٣٨٧/٣ الحاشية .

(٧) المصدر نفسه وذكر له هذين البيتين في التصوف :

فان شخصت فاشخاص معبرة ... وان تفكرت لا انس ولا جان

وفي تأملهم معنى يقوم بهم ... وفي تخيلهم للعين الوان

(٨) ولد سنة ٤٧٥ هـ وتفقه على ابي بكر الشاشي المتوفى سنة ٥٠٧ هـ وسمع الحديث عن جماعة من المحدثين وحدث به ، وكان يجلس في مسجده بالرحبة في شرقي بغداد لا يخرج الا بقدر الحاجة يفتي ويدرس وكان يكتب خطا جيدا ، وكان الناس يحتالون على اخذ خطه في الفتاوي من غير حاجة اليها بل لاجل الخط لا غير فكثرت عليه الفتاوى وضيقت اوقاته ، صنف كتابا اسماه (توجيه التنبيه) وله شعر منه قوله :

بلغه عني باني بعد فرقته ... ماء الشؤون شرابي والضنى زادي

يا منية النفس لا تنس مودة من ... في قلبه منك هم رائح غادي

توفي ببغداد في المحرم سنة ٥٥٢ او ٥٥٣ هـ ونقل الى الكوفة ودفن فيها .

انظر : الخريدة ٣٧١/٣ والمنتظم ١٧٩/١ ووفيات الاعيان ٢٢٧/٤ والكامل في التاريخ ٢١٧/١١ وذكر وفاته في حوادث سنة ٥٥١ هـ (بابن الخل) بضم الخاء . وطبقات الشافعية ٤٨٨/١ والبداية والنهاية ٢٣٧/١ وشذرات الذهب ١٦٤/٤ ومعجم المؤلفين ١٧٠/١١ والاعلام ٢٣٩/٧ .

(٩) الخريدة ٣٨٧/٣ وذكر ابن المستوفي في تاريخه ص ٥٠٦ لقبه (فخرالدين) علي بن الحسن بن المبارك .

(١٠) فخر الزمان ابو القاسم علي بن احمد بن المبارك بن الخل الشاعر شاب فيه ادب وظرف وذكاء وفطنة وكياسة ولباقة وتودد الى الناس . يقول العماد في خريدته انشدني لنفسه ببغداد سنة ٥٥١هـ :

وجه الصبوح صبيح ... من الهموم مريح ... وهي تسعة ابيات

وله في مدح الامام المستضيء قصيدة يهنئه بالخطبة في مصر سنة ٥٦٧ هـ وهي ستة عشر بيتا مطلعها :

سرت لك خيل الله وهي يعابيب ... فغطت دجى ليل المنى وهو غرابيب

اليعابيب : جمع يعبوب وهو الجواد السهل في عدوه ، وقيل الفرس الطويل السريع ، الكثير الجري ، انظر مادة (عب) في لسان العرب ٦١/٢ .

والغرابيب : شديد السواد ، وفرس غرب كثير العدو واغرب الفرس في جريه وهو غاية الاكثار . انظر مادة (غرب) في لسان العرب ١٣٢/٢-١٣٨ .

وقال يمدحه في سبعة عشر بيتا ، مطلعها :

وهو في ريعان شبابه يقول :

عديني وامطلي وعدي عديني ... وديني بالصبابة فهي ديني
ومني قبل بينك بالاماني ... فان منيتي في ان تبيني
صلي دنفا يحبك اوقفته ... نواك على شفا جرف المنون
ألست بكم اكابد كل هول ... واحمل في هواكم كل هون ؟

انظر شعراء العرب للخاقاني ٥/٤٠ .

(٢٧) في تخميس لاحد الشعراء وقد ضمن هذا المعنى اذ يقول :

اين منك الغزال مهما تحلى ... وهلال السماء مهما تجلى
انت عندي احلى واغلى واجلى ... ايها الريم ما ذكرتك الا
واحتقرت الاقمار والاراما

(٢٨) الاهواز (آخره زاي وهي جمع هوز واصله حوز . وقد قلب الفرس الحاء هاء لانه ليس في كلامهم حاء مهملة . واصل الحوز في كلام العرب مصدر حاز الرجل الشيء يحوزه حوزا اذا حصله وملكه . وعلى هذا يكون الاهواز اسما عربيا سمي به في الاسلام) (معجم البلدان ١/٢٨٤) .

سلام كانفاس الصبا جاشرية ... اذا عبقت من نشر زهر الخمائل

والجاشرية : الشرب مع الصبح ويوصف به فيقال شربة جاشرية ويقال اصطحت الجاشرية . ولا يتصرف له فعل . انظر مادة (جشر) في لسان العرب ٥/٢٠٧ .

(١١) الحزيدة ٣/٣٨٣ .

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) يبدو ان المواكب الشريفة يقصد بها المسيرات او الاحتفالات التي تقام عادة في المناسبات الدينية كالعيدين او ليلة الاسراء والمعراج او ليلة القدر او بداية السنة الهجرية او أيام عاشوراء او مولد الرسول صلى الله عليه وسلم او غيرها .

(١٤) الحزيدة ٣/٣٨٣ وقد عرفه ابن الاثير بقوله هو عون الدين الوزير ابن هبيرة واسمه يحى بن محمد ابو المظفر وزير الخليفة المقتفي لامر الله المتوفى سنة ٥٦٠ هـ . انظر الكامل في التاريخ ١١/٣٢١ .

(١٥) انظر عمر الخيام ص ٢٩ للصراف وقد ذكر المستشرق النمساوي هامر برغستيل حين ترجم بعض رباعيات الخيام .

(١٦) الحزيدة ٣/٣٨٣ . وفيات الاعيان ٤/٢٢٧ النجوم الزاهرة ٥/٣٢٦ شذرات الذهب ٤/١٦٤ .

(١٧) الحزيدة ٣/٣٨٣ وفيات الاعيان ٤/٢٢٧ . في شذرات الذهب ٤/١٦٤ (محنتي) و (غرامي) .

(١٨) الحزيدة ٣/٣٨٣ وفيات الاعيان ٤/٢٢٧ شذرات الذهب ٤/١٦٤ .

(١٩) ابو غالب عبدالواحد بن مسعود الشيباني بحلب سنة ٥٩٧ هـ انظر الحزيدة ٢/٢٣٣ الحاشية والمنطقة هي النطاق او الحزام .

(٢٠) الحزيدة ٣/٣٨٣ والردف : الكفل والعجز . والرديف الراكب خلف الراكب .

(٢١) الحزيدة ٣/٣٨٣ والفتن : المحاسن التي يفتتن بها الانسان ويتوله .

(٢٢) الخريدة ٣/٣٨٣ .
(٢٣) فوات الوفيات ١/٢٥٥ .
(٢٤) الخريدة ٣/٣٨٣ وفيات الاعيان ٤/٢٢٧ شذرات الذهب ٤/١٦٤ .
(٢٥) فوات الوفيات ١/٢٥٥ .
(٢٦) فوات الوفيات ١/٢٥٥ . وقد اجاد الشيخ عباس ملا علي بتضمينه هذا المعنى في قصيدة طويلة له وهو يتغزل بحبيبته قد اضنته به بها فبخلت عليه بالزيارة او حتى بوعد بها ولو كان ممطولا فنحل جسمه وعزل ففقد حيــــاته

مصـــــادر البحـــــث

١ ـ الاعلام : للزركلي ، الطبعة الثانية .
٢ ـ البداية والنهاية : لابن كثير ، ط اولى ١٩٦٦م مكتبـــة المعارف بيروت ومكتبة النصر الرياض .
٣ ـ تاريخ اربل : لابن المتوفي ، تحقيق وتعليق ســـامي بن السيد خماس الصقار ، القسم الثاني من منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقيـة لسنة ١٩٨٠م .
٤ ـ الخريدة : للعماد الاصبهاني . تحقيق وشرح محمد بهجـــة الاثري . من منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية لسنة ١٩٧٦م .
٥ ـ شذرات الذهب : للعماد الحنبلي . من منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتـــوزيع ، بيروت .
٦ ـ شعراء الغري : للشيخ علي الخاقاني ، المجلد الخامس .
٧ ـ طبقات الشافعية : للاسنوي . تحقيق عبدالله الجبوري ط اولى مطبعـة الارشاد بغداد سنة ١٩٧٠م من منشورات رئاســـة ديوان الاوقاف العراقية .
٨ ـ عمر الخيام : لاحمد حامد الصراف ، ط دار السلام بغداد ١٩٣١م .
٩ ـ فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبي ، تحقيق د. احسان عباس ، مــن منشورات دار الثقافة بيروت سنة ١٩٧٤م .
١٠ ـ لسان العرب : لابن منظور ، المؤسسة العامة المصرية للتأليف والنشر ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق .
١١ ـ مرآت الجنان : لليافعي ، من منشـــورات مؤسسة الاعلمي بيروت ، ط ٢ سنة ١٩٧٠م .
١٢ ـ معجم البلدان : للحموي ، من منشورات دار صادر بيروت ١٩٧٧م .
١٣ ـ معجم المؤلفين : لرضا كحالة ، مطبعة الشرقي بدمشق سنة ١٩٦٠م .
١٤ ـ المنتظم : لابن الجوزي ، ط اولى مطبعـــة وزارة المعارف العثمانيـــة حيدر آباد ١٣٥٨ هـ .
١٥ ـ النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
١٦ ـ الوافي بالوفيات : للصفدي ، ط ثانية باعتناء علموت رينــر دار النشر فرانز شتاينير سنة ١٩٦١م .
١٧ ـ وفيات الاعيان : لابن خلكان ، تحقيق د. احسان عباس دار الثقافـــة بيروت .
١٨ ـ هدية العارفين : لاسماعيل البغدادي ، استنبول ١٩٥٥م اعادت طبعـه المكتبة الاسلامية ، والجعفري تبريزي بطهران ط٣ سنة ١٣٨٧ هـ .

ومن الجدير بالملاحظة أن جنوح الأحداث هو نتيجة حتمية للتنشئة الاجتماعية الخاطئة التي تتولاها العائلة كمؤسسة اجتماعية . والتنشئة الاجتماعية الخاطئة تكون على أنماط مختلفة أهمها جهل العائلة بأساليب وفنون التنشئة الاجتماعية الايجابية وعدم معرفتها بطرق التنشئة الاجتماعية الجيدة التي تضمن نمو واتزان وتكامل شخصيات الأطفال ، تدليل الأطفال والتسامح معهم وعدم تصحيح هفواتهم وأخطائهم السلوكية اليومية ، استعمال أساليب القسوة والشدة في تربية الأطفال . . . الخ ومثل هذه الأساليب التربوية والتأنيسية الخاطئة لا بد أن تقود الأطفال نحو الشذوذ والخروج عن الطريق السوي الذي يجلب للعائلة والمجتمع الكبير شتى أنواع التحديات والمتاعب والمشكلات التي تعرقل مسيرتهما الحضارية والاجتماعية . لكن جنوح الأحداث لا يرجع إلى عامل التنشئة الاجتماعية الخاطئة فحسب بل يرجع إلى جملة عوامل اجتماعية وحضارية معقدة أهمها طبيعة شخصية الأطفال ومدى استعدادهم للاندفاع نحو تيار الجريمة والشر ، طبيعة الجماعات المرجعية التي يحتك بها الأطفال ويتعاملون معها . آثار المجتمع المحلي على الأطفال . . . . . الخ .

إن هذه الدراسة تنصب على تحليل مفاهيم التنشئة الاجتماعية السوية والخاطئة ، وجنوح الأحداث مع توضيح أنماط وأسباب التنشئة الاجتماعية والخاطئة وذكر أهم المظاهر الشائعة لجنوح الأحداث. بعدها يتوخى البحث الربط العلمي والمنطقي بين التنشئة الاجتماعية الخاطئة وجنوح الأحداث . وأخيراً يقترح البحث مجموعة من التوصيات والمعالجات التي تستهدف القضاء على ظاهرة جنوح الأحداث من خلال محاربة أسباب وأنماط التنشئة الاجتماعية الخاطئة التي تتحمل أوزارها العائلة وبقية الجماعات الاجتماعية المؤثرة على الطفل في المجتمع .

المفهوم العلمي للتنشئة الاجتماعية

معنى التنشئة SOCIALIZATION :

مصطلح اجتماعي ينطبق على كل من الحيوان والانسان والجماعة والمجتمع ، والتي اعتبرها علماء الاجتماع عملية اعطاء الفرد المفاهيم والقيم والمقاييس من بيئته التي ترعرع ونشأ فيها ، إلى أن يصبح قادر على أخذ مجموعة أفكار كافية من الأنماط السلوكية التي تجعله متأثراً بها على مدى حياته . وعلى هذا الأساس يمكن للفرد أن يبني شخصيته على قاعدة صلبة وصحيحة إذا كانت تنشئته الاجتماعية سليمة وصالحة والعكس بالعكس إذا كانت أساليب التنشئة خاطئة وسلبية .

وعليه فعملية التنشئة الاجتماعية ذات أهمية كبيرة في بناء كل من الفرد والجماعة والمجتمع[1] ولذلك فإن مجلس قيادة الثورة أكد على هذه الناحية من خلال تأكيده على أهمية دور الفرد في المجتمع .

إستخدم معنى التنشئة الاجتماعية أولاً في مجال علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع طالما أنهما يشاركان مشاركة فعالة في تهيئة الأفراد على السلوك الاجتماعي المتعارف عليه في المجتمع ، بينما التنشئة الثقافية هي التي تدرب الأطفال والبالغين على أنماط ثقافية مهمة للمجتمع . ولفظ التنشئة الاجتماعية أكثر شيوعاً من لفظ التنشئة الثقافية[2] .

إن التنشئة الاجتماعية هي طريقة نقل الحضارة CULTURE وتكيف الفرد لأسلوب معاشي وحضاري بتناسب مع نظام مجتمعه الذي يعيش فيه .

فالتنشئة الاجتماعية هي عملية اجتماعية مستمرة ، كما أنها تبدأ مبكرة وبشكل تدريجي حيث أن الكائن البشري سواء كان ذكراً أو أنثى يركز على مسألة واحدة ،

أو قليل من المسائل في وقت ما . ومع هذا فإن أهداف التنشئة الاجتماعية هي أهداف تدريجية خصوصاً في المراحل الأولى للطفولة المبكرة .

الراقع أن التنشئة الاجتماعية تحتل مكاناً بارزاً في معظم المؤلفات الاجتماعية والنفسية والتربوية ، والعلماء أنفسهم أخذوا يهتمون بالنظم والانساق الاجتماعية وغيرها كاهتمامهم بالطفولة المبكرة والمراحل التي تمر بها ، وهذا يمكنهم من تقويم الطفل تقويماً سليماً ، وذلك لأن جذور التنشئة الأولى تساعد الطفل على قوة انتباهه وملاحظاته وتمكنه من التمييز بين الأشياء وبذلك يصبح مدركاً لجوهر ردود الفعل التي تواجهه ، وعلى هذا يستطيع أن يكون لنفسه قوة ذات خبرة اجتماعية وثقافية ، وهذه الخبرة تفاعلها مع خبرات الكبار تصبح أكثر ثباتاً فتخلق من طفولته بناء قوياً ذات قاعدة صلبة يتمكن بها من مواجهة الصعوبات التي يمر بها .

إن التنشئة الاجتماعية يمكن أن تساهم في تحديد الأدوار الاجتماعية التي يشغلها الطفل ، من خلال ادراكها والتدريب على القيام بمهامها ، كما يجب أن يدرك دوره الذي يحتله في المجتمع وإدراك أدوار غيره من خلال تفاعله معهم .

ومن المعلوم أن الانسان في طفولته يحتل أدواراً يمكن أن تنسب إليه من قبل عائلته . ولكن سرعان ما تزداد هذه الأدوار كلما تقدم الطفل في مراحل العمر[1] .

ومن الحقائق المعروفة أن الطفل عند ولادته لا يستطيع أن يشارك المجتمع كعضو فيه إلا بعد عمليات تنشئة اجتماعية إيجابية تصنع منه شخصاً قادراً على أداء واستجابة الأدوار الاجتماعية المتعددة التي تتزايد وقد تتعقد كلما اجتاز مرحلة بعد أخرى من مراحل النضج ، وفي هذا الصدد يقوم التعليم بمهمة أساسية ، ولكن يجب أن يلاحظ أن كل تعليم ليس تنشئة اجتماعية بالضرورة لأن جوانب التعليم قد تكون غير ملائمة لخلق دافع المشاركة في الانساق الاجتماعية ، وهنا يظهر دور الثقافة التي تشكل الاطار لكل ما يمكن أن يتعلمه الشخص ويدخل في صميم تنشئته ، ولهذا تصبح العملية التي يكتسب عن طريقها الأفراد ثقافة الجماعات التي

ينتمون إليها ذات أهمية كبيرة[١] .

ويجدر بالاشارة هنا بأن الوالدين هما اللذان يتعهدان هذه التنشئة ، وهما بدورهما قد تعرضا للتنشئة الاجتماعي، لذا فالآباء والأمهات بجانب بقية الجماعات المرجعية مسؤولون عن عملية التنشئة الاجتمعية في تلك الفترة .

فالتنشئة الاجتماعية من وجهة نظر الفرد مليئة بقوة الزامية لتنمية وتطوير شخصيته . كما أن التنشئة البشرية هي التي تحول الكائن البايولوجي إلى كائن اجتماعي مدرك لذاته ، ومتمكناً من تمثيل النظم السلوكية وتجسيم القيم والأفكار الروحانية في ذاته ، وبذلك تكون التنشئة الاجتماعية المنظم للسلوك الانساني ، وبنفس الوقت هي الظروف الضروري لفرديته ، ومن ثم لحماية ذاتيته .

نستنتج من ذلك اذن أن التنشئة الاجتماعية هي ذات معنيان شاملان هما أولاً : أنها ناقلة للحضارة ، والثانية : أنها عامل مهم في تنمية الشخصية[٢] .

المفهوم العلمي لجنوح الأحداث

الحدث : Juvenile (هو كل من أتم السابعة من عمره ولم يكمل الثامنة عشر ذكراً كان أم أنثى)[٦] .

الحدث الجانح Juvenile Delinquent هو الفرد الذي يسلك سلوكاً غير طبيعي بالنسبة له وللآخرين من أفراد المجتمع . وإن هذا السلوك له طابع الخطورة والاستمرار والتكرار ، وهو ليس رد فعل مؤقت لمشكلة من المشكلات التي تواجه الحدث في حياته ، حيث تبدو مظاهر سوء التوافق مع الجماعة واضحة في سلوكه . وإن هذا السلوك الجانح قد يكون مرجعه اعتلال نمو مكونات الشخصية مما لا يستطيع معه الحدث ادراك المعايير السلوكية على أساس أنها محدد سلوكي .

وهذا يرجع إلى تعرض الحدث الجانح لمؤثرات بيئية من نوع ما ، أو أسلوباً من التربية والعلاقات الابوية ، والاجتماعية ، أو نتيجة مجموعة خبرات ومؤثرات مرت به خلال حياته مما أدى إلى اكتسابه مجموعة من العادات أو الاتجاهات أو القيم غير السوية ، كما أنه تعلم أنواعاً من الاستجابات الانفعالية بحيث ترتب على ذلك كله أنه تعلم أسلوباً معيناً من أساليب التوافق مع صراعاته أو مؤثراته النفسية يمتاز بالعدوان ، مما يجعله في النهاية ينحرف عن معايير السلوك السائدة في المجتمع[٧] .

الجنوح : Delinquency نتاج خلل في التكوين الفطري للحدث أو خلل في المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه أو نتيجة للعاملين معاً . فالجنوح تعبير عن صراع Conflict داخلي يحاول به الحدث إيجاد تنفس أو اشباع ضروري وملح[٢] .

كما أنه يعرف لغوياً بكونه عبارة عن الميل والانحراف ، ويستخدم علماء الاجرام هذا المفهوم للدلالة على الجريمة . إن هذا المفهوم نال اهتمام علماء الاجتماع ،

وعلماء القانون وعلماء النفس ، كما نال اهتمام علماء التربية وغيرهم ممن يعنيهم أمر الجنوح .

إن هؤلاء العلماء والمفكرين انصبوا بوجه عام على أنماط من السلوك يجرمها القانون وتستوجب عقوبات خاصة حيث تعتبر تمرداً على القيم الاجتماعية SOCIAL VALUES وعادات المجتمع وتقاليده ، فهي اذن ضارة به ومهددة لنظمه .

أما الجنوح باعتباره ظاهرة اجتماعية ، فهو يختلف من بلد إلى آخر ، ومن زمن إلى آخر ، وهناك بعض الأمور التي تعتبر اثماً في مجتمع ما ، لا ينظر إليها كذلك في مجتمع آخر . وهناك بعض الباحثين والمشرعين ممن قسموا الجنوح إلى ثلاثة أقسام : أولاً الجنايات، ثانياً ـ الجنح ، ثالثاً ـ المخالفات ، وتلك مرتبة ترتيباً تنازلياً حسب جسامتها كما أن عقوبتها تختلف تبعاً لهذه الجسامة(٩) .

لم يتفق العلماء والباحثون على تعريف موحد لمصطلح الجنوح إذ أن هناك تعاريف متعددة لهذا المفهوم ، ومنها مثلاً تعريف أوكست ايكهورن AUQUST AUCHHORN الذي يؤكد على الجانب النفسي إذ أنه (انحراف عن العمليات النفسية السوية) .

أما كلوك وكلوك S. E. GLUECK حيث يعرفان الجنوح (بأنه سوء تكيف الأحداث مع النظام الاجتماعي الذي يعيشون فيه) . واعتبروا الجنوح أفعالاً مكررة غير قانونية تصدر عن أشخاص لم يبلغوا سن السادسة عشر ، ولو ارتكبها لاعتبرت جرائم)(١٠) .

هذا ومن الجدير بالذكر أن هناك فرقاً بين مفهومي الجنوح DELINQUENCY والانحراف DEVIATION حيث أن كل جنوح يعتبر انحرافاً ، بيد أنه لا يمكن اعتبار كل انحراف جنوحاً ، فالكذب يعتبر انحرافاً ، إلا أنه لا يشكل جريمة إلا إذا كان شهادة كاذبة أمام إحدى المحاكم .

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع القول أن مفهوم جنوح الأحداث من الناحية القانونية يتحدد بنقطتين ألهما : سن الحدث حيث يختلف من بلد لآخر باختلاف الحد الأدنى والأقصى لسن الحداثة ، وثانيهما : هو الفعل الذي يأتيه الحدث بحيث يكون ذلك الفعل محرم قانوناً ، والأخير يختلف من بلد لآخر .

أما التعريف النفسي الذي جاء به علماء النفس ، والتعريف الذي تقدم به علماء الاجتماع فإنهما يختلفان الواحد عن الآخر باختلاف الخلفيات العلمية لهؤلاء العلماء لذلك لا يمكن الاتفاق على صيغة معينة وتعريف محدد واحد لمفهوم CONCEPT الجانح أو الجنوح .

إن الجنوح ينبغي أن يفسر تفسيراً شمولياً حتى يشمل الجرائم ، ويتضمن كذلك السلوك الذي لا يعتبر جريمة ، كم حدد ذلك القانون ، غير أنه يعتبر رغم هذا سلوكاً منحرفاً (DEVIANT BEHAVIOUR) أو سلوكاً غير مستحب أو مرغوب فيه (UNOESIRABLE BEHAVIOUR) حيث لا يمكن تعريف الجنوح في حدود قانونية بحته ، وذلك لأنه حصيلة مجموعة (من المؤثرات الفيزيقية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية) . كما أنه من الممكن تفسيره بسوء تكيف الحدث مع بيئته[١١] .

من كل ما تقدم أن عوامل الجريمة هي بايولوجية ونفسية واجتماعية ، وكل عامل يلعب دوراً لا يستهان به في تكوين سلوك الجانح ، فالنظرة الحديثة في تفسير سلوك الجانح لا تفسر بعامل واحد ، بل يتظافر عاملان أو أكثر من تلك العوامل متأثرة ومؤثرة الواحدة بالأخرى . والاتجاه الأخير هو الذي يؤمن به الباحث ، إلا أن الباحث يركز بحثه على جزء من العوامل الاجتماعية ألا وهي أثر التنشئة الاجتماعية (العائلة) في جنوح الأحداث باعتبار أن العائلة هي اللبنة الأولى في التركيب الاجتماعي ، وتؤثر تأثيراً واضحاً في عمليات التنشئة . إلا أن هذا لا يدل بأية صورة من الصور على أن العائلة هي الجماعة الاجتماعية الوحيدة التي تؤثر في أساليب

التربية الاجتماعية للحدث . فهناك عوامل أخرى تؤثر في التربية الاجتماعية سواء كانت هذه سوية أو غير سوية مثل الجماعات المرجعية التي يتأثر فيها الأحداث كوسائل الأعلام الجماهيرية ، الخلفية الاجتماعية ، والأعذار الطبقية ، والضغوط المتعارضة التي تسلطها الجماعات الرجعية على الأطفال والصغار ، المستويات الاجتماعية والاقتصادية للعوائل[١٢] .

إذن فامسؤولية الجنائية تقع على الحدث عند اتمامه سن السابعة (كحد أدنى) أما قبل هذه السن فلا يكون الحدث مسؤولاً جنائياً عن الأعمال التي يقترفها ، كما أن القانون العراقي قد حدد السن الأعلى للحدث بثمانية عشر عاماً[١٣] .

وهذا القانون يتفق مع ما مأخوذ به في بعض الدول العربية كما في مصر وسوريا ولبنان والكويت ، أما في المغرب وليبيا والبحرين فإن الحد الأدنى لسن الحدث هو الثانية عشر ، والرابعة عشر ، والتاسعة ، أما الحد الأعلى فهو السادسة عشر ، والثامنة عشر ، على التوالي[١٤] .

أنماط التنشئة الاجتماعية الخاطئة

تعتبر مشكلات التنشئة الاجتماعية الخاطئة من أبرز المشكلات الانسانية والتي تظهر هنا بأشكال تكاد تكون ذات صفة مخيفة ومرعبة ، وهذه المشكلات ـ بطبيعة الحال ـ لا تهدد كيان العائلة فقط ، وإنما تهدد عملية التنشئة الاجتماعية حيث أن العائلة تمثل الجزء الصغير من التنشئة الاجتماعية ، فإذا ما أصلحنا الجزء فكأنما أصلحنا الكل ، وعلى هذا فالعائلة قد تتعرض إلى آفات اجتماعية خطيرة مما تجعلها تقع في هوة الانحلال والتفكك الاجتماعي والخلقي ، ومن أهم مشكلات التنشئة الاجتماعية الخاطئة والتي يجدر ذكرها :

أ ـ التدليل والتسامح المطلق مع الأطفال وعدم تصحيح أخطائهم من خلال أساليب العقاب والثواب . فالعلوم النفسية والتربوية لا تؤيد فكرة التدليل والتسامح المطلق من الوالدين ، كما أنها لا تقبل فكرة استعمال القوة بحيث تجعل من الطفل ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ حصيلة من العقد والأخيرة قد تلحق به ضرراً جسيماً إلى أن يصبح حدثاً منحرفاً غير سوي ABNORMAL .

وعلى هذا فإن التربية الحديثة بدأت تهتم بتربية الأطفال تربية صحيحة ، فأوصت الآباء والأمهات بعناية وتربية أطفالهم تربية جيدة ، حيث أن الأطفال هم الوحدات الأساسية لبناء المجتمع مستقبلاً والتي من الواجب الاهتمام بهم اهتماماً كبيراً كأن تستعمل معهم سلوكاً وسطاً لا هو بالتدليل ولا هو بالتذليل فلا عقاباً شديداً ولا ثواباً عيفاً .

هذا ويمكن أن نقسم العوامل التي تؤدي بالوالدين إلى التساهل والتسامح مع أبناءهم إلى قسمين هما عوامل مباشرة ، وغير مباشرة :

أولاً العوامل المباشرة : ــ

١ ــ وفاة رب الأسرة أو كثرة غيابه عن المنزل ، ففي مثل هذه الحالة نجد الأم تكرس معظم وقتها في الاهتمام بأبنائها من أجل أن تسد النقص الذي يشعرون به .

٢ ــ في بعض الأحيان قد يكون مصدر التساهل الأقارب في الأسرة الذين يلبون كل متطلبات وحاجيات الطفل وذلك لشد حرصهم على ارضائه وإشباع حاجياته المختلفة ، ونتيجة لهذا يفعل الطفل ما يشاء دون حساب أو عقاب .

٣ ــ إن المحبة المفرطة التي يبديها رب الأسرة تجاه طفله الوحيد قد تؤدي إلى جنوحه .

إن أهم ما يميز هذه العوامل هو اتصالها الوحيد بالتكوين النفسي للفرد والذي يتكون في المراحل الأولى من الحياة .

ثانياً : العوامل غير المباشرة :

١ ــ حرمان الأم في طفولتها من عطف وحنان والديها مما يجعلها تكثر من عطفها وحنانها على أطفالها ، وما هذا العطف والحنان إلا نوعاً من الوسائل التعويضية التي سبق وإن حرمت فيه الأم في طفولتها من قبل والديها .

٢ ــ وكثيراً ما نجد أن بعض الآباء يشعرون بالكراهية اتجاه أبنائهم ولربما تكون أسباب هذه الكراهية دفينة ، حيث ينتج عن ذلك تولد شعور قوي بالاثم من قبل الأب ، وهذا مما يجعله يقوم بسلوك مضاد يعرف باسم السلوك العسكي فتجده يغدق في العطف والمحبة على ابنه ، من

أجل تلبية طلباته حتى ولو كان في غير حاجة إليها .

٣ ـ ومما يلاحظ من الناحية التربوية ، أن كثيراً من الآباء يعاملون أبنائهم كمعاملة آبائهم لهم ، وبذلك فهم يتقمصون نفس الأسلوب السابق عليهم سواء كان هذا الأسلوب شديداً أو ضعيفاً(١٥) .

ب ـ استعمال القسوة والشدة مع الأطفال :

إن استعمال القسوة مع الأطفال من قبل الوالدين يضر ضرراً كبيراً بالطفل ، وهذا قد يخلق من الطفل إنساناً غير سوي ـ منحرفاً ـ ولربما قد تنقلب هذه القسوة على الوالدين من قبل الحدث نفسه ، إذا ما نشأ تنشئة خاطئة بين أحضان أسرته وبالتالي يؤول بالحدث إلى الانحراف نتيجة لذلك . لا سيما إذا ما مر بظروف عائلية قاسية من جهة وبظروف اقتصادية ونفسية وعضوية من جهة أخرى .

فاستعمال القسوة والشدة من قبل الوالدين على أطفالهم يطرأ نتيجة تمسك الوالدين بالعادات والتقاليد القديمة ، أضف إلى ذلك عدم تفرقتهم بين الصالح والطالح مما تجعل الطفل خارجاً عن الطريق السوي ، بسبب الضغط الذي يستعمل الوالدين تجاهه ، كما أن بعض الآباء الذين تعودوا على تعاطي المشروبات الكحولية والأخير أودى بهم إلى فقدان السيطرة على أنفسهم وهذا كله ينعكس على الحدث نفسه مما قد يؤول به إلى الهاوية .

جـ ـ إهمال الأطفال وعدم توجيههم وقيادتهم قيادة سليمة : ـ

إن عدم الاهتمام بالحدث يعتبر من الأسباب لحدوث المشاكل له ، والتي قد تصل به إلى الانحراف ، حيث أننا يمكن أن نشبه الطفل أو

الحدث بالنبتة اليانعة فإذا ما سقيت وعرضت لظروف ملائمة نمت وزهت نمواً سليماً ، والعكس هو الصحيح في حالة عدم العناية بها . إن هذا الاعتناء والتوجيه للطفل ينبع من الاسرة التي ترعرع ونشأ فيها منذ نعومة أظفاره بالاضافة إلى الظروف الاخرى التي أحاطت به وشاركت في تربيته بحيث جعلته مواطناً صالحاً وقادراً على تحمل أعباء المسؤولية الملقاة على عاتقه من قبل المجتمع . وكنتيجة لذلك إن الطفل تبعاً للظروف التي يتعرض لها ويمر بها ، كنقص الاشراف العائلي والاهمال من قبل الوالدين الذي قد يكون نتيجة لعوامل مختلفة سواء كانت نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية يتأثر بها تأثيراً كبيراً مما تجعل تكوينه مضطرباً نفسياً ، فهو حين يهمل في المنزل نراه يخرج منه وهنا تبدأ نقطة الانطلاق حيث المغامرات مع رفاق السوء أو المارقين ، وهكذا نجد أن شخصية الحدث المهمل تظهر عليه علامات غريبة مما تجعله انساناً عدائياً يحاول أن يحطم ويكسر كل القيود التي تقف حائلاً أمامه[١٦] .

أسباب التنشئة الاجتماعية الخاطئة

أ ـ جهل العائلة بأساليب وفنون التنشئة الاجتماعية الجيدة بسبب انخفاض مستواها الثقافي والتعليمي وانتمائها إلى الشرائح الاجتماعية الواطئة .

فالمستوى الثقافي للوالدين له أثره الكبير على الأطفال كما أن المستوى التعليمي لهم له نفس التأثير السابق ، حيث أن ذلك يجعل الوالدان يقومان بتربية أبنائهم وفق ما تعلموه من أسلافهم تبعاً للعادات والتقاليد القديمة ، والتي تؤثر بدورها على سلوك الحدث من حيث يشعر أو لا يشعر حتى تجعله يقوم بأفعال وقوال لا تتفق والتنشئة الاجتماعية السليمة ، أضف إلى ذلك أنه لا يقدر المسؤولية . وبالاضافة إلى كل ما تقدم فإن ثقافة وتعليم الوالدين قد يتعارض مع ثقافة وتعليم أبنائهم في الوقت الحاضر ، وهذا ما يؤدي إلى اتجاه كل منهما باتجاه معاكس .

ب ـ تفكك الأسرة نتيجة موت أحد الوالدين أو كليهما أو نتيجة الطلاق أو الهجر أو الانفصال أو المرض أو كون العائلة عائلة القشر الفارغ * (EMPTY SHELL FAMILY) .

كل هذه العوامل المذكورة أعلاه تؤدي إلى انحلال الأسرة اجتماعياً وعاطفياً . مما تجعل الطفل سائباً وبعيداً عن الرعاية العائلية ، فعائلة القشر الفارغ التي تحاول أن تجعل لها كياناً ووجوداً من الناحية التقليدية ، إلا أن التجاوب والتجاذب العاطفي الذي يربط كل من الزوج والزوجة يكاد يكون جافاً ، الأمر الذي ينتج في تنسخ العلاقات الأسرية في العائلة .

وهذا الجفاف ينعكس على الحدث ويؤدي به إلى الانحراف . هذا من ناحية عائلة القشر الفارغ . أما من ناحية موت أحد الوالدين أو كليهما ، أو الطلاق أو الهجر ، أو الانفصال هي عوامل أخرى تؤدي إلى تفكك الأسرة مما تجعل الحدث يخرج عن طوره الطبيعي (NORMAL) بسبب العوامل المهددة للكيان العائلي فيصبح الحدث غير طبيعي[١٨] (ABNORMAL) ولذلك فقد شرعت الدولة قانون الرعاية الاجتماعية كصيغة مبدئية لاستيعاب حاجة الأسرة والاحاطة بمجمل ظروفها وطبيعة حياتها الراهنة بغية دعمها وتطويرها . كما أكد القانون أيضاً في مادته الخامسة (إن الهدف الأساسي لضمان الأسرة صيانة كرامة الانسان وتفادي الآثار السلبية على الأسرة وأولادها حاضراً ومستقبلاً) .

وقد تناولت المادتين العاشرة والحادية عشرة من القانون نفسه حالات الدعم المادي ولمعنوي للأسرة حفاظاً عليها من الانهيار والانحراف[١٩] .

جـ ـ سوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية للعائلة :

تعتبر الظروف الاقتصادية والاجتماعية من أهم العوامل التي تؤدي بالحدث إلى الانحراف ، ويجدر بالاشارة هنا بأن هذين العاملين مترابطان تماماً حيث لا يمكن عزل أحدهما عن الآخر ، ولكننا هنا ولاغراض البحث سنقوم بدراسة هذين العاملين كل على حدة .

١ ـ الظروف الاقتصادية :

نعني بالظروف الاقتصادية هنا المستوى المعاشي للعائلة ومدى قدرته على تلبية كافة متطلبات الأسرة الضرورية والأساسية

اللازمة لمعيشتها ، ولذلك فإنها تعتبر من أكثر العوامل قوة في التأثير على الحدث .

إن الحالة المعاشية لعائلة الحدث تجعله يتجه إلى السرقة ، أما من أجل تلبية مطالبه الشخصية أو أن يسرق من أجل مساعدة عائلته لسد نفقات معيشتها حيث أن البعض يفضل الطرق السهلة غير الشرعية على الطرق الصعبة المتعبة التي يسلكها بشرف وعز، ولهذا علاقة بأسلوب تنشئته حيث أن لانخفاض القوة الشرائية للعائلة دخل كبير على حمل الحدث إلى السرقة ، أما إذا كانت القوة الشرائية عالية ، فمعنى ذلك أننا قطعنا دابر السرقة بصورة تدريجية حتى نصل إلى إزالتها من مجتمعنا ، وهنا تلعب التنمية الاقتصادية التي ينتهجها البلد دوراً كبيراً حيث أنها تؤدي إلى توفير فرص العمل وبالتالي زيادة دخل المواطنين . ومن الجدير بالملاحظة أن قطرنا العراقي بدأ يهتم بالتنمية الشاملة التي تعني استثمار كافة الموارد الاقتصادية في القطر وزيادتها إلى أقصى حد ممكن من أجل الجماهير وقد ظهر هذا من خلال تطوير قوي الانتاج وتقدم انتاجية العمل واستخدام كل الامكانيات التقنية الحديثة لبناء اقتصاد وطني متكامل متوازن ومتنوع وقادر على توفير زيادات عالية ومستمرة في مستوى معيشة المواطنين[١٩] .

ويمكن أن نرى ذلك واضحاً عند رجوعنا إلى احصائيات المدرسة الاصلاحية حيث نرى أن عدد حالات السرقة عام ١٩٧٢ كانت ٩٣ حالة ، بينما أصبحت في عام ١٩٨٠ ثلاثة وسبعون حالة أي نقصان عشرون حالة وذلك نتيجة للتنمية السريعة التي ينتميها القطر والتي وفرت وستوفر العمل لكل من يطلبه ، كما أنها شرعت قانون الرعاية الاجتماعية في مواده المذكورة أعلاه ، وذلك من أجل

الدعم المادي والمعنوي للأسرة والحفاظ عليها من الانحراف[٢٠] .

٢ ـ الظروف الاجتماعية :

إن الظروف الاجتماعية لها دور في تفكك العائلة ، وقد يكون دورها أخطر من الظروف الاقتصادية . والظروف الاجتماعية السلبية التي تمر بها العائلة متنوعة منها الزواج غير المتكافىء ، الطلاق ، كثرة عدد الأطفال . . . . . الخ .

وجميع هذه العوامل تجعل الحدث في وضع نفسي عصيب يجعله شاعراً أن البيت أصبح لا يطاق أو أنه غير محبوب من قبل ذويه ، ولذلك فهو يخرج منه إلى الشارع ساعياً للحصول على ما فقده داخل البيت ، وهذا العمل كثيراً ما يقوده إلى الانحراف .

وقد كانت نظرية سذرلاند(SUTHERLAND) والتي تدعى بنظرية (الارتباط المتغير (DIFFERENTAL ASSOCIATION)محاولة لوصف تأثر الأفراد بالبيئة الاجتماعية وما يترتب عليه من اتجاهات إلى السلوك الاجرامي وتفسيره على أنه مكتسب بالتعلم الذي يتم عن طريق مخالطة الآخرين والاتصال بهم وعلى الأخص في نطاق الجماعات ذات الارتباط كالأسرة وجماعات اللعب ، حيث أن الشخص يكتسب من بيئته واتصالاته المختلفة لعناصر هذه البيئة ، آراء وأفكار مختلفة تحبذ السلوك أو تشجع على عدم التزامه . فإذا رجحت كفه الآراء الأخيرة مالت الشخصية إلى ناحية السلوك الاجرامي ، وذكر العالم نفسه بأن هذه الاتصالات أو الارتباطات المختلفة ليست جميعاً في قوة واحد حيث أن قوتها تتراوح على أساس التكرار (FREQUENCY) والاستمرار (DURATION) والأولوية (PRIORITY) والعمق (INTENSITY) ومن هنا نرى مدى أهمية البيئة بشكل عام على الحدث وانعكاسها على شخصيته بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات[٢١] .

بعد دراسة وتحليل أنماط وأسباب التنشئة الاجتماعية الخاطئة وتعرية جوانبها الموضوعية والقاء الأضواء المنيرة على مظاهرها الأساسية التي تؤثر في حياة الأطفال والصغار يجب أن نشير هنا بأن التنشئة الاجتماعية غير السوية يمكن اعتبارها سبباً مهماً من أسباب جنوح الأحداث . فهناك أدلة وبراهين كثيرة تشير بأن الأحداث الجانحين ينحدرون من بيئات اجتماعية وحضارية مفككة ، بيئات تكون فيها التربية اجتماعية ناقصة ومتحللة . بينما الأحداث غير الجانحين ينتمون إلى بيئات اجتماعية إيجابية تكون فيها أساليب وصيغة التنشئة الاجتماعية سليمة وبناءة . اذن تلعب التنشئة الاجتماعية سواء كانت سوية أو غير سوية دوراً متميزاً في تحديد نوعية الأحداث في المجتمع من حيث سلوكهم وأخلاقيتهم وعلاقاتهم . ويمكن أن نطلع هنا عن مظاهر جنوح الأحداث كما تحددها التربية الاجتماعية والعوامل الحضارية الأخرى التي أشرنا إليها سابقاً .

مظاهر جنوح الأحداث في العراق

لا يمكن دراسة ظاهرة جنوح الأحداث ومعرفة أسبابها ونتائجها السلبية بالنسبة للعائلة والمجتمع دون معرفة الأشكال والأنماط السلوكية الاجرامية التي تتخذها هذه الظاهرة بعد قيام بعض الأطفال الجانحين بالسلوك الاجرامي ، الذي يجلب الضرر والأذى للآخرين ، ومن ثم يعرض المجتمع إلى مشكلات وتناقضات متباينة مما تعرقل عملية ومسيرة تقدمه الاجتماعي والحضاري ، وتشخيص الأنماط السلوكية المنحرفة التي يرتكبها الأطفال الجانحون ومعرفة درجة خطورتها ومقدار الضرر الذي يجلبه للمجتمع يساعدنا على محاربتها والتصدي لها من خلال معالجة مسبباتها والعوامل التي تؤثر فيها معالجة موضوعية .

واستناداً إلى البحث الميداني الذي قام به الدكتور احسان محمد الحسن والذي شخص من خلاله أنماط جنوح الأحداث وذلك بعد المقابلات الميدانية التي أجراها مع (١٦٠) جانح في المدرسة الاصلاحية ، ومحاكم الأحداث في محافظة بغداد وأنماط جنوح الأحداث التي توصل إليها الباحث من خلال زياراته الميدانية ، يمكن أن ندرجها حسب أهميتها على النحو التالي :

١ ـ السرقات

٢ ـ الجرائم الأخلاقية

٣ ـ القتل ومحاولات القتل

٤ ـ اللعب في الطرقات والأزقة ومضايقة أبناء المجتمع المحلي

٥ ـ المنازعات

هذا ومن الجدير بالملاحظة أن نشير إلى جدول احصائي نوضح فيه عدد الأطفال الجانحين الذين ارتكبوها ، والجدول أدناه يبين التسلسل المرتبي والنسب المئوية ، ومن ثم سوف نشرح كل نقطة من النقاط الخمسة :

« جدول يمثل الأنماط السلوكية الاجرامية التي ارتكبها الأحداث الجانحون »

الرقم	الجرائم والمخالفات التي ارتكبها الأحداث الجانحون	العدد	النسبة المئوية	التسلسل المرتبي
١	السرقات	٧٣	٤٦ ٪	١
٢	الجرائم الأخلاقية	٣٤	٢١ ٪	٢
٣	القتل ومحاولات القتل	٢٨	١٨ ٪	٣
٤	اللعب في الطرق والأزقة ومضايقة أبناء المجتمع المحلي	١٣	٨ ٪	٤
٥	المنازعات	١٢	٧ ٪	٥
	المجموع	١٦٠	١٠٠ ٪	

أ ــ السرقات :

تعتبر السرقات من أخطر المظاهر الاجرامية من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية بالنسبة للأحداث الجانحين التي تعترضهم ظروف عائلية قاسية مما تدفعهم للجوء إلى ارتكاب العمل الرديء . والذي يعزى سببه الأول للعائلة نفسها ، والأخيرة هي العامل المؤثر في تطبيع الحدث على القيام بالسرقة ، وهذه على أنواع مختلفة بعضها بسيط كالتقاط بعض الحاجيات الصغيرة من المخازن (SHOP LKFTING) وبعضها خطير مثل كسر اقفال المحلات الصغيرة منها والكبيرة ، ثم التسلل إليها ، وكذا المساكن من أجل سرقة النقود أو الحلى ، وما إلى ذلك من المواد الثمينة سواء كانت صغيرة أو كبيرة .

هذا ومما لا يخفى أن الحدث الذي يقوم بسرقة شيء ما قد تكون عائلته على علم بذلك ، فهو إما أن يقوم بالسرقة لوحده أو مع مجموعة من رفاق السوء الذين يختلط معهم وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن العائلة هي المسؤولة عن جرائم ابنائها اضافة إلى الأسباب الأخرى المؤدية إلى الجريمة والجنوح .

٢ ـ الجرائم والمخالفات الأخلاقية :

إن ظاهرة الجريمة التي يرتكبها الحدث تكون على أشكال مختلفة كلعب القمار ، وتناول المشروبات الكحولية ، وممارسة اللواط ، واغتصاب الفتيات . . . الخ . فالحدث الجانح وإن كان عنده استعداداً على القيام بالجريمة لوحده ، إلا أن هذا الاستعداد يكاد يكون ضعيفاً ، فهو يشارك مع الآخرين كرفاق السوء سواء كان هؤلاء الرفاق تلامذة معه أو جماعة في المحيط الذي يعيش هو فيه ، فيلتف حولهم ويشجعونه ويشجعهم على ارتكاب هذه الجرائم ، هذا ومن الجدير بالذكر فإن أغلب الأحداث الجانحين ينحدرون من عوائل مفككة ، وعوائل القشر الفارغ (EMPTY SHELL FAMILY) .

٣ ـ القتل ومحاولات القتل :

جريمة القتل ومحاولات القتل تأتي في المرتبة الثالثة بعد السرقة ، والجرائم الخلقية وإن معظم عمليات القتل التي ينفذها الأحداث الجانحون لم تكن جماعية وإنما كانت فردية ، هذا وقد أثبتت الدراسات والبحوث النفسية إلى أن مرتكبي جريمة القتل هم مصابون بعقد وأمراض نفسية وعقلية ، وذلك بسبب سوء تربيتهم العائلية وتنشئتهم الاجتماعية[٢٢] .

٤ ـ اللعب في الطرق والأزقة ومضايقة أبناء المجتمع المحلي :

في الواقع أن مثل هذه الظاهرة ، والتي يمكن اعتبارها من المظاهر المنتشرة ، إلا أنها من الناحية المعنوية تؤذي أبناء المجتمع المحلي بصورة خاصة ، ولو أنها لا يمكن اعتبارها من الأفعال الاجرامية بيد أنها بحد ذاتها تقلق راحة بال أبناء المنطقة ، وبناء على هذا يتوجب من الجهات المسؤولة أن تهيىء لمثل هؤلاء الأحداث الساحات والمسابح والمتنزهات العامة[٢٣] . فإذا ما قامت الجهات

المسؤولة بهذا الواجب فكأنما قد ساهمت وتعاونت في دفع المضايقات عن كاهل أبناء المجتمع المحلي ، وبالتالي ساعدت للأخذ بيد هؤلاء الأحداث الجانحون .

٥ ـ المنازعات :

تعتبر هذه الظاهرة من المخالفات الشائعة التي يقوم بها الأحداث الجانحون ، وهذه المنازعات غالباً ما تحدث في الأحياء السكنية الفقيرة ، وذلك بسبب جهل العائلة وسوء تربيتها ، وكذلك التنشئة الاجتماعية التي تكون المؤثر القوي في تطبيع الحدث للدفع به للتشاجر والمنازعات مع رفاقه ، وهذه المنازعات إذا ما عولجت معالجة سليمة من قبل العائلة والجهات المسؤولة ، فسوف تؤدي بالحدث إلى الهاوية وهذا ما يضر بالحدث نفسه بصورة خاصة ، والمجتمع بصورة عامة .

(١) معجم علم الاجتماع : ترجمة الدكتور احسان محمد الحسن : دار الرشيد للطباعة والنشر بغداد سنة ١٩٨٠ ص ٣٢٨ .

(٢) معجم العلوم الاجتماعية : الدكتور ابراهيم مدكور : مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥ ص ١٨٥ .

(3) HARRY M. JOHNSON "SOCIOLOGY" A SYSTEMATIC INTRODUCTION ROUTLEDGE AND KEGAN POUL LTD. LONDON 1968, PP. 122 / 123.

(4) IBIB. P. 14.

(5) LEONAR BROOM AND P. SEIZNICK, "SOCIOLOGY" (NEW YORK:HARPER AND ROW 1968) P. 84.

(٦) نص المادة الأولى عن قانون الأحداث في العراق : فاضل الخطيب حاكم محكمة الأحداث (جنوح الأحداث بين النصوص القانونية والمؤسسات العلاجية : مجلة ألف باء العدد ٤٩٨ السنة العاشرة ٥ نيسان ١٩٧٨ ص ١٧ .

(٧) أنور محمد الشرقاوي : إنحراف الأحداث ـ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٧ ص ٩٨.

(٨) نفس المصدر أعلاه ص ١٦ وهو نص المادة الأولى من قانون الأحداث في العراق.

(٩) معجم العلوم الاجتماعية ـ مراجعة ابراهيم مدكور الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٥ ص ٢١٤ .

(10) SHELDON AND ELEANOR T. GLUECK: UNRAVELING JUVENILE DELINQUENCY (NEW YORK : THE COMMON WEALTH FUNO. 1950) P. 13.

(١١) د. محمد عارف : الجريمة في المجتمع ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ مكتبة الانجلو مصرية ص ١٦ .

(١٢) د. أحمد محمد خليفة : أصول علم الاجرام الاجتماعي ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة سنة ١٩٥٥ ص ١٣٠ .

(١٣) الفقرة الثانية من المادة الأولى من قانون الأحداث المرقم ٦٤ سنة ١٩٧٢ المنشورة في الجريدة الوقائع العراقية التي تصدرها وزارة العدل عدد ٢١٥٣ في ١٧ حزيران ١٩٧٢ .

(١٤) المكتب الدولي العربي لمكافحة الجريمة ـ جنوح الأحداث في الدول العربية سنة ١٩٧٢ . ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(١٥) د. محمد علي حسن : علاقة الوالدين بالطفل وأثرها في جناح الأحداث سنة ١٩٧٠ ملتزمة الطبع والنشر مكتبة الانجلو المصرية ص ٢٠٦ ـ ٢٠٩ .

(١٦) د. احسان محمد الحسن : أثر التفكك العائلي في جنوح الأحداث لسنة ١٩٨٠ ص ٧ ـ ١٢ .

(١٧) نعني بعائلة القشر الفارغ : هي العائلة التي تكون العلاقة العاطفية الطبيعية فيها ضعيفة بين كل من الزوج والزوجة وهي في نفس الوقت لا تريد هدم كيانها الشكلي الاجتماعي فتبقى عائمة وكأنها البيضة الخالية من صفارها.

(17) GOODE, W.. " FAMILY DISORGANIZATION " P. 392.

(١٨) محمد بكر حازم اسماعيل : انحراف الأحداث وعلاقته بالأسرة ـ مجلة المرأة ـ العدد ١٢٩ تاريخ ١٥ آب سنة ١٩٨٠ ص ٩ .

(١٩) مفاهيم اقتصادية وزارة الثقافة والاعلام ـ دائرة الاعلام الداخلي ، السلسلة الاقتصادية رقم ٦ الجمهورية العراقية سنة ١٩٨٠ ص ١١ ـ ١٢ .

(٢٠) د. احسان محمد الحسن : (اثر التفكك العائلي في جنوح الأحداث في العراق) ١٩٨٠ ص ١٦ ـ ١٨ .

(٢١)د. أنور محمد الشرقاوي (الانحراف الأحداث) دار الثقافة للطبع والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٧٧ ص ٨٧ ـ ٨٨ .

(22) MILLER W. LOWER - CLASS CULTURE AS GENERATING OF GANG AN ARTICLE WRITTEN IN COMPARATIVE SOCIAL PROBLEMS EDITED BY S. EISENSTADT, (NEY YORK, 1966), P. 152.

(٢٣) د. احسان محمد الحسن : (اثر التفكك العائلي ي جنوح الأحداث سنة ١٩٨٠ ص ١٤ ـ ١٦ .

من ص ١٢٤ ـ ١٢٩ الثورة والتنمية

والحواشي من ص ١٢٤ ـ ١٤٨